أدب سجون

دونالد لاوري

حيَاتي خَلفَ القُضبَانْ



ترجمة وتقديم

دعاء النَّوى

إهداء لـ ..

أزرق

من يملء

السماء .. البحر .. وجميل العيون

أزرق

من يحمل

الأمل .. الطموح .. والحب

اكسر كل قيد وامض ..



حياتي خلف القضبان

حياتي خلف القضبان

دونالد لاوري

ترجمة وتقديم: دعاء النَّوى



دونالد لاوري

مكتبة|1343

حياتي خلف القضبان

ترجمة وتقديم
دعاء النّوى



www.daralrafidain.com

المقدِّمة

أحدثَ هذا الكتاب الذي صدر لأوَّل مرَّةٍ عام 1912م ثورةً كبيرةً في المجتمع الأمريكيِّ آنذاك، قالبًا موازين القوانين المطبَّقة في السُّجون الحكوميَّة، ومُشعِلًا أوَّل فتيلٍ نحو المطالبة بإلغاء عقوبة الإعدام ومنع استخدام وسائل التَّعذيب في السُّجون، ففيه تحدَّث الصَّحفيُّ والسَّجين السَّابق (دونالد لوري) لأوَّل مرَّةٍ بصوت جميع السُّجناء الذين عانوا الظُّلم والاضطهاد طوال فترة سجنهم، وأورد في هذا الكتاب العديد من القصص والوقائع التي حدثت بالفعل وكان شاهدًا عليها أو حاضرًا خلال حدوثها في سجن سان كوينتن في ولاية كاليفورنيا.

عانى دونالد لوري الفقر في شبابه، وبعد أن فشل في الحصول على عملٍ يتعيَّش منه، أصبح متسوِّلًا في الشَّوارع دون بيتٍ أو أصدقاء، واضطرَّه الجوع إلى اتِّخاذ أكثر الطُّرق انحرافًا عمَّا يرتضيه ضميره، فوجد نفسه في أحد المنازل يحاول سرقة ما يمكنه الحصول عليه، ونجح في الحصول على ساعةٍ ثمينةٍ وبضعة دولارات، ولكن في اليوم التَّالي كُشف أمره وأُلقي القبض عليه، وحُكم عليه بالسَّجن خمسة عشر عامًا في سجن سان كوينتن.

«هل سبق لك أن كنت مفلسًا؟ هل سبق لك أن كنت جائعًا وبائسًا لا تعرف متى ولا إلى أين ستذهب لتتناول وجبتك التَّالية، ولا في أيِّ مكانٍ ستقضي ليلتك القادمة؟ هل سبق لك أن أحدثت ثقوبًا في حذائك في محاولةٍ بائسةٍ ومذلَّةٍ للحصول على عمل، فلم تلقَ سوى الصَّدِّ والشَّتائم لقاءَ حصولك على

صدقتك؟ هل صُدمت يومًا عندما لم يفهم الأشخاص الذين توسَّلت إليهم سبب بكائك أمامهم طلبًا للشَّفقة؟ هل شعرت يومًا بأنَّ العالم كلَّه قد اتَّحد ضدَّك وأنَّ الطَّبيعة قد ارتكبت خطأً في إخراجك إلى الحياة؟ إن كنتَ لم تشعر بكلِّ هذه الأمور فمن الصَّعب عليك أن تتصالح مع أيِّ فكرةٍ للتَّخفيف ممَّا حدث. لقد شعر آلاف الأشخاص بهذه الأفكار، وعانى كثيرون التَّجارب نفسها، ولكن قلَّةٌ منهم فحسب سلكوا الطَّريق الذي سلكته، والقليل من هؤلاء القلَّة تحدَّثوا عمَّا خاضوه من تجارب مثلما سأفعل أنا في هذا الكتاب».

واجه دونالد العديد من المصاعب خلال فترة سجنه، وعاصر الكثير من الأحداث والقضايا الإنسانيَّة المؤلمة، ورأى بعينه الظُّلم الواقع على السُّجناء بدءًا من زنزانة نومهم وطعامهم، وصولًا إلى عملهم المجهِد، والإهانات التي كانت تنالهم، والعقاب المرير إذا ما تجاوز أحدٌ منهم قوانين السِّجن أو أخلَّ بتطبيقها.

يُدخلنا دونالد عالَمَ السُّجون المظلمة، ويستعرض أدقَّ التَّفاصيل التي تحمل القارئ على تخيُّل الواقع الذي كان يعانيه كلَّ يوم، وينتقد بشدَّةٍ قوانين النِّظام التَّعسفيِّ التي تسلب السَّجينَ إنسانيَّته وتحوِّله إلى كائنٍ ضعيفٍ مسلوب الإرادة ولا يعود بالنَّفع على المجتمع بعد خروجه من السِّجن: «*أنَّني أعلم يقينًا أنَّ تعزيز مبدأ الانحطاط والانتقام بهدف تحقيق العدالة سيخلق سجينًا محرومًا ليس من حرِّيَّته فحسب، بل من طبيعته الخيِّرة أيضًا، ومن أيِّ شعورٍ فطريٍّ بالأخلاق التي كان يمتلكها*».

ومع أنَّ الكتاب يصنَّف في باب السِّيرة الذَّاتيَّة وأدب السُّجون، إلَّا أنَّه مكتوبٌ بأسلوبٍ قصصيٍّ مليءٍ بالحوار والتَّفاعل المباشر مع القارئ، ويرى الكاتب نفسه مسؤولًا عن إيصال صوت السُّجناء إلى جميع فئات المجتمع حتى يحقِّق أكبر تضامنٍ ممكنٍ مع قضاياهم. وقد تطرَّق إلى عددٍ من النِّقاط المحوريَّة أهمُّها قانون العفو المشروط، وعقاب التَّعذيب بـ (السُّترة)، وهو

عقابٌ قديمٌ يُقيَّد بموجبه جسدُ السَّجين بسترةٍ بيضاء ضيِّقةٍ لا يمكنه فيها الحركة أو التَّنفُّس بسهولة، ومسألة العمل بلا أجرٍ في السِّجن طوال فترة محكوميَّة السَّجين، كما أنَّه يخصِّص فصلًا كاملًا للحديث عن سجن النِّساء وكيف أنَّه يعاني ظروفًا أصعب من السُّجون المخصَّصة للرِّجال.

ينطلق دونالد في كتابه من مبادئ إنسانيَّةٍ وتقدُّميَّةٍ، وهو يرفض مبدأ العقاب لأجل العقاب، انطلاقًا من نظرته إلى السِّجن كمؤسَّسةٍ إصلاحيَّةٍ من الدَّرجة الأولى تهدف إلى صناعة رجالٍ صالحين ومفيدين للمجتمع، ولم يغفل الكاتب عن الإشادة ببعض الأشخاص الذين عملوا على تطبيق روح العدالة والإنسانيَّة في السِّجن، في الوقت الذي كان يندِّد فيه بالكثير من الأفعال السَّيِّئة التي أودت بحياة العديد من السُّجناء.

الفصل الأوَّل

كنت مفلسًا. ثلاثة أيَّامٍ لم أذق طعم الزَّاد، وثلاث ليالٍ سرت هائمًا في الشَّوارع.

كلُّ ما في كياني وكلُّ ما نشأت عليه ثارَ معارضًا ذلَّ السُّؤال. كنت أراقب كلَّ من حولي وهم ينفقون أموالهم على التَّفاهات والكماليَّات. حتى ذلك الأشعث الأغبر، بائع الصُّحف، كنت أحسده وهو يأخذ النِّكلة مقابل الصَّحيفة ويمضي سريعًا ليبيع صحفه لمزيدٍ من المارَّة القادمين. ولكنَّني كنت في قمَّة الإفلاس والبؤس، ولم يكن لديَّ ما أبيعه وأستجدي رزقي منه.

هل سبق لك أن كنت مفلسًا؟

هل سبق لك أن كنت جائعًا وبائسًا لا تعرف متى ولا إلى أين ستذهب لتتناول وجبتك التَّالية، ولا في أيِّ مكانٍ ستقضي ليلتك القادمة؟

هل سبق لك أن أحدثت ثقوبًا في حذائك في محاولةٍ بائسةٍ ومذلَّةٍ للحصول على عمل، فلم تلقَ سوى الصَّدِّ والشَّتائم لقاءَ حصولك على صدقتك؟

هل صُدمت يومًا عندما لم يفهم الأشخاص الذين توسَّلت إليهم سبب بكائك أمامهم طلبًا للشَّفقة؟

هل شعرت يومًا بأنَّ العالم كلَّه قد اتَّحد ضدَّك وأنَّ الطَّبيعة قد ارتكبت خطأً في إخراجك إلى الحياة؟

إن كنتَ لم تشعر بكلِّ هذه الأمور فمن الصَّعب عليك أن تتصالح مع أيِّ فكرةٍ للتَّخفيف ممَّا حدث. لقد شعر آلاف الأشخاص بهذه الأفكار، وعانى

كثيرون التَّجارب نفسها، ولكن قلَّةٌ منهم فحسب سلكوا الطَّريق الذي سلكته، والقليل من هؤلاء القلَّة تحدَّثوا عمَّا خاضوه من تجارب مثلما سأفعل أنا في هذا الكتاب.

قليلةٌ هي الجرائم التي ارتكبت بناءً على اختيار أصحابها، وليس هناك سوى عددٍ قليلٍ من المجرمين المحترفين، عددٍ قليلٍ بشكلٍ مثيرٍ للدَّهشة، مقارنةً بعدد المجرمين الذين لم يختاروا المضيَّ في ذلك الطَّريق. ولكنَّ المجتمع لا يميِّز ذلك، فالرَّجل الذي يسرق لأنَّه يتضوَّر جوعًا ويأنف من التَّسوُّل في الوقت نفسه، يتساوى في نظر المجتمع مع المجرم الذي يداهمك في منتصف اللَّيل ويبتزُّك بمسدَّس من عيار 44 يصوِّبه إلى أقرب بقعةٍ من دماغك بينما يتركك تستمع إلى خشخشة النُّقود في جيبه، ويذهب بنقودك منتصرًا بابتزازه المريع لك.

الأوَّل إنسانٌ سيِّئ الحظِّ، وجد نفسه مدفوعًا إلى فعل شيءٍ يكرهه، أمَّا الآخر فمجرمٌ قادمٌ من عصاباتٍ منظَّمةٍ وخطرةٍ على البشريَّة.

بالنِّسبة إليَّ، كنت أنتمي إلى الطَّبقة غير المحترفة من اللُّصوص، ومع أنَّني قضيت فترةً طويلةً في السِّجن، إلَّا أنَّني لم أصبح مجرمًا، فكلُّ ذرَّةٍ في جسدي، وكلُّ خاطرةٍ تمرُّ في ذهني كانت تتمرَّد على تقبُّل فكرة الجريمة، ولكنَّني مع ذلك جنحت إلى السَّرقة، كما أنَّني أميل إلى التَّعاطف الرَّحيم مع غيري من الأشخاص الذين ارتكبوا جرائم السَّرقة أو غيرها من الجرائم، بغضِّ النَّظر عن هويَّتهم. أرجو ألَّا تسيء فهمي، فأنا لست ممَّن يسعون إلى تعظيم صورة الخارجين عن القانون، فأنا بعيدٌ كلَّ البعد عن ذلك، ولكنَّني أعلم أنَّ جميع الرِّجال بشر، حتى أولئك الذين حُلِقت رؤوسهم وارتدوا ملابس السُّجناء المدانين، ولم لا أعلم ذلك؟ ألم أكن واحدًا منهم ذات يوم؟ ألم أنتهك قدسيَّة المنازل في ظلام اللَّيل الحالك؟ ألم أقض سنواتٍ طويلةً في السِّجن؟ من يعلم ذلك أكثر منِّي؟

عندما أنظر إلى الوراء أتساءل عن الإنجازات التي تحقَّقت طوال فترة محكوميَّتي.

ربَّما تتكشَّف لك من خلال ما سيُعرَض أمامك من صفحاتِ الإنجازاتُ التي تحقَّقت على صعيديَ الخاصّ، ولكن ماذا عمَّا تمَّ إنجازه في آلاف الحالات الأخرى التي لم يُكشف عنها النِّقاب بعد؟ ربَّما لا يهمُّك أن تعرف ذلك، أو ربَّما كان الموضوع لا يعنيك طالما أنَّك تدفع الضَّرائب مقابل حصولك على الحماية، وطالما أنَّك غير مسؤولٍ عن أخطاء الآخرين وأوجه القصور في النِّظام اللَّاإنسانيّ واللَّامنطقيِّ الذي يعزِّز من انتهاك أرسخ القوانين الوضعيَّة.

أيًّا كان الأمر، فأنت ما تزال مسؤولًا، وما تزال غير محميٍّ.

كنت مفلسًا وبائسًا تمامًا؛ صحيحٌ أنَّه كان هناك آلافٌ مؤلَّفةٌ من الأشخاص الذين يعانون البؤس التَّامَّ ـ أُدرك هذا جيِّدًا ـ ولكنَّني كنت وحدي، ولم يكن هناك أحدٌ غيري لينقذني، فأنا هو ذلك الشَّخص الذي كان لديه ثقبٌ في جيبه. إيَّاك أن تزدري قرشًا ملقًى على الأرض، فربَّما تقع عليه يد امرأةٍ أو رجلٍ يتضوَّر جوعًا، ويردعه عن آخر فكرة إجرامٍ أو انتحار.

كان الوقت يقترب من منتصف اللَّيل، وكان احتمال قضاء ليلةٍ أخرى في الشَّارع يتضاءل تدريجيًّا مع كلِّ لحظةٍ تمضي. بطريقةٍ ما شعرت بأنَّ هناك شيئًا ما سيحدث ليحدَّ من رغبتي الملحَّة في البكاء. كنت أتحامل على نفسي التي لم تذق طعم النَّوم أو تتناول أكثر من ثلاثة أرغفةٍ من الخبز وأمنِّيها بأنَّ شيئًا ما سيحدث.

ضع نفسك في مكاني، ماذا كنت ستفعل؟

فجأةً، وتحت تأثير ألمٍ جسديٍّ غير متوقَّعٍ، خطر لي أنَّ آمالي كانت مجرَّد وهمٍ، وأنَّني يجب أن أفعل شيئًا بنفسي.

لقد بذلت كلَّ الجهود الممكنة التي تنسجم مع طبيعتي الشَّخصيَّة وقدراتي البدنيَّة لأحصل على عمل، ومررت بجانب أكشاك عرض المنتجات على أمل أن تكون أيدي الباعة المهملة قد أسقطت سهوًا تفَّاحةً أو حبَّة بطاطا نيِّئة.

ولكنَّ الوقت كان قد حان لأقوم بفعل شيءٍ ما.

ماذا عساي أن أفعل؟

جاء الانتحار كاشفًا ملامحه البشعة أمامي، ووجدت نفسي أمام صورةٍ حيَّةٍ للجسر والمياه الموحلة التي تحته وهي تقترب من الوجه البشريِّ المرسوم في الأعلى.

لم أصب بالصَّدمة، ولا بالمفاجأة. كلُّ ما شعرت به هو الخوف. لقد وجدت بين يديَّ حلًّا طبيعيًّا لكلِّ المشاكل، نعم، كان ذلك الحلُّ هو الانتحار. لن تتضوَّر معدة الرَّجل الميِّت من الجوع، فجميع أعضائه ستموت معه، ممتلئةً بالنَّشوة إلى الأبد، إلى الأبد.

تسارعت خطاي بلا وعيٍ، فهذا ما يحدث عندما يتحكَّم عقلك بقرارات جسدك، ووجدت نفسي ألتفت نحو مياه الخليج.

تحسَّست أصابعي قطعةَ النِّيكل المعطوبة في جيبي، وفجأةً خطرت في بالي فكرةٌ جديدةٌ، فتوقَّفت وفكَّرت: «أجل سأترك القرار لقطعة النِّيكل» لم لا؟ لقد كانت مسألة حياةٍ أو موتٍ، أيْ شكلًا من أشكال المقامرة في الجوهر. سآخذ قطعة النِّيكل التي في جيبي، فإذا ظهر وجه (الصُّورة) سلكتُ طريق الإجرام، وإذا ظهر وجه (الكتابة) قفزتُ من فوق الجسر الذي أمامي. نظرت إلى قطعة النِّيكل بلامبالاة، وكأنَّها أمرٌ لا يعنيني. كان الظَّلام حالكًا على نحوٍ لم أتمكَّن فيه من تمييز وجه العملة، فأدركت أنَّني يجب أن أذهب إلى مصباح الإنارة عند زاوية الطَّريق وأقلب العملة هناك، وحين فعلت ذلك، حدَّقت الصُّورة الملكيَّة في وجهي، فرميت العملة في قاع المياه، وزرَّرت معطفي، فقد عرفت عندئذٍ أنَّني يجب أن أصبح مجرمًا.

لماذا كان عليَّ أن أقرِّر أنَّ السَّرقة هي الخيار الوحيد المتبقِّي لدونالد لوري؟

من الصَّعب القول إنَّ السَّرقة ستفتح لي آفاقًا أستطيع من خلالها تلبية احتياجاتي، وبالنَّظر إلى ما قبل سنواتي العجاف رأيت أنَّني كنت مدفوعًا من ذكرى ترسَّخت في ذهني من طفولتي. يومذاك كنَّا قد تركنا باب المنزل مشرعًا من غير قصد، وكان أحد المتسكِّعين اللَّيليِّين قد انتهز هذه الفرصة. استحضرت حادثة الطُّفولة تلك، وأدركت أنَّني سأحاكي ذلك المجهول الذي سرق ساعة والدي لأثبت تلك النَّظريَّة القائلة بأنَّ الإنسان حيوانٌ مجبولٌ على التَّقليد بطبيعته.

بعد ساعتين من توصُّلي إلى ذلك القرار، وجدت نفسي أطوف تحت ظلال شجرةٍ ضخمةٍ مليئةٍ بالجذوع المقسَّمة بدقَّة، وقد استولى عليَّ الشُّعور بالذَّنب. كان يعتريني شعورٌ بأنَّني قد أقدمت على خطوةٍ لا رجعة فيها، خطوةٍ ستسلبني الاحترام والشَّرف. لم تكن لديَّ رغبةٌ في التَّخلِّي عن نيَّتي، ولكنَّني كنت أدرك في قرارة نفسي أنَّ فعل التَّسوُّل أشرف من فعل السَّرقة، لكنَّ شعوري بالمهانة الذَّاتيَّة كان أهون عليَّ من أن أكون مهانًا وذليلًا أمام الآخرين، وكنت قد استبعدت احتماليَّة أن يُقبَض عليَّ بالطَّبع، أمَّا بالنِّسبة إلى العقوبة فإنَّها لم تخطر ببالي البتَّة، فهي ما كانت لتُحدِث أيَّ فرقٍ لديَّ حتى لو نلتها بالفعل.

مشيت نحو بضعة أحياءٍ أخرى، ووقفت منزويًا في كلِّ زاويةٍ من زوايا الطَّريق متسطلعًا المناطق الغامضة والبعيدة في الحيِّ، ولكنَّ وقتًا طويلًا مرَّ عليَّ قبل أن أستجمع شجاعتي وأنطلق للتَّخفِّي وراء الأعشاب. كان شعورًا مذهلًا للغاية، كما لو أنَّني كنت موجَّهًا بقوًى خارجيَّةٍ، وقد ترسَّخ هذا الشُّعور في داخلي حين وجدت نفسي واقفًا أمام نافذةٍ مرتفعةٍ قليلًا عن سطح الأرض، وقد تواريت عن الأنظار خلف شجرةٍ ممتلئةٍ بالأزهار. بدا الأمر كما لو أنَّ تلك النَّافذة ستكون نقطةً مناسبةً لبدايتي.

بعد فترة انتظارٍ قصيرةٍ قضيتها أقنع نفسي بأنَّني لم أستكشف المكان بأكمله، شرعت في رفع إطار النَّافذة. رفعت النَّافذة بهدوءٍ وببطءٍ بالغين إلى أن توفَّرت لديَّ مساحةٌ كافيةٌ ليدخل منها جسدي. كان رأسي قد دخل بالفعل، ومكثت على تلك الحال أتفحَّص الوضع. توقَّفت عن الحركة بضعَ لحظاتٍ، وأرهفت السَّمع جيِّدًا. لم يكن ثمَّة صوتٌ ليكسر حاجز السُّكون الكئيب. كان صمت العالم العظيم مُطبِقًا لدرجة أنَّني تخيَّلت أنَّ باستطاعتي أن أسمع صوت تدفُّق الدَّم في عروقي. وبعد تمعُّنٍ قليلٍ، دخلت بكامل جسدي إلى المنزل. انبعث ضوءٌ خافتٌ من مصابيح إنارة الشَّارع نحو النَّوافذ الأماميَّة، فمكَّنني ذلك من تمييز غرفة الجلوس التي كنت أقف فيها. بدت آلة البيانو ساحرةً للغاية، هذا غريبٌ، أليس كذلك؟ ولكن بدلًا من الخضوع لسحرها، قمت بأخذ قسطٍ من الرَّاحة، ونعمت بهدوءٍ غامرٍ ملأ نفسي.

جميع قصص اللُّصوص التي قرأتها كانت تُظهِرُ اللِّصَّ يخلع حذاءه ويتفحَّص سلاحه المؤتمن قبل أن يتَّجه إلى المناطق الأكثر تهديدًا في المنزل، ولكنَّني لم أكن أملك سلاحًا، وكنت قد خلعت حذائي قبل تسلُّلي إلى المنزل حتى لا يُصدر صريرًا على الأرض، وتركت خلفي أيضًا المصباح اليدويَّ، والعتلةَ الحديدَ. لم أر أيًّا من الأدوات التي يجب أن أستخدمها في مهنتي، كما أنَّني لم أكن أعرف ماذا سأفعل بها لو كانت في متناول يدي.

بينما كنت أتجوَّل في غرفة الجلوس، لمحت طيف رجلٍ يتحرَّك خارج المنزل، وعرفت بغريزتي أنَّه الحارس اللَّيليُّ لتلك المنطقة، ومنَّيت نفسي بأنَّني قد وصلت في الوقت المناسب. كنت متفاجئًا من هدوئي، والحقيقة أنَّني كنت أقلَّ بؤسًا وخوفًا ممَّا كنت عليه عندما كنت مشرَّدًا في الشَّوارع، وبالطَّبع لم أكن خائفًا من دخول غرفٍ أخرى والبحث عن المال لأنَّني كنت أمنِّي نفسي بأنَّ هناك شيئًا قيِّمًا ينتظرني هناك. أكرِّر، لقد كان عقلي يتحكَّم بأفعال جسدي، لذا نهضت، واتَّبعت نداء عقلي.

حين انتقلت إلى ردهة المنزل، اختبرت لحظةً مروِّعةً جدًّا، لحظةً ما يزال أثرها يغمرني حتى الآن، ففي الوقت الذي تقدَّمت فيه إلى الأمام، شعرت بوجود شخصٍ آخر يمرُّ بجانبي، فتجمَّد الدَّم في عروقي! للحظةٍ شعرت أنَّني فقدت السَّيطرة على حواسِّي من شدَّة الخوف، ولكنَّ ردَّة فعلي كانت سريعةً. عدت إلى الوراء وأطلقت صرخةً مخنوقةً، فعاد الرَّجل معي، ثمَّ اختفى. وقفت مرتجفًا في مكاني، ولكنَّني لم أسمع أيَّ صوت. أسرعت للخروج من النَّافذة، وبينما كنت أتحرَّك لاحظت وهجًا على يميني، وبعد أن أمعنت التَّفكير مرَّةً أخرى، أدركت حقيقة الأمر. كنت خائفًا من انعكاس صورتي في المرآة! وبعد أن تخطَّيت أوَّل لحظةٍ من شعوري بالعار من خوفي، شعرت بالامتنان لأنَّني لم أكن أحمل مسدَّسا، لأنَّ غريزة الدِّفاع عن النَّفس عندي كانت ستكون قويَّةً جدًّا حينذاك، ولو أنَّني كنت لصًّا محترفًا لكنت قد حطَّمت تلك المرآة الصَّالحة والمسالمة بكلِّ تأكيد.

استغرق الأمر عدَّة دقائق حتى استرجعت السَّيطرة على نفسي، ثمَّ صعدت الدَّرج ببطءٍ شديدٍ، والتصقت بالجدار حتى لا تُحدث خطواتي أيَّ جلبةٍ كما حدث في الخطوات الثَّلاث الأولى. تساءلت إن كنت قد فعلت ذلك من قبل، فقد بدا من الغريب أنَّني كنت أعرف تمام المعرفة ما كان يجب عليَّ أن أفعله.

وصلت إلى الطَّابق العلويِّ وتوقَّفت عند بابٍ مفتوح. سمعت صوت تنفُّسٍ بطيءٍ ومنتظمٍ لشخصٍ نائمٍ في الغرفة. مشيت نحو عتبة الباب، وتوقَّفت هناك. كان الظَّلام حالكًا جدًّا، فأرهفت السَّمع جيِّدًا، وسرعان ما حدَّدت نقطة الهدف، نقطةً ناعمةً ولكن مُبهجةً، آلةً صغيرةً تعمل بينما ينعم جميع النَّاس بالنَّوم. قارنت نفسي بالآلة، ألم أكن أعمل أنا أيضًا؟ ألست على وشك أن أواجه عارًا محتملًا وانفصالًا مفاجئًا عن الحياة؟ ألم يكن لديَّ دافعٌ إلى امتلاك كلِّ ما ستقع عليه يداي، حتى لو كانت صرَّةً صغيرةً من ممتلكات

صاحب البيت المحترم؟ بلى! والحقيقة أنّي أصبحت أعدُّ السّاعة شيئًا من ممتلكاتي الخاصّة، شيئًا يخصُّني كأصدقائي.

تقدّمت ثلاث خطواتٍ حذرةٍ حتى وصلت إلى رفّ الملابس، وأخذت أتحسَّس قطع الثّياب إلى أن ظفرت بغنيمتي، ولم تكن تلك الغنيمة هي السّاعة فحسب، بل أيضًا محفظة نقود الرَّجل التي كانت ثقيلةً على نحوٍ مبشّرٍ، وعندما انحنيت وضعت الملابس على الأرض ثمَّ تراجعت ببطءٍ لأخرج من الغرفة، وفي اللَّحظة التي نزلت فيها إلى الطَّابق السُّفليِّ، سمعت صوت ساعة الرَّدهة وهي تعلن الرَّابعة صباحًا، واستمعت إلى صوتٍ بعيدٍ لقعقعة عربة الحليب في الشَّارع المجاور.

كنت في منتصف اللَّيل رجلًا شريفًا، أمّا الآن فقد أصبحت لصًّا خارجًا عن القانون، ولكن لا أحد يعرف ما حدث غيري، ولا ينبغي لأحدٍ أن يعرف. كنت أشعر بالإنصاف لأنّي أقدمت على تلك الخطوة.

وقفت على العشب في الخارج، تحت ظلِّ النَّخلة الفيحاء، وأخذت أفرغ المحفظة لأحصي ما بها من نقود. كانت ثلاث قطعٍ ذهبيَّةٍ من فئة العشرين دولارًا، وبضع قطعٍ فضّيَّةٍ. شعرت بالبهجة ودسستها في جيبي، ثمَّ ألقيت بالمحفظة بعيدًا، وبعد بضع خطواتٍ أصبحت في الشَّارع. ركضت سريعًا لأبتعد عن المكان، وكان رأسي مرفوعًا ومفعمًا بالحماسة.

لقد استعدت حقّي في الحياة.

بعد ساعةٍ، كنت أتناول وجبة الإفطار في وسط المدينة. كانت تلك وجبتي الأولى، وفي الواقع كانت أوَّل طعامٍ يمرُّ على شفتيَّ منذ ثمانٍ وأربعين ساعةً، وفي أثناء قيامي بذلك جلست أفكّر فيما فعلته.

بطريقةٍ ما، شعرت أنَّه يجب أن تكون هناك ردَّة فعلٍ مضادَّةٌ من قبلي، كأن أشعر بالذُّعر من مجرَّد التَّفكير في الجريمة التي ارتكبتها، ولكنَّ مذاق الطَّعام

كان طبيعيًا جدًّا، وكنت أشعر بسعادةٍ غامرةٍ، بل إنَّني رفضت أن أتعاطى مع أيِّ هاجسٍ من هواجس الضَّمير.

بدا، بعد كلِّ شيءٍ، أنَّ المجرم المزعوم ليس مخلوقًا يائسًا ودنيئًا وحقيرًا، ونزلاءُ المطعم لم ينظروا إليَّ بشكلٍ مختلفٍ لأنَّني ارتكبت جريمة سطوٍ قبل ساعة، لماذا؟ لأنَّه لا أحد منهم يعرف ما حدث.

أتساءل كم عدد الأشخاص الذين يمشون في الشَّوارع، ويركبون المواصلات، ويجلسون بجوارنا في المسرح، وهم في الأصل مجرمين لم يُكتشَف أمرُهم، ولم يُلْقَ القبض عليهم، ولا يعرف بأمرهم أحد؟

هل سبق لك أن انتهكت القانون؟ هل سبق لك أن مرَّرت عملةً مزيَّفةً وقعت بين يديك؟ فكما تعرف هذه جريمةٌ يعاقَب عليها بالسَّجن. صحيحٌ أنَّها لا تتساوى مع السَّطو أو السَّرقة أو التَّزوير، ولكنَّها ليست أقلَّ من جريمة.

أنهيت وجبتي، واشتريت سيجارًا بقيمة 25 سنتًا، وهممت بأن أتجوَّل في الشَّارع، دون أن أغفل عن إعطاء النَّادل بقشيشًا. ومع أنَّني كنت مرهقًا وواهنًا في منتصف اللَّيل بسبب قلَّة النَّوم، إلَّا أنَّني آنذاك كنت أشعر بالحيويَّة واليقظة التَّامَّة. بدوت منتشيًا من نجاحي في المغامرة، وشعرت بالفخر لأنَّني عثرت على حلٍّ للمأزق الذي كنت أعيش فيه، وكيف أنَّني خرجت منتصرًا من معركتي.

تحسَّست بأصابعي السَّاعة الموجودة في جيبي، ثمَّ انزويت في زاوية الشَّارع لأتفحَّصها بعناية. لقد تأكَّدت أنَّها ساعةٌ سويسريَّةٌ مرصَّعةٌ بالجواهر من العيار الثَّامن عشر. فكَّرت في نفسي: « لا بدَّ أنَّ قيمة ساعةٍ كهذه لا تقلُّ عن مِائة دولار؛ من الخطر أن أبقيها في حوزتي؛ يجب عليَّ أن أرهنها».

لم تكن الفكرة قد اكتملت في عقلي حتى شرعت بالفعل في تنفيذها. قمت بتثبيت ضابط الوقت خفيةً ودسست السَّاعة في جيب سترتي وشعرت بدوائرها الثَّلاث المألوفة.

بعد أربعِ دقائق، دفعت على مضضٍ أربع قطعٍ ذهبيَّةٍ من فئة العشرين دولارًا لموظَّف مكتب الرَّهن، ووقَّعت باسمي، وفي أثناء ذلك كان الموظَّف يتفحَّصني وينظر إليَّ بتمعُّنٍ شديدٍ بثَّ في نفسي شعورًا بالقلق وعدم الارتياح، ولكن عندما أعدت النَّظر أدركت أنَّه لم يكن قد مضى على عمليَّة السَّطو التي اقترفتها سوى بضع ساعاتٍ قليلةٍ، ومن المستحيل، بأيِّ حالٍ من الأحوال، أن يشكَّ أحدٌ بالخطيئة التي قمت بها، فشعرت بالطُّمأنينة، وقلت للبائع: «فزت بالقمار أكثر من مرَّة».

فأجاب بكلِّ بساطةٍ: «ليس لديَّ أيُّ شكٍّ في ذلك».

لم ألاحظ نبرة السُّخرية المتوعِّدة في صوته آنذاك، ولكنَّني الآن، وبعد عشر سنواتٍ، أشعر بالضِّيق لمجرَّد تذكُّر كلماته.

أذكر أنَّني كنت أتلمَّس طريقي للخروج من المكان، وحاولت الوصول إلى الشَّارع مسرع الخطى، إلَّا أنَّ الرَّغبة في النَّوم غمرتني بشدَّةٍ على نحوٍ مفاجئ، وبدت قدماي محمَّلتَين بالرَّصاص من شدَّة التَّعب. ألقيت نظرةً خاطفةً على المحلَّات من حولي، واكتشفت نزلًا متاحًا للإيجار، فاستدرت لأدخل إليه، وعندما فعلت ذلك شعرت برغبةٍ ملحَّةٍ في الرَّكض، ولكنَّني سرعان ما شعرت بأصفادٍ سوداء تمتدُّ إلى رسغيَّ، وقبل أن أتيقَّن من الأمر كانت الأصفاد قد أُطبِقَتْ على رسغي الأيمن. دائمًا ما يشعر المرء برسغه الأيمن أوَّلًا عندما تكبَّل يداه، ولكن هناك بعض القصص عن رجالٍ عُسرٍ قاموا بإطلاق النَّار على رجال الشُّرطة بيدهم اليسرى الطَّليقة. سمعت صوتًا ممتلئًا بالبهجة يهمس في أذني: «أعتقد أنَّ رئيس الشُّرطة يرغب في رؤيتك».

استدرت بوهنٍ نحوه، فأصبحت أمام وجهٍ ممتلئٍ متورِّد الوجنتين تتوسَّطه عينان رماديَّتان شديدتا الحدَّة، وكان يضع قبَّعته على مؤخِّرة رأسه. حاولت أن أتراجع إلى الوراء، فصرخ في وجهي محذِّرًا: «تعال إلى هنا يا فتى! لا تفتعل المشاكل».

أتساءل إن كان يمكنك أن تعرف شعور التَّغيير المروِّع الذي خنق أنفاسي آنذاك. قبل لحظةٍ كنت رجلًا حرًّا، أمَّا الآن فأنا مجرمٌ مكبَّلٌ بالأصفاد. لم أُبدِ أيَّ مقاومةٍ. استدرت وسرت خلف الشُّرطيِّ الذي قبض عليَّ دون أن أنبس بحرفٍ واحدٍ. لم يعرف أحدٌ سوانا بأمر اعتقالي من شدَّة هدوئي، وعندما وصلنا إلى مقرِّ الشُّرطة، قادني الشُّرطيُّ إلى مكتب الرَّئيس، وحين وصلنا علَّق الشُّرطيُّ وهو ينظر إليَّ: «لقد كان غنيمةً سهلة»، وسرعان ما قام بإزالة الأصفاد من يديَّ، وبدأ بتفتيش جيوبي. لم أنطق بأيِّ كلمةٍ حتى تلك اللَّحظة. كنت أجهد نفسي بالتَّفكير في مخرجٍ أنجو به من هذه الورطة. هل أستمرُّ في الصَّمت وأترك رجال الشُّرطة يجدوا الشَّيء الذي دفعهم إلى اعتقالي؟ أم يجب أن أقول الحقيقة وأتوسَّل إليهم طلبًا للشَّفقة؟ اخترت في النِّهاية أن أحتفظ بخطَّتي الخاصَّة.

سألني رئيس الشُّرطة: «ما اسمك؟».

أجبت على الفور: «إنَّني أتساءل...».

تخيَّل دهشتي عندما أخرج قلمه وغمسه في المحبرة، مقرِّبًا إليه نشَّافة الحبر.

سألني مرَّةً أخرى: «ما اسمك؟ إلام يرمز الحرف (ت)؟».

كرَّرت بإصرارٍ: «إنَّني أتساءل...».

صرخ: «أوه! حسنًا، نحن على حقٍّ، أنت في عداد الموتى الآن، يمكنك أن تمضي وقتك تحت هذا الاسم أو أيِّ اسمٍ آخر، لن يُحدث ذلك أيَّ فرق».

أمسك رئيس الشُّرطة قلمه وكتب في التَّقرير: «إنَّني أتساءل»، ثمَّ سألني بضعة أسئلةٍ أخرى ورفضت الإجابة عليها كلِّها، وقام رجال الشُّرطة بتهديدي بالعواقب الوخيمة التي ستنتج عن عدم تجاوبي مع الرَّئيس، ولكنَّني لم أستسلم، ولم ألقِ لأقوالهم بالًا. كنت أشعر بالإعياء والتَّعب الشَّديد، وفي

النِّهاية، عندما أدرك الرَّئيس أنَّه لا جدوى من إرغامي على الإجابة، كفَّ عن سؤالي، وأمر بإخراجي من مكتبه.

قال لي السَّجَّان قبل أن يزجَّ بي في زنزانةٍ خاليةٍ في القبو: «سوف تتحدَّث قبل أن نرغمك على ذلك». ثمَّ أغلق القضبان الحديديَّة وقال: «سوف تتحدَّث، وكن ممتنًّا لهذه الفرصة».

الفصل الثَّاني

أن تعيش تناقضًا بين أن تكون مخلوقًا حرًّا يسير في الشَّوارع، وأن تكون مجرمًا محتجزًا في زنزانةٍ خانقةٍ لا يصلها الضَّوء ولا تزيد مساحتها عن ستَّة أمتارٍ في أربعة، هو أن تشعر بأنَّك أصبحت في الجانب الآخر من الحياة، جانب القاع، وبأنَّك طُردت من العالم. ألقيت بنفسي على لوحٍ وضعوه سريرًا لي، ووضعت رأسي بين يديَّ. لقد أدركت أخيرًا فداحة فعلتي، لكن لا، لم يكن الأمر يتعلَّق بفداحة الفعل بقدر ما كان يتعلَّق بفداحة العاقبة، فهناك فرقٌ شاسعٌ بينهما.

حاولت أن أقنع نفسي بأنَّه ليس هناك ما يدعو إلى الخوف، وبأنَّه لا يوجد دليلٌ ضدِّي. لقد تمَّ اعتقالي ببساطةٍ بسبب مظهري المثير للرِّيبة. ربَّما جعلهم ذلك يظنُّون أنَّني كنت مذنبًا لارتكاب خطأٍ ما.

ولكن لماذا يكبِّل الشُّرطيُّ رجلًا لمجرَّد أنَّه ارتدى ملابس عاديَّةً مثلي؟ ولماذا كان رئيس الشُّرطة يستجوبني بطريقةٍ يتخلَّلها الشَّكُّ والرِّيبة؟ ولماذا نظر إليَّ موظَّف مكتب الرَّهن بفضولٍ شديد؟

فجأةً تذكَّرت أنَّه كان هناك شخصٌ آخر يقف بجانبي في مكتب الرَّهن، وتذكَّرت استمارة الرَّهن التي سُلبت من جيبي لتُستخدم لاحقًا كدليلٍ ضدِّي. لم يكن هناك سبيلٌ لمقاومة الحقيقية التي أقنعت نفسي بعدم وجودها. ومع أنَّ عمليَّة السَّطو لم تُكتشف بعد، إلَّا أنَّ أمري سيفتضح لا محالة عندما يعثرون على السَّاعة المسروقة في حوزتي. شعرت بأنَّ ذلك اليوم لن ينتهي أبدًا.

لم يتحدَّث معي أحد. كان بإمكاني سماع حركة السَّيَّارات البعيدة وهي تسير بالأعلى، وتساءلت عن مدى العمق الذي كنت فيه موجودًا تحت أرصفة المدينة المزدحمة. وكنت أسمع كذلك، بين الحين والآخر، قرقعة أبواب الزَّنازين من بعيد.

مع اقتراب المساء، كسرت تمتماتُ رجلٍ مخمورٍ رتابة المكان. كان الرَّجل قد وُضع في الزِّنزانة المقابلة لزنزانتي، فحاولت أن أُجري حديثًا معه، ولكنَّه تشبَّث بالقضبان ونظر إليَّ بارتياب.

صاح قائلًا: «أيُّها الضَّابط! إنَّه يحاول سرقة ما في جيوبي».

أشعرتني ملاحظته بالاشمئزاز من نفسي. لقد ميَّزني صاحب هذا الدِّماغ المخمور بأنَّني سارق. لا شكَّ في أنَّ ذلك كان يظهر جليًّا في وجهي.

عدت إلى الزِّنزانة وجلست. شعرت بظمأٍ شديد، ولكن لم أجد أيَّ ماءٍ بالجوار، وشعرت أيضًا برغبةٍ ملحَّةٍ بالتَّدخين، أمَّا بالنِّسبة إلى الطَّعام والنَّوم، فكنت قد نسيت أمرهما تمامًا.

أخيرًا جاؤوا لاستدعائي.

كان من الجيِّد الخروج من الزِّنزانة، حتى لو كان ذلك من أجل التَّعذيب.

تمَّ اصطحابي إلى غرفةٍ مضاءةٍ على نحوٍ ساطعٍ للغاية، ووجدت في الغرفة عدَّة أشخاصٍ آخرين. استقرَّت عيناي على ملامح كاتب الرَّهن ولم أصرف نظري عنه.

«هل هذا هو الرَّجل؟»، سأله الضَّابط الجالس على الطَّاولة، فأومأ كاتب الرَّهن برأسه نحوي.

«نعم، هذا هو، لقد رهن تلك السَّاعة هذا الصَّباح».

تابعت بنظري موضع إشارة يد الشَّاهد، فرأيت السَّاعة ممدَّدةً على الطَّاولة. لم يبد الأمر مبشِّرًا حتى تلك اللَّحظة، وتمنَّيت لو أنَّني لم أسمعه أو ألتق به من

قبل. توجَّه الضَّابط بحديثه إلى شخصين كانا جالسين في نهاية الطَّاولة، رجلٍ عجوزٍ وسيِّدةٍ شابَّة.

«هذا هو الرَّجل الذي سرق منزلك اللَّيلة الماضية، هل رأيته من قبل؟».

تفحَّصتني الشَّابَّة بعينيها ثمَّ هزَّت رأسها، وأجاب الاثنان في انسجامٍ تامٍّ: «كلَّا».

تابع الضَّابط: «انظرا جيِّدًا، هذا أمرٌ مهمٌّ».

وأضاف صارخًا في وجهي: «قف تحت النُّور ليريا وجهك».

فعلت كما أمر.

هزَّ الشَّاهدان رأسيهما.

قال العجوز: «كلَّا، لم أره من قبل».

يا له من إنسانٍ محترم.

«وأنت يا آنسة؟»، سألها الشُّرطيُّ بترقُّب.

أجابت: «كلَّا، أنا لا أعرفه».

قال المحقِّق: «حسنًا، شكرًا لكما، هذا كلُّ شيء».

نهضا ورحلا بارتياحٍ واضح.

مكثت في الغرفة حتى منتصف اللَّيل، وخضعت للاستجواب والتَّهديد والتَّقييد والهجوم، واجهت كلَّ شيءٍ ما عدا الاعتداء الجسديَّ العنيف، ولكنَّني رفضت الحديث. كلَّما ازدادوا إصرارًا على تهديدي، ازددت عنادًا. لن يرغمني أحدٌ على النُّطق إلَّا إذا أردت ذلك.

أعادوني مرَّةً أخرى إلى الزِّنزانة العارية الباردة، فألقيت بنفسي على اللَّوح وغرقت في النَّوم. حين استيقظت كان ضوء النَّهار شفقًا وقد تسلَّلت أشعَّة الضَّوء إلى هذا المكان الأشبه بالضَّريح، فرأيت كوبًا من الماء وقطعة خبز موضوعةً على عتبة الباب الحجريَّة.

نهضت وشربت الكوب بشراهةٍ ثمَّ شعرت برغبةٍ في الاغتسال. كان وجهي ويداي مبلَّلين بالعرق والدَّبق.

لم أجد أيَّ علامةٍ على وجود الماء. بللت منديلي بما تبقَّى من قنِّينة الماء السَّاخن خاصَّتي والتي أعادوها لي بعدما قاموا بتفتيشها، وتمكَّنت من غسل وجهي ويدي.

في تلك اللَّحظة أصبحت مدركًا لحقيقة أنَّني لم أعد إنسانًا.

صحيحٌ أنَّني ارتكبت جريمة، ولكن هل فعلت شيئًا يدفع المجتمع إلى إيقاعي بالرُّعب الذي غمرني حين رأيت ذلك الشَّيء يتسلَّل داخلًا كمَّ قميصي؟ كان مختلفًا عن أيِّ حشرةٍ رأيتها في حياتي. بدا أنَّ دمي قد تحوَّل إلى ثعبانٍ لزجٍ عاجزٍ عن الزَّحف إلى قلبي، وجاءت لسعةٌ كالحديد المشتعل إلى عقلي لتؤكِّد فكرة أنَّني كنت قذرًا. لقد نجَّست روحي بما اقترفته يداي، فكان لزامًا على جسدي أن يتنجَّس أيضًا، وهذا كان جزءًا بسيطًا من فداحة العواقب التي ذكرتها.

لقد سئمت روحي، فالسَّارق يمتلك روحًا هو الآخر. نحن جميعًا نمتلك أرواحًا. وفي الجوهر، نحن جميعًا متشابهون. لا يوجد فرقٌ بيننا إلَّا في المظهر. حاول الفأر أن يقضم فتات قطعة الخبز الملقاة على حجر الباب بصعوبة. استمتعت بمشاهدته، فالفئران أفضل بكثيرٍ من القمل.

بعد ثلاثة أيَّامٍ طويلةٍ من التزامي بالصَّمت العنيد، أصبح من الواضح أنَّ المحقِّقين قد يئسوا من أمري، ولكن دون أن يبدوا أيَّ ميلٍ إلى الانتقام منِّي. كثيرًا ما كنت أسأل نفسي لماذا لم يتعاملوا معي بعنفٍ أبدًا؟ أدركت منذ ذلك الحين أنَّ تلك لم تكن سوى السِّياسة التي يتَّبعونها للتَّعامل مع المشتبه به الذي يرفض الحديث، وأنَّ هذه الضُّغوط أكبر من أيِّ قوًى غاشمةٍ يمكنها أن تساهم في فتح فمي. إنَّهم لم يحبسوا جسدي فحسب، بل أغلقوا الأبواب على عقلي أيضًا.

في صباح اليوم الرَّابع، وبينما كنت جالسًا في قذارتي وملابسي المبتذلة، جُرِرتُ إلى الطَّابق العلويِّ حيث محكمة الشُّرطة. لم أكن قد خلعت ملابسي منذ اعتقالي، فكنت أشعر وكأنَّني جثَّةٌ متحرِّكةٌ تبلغ من العمر أسبوعًا.

لم أعط أيَّ أهمِّيَّةٍ للإجراءات المتَّبعة. فلم يكن يهمُّني ما قد قيل وما قد حصل، لأنَّني كنت أرى المستقبل نصب عينيَّ بالفعل. كنت أعلم أنَّني سأقضي سنواتٍ طويلةً في السِّجن.

لم أستجب لنصيحة المحامي، وعندما أخذوا أقوالي أخبرتهم بأنَّني بريءٌ من التُّهم الموجَّهة إليَّ، ثمَّ وقفت أمام المحكمة العليا. وقبل أن يمضي نصف الوقت على بدء المحاكمة، بدأت أندم على قراري، وكنت على وشك أن أسحب أقوالي لولا إلحاح التَّحدِّي المتأصِّل في نفسي وإلحاح القمل الذي كان ينهش جسدي.

سأحافظ على موقفي بعدم الاكتراث واللَّامبالاة حتى النِّهاية.

أخيرًا، تلقَّت هيئة المحلَّفين تعليماتٍ من المحكمة العليا بإعطاء آرائهم حول (الشُّكوك المعقولة) المتعلِّقة بي، ثمَّ خرجوا من الغرفة وقد لاحت على ملامحهم نظراتٌ يغلبها الملل. عادوا في غضون خمس دقائق.

استلم الكاتب قرار رئيس هيئة المحلَّفين وقرأه بصوتٍ عالٍ:

«مدانٌ بالسَّطو من الدَّرجة الأولى».

شعرت بمئات العيون المركَّزة على وجهي، ولكنَّني جلست دون أن أبدي أيَّ تأثُّرٍ بها. لا أريد لأحدٍ أن يعرف بما كنت أشعر. تحدَّث محامي الدِّفاع ببضع كلماتٍ اعتذاريَّةٍ إلى القاضي وجلس في مقعده أسفل المنصَّة.

وأعلن القاضي: «سيصدر الحكم في السَّاعة العاشرة من صباح يوم السَّبت».

عدت مرَّةً أخرى إلى زنزانتي. كنت أسير بسرعةٍ بقدميَّ المجرَّدتين من الجوارب، ودخَّنت عددًا لا يحصى من السَّجائر. ماذا سيكون الحكم؟

وفقًا لخطاب المدَّعي العام، كنت وغدًا عظيمًا وذئبًا شرِّيرًا يتنكَّر بزيِّ الحملان، وكلُّ عمليَّة سطوٍ وقعت خلال الأشهر السِّتَّة الماضية قد تمَّت بشكلٍ بديهيٍّ من قِبَلي. إذا كان هذا الادِّعاء قد أثار إعجاب القاضي، فمن المؤكَّد أنَّه قد أثار إعجاب هيئة المحلَّفين. لا يمكنني أن أنتظر ما هو أدنى من الحدِّ الأقصى للعقوبة، أي خمس عشرة سنة.

نعم، كان ذلك 15 سنةً، أي 180 شهرًا، أي 780 أسبوعًا، أي 5475 يومًا.

لم أقم سوى بعمليَّة سطوٍ واحدةٍ على منزلٍ خاصٍّ في جوف اللَّيل.

ولكنَّ ممثِّل هيئة المحلَّفين قال: «إنَّه مسلَّحٌ حتى النُّخاع، ومستعدٌّ لارتكاب أكبر جريمة قتل».

صحيحٌ أنَّني لصٌّ ولكن ثمَّة حقائق تمَّ تجاهلها تمامًا، فأنا لم أمتلك أيَّ سلاحٍ أو أداةٍ خطيرة، كما أنَّني قمت (بطريقةٍ غير مهنيَّةٍ) بأخذ جزءٍ صغيرٍ من الأشياء الثَّمينة الموجودة في المنزل الذي قمت بتدنيسه، ولكنَّ أحدًا لم يلق بالًا إلى ذلك، وحتى محامي الدِّفاع لم يستطع أن يكوِّن حجَّةً مقنعةً من هذه الحقائق.

خلال الأيَّام الفاصلة بين محاكمتي والحكم النِّهائيِّ كان بالي مشغولًا تمامًا بما سيؤول إليه حالي. في السَّبت الماضي وقف محترف عمليَّات سطوٍ أمام المحكمة، ولكنَّه أقرَّ بذنبه كاملًا، وعاد بابتهاجٍ إلى زنزانته مع حكمٍ مخفَّفٍ بقضاء ستِّ سنواتٍ في السِّجن. كان ذلك الرَّجل قد قُبض عليه متلبِّسًا بتفجير خزنةٍ في منتصف اللَّيل. صحيحٌ أنَّ حظَّه كان سيِّئًا في تلك المرَّة، ولكنَّه كان يُعرف بـ (لصِّ العملة الذهبيَّة) وأصبح زعيمًا للعنبر الذي كانت تأتي إليه والدته لتقوم بعملها في غسيل الملابس. لقد صنع هذا الأمر فرقًا كبيرًا.

جاء يوم السَّبت، ووجدت نفسي واقفًا أمام «طاولة العدالة». أردت أن

تنتهي المحنة بسرعة، ولكنَّني كنت أشعر بخوفٍ شديد. راقبت عقارب ساعة المحكمة بترقُّبٍ شديدٍ حتى أشارت أخيرًا إلى تمام العاشرة، وعلى الفور خرج القاضي من غرفته واتَّخذ مكانه على المنصَّة قبل أن ينحني احترامًا لواحدٍ أو اثنين من الشَّخصيَّات البارزة، وفي أثناء ذلك مسح المحامون نظَّاراتهم على نحوٍ متزامن.

من الغريب أن أقول إنَّني أحببت ذلك القاضي. أخبرني حدسي بأنَّه رجلٌ صادق القلب. وفي أثناء المحاكمة، وبينما كنت أقاطع ادِّعاءات المحامي بحججي الجادَّة، شاهدت القاضي يبتسم لي. لم أستطع قمع ابتسامتي حين التقت عيناي بعينيه، وشعرت براحةٍ شديدةٍ وامتنانٍ بالغٍ عندما ابتسم لي بالمقابل. لقد أدرك أنَّني لم أتعمَّد التَّصرُّف بطيشٍ وقلَّة احترام، والرَّجل الذي يمكن أن يتفهَّم دوافع الشَّخص الآخر لا يعقل أن يظلمه بحكمه، ولكنَّ الأحداث اللَّاحقة كذَّبت حسن ظنِّي به، وخطَّأت حدسي بأنَّه رجلٌ صادق القلب.

كنت مهتمًّا جدًّا بكلِّ ما يحدث حولي، ولِم لا أكون مهتمًّا؟ ألم أكن مصدر الفرح الذي من المتوقَّع أن يرضي جميع صفوف المتفرِّجين المهووسين من خلفي؟

بصوتٍ مرتفعٍ، أعلن الحاجب أنَّ قرار جلسة الاستئناف سيُعلَن بعد قليل. عمَّ الهدوء التَّامُّ جميع أرجاء المكان، ولم يصدر أيُّ صوتٍ ينتهك جدِّيَّة تلك اللَّحظة سوى صيحةٍ أطلقها بائع الفاكهة المتجوِّل في الخارج.

بدأ القاضي يتحدَّث عن النَّدم وعن «واجبه المؤلم» و«حماية المجتمع». وكتب المراسلون خلفه بسرعة.

في النِّهاية جاءت اللَّحظة الحاسمة:

«وحكمت المحكمة على المتَّهم بعقوبة السَّجن لمدَّة خمسة عشر عامًا في سجن الدَّولة في سان كويتين».

سرعان ما وضع الشُّرطيُّ المكلَّف بحراستي يديه تحت إبطي، كمحاولةٍ لمنعي من السُّقوط، وذكرت الصُّحف في صباح اليوم التَّالي أنَّني تعرَّضت لانهيارٍ تطلَّب قدوم المساعدة. كلُّ ما أذكره في الواقع أنَّني بقيت أكرِّر الجملة نفسها طوال خمسة أيَّام: «خمسة عشر عامًا» إلى أن وصلت إلى مرحلةٍ أصبحت فيها غير مكترثٍ لسماع ما كنت أردِّده، وأصبحت مبتهجًا لفكرة الابتعاد عن القمل. سيكون السِّجن نظيفًا وصحِّيًا على الأقل.

تمَّ نقلي إلى سان كوينتين في الرَّابع والعشرين من شهر تمُّوز سنة 1901. كان النَّهار مثاليًّا وكذلك بدا العالم أيضًا. زُجَّ بي في حافلةٍ عامَّةٍ، وخُصِّص لي مكانٌ معزولٌ للبقاء فيه. كان النَّاس يضحكون ويتحادثون بلا قيود. لا شكَّ في أنَّ العديد منهم كانوا خارجين لقضاء عطلتهم الصَّيفيَّة.

تمكَّنت من أخذ صحيفةٍ مطويَّةٍ قريبةٍ منِّي، وهممت بإخفاء القيود التي ضغطت على مغصميَّ ومنعتني من صفع ذبابةٍ بدت مصمِّمةً على مواصلة الطَّنين بجوار أذني.

لا عجب أنَّ النَّاس كانوا سعداء ومرتاحي البال، فهم لم يعرفوا أنَّني كنت في طريقي إلى السِّجن لأقضي عددًا طويلًا من السِّنين هناك.

كنت قد بقيت مسجونًا في قسم الشُّرطة لعدَّة أسابيع. لذا لاحظت كلَّ شيءٍ من حولي عندما خرجت. يلاحظ السَّجين أصغر التَّفاصيل، ويكوِّن انطباعاتٍ عديدةً عنها، فهو لا يستطيع رؤية العالم الذي يقع خارج زنزانته، ولا يمكن للأحرار أن يلاحظوا تلك التَّفاصيل الصَّغيرة التي يلتقطها عندما يخرج. ستكون أولى انطباعاته ساحرةً للعينين ولا سيَّما بعد رؤيته ذلك الفرق الشَّاسع في المساحة والأماكن، ثمَّ سيصبح منتشيًا بالهواء النَّقيِّ العذب ويشعر بالامتنان بعد قضائه أيَّامًا وليالِيَ طوالًا مستنشقًا رائحة الكلور التي تفوح بها رائحة السِّجن. المطهِّرات هي الهواء الوحيد الذي

يستنشقه السَّجين، وتكثر باعتبارها تعويضًا عن ندرة الصَّابون والمياه ونور الله.

سيتحدَّث كثيرًا عن شمس اللّه، ذلك الرَّجل الذي خرج لتوِّه من السِّجن. سيشعر في البداية بنشاطٍ وحماسٍ، ولكن لن يستمرَّ ذلك طويلًا، فالفجوة شاسعةٌ للغاية، وسرعان ما ستنبط عزيمته وتخور قواه ويشعر رأسه بالدُّوار. جوُّ السِّجن أسوأ بكثيرٍ من العالم الخارجيِّ، ممَّا يجعله أشبه بالقبو، والقبو يقتل حواسَّ المرء، ولذا، عندما يرى السَّجين ضوء الشَّمس ويشعر بالإثارة الأولى، تتبدَّل الإثارة والمتعة سريعًا بمشاعر يشوبها الارتباك والهوان. كان الأمر كذلك في ذلك اليوم من شهر تمُّوز قبل عشر سنوات.

وفَّرت لنا غرفة الانتظار المظلَّلة في محطَّة القطار وِقاءً مناسبًا من الشَّمس. ركض طفلٌ صغيرٌ نحونا مطاردًا كرته، ولكنَّه توقَّف وأمال رأسه الأشقر متعجِّبًا. يبدو أنَّه قد شعر بأنَّ الرَّجل الذي يخفي يديه تحت الصَّحيفة مختلفٌ عن الأشخاص الآخرين. سرعان ما قام نائب الشَّريف بركل الكرة التي اقتربت منَّا فركض الطِّفل بسعادةٍ بعيدًا، ثمَّ جاءت فتاةٌ رشيقةٌ طويلة القامة وجلست بهدوءٍ في المقعد المقابل لنا ومضغت بعفويَّةٍ قطعًا من حلوى البونبون. إنَّ المفارقة بين تناول الطَّعام في الأماكن العامَّة وتناوله في المنزل جعلت صورة تلك الفتاة جميلةً جدًّا، صورةً بقيت راسخةً في ذهني عشر سنوات، وما أزال أراها بفتسانها المنقوش، وما أزال معجبًا بها حتى الآن!

في عبَّارة الأحصنة، شغلنا أحد المقاعد المجاورة للمساحة المخصَّصة للمركبات. كانت شمس الظَّهيرة قد استتبَّت في السَّماء، وفي أثناء انتظارنا شاهدت أحد أعضاء الفريق يطعم خيوله، ومن الطَّريقة المنهجيَّة التي اتَّبعها في ذلك أدركت أنَّه كان معتادًا على قيادة رحلات الظَّهيرة إلى تيبورون، وخطر لي أنَّه كريمٌ من رؤيتي للطَّعام الذي قدَّمه لأحصنته في أثناء العبور. كانت هناك فرقٌ أخرى على العبَّارة، ولكنَّ أصحابها لم يقوموا بإطعام خيولهم.

جلست أتفحَّص الخيول جيِّدًا. كان الحصان الأكثر قربًا من الخليج غاضبًا جدًّا واستمرَّ في تحريك رأسه في محاولةٍ للحصول على لقيماتٍ أكثر إشباعًا من الشُّوفان، ومع كلِّ رميةٍ للطَّعام كان الشُّوفان ينسكب من أنفه ويسقط على سطح العبَّارة، وربَّما أحسَّ صاحب ذلك الحصان بجوعه، فعقد كيسًا من الطَّعام حول عنقه ولم يجد صعوبةً في تنظيم أمر بقيَّة الأحصنة.

لقد شكَّلت انطباعًا جيِّدًا عن تلك الخيول. كان أحدها غاضبًا وهزيلًا ويبدو عليه القلق، بينما كان حصانٌ آخر أنيقًا وقنوعًا.

جذب رجلان في المقعد الأماميِّ انتباهي.

كان أحدهما نحيفًا، شاحب الوجه، يتحدَّث بصوتٍ عالٍ عن شيءٍ يتعلَّق بالمال. نفث رفيقه دخان السِّيجار واستمع إليه بصمتٍ. لقد وجدت شبهًا بين الرَّجلين والحصانين.

كان نائب الشَّريف قد لاحظ شرود ذهني، ولكنَّه أخطأ التَّقدير عندما ظنَّني قانطًا.

قال مقترحًا: «فلنذهب ونحتسِ شيئًا من الشَّراب».

رفضت طلبه بلطفٍ، فبدا عليه الارتباك. يبدو أنَّ المشروب كان بالنِّسبة إليه الدَّواء الشَّافي لكلِّ العلل والأمراض.

ولكن لماذا يريدني أن أحتسي شرابًا الآن؟ كنت في السِّجن لأسابيع طويلةٍ ولم يعرض عليَّ أحدٌ أن أشرب شيئًا من الماء، فلماذا يريدني الآن أن أشرب شرابًا غير مشروع؟ بالتَّأكيد لم أكن في حاجةٍ إلى الاحتفال بدخولي السِّجن.

الفصل الثَّالث

كان أوَّل انطباعاتي عن سجن سان كونتين محزنًا بلا شكٍّ. بدا السِّجن قاتمًا وقبيحًا وخاليًا من المناظر الطَّبيعيَّة.

بطريقةٍ ما تخيَّلت أنَّني دخلت في ثقبٍ أسود قذفني إلى مدينة «لكناو» في عزِّ صيفها الفظيع الذي تبلغ درجة الحرارة فيه خمسين درجةً مئويَّة.

ما إن انطلق القطار واجتاز تلال مقاطعة مارين حتى وصل إلى الوادي المؤدِّي إلى السِّجن. كان بارزًا كنتوءٍ مظلَّلٍ أجرد، وبدا وكأنَّه يرحِّب بي من بعيد. اختفى السِّجن بعد أن سار القطار بنا بين التِّلال، ثمَّ صعدنا إلى محطَّةٍ صغيرةٍ. توقَّعت أن ينادي عامل الفرامل قائلًا: «سان كوينتين»، ولكنَّه قال: «جرين براي!».

كانت في انتظارنا محطَّةٌ متهالكةٌ مليئةٌ بالغبار، وكان هناك عددٌ من الرُّكَّاب الآخرين. أخبرني حدسي أنَّهم كانوا على صلةٍ بالسِّجن أيضًا، فألقيت بالجريدة بعيدًا عنِّي، ولم تلفت أصفادي أيَّ انتباه. كانت اللَّامبالاة المطلقة قد ميَّزت الرُّكَّاب الذين كانوا يتحدَّثون ويضحكون فيما بينهم بشكلٍ طبيعيٍّ. ولكنَّ نظرةً عابرةً وخجلى ألقتها عليَّ تلميذةٌ ذات شعرٍ بنِّيٍّ ووجهٍ منمَّشٍ غمرتني بالعطف، وأثَّرت بي على نحوٍ طيِّبٍ ما أزال أذكره.

مررنا من مَخرج المحطَّة، فميَّزتُ أسوار السِّجن من جهة الغرب. كان اهتمامي منصبًّا على تلك الجهة الأخرى من العالم.

حدَّقت جيِّدًا، وفزعت.

أدركت لاحقًا أنّني كنت أنظر إلى مقبرة السّجن. لم يكن هناك أيُّ نبتةٍ خضراء بالقرب منها. لم تكن سوى أرضٍ قاحلةٍ جرداء قذرة. حدَّقت فيَّ صفوفٌ من الألواح البيضاء التي يحمل كلٌّ منها رقمًا يميِّز صاحبها، ألواحٍ نُصِبَتْ لتعلن أماكن مئاتٍ من الرِّجال والنِّساء الذين قضوا حتفهم في المكان نفسه. وها قد عادوا إلى الحياة، وتنفَّسوا، وحدَّقوا فيَّ كما حدَّقت فيهم. كنت أرتجف من الخوف. تُرَى ماذا يخبِّئ لي القدر؟ هل سيحدِّق الرَّقم المنصوب على لوحي في رجلٍ آخر مكبَّلٍ بالأصفاد ذات يوم؟ ثمَّ خطرت ببالي أفكارٌ أخرى؛ ما شعور الأمِّ حين تمرُّ بذلك القبر في طريقها لزيارة ابنها الضَّالِّ؟ ما المشاعر التي تعتري الرَّجل المدان حين يرى الشَّواهد المنصوبة لكي تذكِّره بمصيره المحتوم؟ أيُّ رجلٍ عديم الإحساس قد أمر بوضع هذه المقبرة عند مدخل السِّجن؟

تلاشت أفكاري الكئيبة مع مشهد قطيعٍ من الخرفان البنيَّة والبيضاء. راحت تحدِّق إلينا بعيونها المستديرة حين مررنا بمزرعة منزلٍ قريبٍ من السِّجن، ثمَّ شاهدت حصانًا لأحد الحرَّاس، كان صاحبه يحمل بندقيَّةً ويسير به موجِّهًا فوَّهة البندقيَّة، وسرعان ما تبدَّد الحصان، فبدا لي أنَّه قد سقط في العدم.

قال أحد الرُّكَّاب مجيبًا على سؤال زميله: «نعم، هذا هو المكان الذي يتدرَّب فيه الحرَّاس على إطلاق النَّار. يتطلَّب الأمر من الحارس أن يصيب ثلاثين هدفًا من أصل خمسين، ويجب أن يجتاز هذا الاختبار السَّنويَّ ليحتفظ بوظيفته». كانت مساحة التَّدريب 200 ياردة، ولكنَّني علمت بعد ذلك أنَّ هناك عددًا لا بأس به من الحرَّاس كانوا ينجحون بإصابة خمسةٍ وأربعين هدفًا بانتظام. يبدو أنَّ الهارب لا يمتلك أيَّ فرصةٍ لتخطِّيهم!

مررنا تحت أوَّل بوَّابةٍ من بوَّابات السِّجن. كان يسمُّونها «بوَّابة الحرِّيَّة» لأنَّها آخر شيءٍ يمرُّ عبرَه السَّجين الذي انتهت محكوميَّته، ثمَّ شاهدنا تمثال الحرِّيَّة، وهو عملٌ يدويٌّ قام به سجينٌ ألمانيٌّ قديمٌ قضى نحبه خلال حكمه

المؤبَّد، ذلك المسكين «بسمارك»! لم يحظ أبدًا بفرصة مشاهدة تمثاله بعد أن سلَّمه لمجلس أمانات السِّجن.

عند اقترابنا من السِّجن رأيت أشخاصًا يرتدون ملابس مخطَّطة. كانوا منهمكين في العمل في حدائق الخضراوات. لم ينظروا إلينا حين مررنا من أمامهم، وقام بعضهم بتبليل المناديل التي بأيديهم ومسحوا بها وجوههم ليحتموا من أشعَّة الشَّمس، فقد كانت قبَّعات القشِّ الموضوعة على رؤوسهم باليةً جدًّا.

في تلك اللَّحظة، فُتحت أسوار السِّجن السَّوداء، فشعرت بالارتياح. لقد انتهت أيَّام الرَّهبة وانتظار الأمل، وبدأت حياةٌ جديدة. من الآن فصاعدًا سأكون سجينًا، وبعد خروجي سأكون سجينًا سابقًا، ولن أعود مرَّةً أخرى إنسانًا حرًّا وعاديًّا. لقد ارتكبت خطأً، وكان هذا عقابي.

عند المدخل الرَّئيس للسِّجن أوقفنا حارسُ البوَّابة الذي قام من فوره بفتح أحد أدراج مكتبه. كان يبدو أنَّ نائب الشَّريف قد اعتاد تسليم السُّجناء في ذلك المكان، لأنَّه قام من فوره بإخراج مسدَّس من جيبه ووضعه في الدُّرج الذي فتحه حارس البوَّابة. لقد أذهلني السِّلاح. فحتى تلك اللَّحظة لم أكن أعرف أنَّ مرافقي كان مسلَّحًا. كانت إحدى قواعد السِّجن تحظر وجود أيِّ سلاحٍ غير مرخَّصٍ داخل أسوار السِّجن، ولا تسلَّم الأسلحة لأصحابها إلَّا بعد إقفال العنابر في المساء وخروج كلاب المراقبة لتأدية عملها في باحة السِّجن الصَّغيرة وانتشار نقاط الحراسة بالقرب من المباني المحيطة بالسِّجن مع جميع أسلحتها النَّاريَّة والمدفعيَّة.

وضع النَّائب مسدَّسه في الدُّرج، ورأيت العديد من الأسلحة الأخرى هناك، وكانت هناك أيضًا زجاجة ويسكي تركها أحد الزُّوَّار الذين كانوا يقومون بجولاتٍ تفقُّديَّةٍ في الدَّاخل. ملأني منظر المسدَّس بالكراهية والاستياء. لقد جيء به ليُستخدم ضدِّي، وليس ضدَّ أيِّ شخصٍ آخر، بل ضدِّي أنا وحسب.

ليس من اللَّطيف أن تنظر إلى مسدَّسٍ محشوٍّ احتُفظ به ليُستخدم ضدَّك. استحضرت ذكرى قديمةً للصٍّ كان يحاول الهروب في مكانٍ مزدحمٍ ومرَّ بي حين كنت أتجوَّل في شوارع المدينة. تذكَّرت كيف انضممت إلى المطاردة، وكيف أصبت بعدوى غريزة كلب الصَّيد في تلك اللَّحظة، وكيف سقط البائس الفقير على الأرض وصدره يعلو ويهبط من شدَّة التَّعب. كان يتحدَّث كما لو أنَّه فعل شيئًا كبيرًا ونبيلًا. ربَّما قام بذلك بالفعل، ولكنَّ مظهره الهزيل ولباسه الرَّثَّ الخشن وهو يلهث ليلتقط أنفاسه بعد أن توقَّف قلبه في آخر محاولةٍ له للهروب، ووجهه الذي اختلطت ملامحه باليأس والتَّحدِّي، وجسده محاطًا بالجماهير المبتهجة لسقوطه، والثُّقب الذي رأيته في قبَّعته البالية، كلَّ تفاصيل تلك الصُّورة بقيت واضحةً أمامي كما لو أنَّني رأيتها بالأمس، ولكنَّني في ذلك الوقت كنت أشعر بالسَّعادة مثل بقيَّة النَّاس لأنَّنا نجحنا في القبض على اللِّصِّ، أمَّا الآن فأشعر بالمشاعر نفسها التي أحسَّها ذلك اللِّصُّ، وتساءلت كم من شخصٍ آخر شعر بمشاعر اللِّصِّ الذي ساعد في إلقاء القبض عليه؟

هناك وجهان لكلِّ شيء.

بينما كانت هذه الأفكار تتسابق إلى ذهني، قام النَّائب بإزالة الأصفاد من معصميَّ ببراعة، ثمَّ مررنا عبر البوَّابة إلى الممرِّ المؤدِّي إلى ساحة السِّجن. في أقصى نهاية الممرِّ فتح أحد السُّجناء بوَّابةً أخرى، وهي جزءٌ من بوَّابةٍ ضخمةٍ مصنوعةٍ من الحديد الصَّلب. راقبت هذا الرَّجل عن كثب، فقد ركض إلى الدَّاخل حالما فُتحت البوَّابة. فكَّرت أنَّ مكانته عاليةٌ جدًّا ليعطى مثل هذه الثِّقة كسجين. علمت بعد ذلك أنَّه كان «يفعل كلَّ شيء» وأنَّه أمضى اثنين وعشرين عامًا في الخدمة كسجين. لم يكن مظهره يوحي بذلك. إنَّ المظاهر خدَّاعة للغاية في السِّجن.

كان انطباعي الأوَّل عند دخولي السِّجن هو الصَّدمة. كنت أتوقَّع رؤية

قضبانٍ ضخمةٍ وصلبةٍ وجوٍّ عامٍّ من الانضباط، ولكنَّني رأيت بدلًا من ذلك حديقةَ زهورٍ جميلة، ونافورةً يتوسَّطها تمثالٌ لبجعةٍ بيضاء. كان هناك سجينان أو ثلاثة، بوجوهٍ هزيلةٍ جدًّا، يعملون في تلك الحديقة. عرفت لاحقًا أنَّهم كانوا مصابين بالسُّلِّ، وقد مُنحوا هذا العمل الخفيف في الهواء الطَّلق للتَّرويح عن أنفسهم وإطالة أعمارهم، كما عرفت أنَّ أحدهم كان محكومًا عليه بالمؤبَّد، فشعرت بالرُّعب من فكرة الإصرار على إطالة عمره، ما الفائدة من ذلك؟ حاولت أن أقنع نفسي بوجود دافعٍ إنسانيٍّ من وراء ذلك، كأن يُعطى هذا الإنسان مكانًا في الجنَّة، بالقرب من اللّٰه والزُّهور التي تنتظره في السَّماء.

في ذلك الوقت استقبلنا الضَّابط المسؤول عن السِّجن، وكان رجلًا عجوزًا قضى جلَّ حياته في العمل بالسِّجن. مدَّ يده فأعطاه نائب الشَّريف أوراقي. علَّق قائلًا: «خمسة عشر عامًا»، وألقى نظرةً سريعةً على الأوراق وعلى قرار المحكمة، ثمَّ قال: «كنت تُحضر لنا في الماضي رجالًا حُكم عليهم بالسَّجن لعامٍ أو عامين. لقد امتلأ السِّجن بأمثال أولئك الجانحين المبتدئين».

تفحَّصني الضَّابط بفضولٍ طويلٍ، ثمَّ اصطحب النَّائب إلى مكتبه ليُعِدَّ بعض الأوراق، وتركني مع السَّجَّان، وبعد أن قام بتفتيشٍ كاملٍ لثيابي، اصطحبني إلى غرفة التَّصوير، ليقوم المصوِّر الفوتوغرافيُّ بأخذ صورةٍ لي مع رقم محكوميَّتي المسجَّل على صدري، وفي أثناء تجهيز المصوِّر أدواته قمت بإلقاء نظرةٍ خاطفةٍ على رقمي، كان 19.093، ولاحظ المصوِّر شرود ذهني، فقال:

«أوه، لا تقلق، إنَّه لا يتضمَّن أرقامًا جالبةً للنَّحس».

لم يطلب منِّي أن أبدو لطيفًا حين حانت اللَّحظة لالتقاط الصُّورة، ولكنَّه حذَّرني من إغلاق عينيَّ.

كنت متحمِّسًا للذَّهاب إلى الحمَّام. أمر السَّجَّان بتعريتي من ملابسي،

وقام رجلٌ صينيٌّ بفحص جسدي بعنايةٍ ممرِّرًا أداةً صلبةً على جسدي ليتأكَّد من عدم وجود أشياء مخبَّئةٍ بين أصابع قدميَّ أو في أيِّ مكانٍ آخر محتمل.

لم أعرف دواعي قيامه بذلك، ولم أفهم سبب هذا الفحص. لقد كان مُهينًا جدًّا.

عرفت لاحقًا أنَّ ذلك الفحص كان ضروريًّا من أجل كشف محاولات تهريب الموادِّ المخدِّرة إلى داخل السِّجن. في نهاية الفحص بدا الضَّابط المسؤول راضيًا عن النَّتيجة، أمَّا أنا فقد شعرت بالرِّضا لأنَّ ذلك الكابوس قد انتهى.

لم يكن من الضَّروريِّ أن يخبرني ذلك الرَّجل الصِّينيُّ بأن أفرك جسدي جيِّدًا بالماء والصَّابون، فقد كنت سعيدًا جدًّا لأنَّني سأحظى بفرصة الاغتسال بالماء الدَّافئ أخيرًا. لقد كان ذلك أوَّل حمَّامٍ حقيقيٍّ لي منذ اعتقالي. كان الرَّجل الصِّينيُّ مبتهجًا جدًّا للطَّريقة التي نظَّفت بها نفسي، وظلَّ يردِّد: «إنَّك تحبُّ النَّظافة؛ من النَّادر أن تجد رجلًا أبيض يحبُّ الماء».

شعرت بالإطراء من مديحه لي. كان ذلك أوَّل ثناءٍ أتلقَّاه منذ زمنٍ طويل.

سألته: «منذ متى وأنت تعمل هنا يا جون؟».

أجابني: «منذ خمسة آلافٍ وثمانمائةٍ وخمسةٍ وخمسين يومًا، واليوم سأتمُّ خمسة آلافٍ وثمانمائةٍ وستَّةً وخمسين يوماً».

كان يقول ذلك بفخرٍ شديد، وعلمت لاحقًا أنَّه كان معتادًا بالفعل إحصاء أيَّام عمله، وكان مستعدًّا لإعطاء ذلك الرَّقم الدَّقيق في كلِّ مرَّةٍ يسأله أحدٌ عنه.

في تلك اللَّحظة دخل سجينٌ آخر الحمَّامَ حاملًا ملابسي الجديدة بين يديه.

قال بسرور: «ها هي بدلتك الصَّيفيَّة، لن تحصل على واحدةٍ أخرى».

وضع الملابس على الكرسيِّ، وألقى حذاءً ثقيلًا كالطُّوب على الأرض، ثمَّ خرج.

بعد عشر دقائق هممت بارتداء ملابسي وشعرت بانزعاجٍ شديد.

كانت الملابس الدَّاخليَّة خشنةً وثقيلةً جدًّا مثلها مثل الثِّياب الخارجيَّة. كان «القميص العلويُّ» أبيض مخطَّطًا بخطوطٍ أفقيَّةٍ سوداء، وكان سمك كلِّ خطٍّ منها يبلغ حوالي البوصة وربع البوصة. صحيحٌ أنَّ الملابس كانت جديدةً بالكامل، ولكنَّ الخطوط كانت مزعجةً للغاية، وكان كلُّ تفكيري منصبًّا على تلك الخطوط بالتَّحديد. يعتاد معظم السُّجناء تلك الخطوط وينسون أمرها بحلول الوقت، ولكنَّني لم أستطع، وما أزال أشعر بها حتى الآن، أمَّا بالنِّسبة إلى الحذاء، فقد وجدت المشي به صعبًا للغاية، فهو لم يكن محكم الصُّنع، وكان أخمص قدميَّ زلقًا، وشعرت بألمٍ في كاحليَّ كما لو أنَّه كان مقيَّدًا بقطعٍ من رصاص. سرت إلى غرفة الحلاقة، وكنت محطَّ أنظار الجميع، فشعرت أنَّني كنت قادمًا من كوكبٍ آخر، وأنَّني سقطت مصادفةً إلى هذا العالم المجهول.

«سجينٌ جديد!»، صرخ سجَّاني، ودفعني إلى داخل غرفة الحلاقة، فاستلمني أحد الحلَّاقين ورافقني إلى الكرسي.

سألني بابتسامةٍ مصطنعةٍ: «كيف تريد أن تكون قصَّة شعرك؟».

«أريده منكوشًا، قصَّه لي بأيِّ طريقةٍ تحبُّها».

وفي الواقع، لقد فوجئت عندما تعامل معي الحلَّاق بعفويَّةٍ كما لو كنت شخصًا عاديًّا. كنت أتخيَّل رجال السِّجن متَّسمين بالجدِّيَّة والصَّرامة، ولكنَّني بدلًا من ذلك وجدت الابتسامات، واللَّامبالاة، أو التَّظاهر باللَّامبالاة. كان كلُّ رجلٍ منهم يدرك أنَّ إبداء الشَّفقة، أو التَّعاطف، سيكون أمرًا مشينًا، ولذلك كانت السُّخرية بديلًا مناسبًا لمحاولة خداع أنفسهم، وخداع بعضهم بعضًا، بأنَّهم لا يبالون بشيء. لقد كانت اللَّامبالاة تجسيدًا واضحًا لسماتهم الفطريَّة والرُّجوليَّة. ثمَّة هنا الكثير من الوجوه المبتسمة كما هو الحال في العالم الخارجيِّ، وجميع تلك الابتسامات تخفي وراءها أرواحًا متألِّمةً معذَّبة.

ومع أنَّني لم أشعر بشيءٍ من السَّعادة واللَّامبالاة، إلَّا أنَّني قرَّرت أن أجاري مزاج الحلَّاق.

ضحكت: «أوه، قصَّه على موضة الصَّيف، حتى تُناسب القَصَّة بدلتي».

وبينما كنت أتحدَّث، بدأ الحلَّاق بتمرير مقصِّه على رأسي. لم يفعل ذلك بلطفٍ ورقَّةٍ، بل بشيءٍ من القسوة والإيلام. ربَّما كان هذا الحلَّاق يعمل خارج السِّجن أيضًا، ولكن من المؤكَّد أنَّه كان يفتقر إلى مهارة الإحساس بزبونه. بدأ شعري يتساقط كعناقيد العنب، وفي غضون دقيقتين ذهب كلُّ شيء. أمسك الحلَّاق مرآةً صغيرةً ووضعها بسخريةٍ أمام وجهي لكي أرى النَّتيجة.

سألني باهتمامٍ مصطنع: «هل تناسب القَصَّة بدلتك؟».

لقد تسبَّب لي بالإحراج. رأيت لأوَّل مرَّةٍ في حياتي العضلات البارزة في جمجمتي.

أجبته: «أخشى أنَّك تركت بعض الجذور».

«نعم، أنسى ذلك بين الحين والآخر»، ثمَّ أطلق ضحكةً وتابع الحلاقة.

خرجت من غرفة الحلاقة إلى استديو التَّصوير مرَّةً أخرى. يتوجَّب على كلِّ سجينٍ أن يتصوَّر مرَّتين، صورةً بملابس الأحرار، وصورةً بملابس السُّجناء المخطَّطة. وجدت أمامي جدارًا أبيض وملفِّي الشَّخصيَّ ولوحًا يُظهر رقمي واسمي ومدَّة محكوميَّتي وجريمتي والمكان الذي وقعت فيه الجريمة وعمري ومسقط رأسي.

كانت مقابلتي التَّالية مع مسؤول الدُّور. جلست على مقعدٍ شبيهٍ بمقاعد الاعتراف في الكنيسة، ووقف مسؤول الدور أمامي ليعرِّفني بقواعد السِّجن.

«عليك أن تثني ذراعيك دائمًا كلَّما سرت في الفناء. لا تتحدَّث في غرفة الطَّعام، ولا ترفع الطَّعام عن الطَّاولة. لا تقم بمقايضة السُّجناء الآخرين. لا تغادر عملك بلا إذن. ارفع قبَّعتك عن رأسك عندما تتحدَّث مع رئيس السِّجن. يُسمح لك بكتابة رسالةٍ واحدةٍ في الشَّهر».

كان هناك الكثير من القواعد الأخرى، والكثير منها لم أستطع تذكُّره لاحقًا، لذا كنت مضطرًّا إلى تعلُّم معظم القواعد من خلال المراقبة وطرح الأسئلة على زملائي السُّجناء.

يتعلَّم العديد من السُّجناء الجدد القواعد عن طريق خرقها وعن طريق التَّعرُّض للعقاب بسبب تجاوزهم تلك القواعد، وكثيرًا ما كنت أتساءل لماذا لم يكن هناك كتيِّبٌ صغيرٌ يتضمَّن جميع القواعد التي يجب أن نتَّبعها؟ سيكون من السَّهل على السَّجين الجديد أن يطَّلع على ذلك الكتيِّب المطبوع ليتجنَّب الكثير من المتاعب، وسيتوجَّب عليهم طباعته بالإسبانيَّة وبالصِّينيَّة، وكذلك بالإنجليزيَّة، وهناك طبعًا عددٌ لا يستهان به من الأمِّيِّين الذين ينبغي إرشادهم شفهيًّا.

بقيت جالسًا على مقعد الاعتراف لمدَّة ساعةٍ كاملةٍ، ثمَّ انتقلت إلى غرفة أخذ البصمات. صادفتني مجموعةٌ من الزُّوَّار، وقاموا باستخدامي كموضوعٍ لدراستهم. استوقفتني عمليَّة أخذ البصمات، إذ قام الضَّابط بوضع أصابعي العشر بالمحبرة، وأخذ بصمة كلِّ إصبعٍ على حدة، ثمَّ أخذ بصمة يدي بالكامل، وسجَّل اسمي بأعلى الصَّفحة.

ليس هناك أدنى شكٌّ في أنَّ التَّعرُّف على أحدٍ من خلال بصماته أمرٌ لا يحتمل الخطأ. يتمُّ تصنيف السِّجلَّات حتى يتعرَّف الباحث هويَّةَ الأشخاص بسهولة، ولذا يجب أن ينتبه المرء إلى الأماكن التي يلمسها بأصابعه، فعندما تلمس كتابًا أو طاولةً بأصابعك، تبقى بصماتك عليها، ويتعرَّف المختصُّون هويَّةَ صاحبها من سجلَّاتهم في غضون اثنتي عشرة ساعةً فحسب، ومع افتتاح الدِّيوان المركزيِّ للجرائم برنامج تصنيف الهويَّات في ليفنوورث، ومع التَّوجُّه العامِّ إلى الاحتفاظ بسجلَّات البصمات وتصنيفها، فإنَّ اليوم الذي لن يستطيع فيه المجرم إخفاء ماضيه سيحين عمَّا قريب. هذه خطوةٌ ستوصلنا إلى المسار الصَّحيح وستقلِّص من العدد الحقيقيِّ للمجرمين الطُّلَقاء.

بعد أخذ بصمات أصابعي، أُمرت بأن أرفع ملابسي عن خصري، وأخذ الموظَّف مقاس جسدي. لشدَّ ما أُعجبت بالطَّريقة التي فعل بها ذلك. لقد بدت عمليَّةً معقَّدةً جدًّا بالنِّسبة إليَّ، ولكنَّ خبرته الطَّويلة جعلته يقوم بذلك بسرعةٍ كبيرةٍ، وانتهى من أخذ مقاسي قبل أن أعرف الطَّريقة التي كان يستعملها في ذلك.

بعد ذلك، نُقِلتُ إلى مكتب تسليم الأمانات، وطرحوا عليَّ سلسلةً طويلةً من الأسئلة النَّمطيَّة، وطُلب منِّي أن أوقِّع إقرارًا باسمي بأنَّني لا أمتلك أموالًا أو ممتلكاتٍ ثمينةً تتطلَّب الاسترجاع بعد خروجي من السِّجن، كما وقَّعت إقرارًا بمنح سلطات السِّجن الإذن بفتح، أو الإحتفاظ، أو إتلاف أيِّ رسالةٍ أو برقيَّةٍ تُرسَل إليَّ، ثمَّ سُئلت عمَّا إذا كان هناك أيُّ شخصٍ أرغب في أن يقوم السِّجن بإخطاره في حالة وفاتي. أجبت على الفور: «لا أحد»، وندمت لاحقًا على تلك الإجابة.

بالعودة إلى قسم الملابس، مُنِحتُ بطَّانيَّتين، وملابسَ داخليَّةً معلَّمةً برقمي، مثلما هو حال جميع ملابسي. اصطحبني الرَّجل الصِّينيُّ إلى غرفة تخزين المراتب، وأعطاني مرتبةً لسريري وضعتُها على كتفي، ووضعت البطَّانيَّتين تحت إبطي، وأمسكت الغيار الدَّاخليَّ بيدي، وتبعت السَّجَّان إلى زنزانتي.

أمرني: «عندما يدقُّ جرس المساء، يجب أن تعود إلى هنا، مفهوم؟».

نظرت إلى الرَّقم الموجود على باب الزِّنزانة. كان رقمها 34، وهذا يعني أنَّها الزِّنزانة الرَّابعة والثَّلاثون. كانت هناك خمسة أسرَّةٍ في الزِّنزانة، وُزِّعَتْ بالطَّريقة نفسها التي توزَّع بها الأسرَّة في الباخرات. كان أحد تلك الأسرَّة بلا مرتبةٍ، فوضعت أغراضي عليه، ثمَّ تبعت السَّجَّان إلى السَّاحة، وتركني هناك.

الفصل الرَّابع

لم يطل أمر بقائي وحيدًا في ساحة السِّجن، فقد اقترب منِّي رجلٌ طويلٌ يبدو الحزن واضحًا على ملامحه. خمَّنت أنَّه كان في الخامسة والأربعين من عمره، سألني:

ـ «ماذا لديك؟».

اقتادني إلى مقاعد منضودةٍ بين أعمدة السَّقيفة المخصَّصة للحماية من المطر. لم أفهم المغزى من سؤاله، واعتقدت أنَّه كان يشير إلى أغراضي الشَّخصيَّة التي جلبتها معي من خارج السِّجن.

أجبته: «أوه، لم أجلب معي سوى منديلٍ أو اثنين».

ضحك قليلًا ثمَّ قال: «كلَّا، كلَّا، لم أقصد ذلك، أعني ماذا كانت الصَّفقة؟».

ـ «صفقة؟ ماذا تعني؟».

ـ «بماذا حكم عليك القاضي؟».

ـ «أوه، تقصد قرار المحكمة».

ـ «أجل، كم سنةً ستقضي في السِّجن؟».

ـ «خمس عشرة سنة».

ـ «أوه، بسيطة، إنَّهم لا يتساهلون إلَّا مع معارفهم. بماذا تتوقَّع أنَّه قد حكم عليَّ؟».

تردَّدت كثيرًا قبل الرَّدِّ، فإذا كان يعدُّ محكوميَّتي بسيطةً، فهذا يعني أنَّه

محكومٌ بمدَّةٍ أطول منها بكثير، وبينما كنت ما أزال أخمِّن عدد السَّنوات في رأسي، أجابني على سؤاله:

ـ «سوف أقضي كلَّ السَّنوات المتبقيَّة من حياتي؛ لقد قضيت بالفعل خمس عشرة سنةً منها هنا».

قال ذلك بافتخارٍ وزهوٍ واضحَين، في الوقت الذي أطلقت فيه صوتًا تشوبه الصَّدمة والإشفاق.

يجب أن أعترف بأنَّني صُدمت. لقد سمعت وقرأت الكثير عن محكومين بالسَّجن مدى الحياة، ولكنَّه كان أوَّل حالةٍ أراها وأتحدَّث معها وجهًا لوجهٍ، وربَّما رسخت قصَّة ذلك الرَّجل في ذهني للسَّبب نفسه، لأنَّه وفي الوقت الذي سبق مغادرتي سجن سان كوينتين كنت أنظر إلى السُّجناء المحكومين بالمؤبَّد نظرةً باردةً وخاليةً من أيِّ انفعالٍ، وفي كثيرٍ من الأحيان لم أكن أشعر حيالهم بالتَّعاطف، لا سيَّما أولئك الأشخاص ذوي الأمزجة السَّيِّئة. بقيتُ أراقب هذا الرَّجل بالذَّات طوال الأشهر السِّتَّة التي أعقبت وصولي إلى السِّجن، ولاحظت أنَّه كان يتعمَّد الحديث مع كلِّ سجينٍ جديدٍ إلى أن يفرغ منه. كان يستجدي التَّعاطف والشَّفقة، ويُشعر النَّاظر إليه بأنَّه مظلوم، تمامًا كما فعل معي.

جلست معه نحوَ ساعةٍ، حدَّثني خلالها عن حياته وعن الجريمة التي أفسدت تلك الحياة. كان يعمل راعي بقرٍ، وكان ناجحًا في عمله. أخبرني بأنَّه قتل زوجته الشَّابَّة لأنَّها كانت تخونه باستمرار.

يمكنني بسهولةٍ أن أتخيَّله من النَّوع الذي يمكن أن يصرخ في وجه زوجته عندما يفقد أعصابه، لأنَّه كان متهوِّرًا وأنانيًّا جدًّا. عرفت ذلك من الطَّريقة التي كان يتحدَّث بها عن نفسه، ومن انغماسه في الشَّفقة على ذاته بشكلٍ مبالغٍ فيه، ولكنَّني لم أتخيَّل أنَّه يمكن أن يُقدِم على جريمةٍ كجريمة القتل.

حاولت مرارًا أن أقاطعه لأستفسر منه عن ظروف الحياة في السِّجن، ولكنَّه كان يواصل الحديث عن شؤونه الخاصّة وعن الحقائق المتعلِّقة بقضيَّته دون توقُّف. من الواضح أنَّ نظرات الإشفاق والقلق التي اصطنعتها قد حمَّسته كثيرًا للحديث عن نفسه.

بعد مضيٍّ بضع سنوات، نجح هذا الرَّجل في الحصول على إفراجٍ مشروطٍ بعد قيامه بمحاولة انتحارٍ فاشلة.

لطالما تساءلت عن سبب قيامه بذلك. لم أستطع سوى أن أفترض أنَّه قد فشل في الحصول على التَّعاطف الإنسانيِّ الذي كان يلزمه ليتصالح مع نفسه. لم أذكر أنَّه قد أشار يومًا إلى ضحيَّته بشيءٍ غير الازدراء، أو أنَّه عبَّر يومًا عن شعوره بالنَّدم على قتلها. لقد جلب ذلك الرَّجل الحزن والتَّعاسة على والدتها وأبيها.

ومع ذلك، فإنَّ الأشخاص الذين لا يعرفون كلَّ الحقائق، ولا يعرفون ذلك الرَّجل كما عرفته أنا، ليس لديهم الحقُّ في إدانته. كان بإمكاني أن أحكم عليه بإنصافٍ، ولكن هل أمتلك الحقَّ في الحكم على أيِّ شخص؟ هذا السُّؤال يجب أن تجيب عليه بنفسك. أنا أعلم أنَّني صادق، وأنَّني رأيت الجانب المظلم والمنير من السِّجن، وأنَّني لا أحكم بعاطفتي حتى لو تطلَّب الأمر أن أدين أشخاصًا مستضعفين أحيانًا. أنا أدين نفسي.

كنت قد لاحظت زنجيًّا صغير الحجم. كان مخلوقًا رقيقًا وهزيلًا، خدَّاه غائران، وعيناه كبيرتان وحزينتان، وكان يرتدي قميصًا أحمر.

سألت شخصًا كان بجواري: «لماذا يرتدي قميصًا أحمر؟».

«بغيةَ تمييزه عن الآخرين. إنَّه يقضي حكمًا بخمسٍ وثلاثين سنةً، ويعاني مرض السُّلِّ. قاموا بعزله ليعمل في حديقة الخضراوات، حتى لا يصيب أحدًا بالعدوى، وفي يومٍ من الأيَّام قام بالهرب من فوق التَّلِّ، وتسلَّل عبر أعمدة

السُّور. يبدو أنَّ صغر حجمه قد أخفاه عن أعين الحرَّاس. قرع الحرَّاس أجراس الإنذار، وخرجت مجموعةٌ للبحث عنه، وسرعان ما وجدوه مختبئًا في حظيرةٍ تبعد ثلاثة أميالٍ عن السِّجن، وأعادوه إلى السِّجن بعد أن ألبسوه قميصًا أحمر مثلما جرت العادة مع من يحاول الهروب من السِّجن».

لقد نسيت اسم الزِّنجيِّ الصَّغير، ولكنَّني كنت معتادًا مراقبته بإشفاق. لم أر في حياتي وجهًا بشريًّا له مثل تلك الملامح العميقة.

بعد حوالي ثلاثة أشهرٍ من دخولي السِّجن اختفى الزِّنجيُّ، وعند سؤالي عنه تبيَّن أنَّه قد أُرسل إلى المستشفى القديم، ذلك المكان الذين يقضي فيه المرضى آخر أيَّامهم على وجه الأرض. عرفت لاحقًا أنَّه قد فارق الحياة مع حلول فصل الشِّتاء.

أتساءل، هل كانت روحه سوداء؟

لقد تعلَّمت من قصَّة ذلك الزِّنجيِّ أنَّه عندما يصاب السَّجين بداء السُّلِّ في سجن سان كوينتين، فإنَّه لن يتعافى من مرضه أبدًا، وحتى لو كان شابًّا صغيرًا في السِّنِّ، خاليًا من أيِّ عللٍ جسديَّة، فإنَّ ذلك المرض سيقضي عليه.

لا تُغسَل أرضيَّات سجن سان كوينتين بالماء أبدًا، فالبنية التَّحتيَّة للمبنى لا تسمح بذلك، كما أنَّ نظام التَّهوية سيِّئٌ للغاية. وحده السَّجين الذي قضى ولو ليلةً واحدةً في تلك الزَّنازين يعرف جيِّدًا ما أعنيه. يمكن أن تتخيَّل صورة الهواء الذي يدخل نوافذ السِّجن في الصَّباح، يتسلَّل واضحًا للأعين بكلِّ ما يحويه من ملوِّثات، ويستطيع المرء أن يستشعر مذاقه في فمه. إنَّه ينقل الأمراض المعدية ببطءٍ إلى هذه الزَّنازين، والعديد من السُّجناء الأصحَّاء قد أصيبو بالسُّلِّ عن طريق ذلك الهواء.

بالنِّسبة إلى هذا الموضوع، أودُّ أن أشير إلى أنَّ الهنود والزُّنوج أكثر عرضةً للإصابة بالمرض من سواهم من السُّجناء الصِّينيِّين والبيض. يمكنني

أن أستنتج بسهولةٍ سبب إصابة الهنود السَّريعة بالمرض، فهم كائناتٌ تذبل وتموت في السِّجن، بعد أن كانوا يقضون جلَّ حياتهم الطَّبيعيَّة في الهواء الطَّلق، ولكنَّني لم أتمكَّن يومًا من معرفة سبب استسلام أجساد الزُّنوج للمرض بهذه السُّرعة.

لكي نكون منصفين تمامًا، أذكر أنَّه في مرَّةٍ من المرَّات، قبل بضع سنواتٍ، صدر أمرٌ قضائيٌّ لجميع الأطبَّاء العاملين بالسِّجن يقضي بوضع جميع الحالات المصابة بالسُّلِّ في الجناح المخصَّص للحالات غير القابلة للشِّفاء، حتى يتم تعقيم جميع الأماكن التي مكث فيها أولئك المصابون، ولكن، ومثل العديد من الأوامر الأخرى، نُسِيَ هذا الأمر منذ فترةٍ طويلةٍ، وعلى حدِّ علمي واعتقادي، لم تقم إدارة السِّجن بأيِّ إجراءٍ يمنع تفشِّي هذا المرض الفتَّاك طوال الفترة التي قضيتها في السِّجن.

في السَّاعة الرَّابعة والرُّبع مساءً، دوَّت أصوات الصَّافرات في الفناء. أخبرني أحد السُّجناء الذين تعرَّفت عليهم حديثًا بأنَّ وقت تناول العشاء قد حان، فأخذت مكاني في الصَّفِّ خلفه. لم يكن هناك سوى عددٍ قليلٍ لا يتجاوز المائة من الرِّجال في الفناء العلويِّ. أخبرني رفيقي أنَّ العدد الأعظم من السُّجناء يدخلون صالة الطَّعام من المدخل السُّفليِّ.

لن أنسى أبدًا انطباعي الأوَّل عن الفوضى التي عمَّت صالة الطَّعام. كان موقعها تحت الأرض تقريبًا، وكانت هناك نوافذ قليلةٌ في جانبٍ واحدٍ من الجدار، ولم يتجاوز طول تلك النَّوافذ مجتمعةً الأربعمائة قدم مقارنةً بمساحة المكان الضَّخمة. كانت جميع النَّوافذ والأبواب قديمةً وباليةً، وكان الضَّوء ينقطع أحيانًا من تلك النَّوافذ في أكثر الأوقات التي نحتاج فيها إليه، فيصبح من الضَّروريِّ أن نستعين بضوءٍ صناعيٍّ لنتناول وجبة منتصف النَّهار. يمتدُّ الممرُّ إلى نهاية هذه الصَّالة الشَّبيهة بالقبو، وتوجد على أطرافه طاولاتٌ طويلةٌ تتَّسع الواحدة منها لاثنين وعشرين شخصًا. الأرضيَّة من الإسفلت،

ودائمًا ما تكون رطبةً أو مبلَّلة، والجدران مكسوَّةٌ بالكلس، وبالطَّبع لا توجد أغطيةٌ أو مناديل على الموائد. جميع تلك الطَّاولات فارغٌ من أيِّ إضافات. نستخدم صواني قصديريَّةً صدئةً للحصول على الطَّعام، ومن وقتٍ لآخر يضيف الطَّبَّاخ صينيَّةً أو اثنتين على سبيل التَّجديد. رائحة المكان أسوأ من رائحة الإسطبل، وكلَّ يومٍ تزداد تلك الرَّائحة سوءًا.

يتوزَّع السُّجناء على الطَّاولات بطريقةٍ عشوائيَّةٍ باستثناء السُّجناء الصِّينيِّين الذين يُعزَلون على طاولاتٍ منفصلةٍ، أمَّا الزُّنوج واليابانيُّون والهنود ومرضى الزهريِّ، وكبار السِّنِّ الذين لا يمتلكون أسنانًا، والشَّباب اليافعون الذين يمتلكون شهيَّةً كبيرةً للطَّعام، فجميعهم يتوزَّعون كما يحلو لهم بعد وقوفهم في صفٍّ واحدٍ أمام قدور الطَّعام.

تُخصَّص طاولةٌ لأولئك الذين ليس لديهم أسنان، وتُعرف باسم: «الطَّاولة الدَّرداء»، ويُسمح لهم بتناول الطَّعام لوقتٍ أطول من الآخرين الذين يُسمح لهم باثنتي عشرة دقيقة فقط لتناول وجباتهم، ويُقدَّم الطَّعام في قدورٍ كبيرة، وكلُّ سجينٍ مسؤولٌ عن خدمة نفسه. لا يوضع في القدور أيُّ معالق أو مغارف. ينحني السَّجين فوق القدور المشتركة ويغرف طعامه بملعقته الخاصَّة التي يأكل منها. أمرٌ مثيرٌ للاشمئزاز ولا سيَّما في الأيَّام التي نحصل فيها على اليخنة.

أذكر رجلًا دخل السِّجن ثلاث مرَّاتٍ بثلاث جنحٍ مختلفة. كان يُعرف باسم «الرُّوسي»، وكان وجهه مغطًّى بالقروح والبثور، واعتاد أن يدهن بثوره دائمًا بمرهمٍ أبيض. وقفت مرَّةً خلف ذلك الرَّجل، ورأيته وهو يتناول الحساء من القدر بمعلقته ثمَّ يعيد الملعقة ليغرف بها الحساء مرَّةً أخرى.

لا أريد أن أشعرك بالاشمئزاز، وأتمنَّى أن تنسى هذه الصُّورة قبل أن تعود إلى منزلك لتناول العشاء. لكن إذا تساءلت يومًا عن سبب شعور الرَّجل الذي

يخرج من السِّجن بالمرارة وبالرَّغبة في الانتقام، فربَّما تساعدك هذه الحقيقة البسيطة على فهمه والتَّعاطف معه.

إذا كان الغرض من السِّجن عقابيًّا بحتًا، فلماذا لا يُدان هذا الرُّعب والأهوال الأخرى؟ أمَّا إذا كان هناك هدفٌ ولو بسيطٌ لإصلاح السَّجين وجعله رجلًا أفضل، فيجب أن تكون هذه التَّجاوزات مكشوفةً أمام كلِّ النَّاس. كما قلت من قبل، لن يعرف أحدٌ تلك المعاناة إلَّا من عاشها، وشعر بها، ورآها بأمِّ عينه.

حتى مسؤولو السِّجن والقائمون عليه، ممَّن كانوا يرون مثل هذه الأشياء كلَّ يوم، لم يلحظوا يومًا معاناتنا. لم يكن اهتمامهم منصبًّا إلَّا على الحفاظ على الانضباط وتوفير ما يكفي من الطَّعام.

إنَّ الطَّعام لم يكن أبدًا مبعثًا للشَّكوى. إنَّه وافرٌ ومفيدٌ، خاصَّةً في ظلِّ رئاسة السِّجن الجديدة، ولكن هناك الكثير من الأمور التي يجب توفيرها والعناية بها، وهي ليست بالأمر التَّافه. إن كان من الواجب علينا أن نتناول الطَّعام كالخنازير، فيجب أن نتحوَّل إلى خنازير، ولا بدَّ أنَّنا سنحمل غرائز الخنزير معنا عندما نخرج من السِّجن. صحيحٌ أنَّ هناك عددًا قليلًا من الرِّجال الذين كانوا يمتنعون عن تناول الطَّعام بصورةٍ دائمة، ولم يكونوا يتناولون إلَّا الحدَّ الأدنى من الطَّعام الذي يمكن أن يحافظ على أجسادهم وأرواحهم، ولكن ألا يشترك هؤلاء معنا بالمعاناة نفسها؟

لكي نؤدِّي عقوبة الجريمة، كان علينا أن نفقد حرِّيَّتنا، وأن نعمل يوميًّا وعلى مدى سنواتٍ طويلةٍ دون أن نتلقَّى أيَّ أجرٍ، وأن نكابد وصمة العار التي يحملها النَّاس تجاه السُّجناء السَّابقين. ألا تكفي كلُّ تلك الأمور لنكفِّر عن جرائمنا؟

هل كان علينا أن ننزل إلى مستوى الحيوانات، وأن نحرم أجسادنا إشباعَ الغرائز الأساسيَّة المتأصِّلة فينا، والتي لا نستطيع بأيِّ حالٍ من الأحوال إرواء ظمئها؟

لماذا يفعلون ذلك بنا؟

ما الغرض من ذلك؟

ألا تحطُّ هذه الأمور من قدر الإنسان وتملؤه بالحسرة والمرارة؟

ألا يشعرون أنَّنا سنصبح أكوامًا من القذارة عند عودتنا إلى المجتمع؟

هل يتوقَّعون منَّا أن نصبح رجالًا أفضل في ظلِّ تلك الظُّروف؟

قد يقول البعض: «أوه هذا جيِّد! هذا هو بالضَّبط ما يستحقُّونه. سوف يعلِّمهم ذلك درسًا لن ينسوه. سيكونون مرعوبين للغاية، مشمئزِّين للغاية، لدرجة أنَّهم لن يعودوا لحياة الإجرام مرَّةً أخرى».

ولكن إن كان ابنك أو زوجك أو والدك هو من ارتكب الجريمة، هل كنت ستدافع عن حبسه في السِّجن كما تُحبَس الخنازير؟ بالطَّبع لن تفعل. قد تكون منصفًا بما يكفي لتقرَّ بأنَّه يستحقُّ عقوبة السَّجن، ولكنَّك بالتَّأكيد لن تقرَّ بأنَّه يستحقُّ أن ينزل إلى مستوىً أدنى من مستوى الحيوانات لكي يُلَقَّن درسًا لن ينساه!

هذه الحجج تنبع من الانتقام، والانتقام ينبع من الكراهية، والكراهية لا تولِّد دائمًا إلَّا الكراهية.

في بعض الأحيان يتلاشى شعور السَّجين بالرُّعب النَّاتج عن هذه الظُّروف، فيصبح ضحيَّةً للَّامبالاة، ولكن تأكَّد أنَّه عندما يتظاهر أحدهم باللَّامبالاة، فإنَّ الكراهية في داخله تكون في غاية التَّوقُّد. كنت ألاحظ سجينًا جديدًا يجلس على الطَّاولة نفسها كلَّ يوم. كان يقضم قطعة خبزٍ ويحتسي «الشَّاي» أو «القهوة»، ثمَّ بعد مرور بضعة أشهر، رأيت الرَّجل نفسه يتناول طعامه كالخنازير على الطَّاولة.

إنَّ ذلك التَّصرُّف ناتجٌ عن طبيعة النِّظام السَّائد، وأفضِّل أن أعدَّه تطوُّرًا في القدرة على التَّكيُّف مع الظُّروف، وهذا أمرٌ مرغوبٌ عندي.

دعني أخبرك بكلِّ صراحةٍ ووضوحٍ أنَّ عددًا قليلًا جدًّا من الرِّجال ارتدعوا عن ارتكاب الجرائم بعد خروجهم من السِّجن بسبب خوفهم من العواقب، حتى بعد أن اختبروا جميع تلك العواقب إلى آخر تفاصيلها المقزِّزة. إن كنت تظنُّ أنَّ هذا النِّظام سيكون مفيدًا لأيِّ شخصٍ تخطَّى ظروف السِّجن التي ذكرتها لك آنفًا، والتي سأستفيض بذكرها لاحقًا، فلا يمكنني أن أقنعك بعكس ما تظنُّه، ولكنَّني أعلم يقينًا أنَّ تعزيز مبدأ الانحطاط والانتقام بهدف تحقيق العدالة سيخلق سجينًا محرومًا ليس من حرِّيَّته فحسب، بل من طبيعته الخيِّرة أيضًا، ومن أيِّ شعورٍ فطريٍّ بالأخلاق التي كان يمتلكها.

لم أتناول أيَّ شيءٍ في وجبتي الأولى. شربت القليل من الشَّاي فحسب. كنت أشعر بالنُّفور من الهمجيَّة التي انقضَّ بها الآخرون على أطباق الفول السَّاخن والخبز والشَّاي.

لفت انتباهي رجلٌ يضع نظَّارةً ذهبيَّةً ويجلس في المقعد المواجه لي. كان وجهه يعبِّر عن الاشمئزاز، ولكنَّه كان يتصرَّف مثلهم في كلِّ شيء. في اليوم التَّالي علمت أنَّه كان يقضي الشَّهر الأخير من عقوبةٍ امتدَّت أربع عشرة سنةً. علمت أنَّه اتُّهم بالتَّزوير، وأنَّه كان وريثًا لشخصٍ بارزٍ في المجتمع. أفضى ذلك الرَّجل إليَّ بخوالج روحه قبل أن يغادر السِّجن. أخبرني أنَّه قد عزم على التَّوبة والتَّكفير عن أخطائه، ولكنَّه لم يفعل، فهو الآن محكومٌ بجريمةٍ أخرى وسيقضي سنواتٍ طويلةً في السِّجن الشَّرقيِّ.

حياة ذلك الرَّجل يمكن أن تخلَّد في كتابٍ كامل.

إنَّه مجرَّد مجرمٍ صنعه النِّظام، مجرمٍ كان من الممكن أن يكون مواطنًا شريفًا وملتزمًا بالقانون ومتفانيًا في خدمة المجتمع، ولكن معظم هذه الصِّفات يجب أن تُخلق في الفرد من خلال أفعالٍ ملموسةٍ على أرض الواقع، فقراءة العموميَّات متعبةٌ وغير مثيرةٍ للاهتمام. قبل أن أنتهي من هذه النُّقطة،

أريد أن أخبرك بهذه الحقيقة: إنَّ إطعام اللَّحم ليس مهمًّا بقدر إطعام الرُّوح البشريَّة. أتمنَّى أن تكون قد فهمت ما أعنيه.

لم تكن وجبتي الأولى في السِّجن موفَّقةً، فأنا لم أتمكَّن من تناول أيِّ شيءٍ من الطَّعام، وكنت سعيدًا عندما أعلنت الصَّفَّارة أمر الخروج من صالة الطَّعام.

يتطلَّب الأمر حوالي اثنتي عشرة دقيقةً ليتمكَّن جميع السُّجناء من دخول صالة الطَّعام، وعندما يدخل آخر سجينٍ منهم يبدأ الوافدون الأوائل بالمغادرة، فيستمرُّ الموكب ذو الملابس المخطَّطة بالمسير على امتداد الممرِّ.

تُعَدُّ مشاكل المعدة أمرًا شائعًا بين غالبيَّة السُّجناء، وأنا منهم، ولطالما لمتُ المدَّة الإلزاميَّة المحدَّدة باثنتي عشرة دقيقةً فقط لإنهاء الطَّعام. لماذا يجب على الرِّجال الذي يعملون طوال فترة محكوميَّتهم أن يأكلوا كما لو أنَّ القطار سيفوتهم في أيِّ لحظة؟ سألت سجينًا قديمًا عن هذا الأمر ذات يومٍ، وأخبرني أنَّ معظم الرِّجال يمكنهم تناول كلَّ ما يحتاجون إليه في اثنتي عشرة دقيقة، وإذا بقوا في صالة الطَّعام حتى ينتهي آخر أعضاء «الطَّاولة الدَّرداء» من تناول طعامه، فإنَّهم سيشعرون بالانزعاج والقلق، وسيثيرون المزيد من الاضطرابات والمشاكل في صالة الطَّعام.

لا يُسمح للسُّجناء بالحديث في أثناء وجودهم في صالة الطَّعام، ويُعَدُّ تناول الوجبات وظيفةً روتينيَّةً أكثر منه فرصةً للتَّرويح عن النَّفس، أي أنَّه ينطلق من مبدأ «أنا أفعل ذلك للبقاء على قيد الحياة لا لأنَّني أرغب في ذلك»، وينعكس هذا التَّصوُّر على وجوه الرِّجال عندما يحين موعد الوجبات.

عندما اجتزت مخرج صالة الطَّعام في طريقي إلى الفناء العلويِّ لاحظت وجود لافتةٍ تحت السَّاعة كُتب عليها «الوقت يمضي». لقد كانت نصيحةً إيجابيَّةً ومتفائلةً ولكنَّها فشلت في إقناعي في تلك اللَّحظة.

في الفناء كان لدينا متَّسعٌ من الوقت لنروِّح عن أنفسنا قبل أن تدوِّي صافرات الإقفال، وكنت محطَّ اهتمام ما يقرب من ألفي زوجٍ من العيون الفضوليَّة.

إنَّ السَّجين الجديد، أو «السَّمكة» كما يلقِّبونه، يكون دائمًا موضع اهتمام السُّجناء الآخرين، وعادةً ما يتمُّ التَّعامل معه بشكلٍ جيِّدٍ ليجيب عن أسئلتهم حول ما حصل في المدَّة الأخيرة في العالم الخارجيِّ، ويستمرُّ ذلك إلى أن تقع سمكةٌ جديدةٌ في الشَّبكة.

عندما دوَّت صافرة الإنذار، تدافع السُّجناء على السَّلالم الحديديَّة الموصلة إلى عنابر السِّجن الأربعة. حذَّرني صوتٌ خلفي:

«لا تضيِّع أيَّ وقت. إن لم يجدك السَّجَّان في زنزاتك وقت العدِّ، فسيقومون بإرسالك إلى الجحيم».

« الجحيم؟».

«السِّجن الانفرادي».

لم يبد ذلك مطمئنًا، وأردت أن أسأله المزيد من الأسئلة، ولكنَّه ابتعد عن ناظري، ولم أضيِّع أيَّ وقتٍ في الوصول إلى الزِّنزانة رقم 34.

من المربك أن ينتهي اليوم الأوَّل للسَّجين دون أن يعرف من هم رفاقه في الزِّنزانة. كنت أعرف أنَّني وُضعت في زنزانةٍ فيها خمسة أسرَّةٍ، ما يعني وجود أربعة رفاقٍ في الزِّنزانة، ولكنَّني لم أعرف من هم، سواءٌ أصغارًا كانوا أم كبارًا، خطيرين أم مرحين، أصحَّاء أم مرضى، متعاونين أم أنانيِّين.

عند وصولي إلى مدخل الزِّنزانة، ألفيت ثلاثة رجالٍ منهم بالباب، وقبل أن تُتاح لي الفرصة لتفحُّص أشكالهم، اقترب منِّي أحدهم وقال لي آمرًا:

«انزع قبَّعتك، وقف تحت الضَّوء».

« يجب أن تنزع قبَّعتك قبل أن يبدأ السَّجَّان بالعَدِّ».

كانت تلك بدايةً صادمةً وغير متوقَّعة، ولكنَّني فعلت ما قيل لي. سمعت الأبواب تغلق في الزَّنازين المجاورة، ومثلما سيفعل أيُّ سجينٍ احتلَّ المرتبة الأخيرة في الزِّنزانة وقفت بلا صوت، وتسمَّرت في مكاني، وسرعان ما وقف سجَّانٌ ضخم الجثَّة أمام الزِّنزانة. سمعته يتمتم وهو يحدِّق في وجوهنا: «خمسة»، ثمَّ أغلق باب الزِّنزانة بعنفٍ، وأحكم وضع الأقفال فيه.

في الخارج لم تكن الشَّمس قد غربت بعد، ولكن عندما أغلق السَّجَّان الباب، أصبحت الزِّنزانة مظلمةً كما لو أنَّ المساء قد احتلَّ المكان فجأة. قام أحد رفقاء الزِّنزانة بإشعال عود ثقابٍ، ووضعه في مصباح الزَّيت.

«عليك أن تنتبه لأصابعك حين تشعل ثقابًا، فقد أحرق أحد السُّجناء الجدد يده في الأسبوع الماضي. يقولون إنَّه أراد أن يحدث صدعًا في الجدار عندما أغلق السَّجَّان الباب، وإنَّه كان يخطِّط للهروب، ولكنَّه لم يكن يمتلك الخبرة الكافية لينجح في ذلك. سأريك إيَّاه غدًا. اسمي ريان سموكي، ولكن الجميع هنا ينادونني بسموكي».

كان ذلك هو الرَّجل نفسه الذي أمرني بخلع قبَّعتي قبل لحظات. راقبت وجهه عن كثبٍ وهو ينحني فوق المصباح. لم يكن وجهًا قبيحًا، ولكنَّه كان يشي بالكثير من التَّبلُّد الحسِّي. كانت له عينان صغيرتان ومتدانيتان على نحوٍ غريبٍ. صحيحٌ أنَّني أردت أن أتغلَّب على عادتي المتأصِّلة في التَّنبُّؤ بالأشخاص من انطباعي الأوَّل عنهم، ولكن اعتراني شعورٌ بأنَّني سأستلطف هذا الرَّجل.

قال لي حين لاحظ ارتباكي وحيرتي: «اعتبر نفسك في منزلك».

«لكن ماذا أفعل؟».

«لا تقم أبدًا بإلقاء أغراضك على الأرض، ولا تترك أغطية السَّرير دون توضيبٍ. نحن لا نطيق هذا، أليس كذلك أيُّها الرِّفاق؟».

ضحك الجميع. غمرتني هذه الأجواء باللُّطف، وشعرت بتحسُّنٍ كبير.

تجرَّد الرِّجال الثَّلاثة الآخرون من ملابسهم على الفور، ثمَّ زحفوا تحت أغطيتهم. لم يتحدَّث أيٌّ منهم معي. كان أحدهم قزمًا صغيرًا في السِّنِّ، وكان مظهره سيِّئًا للغاية، بينما تراوحت أعمار الرِّجال الآخرين بين الخامسة والثَّلاثين والأربعين. كان السَّجين الثَّاني نحيفًا ذا شعرٍ أشقر طويلٍ ووجهٍ ممتلئٍ بالحفر، أمَّا السَّجين الثَّالث فكان مختلط العرق، وبدا عرقه الإيطاليُّ طاغيًا عليه.

قام سموكي بنقل أثاث الزِّنزانة المكوَّن من طاولةٍ صغيرةٍ متهالكةٍ، ودلوٍ قذرٍ، ووضعه في جانبٍ واحدٍ، ثمَّ سحبَ مرتبتي عن السَّرير العلويِّ، وكنت قد وضعتها هناك عندما دخلتُ الزِّنزانة أوَّل مرَّة.

قال لي: «لا يمكنك النَّوم على المرتبة الجديدة مباشرةً. سوف تتدحرج في المرَّة الأولى كما لو كنت على متن سفينةٍ اصطدمت بموجةٍ عالية».

كانت المرتبة ملفوفةً ومحشوَّةً بالقشِّ. قمنا بفردها على أرضيَّةٍ فولاذيَّةٍ صدئة، وراح سموكي يقفز عليها. دعاني للانضمام إليه، فاستجبت له، وقفزنا لأعلى ولأسفل لمدَّة عشر دقائق أو ربَّما خمس عشرة دقيقةً حتى حصلنا على فراشٍ مسطَّح. بدا سموكي راضيًا عن النَّتيجة التي قمنا بها، فأعدنا المرتبة إلى السَّرير. لم يتجاوز وزنها خمسة أو ستَّة أرطال. كان المصباح قد استهلك معظم الأكسجين الموجود في الغرفة، مع أنَّنا لم نشعله إلَّا لبضعِ دقائق فحسب. لقد استهلك المصباح بالفعل معظم الأكسجين. صحيحٌ أنَّ هذه الزِّنزانة كانت أفضل بكثيرٍ من الزِّنزانة التي حُجزتُ بها في مركز الشُّرطة، ولكنَّني كنت مرعوبًا من فكرة قضاء وقتٍ طويلٍ في زنزانةٍ مزدحمةٍ بعددٍ من الأشخاص، ولا يتوافر فيها أيُّ مصدرٍ للتَّهوية. كنت قد بدأت بالفعل أشعر بالاختناق.

الفصل الخامس

بينما كان سموكي يرتِّب سريري نظرت إلى الخارج من شقٍّ في الباب الحديديِّ. كان الفناء الخارجيُّ واسعًا، وكانت الشَّمس ما تزال ساطعةً، فآذى وهج ضيائها عينيَّ. رأيت عددًا من السُّجناء يعبرون باحة السِّجن الخارجيَّة.

سألت سموكي: «من هؤلاء؟».

اقترب سموكي من البوَّابة واختلس النَّظر معي، ثمَّ قال: «أوه، إنَّهم سجناء يعملون طهاةً، أو عاملي نظافة، أو مساعدين في المكاتب، بعضهم لا يعودون إلى زنازينهم حتى السَّاعة الثَّامنة مساءً، وهناك ثلاثةٌ منهم ينتهون من أعمالهم بعد دخولنا».

عرفت لاحقًا أنَّ المراقب اللَّيليَّ، ذلك الذي كان مسؤولًا عن حراسة العنابر بعد السَّاعة الخامسة عصرًا، لم يكن عمله يتجاوز قفل الأبواب والتَّحقُّق من اكتمال عدد المساجين. ينصُّ النِّظام على فتح أقفال جميع الزَّنازين الفارغة في الصَّباح، حتى يتمكَّن السُّجناء من الدُّخول إليها بعد أن ينتهوا من أعمالهم، ويقوم المراقب بتفقُّد تلك الزَّنازين لاحقًا ويغلقها مرَّةً أخرى في المساء.

بطبيعة الحال كنت مهتمًّا بالتَّعرُّف على زملائي الآخرين في الزِّنزانة. بعد أن ابتعدنا عن البوَّابة تحدَّثت إلى صاحب الشَّعر الأشقر الطَّويل، وكان يرقد في السَّرير السُّفليِّ، مقابل الباب.

سألني: «ما مدَّة محكوميَّتك؟».

سمعت سموكي يناديه بلقب «الكونت»، وعلمت لاحقًا أنَّه ينحدر من عائلةٍ رفيعة الحسب والنَّسب في الألزاس، وأنَّ عائلته قد أرسلته إلى أمريكا بعد أن اقترف عدَّة جرائم في بلاده، على أمل أن يستقيم وينصلح. كان يتحدَّث بلكنةٍ ألمانيَّةٍ، وأخبرني أنَّه مريضٌ، وعلمت أنَّ مجموعة زجاجات الأدوية الموضوعة في زاوية الزِّنزانة تعود إليه. كانت بعض تلك الزُّجاجات مغطَّاةً بالزَّيت، فالتصق بها الغبار وجعلها تبدو قذرةً للغاية.

في ذلك الوقت كان يُسمح للسُّجناء بشراء الأدوية، وكان بعضهم ينفق كلَّ أمواله على شراء الدَّواء. يتوهَّم الكونت أنَّه مريضٌ بكلِّ الأمراض الجسديَّة المعروفة وغير المعروفة، وكان لديه عددٌ من المقوِّيات، وزيوت الأعشاب، والمسكِّنات، والحبوب، والمراهم، والتَّحاميل، وغيرها من الأدوية الأخرى، وخلال نصف السَّاعة الأولى من تعارفنا ابتلع خمس جرعاتٍ من الدَّواء.

لقد أُلغيَ امتياز شراء الأدوية قبل فترةٍ طويلةٍ، ولكن في ذلك الوقت، كان أحد مسؤولي السِّجن يبيع كلَّ أنواع الأشياء للسُّجناء، وكان يحقِّق حوالي خمسين بالمائة من الرُّبح على كلِّ عمليَّة بيع. كان يبيع السَّجَّاد، والبُسُط، والمراتب، والملاءات، والمناشف، والسَّاعات، والملابس الدَّاخليَّة، والقبَّعات، وربطات العنق، والجوارب، والأحذية، والمناديل، والأدوية، وحتى الوسائد المحشوَّة بالرِّيش، وكان هناك سجينٌ يمتلك مالًا أكثر ممَّا قد يمتلكه أربعون رجلًا معًا، فاشترى ذات يومٍ ستَّ دزِّيناتٍ من زجاجات الأدوية المسكِّنة، وشرب منها إلى أن أصيب بحالة هذيانٍ وسُكْرٍ، وافتعل الكثير من الفوضى، فتمَّ نقله إلى السِّجن الانفرادي وتلقَّى عقابًا على ذلك.

الغريب أنَّ الحادث قد تناهى إلى عِلْمِ مجلس الإدارة، فصدرت أوامر بمنع السُّجناء من شراء أيِّ شيءٍ بما في ذلك المناشف والصَّابون. أمَّا في الوقت الحاضر، فيُسمح للسُّجناء بشراء الحاجيَّات الضَّروريَّة وفق عمليَّةٍ منظَّمةٍ، بحيث يدفع السُّجناء الحدَّ الأدنى من السِّعر، ويمكنهم شراء الصَّابون وفُرَش

الأسنان والمناديل والتَّبغ والمعدَّات الموسيقيَّة من الباعة الذي يجلبون تلك الأغراض بسعر الجملة ويبيعونها للسُّجناء دون أرباحٍ تُذكَر. هذا ليس سوى أمرٍ بسيطٍ من بين كثيرٍ من الأمور والتَّفاصيل التي تثبت جدارة المأمور الحاليِّ وعدالته، وسوف أتطرَّق إلى بعضها لاحقًا.

كان من الجيِّد إلغاء بيع الأدوية، فالكثير من الرِّجال لم يكونوا يعرفون قيمة النُّقود التي كانوا يحصلون عليها من أقاربهم، فكانوا يصرفونها على الأدوية التي لم يكونوا في حاجةٍ جدِّيَّةٍ إليها، ممَّا أدَّى إلى إلحاق الضَّرر بأجسادهم وإلى زعزعة انضباط السِّجن. كان هناك طلبٌ كبيرٌ على تلك الأدوية التي يُعتقد بأنَّها تحتوي على موادَّ مخدِّرةٍ، وكثيرًا ما كنت أرى الكونت يشرب زجاجاتٍ كاملةً من تلك الأدوية قبل أن يتناول طعام الإفطار على أمل أن يحفِّزه ذلك الدَّواء على مواصلة يومه.

من اللَّافت للنَّظر أن يميل أغلب السُّجناء إلى تناول أيِّ شيءٍ من شأنه أن يُذهب عقولهم. أعرف حالةً حديثةً لشخصٍ اشترى زيت الكافور من الطَّبيب بحجَّة أنَّه كان يرغب في دهن صدره وحلقه به ليتخلَّص من الزُّكام، ولكنَّه تجرَّعه على الفور. كنت حاضرًا في المستشفى عندما حصل ذلك، وتطلَّب الأمر معجزةً ليتمكَّن الأطبَّاء من إنقاذ حياته. في البداية ظنَّ الطَّبيب أنَّ السَّجين فعل ذلك لأسبابٍ انتحاريَّةٍ، ولكن ما إن عاد إلى وعيه حتى اعترف بأنَّه كان يرغب في تجربة نوعٍ جديدٍ من أنواع الأدوية المخدِّرة.

بعد حوالي ساعةٍ من إغلاق الزِّنزانة، أفزعني دويُّ أصواتٍ موسيقيَّة. لاحظ سموكي دهشتي وارتسمت على ملامحه ابتسامةٌ مُشفقة.

أخبرني قائلًا: «إنَّه مجرَّد عزفٍ بسيطٍ تقوم به الفرقة. إنَّهم لا يقومون بذلك ترحيبًا بقدومك، ولكنَّهم يتدرَّبون على العزف كلَّ يومٍ حتى يتقنوا عزفهم في الفناء أيَّام الآحاد. هل تجيد الرَّقص؟».

أجبته: «كلَّا، للأسف»، فبدا لي أنَّه قد شعر بخيبة أمل.

قال: «هذا مؤسفٌ للغاية. إنَّنا نحظى بوقتٍ رائعٍ عندما نرقص أيَّام الآحاد تحت السَّقيفة. طبعًا لن نحصل على أيَّة هدايا من ذلك، ولكنَّنا نروِّح عن أنفسنا. عليك أن تتعلَّم الرَّقص يا بيل».

بيل هو اسمي بالمعموديَّة، وقد التصق هذا الاسم بي طوال فترة إقامتي في السِّجن.

استمعت إلى مقطوعة «أولومبيا هيبودروم» ثمَّ إلى مقاطع من معزوفة «لوكريسيا بورجيا» قبل أن أُدلي بأيِّ تعليق.

قلت: «إنَّها فرقةٌ جيِّدةٌ جدًّا».

أضاء وجه سموكي. كان سعيدًا لأنَّني أثنيت على هذا الجهد. يبدو أنَّ هناك شعورًا مشتركًا بالفخر بين السُّجناء فيما يتعلَّق بالفرقة وبغيرها من الإنجازات الدَّاخليَّة للمساجين.

«في الواقع أنت تستمع الآن إلى الفرقة في أفضل حالاتها، فقبل خمسة عشر عامًا، كان رئيس الفرقة هو كورنيت جورج، وكان أداء الفرقة آنذاك أقرب إلى النَّشاز، أمَّا الآن، فعزفهم ليس بذلك السُّوء. المشكلة الوحيدة هي أنَّهم يعزفون بنبرةٍ صاخبةٍ جدًّا، وأنا أفضِّل الاستماع إلى الموسيقى الهادئة».

نظرت إليه بدهشةٍ واستغرابٍ. تُرى ما عدد السِّنين التي قضاها في السِّجن؟ لقد تحدَّث عن الخمسة عشر عامًا الماضية وكأنَّها كانت بالأمس، كنت أرغب في طرح ذلك السُّؤال عليه، ولكنَّني امتنعت. أخبرني حدسي أنَّه سيتحدَّث عن نفسه دون أن أستجوبه، ولكنَّ عدم مبالاته كانت لافتةً للنَّظر. جلست على حافة السَّرير ونظرت إليه بذهول.

سألني الكونت فجأةً: «هل تلعب الشِّطرنج؟».

أجبته: «أجل، علام سؤالك؟».

«أوه، أودُّ أن ألعب معك».

«بالتَّأكيد».

«هلمَّ إذن».

نهض من مكانه بلطفٍ، حاملًا معه زجاجةَ دواءٍ، وسحب رقعة الشِّطرنج من تحت السَّرير. رسم تلك الرُّقعة بنفسه ثمَّ ألصقها على لوحٍ خشبيٍّ، ووضع فوقها القطع، ثمَّ وضع بطَّانيَّتين مطويَّتين على الأرض لتكونا بمثابة مقعدين.

خلال قيامه بهذه التَّجهيزات قمت بدراسة وجهه وملامحه. كانت شفتاه سميكتَين ورطبتَين، وكلُّ واحدةٍ منهما كانت تتحرَّك باتِّجاهٍ معاكسٍ للأخرى، كما لو أنَّه كان يقدِّم تنازلًا كبيرًا ليسمح لي باللَّعب معه. وبعد أوَّل خمس أو ستِّ حركاتٍ نظر إليَّ باستغرابٍ، وقال معترضًا:

«لماذا! هل لعبت بحركاتٍ مشابهةٍ لهذه من قبل؟ كنت أظنُّ أنَّك لا تجيد اللَّعب!».

أجبته: «لم ألعب مثلها من قبل، هذه أوَّل مباراةٍ لي منذ سنواتٍ طويلة».

شجَّعه سموكي الذي كان يقف خلفه ويغمز لي: «راهنه بكيسٍ على أنَّك ستفوز عليه أيُّها الكونت! لم يحدث أن قام أحدٌ بهزيمتك في الزِّنزانة من قبل، حتى لو بقوا متغلِّبين عليك طوال المباراة. راهنه على أنَّك ستفوز باللُّعبة».

استسلم الكونت لاقتراح سموكي السَّاخر، واشتعل التَّحدِّي في عينيه:

«أراهنك بكيسٍ كاملٍ على أنَّني سأهزمك!».

سألته: «كيس! ماذا تعني بالكيس؟».

قال سموكي: «كيسٌ من التَّبغ. إنَّه العملة المتداولة هنا، وهو كالمال في الخارج. لقد رأيت بحوزتك كيسًا هذا الصَّباح؟ أليس كذلك؟».

تذكَّرت أنَّني تلقَّيت كيسًا من التَّبغ مع ملابسي الإضافيَّة، وراهنت به على أنَّني سأفوز باللُّعبة.

أصبح سموكي مهتمًّا للغاية برؤية ما سيحدث، ووضع الكونت جلَّ تركيزه في اللُّعبة. أوشكت على الفوز مرَّتين، ولكنَّه نجح في التَّملُّص منِّي في كلِّ مرَّةٍ، وبعد ذلك، وفي لحظةٍ سهوت فيها متفكِّرًا في قذارة الهواء قمت بحركةٍ خاطئةٍ، فذهبت اللُّعبة لصالح الكونت السَّعيد.

واجه سموكي صعوبةً كبيرةً في إخفاء خيبة أمله، ولكنَّه توقَّع أن أفوز في المباراة القادمة.

قال: «لا تغترَّ بنفسك يا فرانكو ألمانيا، فالنَّتيجة لم تُحسم بعد. ما يزال عقل بيل مشغولًا بحياته قبل السَّجن. انتظر حتى يمضي شهرٌ واحدٌ فقط، وسترى من سينتصر».

في أثناء لعب الشِّطرنج لاحظت أنَّ الصَّبيَّ الممدَّد على السَّرير كان يسعل على نحوٍ سيِّئٍ، وتساءلت كم مضى من الوقت وهو على هذه الحال؟ بعد أن وضعنا الشِّطرنج جانبًا سألته: «ما الخطب؟».

أجاب بقلقٍ: «أوه، أنا أسعل طوال الوقت، أعتقد أنَّني أصبت بالسُّلِّ. لقد مات أخي بسببه، كما أنَّ والدتي...».

توقَّف فجأةً عن الكلام ورمقني بنظرةٍ ساخطةٍ كما لو أنَّني أجبرته على البوح بسرٍّ كان يفضِّل عدم البوح به، فلم أتحدَّث معه أكثر من ذلك، مع أنَّني كنت مهتمًّا به وشعرت بالأسف لحاله. كيف يمكنني أن أساعده؟

قاطعَنا صوت صياح سموكي بمساجين الزِّنزانة المقابلة.

صاح بصوتٍ عالٍ: «لقد قدم إلى زنزانتنا سجينٌ جديدٌ يا رفاق!».

أجابه صوتٌ خافتٌ كما لو كان خارجًا من قاع بئر: «هل جرَّبته حتى الآن؟».

أجاب سموكي: «كلَّا، لم يخالف أيَّ قواعد بعد، يبدو أنَّ يديه قويَّتان جدًّا. سيقضي خمس عشرة سنةً هنا».

سألت: «ماذا يقصد بتجريبي؟».

ضحك سموكي: «أوه، هذا فاتي سميث، إنَّهم يجرِّبون كلَّ سمكةٍ جديدةٍ يصطادونها في اللَّيلة الأولى، ويُحكم عليها بحمل الدَّلو لمدَّة شهر. فاتي رفيقٌ جيِّدٌ، ولكنَّه يحبُّ المرح».

سألته: «أحمل الدَّلو؟ ماذا تعني؟».

غمز سموكي للرَّجل الإيطاليِّ قبل أن يجيبني على سؤالي.

«نحن نتناوب حملَ الدَّلو. يستمرُّ دور الواحد منَّا أسبوعًا. عندما يفتحون الزَّنازين في الصَّباح يتعيَّن على أحدنا أن يحمل الدَّلو وعلى آخر أن يحمل المكنسة. راهنت فاتي بدوري في حمل الدَّلو لشهرٍ كاملٍ على أن أصرعه في المكاسرة، وخسر الرِّهان».

من خلال هذه التَّطوُّرات، أدركت أنَّه من الشَّائع أن يراهن نزلاء الزِّنزانة على دورهم في الأعمال الموكلة لهم، وكان سموكي قويًّا بما يكفي ليفوز بتلك الرِّهانات».

سأل الرَّجل الإيطاليُّ: «كيف تهجِّئ كلمة دلو؟».

كانت لديه قطعةٌ من لوح كتابةٍ مكسورٍ وقلم رصاصٍ وكان مشغولًا بمحاولة تعلُّم الكتابة باللُّغة الإنجليزيَّة. كانت تلك هي المرَّة الأولى التي أسمعه يتحدَّث فيها.

أملى عليه سموكي: «دال... لام... لام... واو».

قام الإيطاليُّ بترطيب رأس قلم الرَّصاص بشفتيه ورسم الحروف بشقِّ الأنفس.

سألني بفخرٍ وهو يريني لوحه: «كيف تجدها؟».

نظرت بعنايةٍ إلى الأحرف، ولم أكن أعرف إن كان عليَّ أن أصحِّح الإملاء أم لا. قرَّرت عدم القيام بذلك، حتى لا أضع سموكي في موقفٍ محرج.

علَّقت: «هذا جيِّد، منذ متى وأنت تتعلَّم الكتابة؟».

بدا مسرورًا من تعليقي، وأجاب: «منذ سنتين».

تردَّد لحظةً ثمَّ نهض وطلب منِّي أن أشرف على تعليمه. في البداية لم يعجبني ذلك. كنت أرغب في معرفة المزيد عن الصَّبيِّ، ولكنَّ «السّباغيتّي» مثلما كان يطلق عليه سموكي، كان متحمِّسًا جدًّا لفكرة تعلُّم الكتابة بإتقان، وفي أثناء تعليمي له سمعت صوت بوقٍ مرتفعٍ في الخارج، وعلى الفور، قام سموكي بإطفاء نور المصباح، وتركنا في الظَّلام.

اعتذر بصوتٍ منخفضٍ: «هذه هي القوانين. حين ينفخون في البوق يجب أن نطفئ جميع المصابيح، وإلَّا قاموا بمصادرتها منَّا، ويُمنع الحديث أيضًا، لذلك عندما تحين (ساعة اللَّيل) يجب أن نتوقَّف عن كلِّ شيء».

خلعنا ملابسنا في الظَّلام، وجلسنا نتحدَّث بنبرةٍ منخفضةٍ، ثمَّ صعدت إلى السَّرير العلويِّ.

سألت: «في أيِّ وقتٍ نستيقظ؟».

«في السَّاعة السَّادسة؛ والآن: صَهْ!».

في اللَّحظة التَّالية، سطع نورٌ من ثقب الزِّنزانة، وسمعت صوت يدٍ تتحسَّس القفل. أفزعني ذلك، فرفعت رأسي لأنظر، وإذا بي أضرب رأسي بالسَّقف.

رأيت عين المراقب اللَّيليِّ في ثقب الباب. مكث لثوانٍ ثمَّ أشاح بنظره، وسمعت صوت خطواتٍ مبتعدةٍ، ثمَّ صوت سحب قفل الزِّنزانة التَّالية.

همس سموكي: «هذا المراقب اللَّيليُّ، إنَّه يستطلع أوضاع الزَّنازين بعد السَّاعة التَّاسعة، ولن يرحم أيَّ شخصٍ يراه يتكلَّم أو ينير المصباح».

كنت أرغب في طرح الأسئلة، ولكنَّني سمعت صوت سموكي وهو ينقلب في سريره ويستسلم للنَّوم. ومع أنَّني لم أنم على نحوٍ جيِّدٍ طوال الأسابيع الماضية، إلَّا أنَّني لم أستطع النَّوم في تلك اللَّيلة. كنت أفكِّر وأتساءل. كان

الإيطاليُّ يشخر وهو نائم، أمّا الصّبيُّ المريض فلم يتوقّف عن السُّعال والتّنهُّد من وقتٍ لآخر. أردت التّحدُّث معه، ولكنَّ ذلك كان مخالفًا للقوانين، ولم يكن هناك ما يدلُّ على أنَّ المراقب اللّيليَّ سيختلس النّظر إلى زنزانتنا، ولكنّني عرفت أنّه يتسلّل ببطء، ولا يمكنك أن تلتقط صوت اقترابه إلّا بعد أن تخوض تجربةً طويلةً في السّجن. فجأةً كُسر السُّكون بصوت السّاعة تدقُّ معلنةً العاشرة مساءً، ولكنَّ أحدًا لم يستيقظ من نومه. توقّف الصّوت ثمَّ تكرّر وقع صداه في الفناء، وفي الطّابق السُّفليِّ كان هناك صوتٌ آخر فارتدَّ إلى مسمعيَّ مرّةً أخرى. كان ما يزال خافتًا في البداية، ثمَّ بدا قريبًا، بعد أن تنقّل الصّدى من مكانٍ إلى آخر حول جميع عنابر السّجن، وسرعان ما بدأ الصّوت يخفت شيئًا فشيئًا إلى أن تلاشى تمامًا.

رقيب الحراسة اللّيليّة يستمع إلى السّاعة ويحسب عدد الدّقّات اللّازم قبل أن يوقفها، ويجب ألّا يتجاوز عددها ثماني دقّات. يوضع حرّاسٌ جددٌ في الخدمة اللّيليّة بعد مضيِّ ثلاثة أو أربعة أشهر، وينام العديد منهم في أثناء مناوبتهم مع أنَّ هناك أمرًا صارمًا يمنع النّوم في أثناء تأدية المهامِّ الوظيفيّة، وعندما يكتشف الرّقيب أنَّ أحد الحرّاس قد نام في أثناء مناوبته، فإنّه يجعله يوقّع على إنذارٍ بعدم تكرار هذا الخطأ، ولكنَّ الكثير منهم كانوا ينامون دون أن يكتشف أمرهم أحد، وقد أدّى هذا الأمر إلى إجراءٍ مثيرٍ للاهتمام، فأصبح الرّقيب يستمع باهتمام إلى العدد اللّازم من الدّقّات، وإذا حدث خطأٌ ما، فإنّه يكتشف على الفور أنَّ أحد الحرّاس قد استسلم للنّوم، فيذهب إليه ويأخذ منه مسدّسه ومعدّاته ويسلّمها إلى مسؤول السّجن قبل أن يستيقظ.

وعندما يستيقظ يسأله الرّقيب:

«أين مسدّسك؟».

فلا يعرف الحارس النّائم بما يجيبه.

يخبره الرَّقيب: «ستجده عند مسؤول السِّجن، ولن تحتاج إلى العودة إلى هنا مرَّةً أخرى».

يؤتَى بحارسٍ جديدٍ ليشغل الوظيفة الشَّاغرة، وتستمرُّ الأسطوانة في تكرار نفسها.

في السَّنوات الماضية كانت محاولات الفرار ليلًا أمرًا شائعًا، وأعرف مثالًا واحدًا عاصرته يتعلَّق بمحاولة هروب اثنين من المخبرين الذين يستعملهم رجال الشُّرطة للحصول على الأخبار، وقام قائد الحرس بنشر مجموعةٍ من الرِّجال على نوافذ المبنى وزوَّدهم ببنادق محشوَّةٍ بالرَّصاص، وأمر بإطلاق النَّار على الهاربَين فورًا، وعندما خرج الرَّجلان من بوَّابة السِّجن سقطا على الأرض بدمائهما دون سابق إنذار. لقد أُطلق الرَّصاص عليهما بدمٍ باردٍ كما لو كانا كلبَين. حدث ذلك بكلِّ بساطةٍ، ولم تذكر الصُّحف أيَّ شيءٍ عن ذلك. كان الاتِّصال مع العالم الخارجيِّ ينقطع مع كلِّ عمليَّة قتلٍ تحدث داخل السِّجن.

مرَّت السَّاعة الحادية عشرة، ثمَّ الثَّانية عشرة، فالسَّاعة الواحدة صباحًا، وسمعت دقَّات ساعة المبنى في كلِّ مرَّة، ولكنَّني لم أسمع دقَّات السَّاعة الثَّانية، وحين استيقظت من نومي كانت السَّاعة قد بدأت تدقُّ معلنةً الثَّالثة، وسمعت دقَّات جميع السَّاعات الأخرى حتى مجيء الصَّباح. كان الجميع غارقًا في النَّوم، وكان الصَّبيُّ المريض يهذي من حينٍ إلى آخر ويكابد سعاله المستمرَّ. عندما بدأت شمس النَّهار بالبزوغ، نزلتُ من السَّرير، وسرت نحو شقِّ الباب لأستنشق بعض الهواء النَّقيِّ، فقد كان الجوُّ في الدَّاخل خانقًا وكريه الرَّائحة. يمكن للمرء أن يفهم ما أعنيه إذا قضى ليلةً واحدةً في إحدى زنزانات سجن سان كوينتين. فكَّرت في السَّنوات الطَّويلة التي سأقضيها في ظلِّ هذه الظُّروف، وفهمت لاحقًا السَّبب الذي يجعل الرِّجال بعد خروجهم من السِّجن محطَّمين وبائسين.

أفكِّر الآن في الأوقات التي كنَّا نأكل فيها طعامًا مطهوًّا بشكلٍ سيِّئٍ، أو نشرب مياهًا ملوَّثةً في أواخر الصَّيف، أو نواجه كوابيس المساء المقزِّزة. لقد انقضت السَّنوات التي عشتها في سجن سان كوينتن بشكلٍ مخيفٍ مزدحمٍ بالأهوال. الزَّنازين التي بُنِيَتْ في الأصل لتتَّسع لنزيلين فحسب أصبحت مأوًى لأربعة أو خمسة مساجين. يوجد أقلُّ من سبعمائة زنزانةٍ في السِّجن بينما يوجد الآلاف من السُّجناء، وجميع تلك الزَّنازين متشابهةٌ في البناء وصغيرةٌ جدًّا على نحوٍ يستحيل معه أن يعيش فيها أكثر من رجل. استدعت هذه الحالة تحويل غرفتين كبيرتين في مصنع الأثاث القديم إلى مهاجع ينام فيها ثلاثمائة سجين.

تحدَّثت في الآونة الأخيرة مع رجلٍ بارزٍ مختصٍّ بالشُّؤون العامَّة وأخبرته عن هذه الأشياء. قال إنَّه لا يوجد أيُّ قاضٍ مؤهَّلٍ ليحكم على حال الرِّجال في السِّجن إلَّا إذا قضى ليلةً واحدةً على الأقلِّ في إحدى تلك الزَّنازين.

قد تكون وجهة النَّظر هذه متطرِّفةً، ولكنَّها تصبح ضروريَّةً عندما يتمُّ التَّعامل مع الإنسان على أنَّه حيوانٌ متوحِّش. في هذه الحالة يجب الدِّفاع عن وجهات النَّظر المتطرِّفة.

لا يمكنك أن تصنع قدِّيسًا من رجلٍ تحبسه في الكنيسة، بل ستصنع منه شيطانًا بهذه المعاملة السَّيِّئة.

كنت واقفًا لدى شقِّ بوَّابة الزِّنزانة، ولبثت هناك أستنشق ما استطعت من الهواء النَّقيِّ إلى أن قُرعت أجراس الاستيقاظ. في لحظةٍ واحدةٍ تغيَّر كلُّ شيء. قبل لحظاتٍ كنَّا محجوزين في زنزانةٍ مغلقةٍ من كلِّ الجوانب، وأجواء الصَّيف الخانقة جعلت تلك الجدران والمباني الكئيبة تبدو كالأقباء، الشَّيء الذي يُشعر الأحياء بالموت البطيء. في تلك اللَّحظة سادت أصواتٌ مزعجةٌ لقعقعة المفاتيح، وصرير الأبواب، وصراخ الحرَّاس، الكثير من الصرَّاخ، ما

زاد من وطأة الواقع المرِّ للمكان. استيقظ زملائي في الزِّنزانة ونهضوا ببطءٍ من أسرَّتهم، وبدأوا بارتداء ملابسهم على عجل. لم يكن هناك سوى حوض غسيلٍ ودلوٍ صغيرٍ من الماء. انتظرت حتى انتهى الآخرون من غسل وجوههم ثمَّ سكبت ما تبقَّى من الماء في الحوض. عند القيام بذلك، لاحظت أنَّ قاع الدَّلو الذي كنَّا نشرب منه الماء في اللَّيلة الماضية كان متعفِّنًا ومليئًا بالرَّواسب.

من المفترض أن يقوم العمَّال بتنظيف وتعبئة دلاء الماء الموضوعة في الزَّنازين، وأن يقوموا بإزالة الطَّبقات المتراكمة عليها، ولكنَّهم كان يكتفون بسكب المياه العذبة فحسب، ولا يُسمح لنزلاء الزِّنزانة بالوصول إلى حنفيَّات المياه العذبة في طابق الخزَّانات، ولا يمكن أن يحصلوا على مياهٍ جديدةٍ في حال انتهت حصَّتهم من الماء.

سرعان ما تعلَّمت شطف الدَّلو كلَّ صباحٍ بما تبقَّى من المياه، ولكنَّنا كنَّا نحصل على دلوٍ آخر قذرٍ في اليوم التَّالي. لم يكن الدَّلو يتَّسع لأكثر من جالونٍ واحدٍ، وأحيانًا، وخاصَّةً في الأجواء الحارَّة، كنَّا نشرب كلَّ كمِّيَّة الماء في المساء، فلا نجد ما نغتسل به في صباح اليوم التَّالي، وبالطَّبع لم أكن أنظِّف الدَّلو في تلك الأيَّام.

سألني الكونت حين بدأت بالاغتسال: «لماذا لا تمتلك منشفةً أو صابونًا؟ هاك، استخدم صابونتي، وخذ منشفةً إضافيَّةً».

لا يُمنح السُّجناء المفلسون أيَّة مناشف، وكثيرٌ منهم يمضون سنوات سجنهم دون أن يستعملوا منشفةً واحدةً، باستثناء أولئك الذين يتجاوزون قوانين السِّجن ويقومون بمقايضة كيسٍ من التَّبغ بواحدةٍ من تلك المناشف، وفي بعض الأحيان يستخدم الرِّجال قمصانهم أو بطَّانيَّاتهم كمناشف إلى أن يحين الوقت الذي يحصلون فيه على كيسٍ من التَّبغ ويقايضونه بقطعةٍ من القماش.

أمَّا أولئك الذين لديهم المال في حساباتهم فيمكنهم شراء المناشف والضَّروريَّات الأخرى في الأوَّل من كلِّ شهر، ولكن عندما يدخل رجلٌ السِّجن في منتصف الأسبوع الأوَّل من الشَّهر، فإنَّه لن يتمكَّن من شراء أيِّ شيءٍ حتى لو كان لديه المال. عليه أن ينتظر ثلاثة أو أربعة أسابيع قبل أن يتمكَّن من استخدام أمواله للشِّراء، وإلى أن يحين ذلك الوقت فإنَّه يستعير منشفة رجلٍ آخر أو يقايضها بالدَّين. كنَّا نستخدم صابون «جيمي هوب» للاغتسال، ولتنظيف الأرضيَّات والملابس. من الجميل أن تشيع روح الزَّمالة بين السُّجناء، فغالبًا ما يرى الوافد الجديد بعض الوجوه المألوفة لمساجين كانوا معه في أثناء المحاكمة أو في غرفة انتظار إصدار الحكم. في اليوم التَّالي من وصولي إلى السِّجن قدَّم لي عددٌ من السُّجناء الغرباء مناشف وفُرَش أسنانٍ وقطعًا من الصَّابون وغيرها من المستلزمات، أمَّا الكونت فكان يتلقَّى مستلزماتٍ أخرى مختلفةً تصله من عائلته في ألمانيا، وكانت جودة تلك الأشياء عاليةً جدًّا، ويبدو أنَّه كان يشعر بالكثير من الرِّضا كلَّما منحني شيئًا من أغراضه، وكان يرفض السَّماح لي بالاحتجاج على قبولها كلَّما تذرَّعت بأنَّني سأنتظر إلى بداية الشَّهر القادم.

حثَّني سموكي على الإسراع بالاغتسال، وقال: «سيرنُّ الجرس بعد دقيقةٍ واحدةٍ، وسيفتحون أبواب الزَّنازين. سنخرج إلى الهواء العليل في الحال».

على عجلٍ انتهيت من الاغتسال بالقدر الشَّحيح من المياه، وبحثت عن مكانٍ لأفرغ به الحوض، فأشار سموكي إلى الدَّلو. كان سطح الدَّلو ممتلئًا برغوةٍ صفراء من الأعلى، وقد نتجت هذه الرَّغوة عن تفاعل مادَّة كلوريد الجير التي رأيتها في قاعه في اللَّيلة السَّابقة. هذه التَّفاصيل الحقيرة الصَّغيرة ملأت الزِّنزانة برائحةٍ كريهةٍ نفَّاذةٍ، وبسببها حشرجت حلوقنا والتهبت أعيننا.

اعترضت قائلًا: «إنَّه ممتلىء!».

قال سموكي: «لا، هذه رغوة»، وأخذ الحوض منِّي، وسكب المياه بعنايةٍ في الدَّلو. خدم هذا الحوض خمسة رجال. استخدمناه واحدًا تلو الآخر. ومع ذلك، ربَّما زاد استهلاكُ هذا الماء من تفاقم حالة الصَّبيِّ المريض.

بعد لحظاتٍ، أُعطيت الإشارة لفتح الأبواب، فبدأ الحرَّاس بالرَّكض على طول الممرِّ، وشرعوا بفتح جميع الأقفال، وبدأت جموع السُّجناء بالتَّدفُّق إلى الخارج. في تلك اللَّحظات عرفت معنى (حمل الدَّلو). أمسكت الدَّلو الذي كان ممتلئًا إلى أقصاه، ومشيت به إلى أسفل الدَّرج. كان هناك المئات من الرِّجال الآخرين ممَّن يحملون الدِّلاء مثلي. سرت ببطءٍ حتى وصلت إلى فتحة المجاري في الطَّرف الجنوبيِّ من الفناء. تبعد هذه الفتحة خمسة عشر قدمًا عن العنبر الجنوبيِّ، والرِّجال المحبوسون في الزَّنازين المجاورة أو في الأعلى لن يتنفَّسوا سوى الأبخرة القذرة طوال اللَّيل، إضافةً إلى القذارة الموجودة في الزَّنازين نفسها، وإذا ذهب أحدهم ليستنشق الهواء النَّقيَّ من شقِّ الباب، هاجمته رائحة المجاري من كلِّ مكان. سيكون حالهم مروِّعًا في ليالي الصَّيف الحارَّة. ذهبت مرَّةً إلى زنزانةٍ في ذلك العنبر، ولكنَّني خرجت منها بأسرع ما يمكن.

بعد إفراغ الدَّلو، قام الكونت بشطفه بالماء البارد، ثمَّ توقَّف الصُّنبور عن إخراج المياه، فوضع سجينٌ مغرفةً في فوَّهة الصُّنبور الصَّدئة، وأخرج العوالق التي سدَّت مجرى الفوَّهة، وبعد أن انتهينا، عاد الكونت راكضًا إلى عنبرنا وصعد الدَّرج إلى أن وصل إلى زنزانتنا بأسرع وقتٍ ممكنٍ لكي يصل إلى صالة الطَّعام في الموعد المحدَّد لتناول طعام الإفطار.

كلُّ شيءٍ يتمُّ بسرعةٍ في السِّجن، الأكل والاستحمام والحلاقة وحتى تسريح السَّجين الذي يوشك على الخروج. كثيرًا ما كنت أتساءل لماذا. يبدو

الأمر سخيفًا جدًّا. وحتى عندما يُنفَّذ حكم الإعدام في سجينٍ ما، فإنَّ ذلك ينتهي بسرعة، ولكنَّني الآن أصبحت أتفهَّم أهمِّيَّة فعل ذلك.

بناءً على توجيهات سموكي قمت بترتيب سريري، وبعد ذلك توجَّهنا إلى الفناء، وتركنا الإيطاليَّ مشغولًا بكنس «وترتيب» الزِّنزانة. كان الصَّبيُّ المريض قد تهرَّب من أداء مهامِّه حالما فتح الباب.

سألت سموكي حينما انضممنا إلى القطيع في الفناء منتظرين صوت صفَّارة الإفطار.

«بكم سنةٍ حُكِم على ذلك الصَّبيِّ؟».

أجاب سموكي: «خمسون سنةً ثمَّ الخزي والعار. ترصَّده أحد قضاة فريسنو، وحكم عليه بخمسين سنةً ليكون عبرةً لمن يعتبر، عبرةً! أتتخيَّل؟ هذا الشَّيء يجعلني أتشوَّق إلى الخروج لأمضي آخر أيَّام حياتي في السَّرقة والقتل، ها أنا مسجونٌ هنا للمرَّة الخامسة، وارتكبت أكثر من عشرين جنحةً، بينما هذا الصَّبيُّ المسكين محكومٌ بخمسين سنةً على أوَّل هفوةٍ يرتكبها ضدَّ القانون. كانت مجرَّد عَرَضٍ من أعراض السُّكْر. في ذلك اليوم ذهب هو وصاحبه إلى مكانٍ منعزلٍ وأخذا ثلاثة دولاراتٍ من شخصٍ تافهٍ، خمسون سنةً من أجل ثلاثة دولارات، في الوقت الذي يركب فيه اللُّصوص الآخرون سيَّاراتٍ فاخرةً ويعيشون في منازل فاخرةٍ من النُّقود التي يسرقونها من بطوننا! يريده عبرةً لمن يعتبر! لقد قضيت أوَّل عشر سنواتٍ من سجني وأنا أحلم بالقضاء على أولئك القضاة وتحويل عظامهم ولحومهم إلى عيدان معكرونة».

سألته: «ولكن ماذا عن والدته؟ كان يريد أن يقول شيئًا عنها اللَّيلة الماضية ولكنَّه صمتَ فجأةً».

«أوه، إنَّها مصابةٌ بالجنون. يقيِّدونها في مستشفى المجانين بسترةٍ تمنع يديها من الحركة. لقد فقدت عقلها بعد أن سُجن طفلها، وهذا جزءٌ من

(العبرة) التي قصدها ذلك القاضي السَّمين عندما حكم عليه بخمسين سنةً، وأرسل شريكه، الصَّبيَّ الآخر، إلى سجن فولسوم ليقضي خمسين سنةً أيضًا».

سألته: «كم مضى عليه هنا؟».

«أوه، لم يمض عليه سوى ثلاث سنوات، ويبدو أنَّه لن يخرج أبدًا. لقد أصيب بالسُّلِّ، ولا يمكن أن يعيش لأكثر من سنةٍ بأيِّ حالٍ من الأحوال. تعيش والدته في شيكاغو، وقد حاولت إنقاذه فور سماعها بذلك، وعندما طردوها من السِّجن ورفضوا أن تقابل ابنها، فقدت عقلها... ها قد رنَّ الجرس».

وقفنا في الصَّفِّ وسرنا على السَّلالم المؤدِّية إلى صالة الطَّعام.

سألت سموكي: «أين أذهب بعد الإفطار؟».

«عد إلى هذه السَّاحة وانتظر حتى يأتيك أحد مسؤولي المكتب في غضون ساعةٍ أو نحو ذلك، وسيقودك إلى المصنع الذي ستعمل فيه».

يتكوَّن الإفطار من دقيق الشُّوفان ودبس السُّكَّر المركز، ونحصل كذلك على الخبز و«القهوة»، ويجب علينا أن نتناوله في صمتٍ وفق القوانين.

ما تزال إحدى وقائع تلك الوجبة حاضرةً في ذاكرتي. كنَّا جالسين على طاولةٍ قريبةٍ من الحرس، وفي المقعد المواجه لنا جلس رجلٌ متوسِّط البنية، يضع نظَّاراتٍ على عينيه، وله شعرٌ طويلٌ ومجعَّدٌ يصل إلى صينيَّة التَّقديم. كان يطوِّق أحد كفَّيه بالكفِّ الآخر ويحني رأسه إلى الأسفل».

أخبرني سموكي بصوتٍ هامسٍ، دون أن يحرِّك شفتيه: «هذا هو المتمرِّد جورج، لقد كان من أسوأ المجرمين في المدينة، ولكنَّه أصبح متديِّنًا الآن لدرجة أنَّه لن يستطيع تناول سمكةٍ قذرةٍ دون أن يؤدِّي صلاة الشُّكر، ولكنَّك ستشكُّ في إيمانه حين تراه يتعارك في السَّاحة. بإمكانه أن يخنق الكثير من الأعناق بهاتين اليدين الضَّخمتين!».

بعد أن أنهى «المتمرِّد جورج» صلاته تقدَّم ليخدم نفسه في الحصول على

حصَّةٍ سخيَّةٍ من دقيق الشُّوفان قبل أيِّ رجلٍ آخر. رأيته يفعل الشَّيء نفسه مرَّاتٍ عديدةً لاحقًا، وجعلني ذلك أشكُّ في صدق تديُّنه، ولكنَّني سمعت أنَّه تحوَّل إلى مبشِّرٍ عندما أنهى فترة محكوميَّته، وعاش حياة الزُّهد والتَّعفُّف، وبذل نفسه لمساعدة الآخرين.



الفصل السَّادس

بعد الإفطار عدت إلى الفناء العلويِّ، فجلست بجوار سجناء من ذوي الإعاقات، ورجلين أو ثلاثة أعفاهم الطَّبيب من العمل. فيما عدا ذلك كان المكان مهجورًا بالكامل. كان الصَّمت والهدوء متناقضَين مع كلِّ الضَّجيج والازدحام اللذَين كانا يغمران أجواءه قبل عشرين دقيقة. لم أكن قد انتظرت كثيرًا حتى نزل رجلٌ مسلَّحٌ من أعلى الدَّرج، فأدركت أنَّه المسؤول عن توزيع المهام.

قال لي: «سيكون عليك المساعدة في التَّنظيف اليوم. يتوجَّب على جميع المساجين أن يقوموا بذلك في اليوم الأوَّل. خذ واحدةً من تلك المكانس»، وأشار إلى كومةٍ من المكانس المصفوفة على أحد أعمدة الحراسة.

حصلت على مكنسةٍ وانضممت إلى الرِّجال الآخرين. سرنا في طابورٍ وواصلنا المسير نزولًا إلى الفناء. جرفنا كلَّ قمامةٍ وجدناها في طريقنا. كان هناك رجلٌ أحدب، ورجالٌ عميان، ورجالٌ فقدوا ذراعًا أو ساقًا، ورجلٌ يرتعش كما لو كان يؤدِّي رقصة القدِّيس فيتوس في نهاية هذا الصَّف. كان الرَّجل الذي يقف بجانبي ثرثارًا جدًّا ويبدو أنَّ الحديث معي كان مصدر سعادةٍ بالنِّسبة إليه.

«هذا هو زقاق الشَّباب اليافعين»، قال عندما وصلنا إلى المسافة التي تفصل بين مبنى العنبر الجنوبيِّ والمبنى المجاور له، «وهنا السِّجن الانفرادي حيث يقبع (باتل شيب ماغ) و(كارل بيل) وجميع السُّجناء السَّيِّئي السُّمعة».

ثمَّ شرعنا في كنس الزُّقاق الصِّينيِّ، فقال مرشدي:

«هذا زقاق الأقلِّيَّات الآسيويَّة. يعزلونهم في هذا المكان، أمَّا هذا الذي تراه هنا فهو زقاق المجانين. يوجد حوالي ثلاثين أو أربعين سجينًا منهم».

ذهبنا إلى ذلك الزُّقاق الذي أشار إليه:

«يمكنك أن تلقي نظرةً عليهم من هذا الثُّقب».

اختلست النَّظر من ثقبٍ في الجدار الممتدِّ عبر نهاية الزُّقاق، فرأيت صينيًّا مجنونًا، عاريًا من كلِّ شيءٍ سوى من سرواله المخطَّط المتدلِّي على ركبتيه. كان يخوض مبارزةً مع عدوٍّ وهميٍّ كما بدا لي، وكانت عيناه تشتعلان بالكراهية كعيون الثَّعابين، وأخذ يقفز ويرقص حول نفسه، وأطلق فجأةً صرخة انتصارٍ غريبةً واندفع إلى الأمام. وقف منحنيًا للحظاتٍ، كما لو كان أمام جسدٍ ممدَّدٍ على الأرض، وانقلبت تعابير وجهه إلى ملامح خائفةٍ ومرتبكةٍ، ثمَّ ركض بسرعةٍ إلى داخل الزِّنزانة.

قال مرشدي: «يقوم بهذه التَّمثيليَّة كلَّ صباح، ثمَّ يدخل إلى زنزانته ويبقى هناك طوال اليوم دون أن يبدي أيَّ تذمُّر. ولكن هل ترى ذلك النَّحيل الذي يدفع عربةً كما لو كان يبحر صوبَ الشَّمس؟».

أومأت برأسي.

«حسنًا، إنَّه البحَّار تشارلي. إنَّه مسجونٌ هنا منذ عام 1874، وهو أكبر سجينٍ في هذا المستنقع، وقد نُقِلَ إلى زقاق المجانين قبل عشرين سنة».

شعرت بالفزع من فكرة أنَّ ذلك الرَّجل قد دخل السِّجن قبل سنةٍ من ولادتي. كان هنا طوال فترة طفولتي، وطوال الفترة التي ذهبت فيها إلى المدرسة، وطوال فترة صباي وشبابي، لقد أصيب بالجنون ولن يخرج أبدًا.

سألته: «ماذا فعل؟».

«أوه، كان ثملًا ودخل في عراكٍ مع أحد البحَّارة وقتله بزجاجة ويسكي.

لم يتعمَّد قتله، ولكن لم يكن لديه مالٌ أو أصدقاء. لقد وجدته في هذا الزُّقاق عندما دخلت السِّجن قبل سبع عشرة سنة، ولم يغادره منذ ذلك الحين. إنَّه لا يتحدَّث إلى أيِّ أحد، ولم يسمع أحدٌ صوته قطُّ. كلُّ ما يفعله هو الغمغمة مع نفسه من حينٍ لآخر».

عبرنا الزُّقاق وكنَّا نقترب من نهاية باحة الفناء. لقد نسيت أين كنت وماذا كنت أفعل. كنت أفكِّر في فظاعة أن يبقى الإنسان مسجونًا لفترةٍ طويلةٍ كهذه، ولم أجد أيَّ جريمةٍ تستحقُّ أن يُسجن المرء من أجلها كلَّ هذه المدَّة. إنَّ مجرَّد نطق القاضي بعبارة: «السِّجن مدى الحياة» لأمرٌ فظيعٌ بما فيه الكفاية، ومع أنَّ عقوبةً كهذه تبدو غير مناسبةٍ لقضايا معيَّنةٍ في كثيرٍ من الأحيان، إلَّا أنَّ رؤية رجلٍ قضى في السِّجن ثلاثين سنةً من عمره قد أصابتني بالرُّعب. هناك فرقٌ شاسعٌ بين قول الكلمات وبين الواقع.

ما يزال البحَّار تشارلي مسجونًا حتى الآن، ولكن ليس في السِّجن. إنَّه الآن في مصحَّةٍ حكوميَّةٍ للأمراض العقليَّة، وفي الوقت الحاضر يقومون ببناء مصحَّةٍ في فولسوم مختصٍّ بإيواء المجرمين المصابين بالأمراض العقليَّة، وعند الانتهاء منه، سيصبح «زقاق المجانين» في سان كوينتين ذكرى مروِّعةً نحملها في مسيرتنا نحو تحقيق الأفضل.

عندما وصلنا إلى نهاية الفناء، حدث أمرٌ مأساويٌّ. كان أحد نزلاء الزُّقاق قد زحف عبر الفتحة الصَّغيرة التي تجري فيها مياه الصَّرف الصِّحِّيِّ تحت الحاجز وهرب إلى الفناء الرَّئيس.

مرَّ من أمامنا راكضًا كالمجنون. كان حاسر الرَّأس، هزيلًا كهيكلٍ عظميٍّ، وجهه أبيض شاحب، وكان هناك حارسٌ يطارده بسرعة.

عندما وصل الرَّجل إلى البوَّابة المؤدِّية إلى الفناء الخارجيِّ تخطَّاه الحارس. لم أكن مستعدًّا لرؤية ما حدث، وسيبقى مشهد ذلك الرَّجل وذلك

الحارس ماثلًا في ذاكرتي ما حييت. كان الحارس رجلًا ضخمًا وقويًا ونشيطًا، وظننته سيكتفي بإلقاء القبض على الهارب ويعيده إلى الزُّقاق، ولكنَّه بدلًا من ذلك رفع بندقيَّته المحشوَّة بالرَّصاص، وضرب رأسه الحاسر بمؤخِّرة البندقيَّة بكلِّ ما أوتي من قوَّة، فترنَّح الهارب بضع خطواتٍ إلى الأمام، والدَّم يسيل من رأسه، ثمَّ سقط على الأرض وارتطم وجهه بالإسفلت قبل أن يتوقَّف جسده عن الحركة. كانت ساقاه ترتعدان على نحوٍ متشنِّج، وبذل جهدًا صعبًا للنُّهوض، ولكنَّه تراجع إلى الوراء، والدَّم يتدفَّق من أنفه.

بمساعدة أحد السُّجناء، قام الحارس برفع جسد الهارب وحملاه إلى الزُّقاق، وعندما عبرا به من أمامنا، أردت أن أهاجم الحارس. كنت غاضبًا جدًّا، وبدت كلُّ الأشياء حمراء في عينيَّ، ولكنَّ الرَّجل الذي بجانبي ضحك، فأثار ذلك غضبي منه، وأخذ يثنيني ويخفِّف من روعي بلطفٍ، حتى استعدت رباطة جأشي.

لم أعلم البتَّة ماذا حدث لاحقًا بالرَّجل المصاب. لم أره مرَّةً أخرى. أمَّا الحارس فبقي على رأس عمله، وكلُّ ما في الأمر أنَّه لم يعد حارسًا، بل ترقَّى ليصبح ضابطًا.

لم يخطر ذكره ببالي يومًا إلَّا وارتجفت. لقد رأيته يرتكب العديد من الفظائع ذات الطَّابع المماثل على مدار السَّنوات التي تلت ذلك، وسأتطرَّق إلى ذكرها لاحقًا.

جلست مستندًا إلى الجدار الجانبيِّ في نهاية الفناء، وكنت ما أزال غاضبًا ممَّا رأيته عندما جاء فجأةً رجلٌ صينيٌّ من المكتب وطلب منِّي أن أتبعه إلى أن وصلنا إلى مسؤول العنبر.

«كيف حال عينيك؟»، سألني ذلك الضَّابط. «هل آذيتهما لتتجنَّب العمل؟».

«كلَّا، إنَّهما بخير».

«وليس لديك أيُّ إصبعٍ، أو أيُّ عضوٍ مكسورٌ، ولست مصابًا بالعرج أو بأيِّ شيءٍ من هذا القبيل، أليس كذلك؟».

هززت رأسي بالنَّفي.

«دعني أنظر إلى يديك».

مددت ذراعيَّ وتفحَّص الضَّابط أصابعي بعناية.

«حسنًا، يبدو أنَّك لا تشتكي من شيء. كم عمرك؟».

أجبته: «ستٌّ وعشرون».

التفت إلى الكاتب الذي بجانبه، وأمره:

«فليذهب إلى مطحنة الجوت»، ثمَّ خرج من المكتب.

أمرني الكاتب: «اجلس على هذا المقعد. سوف يتمُّ إرسالك إلى المصنع في غضون بضع دقائق».

جلست على مقعد الاستجواب الذي يجلس عليه الرِّجال المتَّهمون بمخالفة قواعد السِّجن قبل أن يستجوبهم الضَّابط ويُنزل حكم العقوبة بهم. كانت أفكاري مضطربةً للغاية، ولكن سرعان ما تبدَّد اضطرابي حين رأيت ببَّغاءً لطيفًا يحلِّق في الأرجاء، إلى أن استقرَّ على رفِّ النَّافذة التي أمامي. نظر أحدنا إلى الآخر وجهًا لوجه، وكان الببَّغاء يحدِّق إليَّ كما لو كان قد رآني من قبل.

«بِماذا حُكِم عليك؟»، قال الببَّغاء فجأة.

إنَّه السُّؤال النَّمطيُّ الأزليُّ نفسه، ولكنَّه أتى هذه المرَّة من مصدرٍ غير متوقَّع. شعرت بالغبطة، ولم أعرف إن كان عليَّ أن أجيبه أو لا.

كان الببَّغاء يتبختر لأعلى ولأسفل، وأبقى رأسه مائلًا لكيلا يصرف نظره

عنِّي أبدًا، وراح يدندن بأصواتٍ غير مفهومة، وفجأةً توقَّف وكرَّر عليَّ السُّؤال نفسه.

كنت على وشك أن أجيبه، ولكنَّه فرد جناحيه وقال: «حسنًا... حسنًا».

ثمَّ طار بعيدًا.

كنت ما أزال مستغرقًا في الضَّحك حين ظهر أحد الرِّجال وأخذني معه.

قال: «نحن ذاهبان إلى مطحنة الجوت، هيَّا بنا».

اقتادني الرَّجل إلى الفناء السُّفليِّ وعبرنا بوَّاباتٍ كبيرةً حتى وصلنا إلى مطحنة الجوت. عندما دخلنا من البوَّابة الرَّئيسة للمصنع كان الصَّوت الصَّاخب يصمُّ الآذان. كانت تلك أوَّل مرَّةٍ في حياتي أدخل فيها مصنعًا كبيرًا، وكان هناك المئات من الرِّجال المنكبِّين على العمل، وكثيرٌ منهم كانوا يرتدون قمصانًا داخليَّةً، وكان الهواء مثقلًا بالتُّراب والحرارة. أخذني دليلي إلى مكتب المشرف وتركني هناك.

سألني المشرف بعد أن تفحَّصني بعينٍ ناقدة:

«ماذا كنت تعمل في الخارج؟»

أجبته: «كنت أعمل ككاتب اختزالٍ وأمين حسابات، وعملت أيضًا كبائعٍ متجوِّل».

«حسنًا، لن نستفيد هنا من خبرتك في الكتابة الاختزاليَّة، ولا من خبرتك في البيع على الأرصفة».

التفت المشرف فجأةً إلى الرَّجل الجالس وراء المكتب وتحدَّث إليه بصوتٍ منخفضٍ قبل أن يطلب منِّي الجلوس. كتب الرَّجل الجالس على المكتب شيئًا ما على قصاصةٍ من الورق وسلَّمها للرَّجل الذي اصطحبني من غرفة الضَّابط، ثمَّ ذهب ذلك الرَّجل إلى الغرفة الخلفيَّة وعاد بمقصٍّ أعطاني إيَّاه، ونهضت لألحق به. اجتزنا عدَّة ممرَّاتٍ طويلةٍ، وكان صوت

الطَّنين صاخبًا جدًّا. كانت الآلات تدور بسرعة، وبدا القلق واضحًا على وجوه الرِّجال، وسرعان ما توقَّفنا في نهاية المطحنة عند المنسج رقم 201. تحدَّث الرَّجل إلى المسؤول عن هذا المنسج ولكنَّني لم أسمع ما قاله بسبب الضَّجيج، ثمَّ غادر المكان.

كان الوصيُّ الجديد ألمانيًّا قصيرًا وسمينًا، ولكنَّه مع ذلك لم يكن سيِّئ المظهر، وخمَّنت أنَّه كان أصغر منِّي سنًّا. وقف يتفحَّصني مليًّا، ثمَّ واصل عمله كأنَّني غير موجود.

وقفت في مكاني لعشر أو خمس عشرة دقيقةً أنتظر أوامره، وشاهدت الطَّريقة التي كان يُصلح بها اعوجاج البكرات، وكيف كان يقوم بتغيير خيوط المغزل.

وأخيرًا اقترب منِّي وصرخ في أذني: «بكم حُكم عليك؟».

حين أخبرته بعقوبتي، تغيَّر سلوكه معي على الفور. لم أفهم سبب ذلك آنذاك، ولكن علمت لاحقًا أنَّ احترام السَّجين لزميله يتناسب طردًا مع طول فترة محكوميَّته، كما يتعامل الرِّجال باحترامٍ تجاه السُّجناء الذين يبلغون من العمر خمسين عامًا، وكما يحترم ذو الخمسين عامًا أولئك الذين حُكِم عليهم بخمسةٍ وعشرين عامًا، وهكذا دواليك، أمَّا أولئك الذين لا يقضون سوى سنةٍ واحدةٍ في السِّجن فإنَّهم لا يحصلون على أيِّ اهتمامٍ جادٍّ. يُعرف الحكم لمدَّة سنةٍ بـ «القيلولة».

لقد كتبوا الكثير عن مطحنة الجوت في سان كوينتين، وصوَّروها على أنَّها جحيمٌ حقيقيٌّ، ولكنَّني لم أجدها كذلك.

في غضون أسبوعين تعلَّمت النَّسج لأتمكَّن من تأدية مهمَّتي. صحيحٌ أنَّ العمل مزعجٌ والهواء مشحونٌ بالكثير من جزيئات الغبار الدَّقيقة، تلك التي يُعَدُّ اندفاعها القويُّ قاتلًا لأصحاب الرِّئات الضَّعيفة، ولكنَّ الظُّروف ليست

أسوأ من تلك السَّائدة في كثيرٍ من مصانع النَّسيج في نيو إنجلاند حيث تعمل فتياتٌ صغيراتٌ وتوكل لهنَّ المهامُّ نفسها المطلوبة من الرِّجال الأصحَّاء في سجن سان كوينتين. لم يكن لديَّ أيُّ تعاطفٍ أو صبرٍ تجاه المتمرِّدين أو أولئك الذين كانوا يتذمَّرون من العمل في مطحنة الجوت (الفظيعة). عملت في المصنع ثمانية عشر شهرًا، وكان عملنا عمومًا أقلَّ مشقَّةً من بقيَّة الأعمال. كنت أعمل كلَّ يومٍ دون أن أفوِّت يومًا واحدًا، لذا فإنَّني أعرف ظروف العمل هناك جيِّدًا. إنَّني لا أكتب من الإشاعات، بل إنَّني أعرف في الواقع كلَّ حثيثيَّات الأمور التي أكتب عنها، ولا أقول سوى الحقائق الدَّقيقة، وأيُّ شيءٍ عدا ذلك سيكون سخيفًا في ظلِّ هذه الظُّروف.

هدفي من الكتابة ليس إثارة التَّعاطف تجاه أولئك الذين قُبض عليهم وعوقبوا بسبب خرقهم القانون، ولكن لأنبِّه إلى فساد النِّظام الحاليِّ وإلى الإذلال غير المبرَّر الذي يتعرَّض له الجميع، سواءٌ أكانوا مجرمين أم لا، ولأشير إلى سبل الإصلاح الممكنة. لا ينبغي استخدام مؤسَّسات الدَّولة لأغراضٍ سياسيَّةٍ، والسِّياسة لا تمثِّل الحكومة. إنَّها محض عملٍ تجاريٍّ لا يعطي أيَّ أهمِّيَّةٍ لرخاء المواطن، سواءٌ بشكل فرديٍّ أو بشكلٍ جماعيٍّ.

مأخذي الوحيد على مطحنة الجوت في سان كوينتين هو عدم كفاءتها، فهي لا تكاد تسدُّ احتياجات السِّجن، ولو أنَّ مصنعًا بمثل ضخامتها أُديرَ على أسسٍ اقتصاديَّةٍ لحقَّق ربحًا جيِّدًا. وهنا اسمحوا لي بأن أستطرد بغية التَّأكيد على هذا القصور. هناك ما يقرب من ألفي رجلٍ محتجزين في سان كوينتين، ثمانية عشر بالمائة منهم قادرون جسديًّا على إتمام عملهم بإتقان. ويستطيع ألفٌ وثمانمائة رجلٍ أن يساعدوا أولئك الرِّجال بأعمالٍ بسيطةٍ ومريحةٍ، ولكنَّ هؤلاء الرِّجال الأصحَّاء يقتاتون على أسوأ الأطعمة، ويرتدون أرخص الثِّياب، وينامون كالكلاب في مهاجعهم. تصرف ولاية كاليفورنيا ميزانيَّةً تقارب المائتي ألف دولارٍ على السُّجون في السَّنة

الواحدة. ليس هذا فحسب، بل هناك العديد من السُّجناء الذين كانوا المعيلين الوحيدين لعائلاتهم وأقاربهم قبل دخولهم السِّجن. من يعيل هذه العائلات الآن؟

وبصرف النَّظر عن حساب هذه الخسارة بالدُّولار والسِّنت، هناك خسارةٌ معنويَّةٌ فادحة. فالرَّجل المحكوم عليه بالعمل يومًا بعد يوم في شيءٍ ليس له أيُّ مصلحةٍ فيه، وليس له حافزٌ ليبذل قصارى جهده لأجله، ولا يتلقَّى أجرًا عليه، سيتراخى عقليًّا وجسديًّا بالتَّدريج، فهو يعلم أنَّ كلَّ ما قد يتعلَّمه عن صنع أكياس الجوت سيكون بلا قيمةٍ بالنِّسبة إليه عندما يعود إلى العالم الخارجيِّ. الفكرة من وراء مطحنة الجوت هي أن يُجبَر السُّجناء على القيام بقدرٍ معيَّنٍ من العمل كلَّ يوم، فيتحوَّل العمل بالنِّسبة إليهم إلى (عادة) بكل ما في الكلمة من معنى.

يقضي آلاف الرِّجال في سان كوينتين سنواتٍ طويلةً من عمرهم في العمل هناك، ولم تُجرى أيُّ تحسيناتٍ لتطوير المصنع وجعله مكانًا يواكب مجريات الحياة بذكاء، بل على العكس من ذلك، بقي مستواه ينحدر باستمرار، وبقيت وظيفته تحويل العمَّال إلى آلاتٍ مطيعةٍ ميِّتة، ولكنَّني في الوقت الحاضر أعوِّل على تطويره بفضل الجهود الدَّؤوبة لـلسَّجَّان الحالي والتَّعاون المثمر بين السِّجن ونقابة العمَّال التي أذنت الهيئة التَّشريعيَّة بالتَّعاون معها لأجل تدريب العمَّال وإعادة تأسيس المصانع، وستظهر العديد من الصِّناعات الجديدة، فمن المقرَّر أن تُصنَّع الملابس والأحذية والأثاث والأواني الأخرى وتُرسَل إلى جميع مؤسَّسات الدَّولة الإصلاحيَّة بما فيها سجن سان كوينتين، وستوفِّر هذه الصِّناعات عملًا ممتعًا وتعليميًّا للسُّجناء، إضافةً إلى أنَّها ستعود بربحٍ كبيرٍ على الدَّولة، ومن المخطَّط له أيضًا أن يخصَّص أجرٌ ثابتٌ لجميع المساجين الذين يعملون في المصانع، ليتكسَّبوا منه ثمن تلك الأشياء التي يُمنحونها بالمجَّان، وعلى هذا سيتفهَّم السَّجين دوره في دعم ذاته وتحريك

عجلة الاقتصاد. تبدو هذه الخطَّة عمليَّةً بشكلٍ كبيرٍ ولن يؤثِّر تنفيذها على سير الأعمال الحرَّة بأيِّ شكلٍ من الأشكال.

في الوقت الذي لم أجد فيه صعوبةً في إتقان العمل بالمغزل واستخدامه في مهمَّتي، كان هناك العديد من الرِّجال الذين لم يحالفهم الحظُّ في ذلك، وكانوا يعاقَبون بطريقةٍ وحشيَّةٍ قديمةٍ، واستمرَّ السَّجَّانون في تنفيذ ذلك العقاب على مدى سنواتٍ طويلة.

خلال الشَّهر الأوَّل لي في مطحنة الجوت، تعلَّمت عددًا من الأشياء المثيرة للاهتمام. ولكنَّ المشرفين على عملنا كانوا «غرباء الأطوار» وكان التَّعامل اليوميُّ معهم صعبًا للغاية، وعندما يتعرَّض المساجين من ذوي الأمزجة العصبيَّة لذلك الكمِّ الهائل من الضَّغط والتَّوتُّر النَّفسيِّ الذي يسبِّبه المشرفون الذين يطالبونهم بإتمام العمل بحرفيَّةٍ تامَّةٍ، فإنَّهم يواجهون انهياراتٍ عصبيَّةً في كثيرٍ من الأحيان. أعرف عددًا من الرِّجال الذين أصيبوا بالجنون بسبب عملهم المطوَّل على المغزل الحراري. لقد رأيت رجلًا يبذل قصارى جهده كلَّ يومٍ حتى تحوَّلت ملامح وجهه البريء إلى ملامح مليئةٍ بالتَّوتُّر والبؤس. من المؤلم أن ترى رجلًا بهذه الحالة ثمَّ تراه يتعرَّض للمصاعب وللعقاب في النِّهاية. عندما كنت أعمل في الطَّاحونة، كان العقاب ينصُّ على أن يُرسَل الرَّجل المتقاعس في عمله إلى «السِّجن الانفرادي» حيث يعيش على الخبز والماء من ليلة السَّبت حتى صباح الاثنين، وإذا نجى من ذلك أُعيد للعمل صباح يوم الاثنين ويُطلب منه أن ينهي أداء مهمَّته في ذلك اليوم.

أتذكَّر رجلًا واحدًا على وجه الخصوص، رجلًا إنجليزيًّا وسيمًا كنت أعمل بجواره في المغزل. كنت أساعده في البداية، خاصَّةً بعد أن تعلَّمت كيفيَّة القيام بمهمَّتي، ولكن سرعان ما اكتشفت أنَّه لا توجد جدوى من تعليمه، فهو ببساطةٍ لا يستطيع مواصلة العمل إذا حدث عطلٌ في البكرات، أو في النَّسيج، إذ يتطلَّب الأمر منه ساعتين إلى ثلاث ساعاتٍ حتى يعاود

العمل من جديد، وفي كثيرٍ من الأحيان كان يأخذ استراحةً ثانيةً إذا لم يتمكَّن من إصلاح الخطأ كما ينبغي. كنت أراه وهو يبكي خلف مغزله، ويذهب كلَّ ليلة سبتٍ إلى «السِّجن الانفرادي»، ويعود صباح كلِّ اثنين، وفي كلِّ مرَّةٍ كان جسده يضعف أكثر فأكثر. لقد لاحظت تغيُّر نظراته في المرحلة التي سبقت جنونه، وفي يومٍ من الأيَّام، تعطَّل مغزله ثلاث مرَّات، فأخذ واحدةً من البكرات وكسرها، وأطلق صرخاتٍ مسعورةً، وراح يحطِّم كلَّ شيءٍ يراه حوله إلى أن جاء الحارس المسؤول هَرِعًا ليرى ما المشكلة.

هجم الرَّجل الغاضب على الحارس وهمَّ بضرب وجهه بالبكرة، ومن دون أن أفكِّر أسرعت نحوه وقيَّدت حركته بيديَّ، وفي اللَّحظة نفسها لكمَ الحارسُ وجهه بقبضته. لم أتوقَّع حدوث هذا، وابتعدت من مكاني على الفور. أنا لم أكن أنوي ضرب زميلي، فلماذا قام الحارس بذلك؟

بعد ثلاثة أيَّامٍ قضاها الرَّجل الإنجليزيُّ في الهذيان وإخراج الرَّغوة من فمه، تمَّ إرساله إلى مصحَّة الأمراض العقليَّة، وتوفِّي هناك بعد بضعة أشهر.

بالنِّسبة إلى دوري الذي قمت به في هذه القضيَّة، فقد تعرَّضت للإدانة من قبل عددٍ كبيرٍ من السُّجناء، فهناك قانونٌ متعارفٌ عليه فيما بينهم ينصُّ على ألَّا يتدخَّل السَّجين أبدًا في مساعدة الحرَّاس على اعتقال السُّجناء الآخرين. ولكنَّني لم أكن أعرف شيئًا عن هذا القانون، وربَّما لو كنت أعرف لما حدث أيُّ فرق. لقد تصرَّفت وفقًا لغريزتي. تذكَّرت عددًا من السُّجناء المنبوذين الذين يلقَّبون بـ «حمائم البراز» لمجرَّد أنَّهم منعوا أحد السُّجناء من قتل الحارس. لم أتمكَّن أبدًا من معرفة سبب هذا التَّصرُّف. لو بقي الرَّجل صامتًا، وهو يرى رجلًا آخر يُقتَل أمامه، ألن يجعله ذلك شريكًا في الجريمة؟ ولكنَّني لا أريد أن أتعجَّل سرد الأحداث.

لم يكن عمل مشرفو القسم يقتصر على الإشراف فحسب، بل كانوا

يقومون بنقل المعلومات التي يلتقطونها من محادثاتنا، معلوماتٍ يتطلَّب اكتشافها الكثير من السَّنوات، وعرفت أيضًا، من بين أمورٍ أخرى، أنَّ العديد من المساجين كانوا ينهون أعمالهم بحلول السَّاعة الواحدة أو الثَّانية بعد الظُّهر، ثمَّ يعملون على مساعدة مساجين آخرين في إنجاز مهمَّاتهم. قد تظنُّ أنَّهم يقومون بذلك ليساعدوا أصدقاءهم، ولكنَّهم في الواقع يحصلون على أجرٍ مقابل ذلك، فقد استغلَّ المساجين الذين لديهم مالٌ في حساباتهم هذا الأمر ليوظِّفوا رجالًا آخرين ليؤدُّوا أعمالهم بدلًا عنهم، ويدفعون لهم مقابل ذلك بعض الأشياء التي يرغبون في شرائها من مندوبي المبيعات، وتحصل المكاتب بالمقابل على أكياسٍ من التَّبغ والتي كانت العملةَ المتداولةَ للشِّراء، فمثلًا لشراء قطعةٍ من الصَّابون يحصل المكتب على خمسة أكياسٍ من التَّبغ، والمناشف تساوي سبعة أكياس، أمَّا القبَّعات فتتراوح أسعارها بين خمسين ومائة كيسٍ وفقًا لجودتها، وقس على ذلك كلَّ شيءٍ يمكن للسَّجين شراؤه في السِّجن.

يُطلَب من كلِّ عاملٍ في المطحنة أن ينسج مائة ياردةٍ بمغزله، ويستطيع العامل المحترف أن ينسج حوالي ثماني عشرة ياردةً في السَّاعة، ما يعني أنَّه سيتمكَّن من إتمام مهمَّته في أقلَّ من ستِّ ساعات. يبدأ عملنا في السَّاعة السَّابعة إلَّا ربعٍ صباحًا وينتهي في السَّاعة الرَّابعة والنِّصف مساءً، تتخلَّلها ثلاثون دقيقةً لتناول طعام الغداء، وتنطلق صافرة الغداء في تمام السَّاعة الحادية عشرة والنِّصف صباحًا، ويتطلَّب الأمر حوالي اثنتي عشرة دقيقةً ليخرج الرِّجال عبْرَ الممرِّ إلى الفناء العلويِّ وصولًا إلى أماكن عملهم، ويتمُّ عدُّ كلِّ رجلٍ عندما يدخل وعندما يخرج من ساحة المطحنة، وهكذا فإنَّ يوم العمل يمتدُّ إلى أكثر من تسع ساعات، وكان النَّسَّاجون المحترفون يحصلون على ثلاث ساعاتٍ إضافيَّةٍ ليرفِّهوا عن أنفسهم أو ليقوموا بأعمالٍ إضافيَّةٍ حسب اختيارهم.

كانت المساعدة على غزل النَّسيج المكوَّن من عشرين ياردةً تساوي كيسًا واحدًا من التَّبغ، وهذا يعني قضاء ساعةٍ أو أكثر في العمل مقابل خمسة سنتات.

ولأنَّني كنت بلا مالٍ، وكنت في حاجةٍ إلى بعض الأشياء الضَّروريَّة، فقد قرَّرت أن أصبح حائكًا محترفًا، فأحظى بوقتٍ إضافيٍّ يساعدني على كسب ما أردته من مشتريات، وبعد انقضاء ستَّة أسابيع تمكَّنت من إنهاء مهمَّتي في السَّاعة الثَّالثة، وقضيت السَّاعة ونصف السَّاعة المتبقِّية في «العمل الخيريِّ» وهذا هو المصطلح المتداول الذي يُطلَق على مساعدة الآخرين في العمل، وسرعان ما حصلت على ما أريده وشعرت بالرَّاحة لأنَّ الظُّروف سمحت لي بذلك.

وبينما كنت في عجلةٍ من أمري لكي أنهي مهمَّتي الخاصَّة في أسرع وقتٍ، أصبحت مهملًا في عملي، وأحيانًا كنت أترك بعض الأخطاء في النَّسيج، أو أفشل في إصلاح الفجوات كما ينبغي، وقادني هذا الأمر إلى مواجهة الاستدعاء والتَّوبيخ.

يُوضع على كلِّ مغزلٍ رقمٌ خاصٌّ، وعندما ينتهي السَّجين من إتمام مائة ياردةٍ من النَّسيج يتوجَّب عليه أن يكتب رقم مغزله في نهايته، وعندما يمرُّ النَّسيج من خلال القاطع المخصَّص لصنع أكياس الحبوب، يقوم المفتِّش بمراقبة كلِّ القطع وهي تسقط، فيسحب القطع التي بها عيوب، ثمَّ يرسل هذه القطع المعيبة المختومة برقم المغزل إلى طاولة الاستدعاء، ويحضر صاحب المغزل إلى الطَّاولة ويُحذَّر من تكرار هذا الخطأ، ويُدوَّن اسمه في سجلِّ التَّحذير مع تاريخ وقوع الخطأ، فإذا تكرَّر التَّحذير ثلاث مرَّاتٍ أُرسِلَ السَّجين إلى رئيس العنبر ليقوم بمعاقبته.

في ذلك الوقت كانت العقوبة إمَّا أن يقضي السَّجين يومًا كاملًا مقيَّدًا بسترةٍ

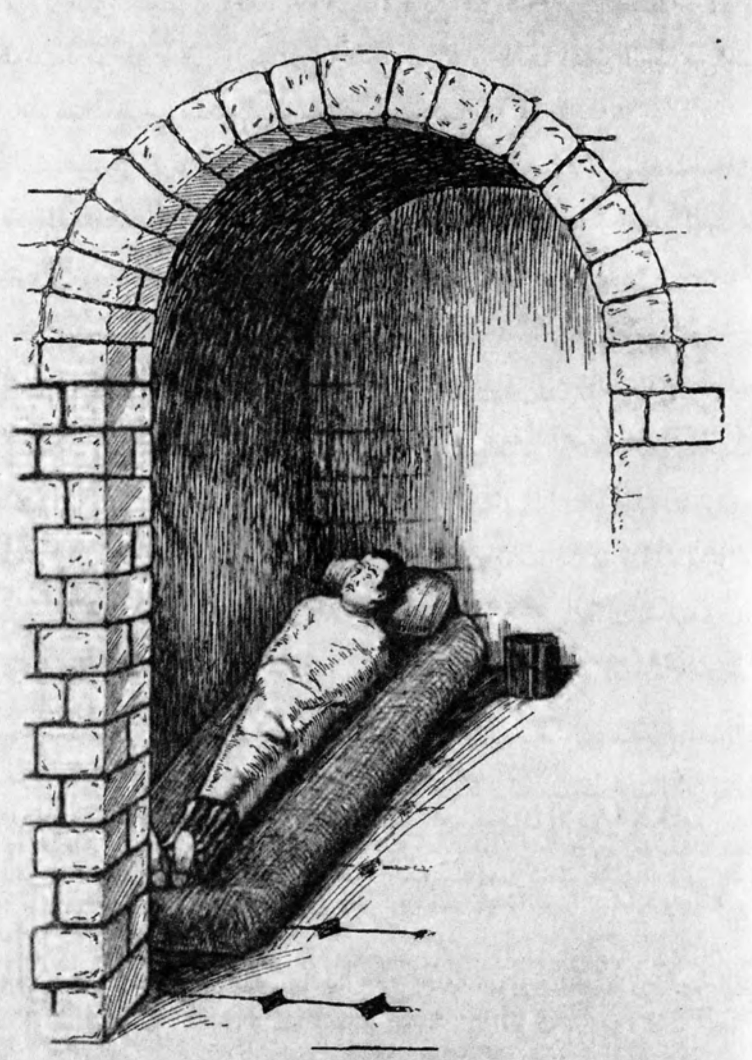
بلا أكمامٍ تمنع يديه من الحركة، أو أن يقضي ثلاثة أيّام في الحبس الانفرادي. لقد سمعت الكثير عن عقوبة «السُّترة» من العمّال، وكذلك من زملائي في الزِّنزانة، وبعد أن سمعت التَّحذير عند الطَّاولة عدت إلى مغزلي عاقدًا العزم على ألّا أُستدعَى مرَّةً أخرى.

منعني ذلك من إنهاء عملي في وقتٍ مبكِّر كما كنت أفعل، ولكنَّه منعني أيضًا من تجربة «السُّترة» التي كان يخافها جميع السُّجناء، وإن كان هذا الخوف لم يمنع من فرضها على المخالفين منهم كلَّ يوم.

وأريد هنا أن أشير إلى أمرٍ أؤمن به بشدَّةٍ، وهو أنَّ التَّخويف سياسةٌ غير صالحةٍ لتدريب الرِّجال، فما يخافه الرَّجل بشكلٍ عامٍّ سيكرهه، والكره يحرِّض على التَّحدِّي والغضب، والرَّجل الذي يعامَل بالتَّخويف ويُردَع بالفعل عن القيام ببعض الأفعال، سواءٌ أإيجابيَّةً كانت أم سلبيَّة، يتولَّد في نفسه الجبن، والجبن لا يصنع الرِّجال، بل يحطُّ من شأنهم.

يمكنك أن تعترض على هذا المبدأ كما تشاء، ولكنَّك لا تستطيع دحضه.

يميل الإنسان إلى الخوف ممَّا لا يفهمه. لذلك عندما استُدعيت إلى طاولة الاستجواب وحُذِّرت من ارتكاب المزيد من الأخطاء، قرَّرت أن ألتزم بذلك. لم أكن أريد أن أتعرَّض للإذلال وأرتدي سترةً كما لو كنت مجنونًا خطيرًا، وعرفت أنَّ باستطاعتي أن أصنع قماشًا أفضل إذا توخَّيت الحذر. صحيحٌ أنَّ ذلك سيقتطع من وقتي الإضافيِّ ويمنعني من مساعدة الآخرين ولن أكسب التَّبغ لشراء وسائل الرَّاحة الضَّروريَّة، ولكن ليس بالضَّرورة أن يكون الأمر كذلك تمامًا. كلُّ ما في الأمر أنَّ عملي سيستغرق وقتًا أطول لأتمكَّن من الحصول على ما أحتاجه.



THE STRAIT JACKET.

A favorite method of punishing convicts for trivial offenses. The victim, if laced too tightly, may be crippled for life.
See page 74.

في إحدى اللَّيالي، وبعد حوالي شهرين من دخولي المصنع، لم يكن «الكونت» موجودًا في زنزانتنا ساعة الحجز، وحالما أغلق الحارس الباب في وجوهنا أخبرني سموكي بالسَّبب.

«لقد احتجزوا فرانكو ألمانيا في السِّجن الانفرادي لأنَّه يصنع ملابس رديئةً. طلبت منه أن أساعده، ولكنَّه استمرَّ في المخاطرة، وها هو الآن مقيَّدٌ بالسُّترة».

علَّق الصَّبيُّ المريض: «رأيتهم يقتادونه إلى هناك بعد ظهر اليوم، وبدا وكأنَّه آخر وردةٍ مقطوفةٍ في الصَّيف. لقد كان يسخر من «السُّترة» منذ مجيئه إلى هنا، ولكنَّه سيجرِّب الآن معنى أن يكون المرء مقيَّدًا عن الحركة مثل امرأةٍ عجوز».

كانت هناك مساحةٌ فارغةٌ في الزِّنزانة مع رحيل عضوٍ منها، ويبدو أنَّ مشكلة «الكونت» لم تثر الكثير من التَّعاطف في نفوس الزُّملاء.

سأل سباغيتِّي في الزِّنزانة المقابلة: «ماذا سيفعل الكونت من دون زيته؟ لا توجد أيَّة أدوية في السِّجن الانفرادي!».

أجابه سموكي: «أوه لا تقلق، لقد حصل على دوائه».

«لعلَّه، إذا أمضى بضعة أيَّامٍ هناك، ينسى أمر مخزن الأدوية الخاصِّ به».

قضينا المساء نتحدَّث عن محنة «الكونت»، وكنت متلهِّفًا إلى عودته لأعرف ماذا حصل معه هناك.

وفي اللَّيلة التَّالية وجدناه جالسًا على حافَّة سريره يتجرَّع زجاجة الدَّواء بلا توقُّف.

وما إن أُغلق الباب حتى تجرَّد من ثيابه، وأطلعنا على العلامات التي تركتها الحبال على ظهره.

قال وهو يئنُّ من شدَّة الألم: «كان ذلك مروِّعًا! لن أخرج من هذا المكان حيًّا بعد تلك اللَّيلة!».

كانت العلامات التي تركتها الحبال واضحةً على جسده الأبيض، وأظهرت الخطوط الحمراء الأماكن التي ثبَّت بها الحرَّاس الحبال على جسده.

سألته: «أخبرنا عن ذلك».

«حسنًا، قالوا إنَّني صنعت ملابس رديئةً، وإنَّني وعدتهم قبل ذلك بأن أقوم بأداءٍ أفضل، ولكنَّها كانت المرَّة الرَّابعة هذا الشَّهر، ولذلك قاموا بإرسالي إلى مكتب رئيس العنبر. حاولت أن أستسمحه، ولكنَّه لم يصغ إليَّ، وقال للحرَّاس: «خذوه إلى السِّجن الانفرادي».

«أخذوني إلى زنزانةٍ مظلمةٍ. كان فيها فراشٌ قديمٌ على الأرض أمروني بأن أستلقي عليه، وأخذوا يربطونني بالسُّترة، وقيَّدوا ذراعيَّ حتى لا أتمكَّن من تحريكهما، ولكنَّ هذا لم يكن كافيًا لهم، فرفسني أحدهم بقدمه فانقلبت على بطني، ثمَّ وضع قدمه الأخرى في منتصف ظهري وأخذ يشدُّ الحبال بإحكام، وعندما صرخت ضحك وقال: «تصنع قماشًا رديئًا، هاه؟ سنعلِّمك الطَّريقة الصَّحيحة للحياكة».

«وبعد أن قيَّدوني بالحبال إلى الحدِّ الذي جعلني أتنفَّس بصعوبة، خرجوا وأغلقوا الباب خلفهم. كان ذلك في السَّاعة الثَّالثة ظهرًا، ولكن عندما أغلقوا الباب كان الظَّلام حالكًا كاللَّيل، وفي أوَّل نصف ساعةٍ أو نحو ذلك لم أكن أتألَّم كثيرًا، ولكن شيئًا فشيئًا بدأت أشعر بالاختناق، وصار صدري يؤلمني كلَّما تنفَّست. شعرت بأنَّ الحبال تضغط على قلبي، خفت، وبدأت أصرخ، ولكنَّ هذا آلمني أكثر، وشعرت بأنَّ قلبي سيتوقَّف إذا صرخت مرَّةً أخرى. كنت خائفًا من أن أموت هناك إذا لم ألتزم الصَّمت، وسرعان ما بدأت أطرافي بالارتعاش كما لو أنَّها قد غُرزت بالإبر والمسامير. كان الألم مروِّعًا لدرجة أنَّني لم أستطع تحمُّله وبدأت بالصُّراخ مرَّةً أخرى. صرخ رجلٌ في الزِّنزانة المجاورة قائلًا:

«لا تكن غبيًّا، استلق بهدوءٍ، خذ الأمر ببساطةٍ وسرعان ما ستعتادها وتغطٌّ في النَّوم».

ولكن كلَّما طال أمد بقائي هناك، ازداد الوضع سوءًا. رحتُ أتدحرج على وجهي، وعضضت على المرتبة بأسناني لأمنع نفسي من الصُّراخ. بدا الأمر وكأنَّني قضيت أسبوعًا كاملًا هناك، واعتقدت أنَّ المساء قد حلَّ في الخارج، ولكن عندما أعلنت السَّاعة نداء الرَّابعة عصرًا، عرفت أنَّه لم يمض على وجودي هناك سوى ساعتين، ما يعني أنَّني سأبقى على هذه الحال لاثنتين وعشرين ساعةً أخرى. لقد فقدت الأمل في أن أعيش لأخرج من هناك، ولكن بعد مضيٍّ بضع دقائق، أحضر الحرَّاس سجينًا آخر ووضعوه في الزِّنزانة المقابلة لي. صرخت علَّهم يأتون إلى زنزانتي ويطلقون سراحي، ففتحوا الباب، ووجدت أمامي المراقب اللَّيليَّ وأحد الحرَّاس:

سألني المراقب: «ما الخطب؟».

أجبته لاهثًا: «أنا أحتضر، قلبي ضعيف، لا أستطيع تحمُّل هذا!».

«في البداية استدار الرَّقيب وكأنَّه يهمُّ بالخروج، ولكن بمجرَّد وصوله إلى الباب توقَّف، وقال للحارس بصوتٍ خافتٍ حتى لا يسمعه بقيَّة المساجين: «فكَّه من الحبال».

أجاب الحارس: « أظنُّني سأفقد وظيفتي يومًا ما بسبب فعل أشياء كهذه، ولكنَّني لا أستطيع عصيان أوامرك».

بدا الحارس سعيدًا بفكِّ الحبال، أمَّا أنا فكان الأمر أشبه بالنَّعيم عندي، وقبل أن يخرج الحارس من الزِّنزانة أخرج من جعبته زجاجة ماءٍ وأخذ يسقيني منها.

كان الجوُّ باردًا جدًّا في اللَّيل ولم أستطع التَّحرُّك. استلقيت في مكاني وجسدي يرتجف من البرد. اعتقدت أنَّ الصَّباح لن يأتي أبدًا، وبقيت مستيقظًا

إلى أن سمعت نداء جرس الصَّباح، ومع حلول وقت الظَّهيرة كانوا قد أطلقوا سراحي، وعندما دخل السَّجَّان الذي قيَّدني في المساء تفاجأ جدًّا من ارتخاء الحبال على جسدي.

«بحقِّ الجحيم! كيف تمكَّن من إرخاء حباله! لقد قيَّدت هذا الأجنبيَّ من رأسه حتى قدميه، وها هو يتمرَّغ في سترةٍ فضفاضةٍ كسترة والدته. لكن هوِّن عليك، انتظر حتى تعود إلى هنا مرَّةً أخرى».

الفصل السَّابع

في إحدى ليالي السِّجن، دخل الصَّبيُّ المريض إلى الزِّنزانة مترنِّحًا. كنَّا جميعًا في الدَّاخل ننتظر قدومه، وبمجرَّد أن أُغلق الباب غرق الصَّبيُّ في نوبة سعالٍ شديدةٍ. انتظرنا بحزنٍ حتى هدأ قليلًا، ثمَّ تحدَّث سموكي، وكعادته، راح يسأل الأسئلة بطريقةٍ مرحة:

«ما الخطب يا فتى؟ ألا تشعر بأنَّك بخير؟».

حدَّقت عينا الصَّبيِّ الكبيرتان الحزينتان بنظراتٍ تعبِّر عن امتنانه للتَّعاطف الذي أبدته كلمات سموكي.

أجابه شاهقًا: «لا... لا أشعر أنَّني بحالةٍ جيِّدة. لا يمكنني تحمُّل العمل في تلك المطحنة لفترةٍ أطول. لقد خنقني غبارها اليوم. كان الجوُّ حارًا للغاية، وبصقت الدَّم طوال فترة الظَّهيرة. رأيت المشرف عندما صعدت وطلبت منه أن يعطيني وظيفةً أخرى، ولكنَّه وضع ميزان الحرارة في فمي ثمَّ وصفني بالمحتال وأعطاني جرعةً من الشَّراب الملحيِّ».

توقَّف عن السُّعال وبصق بلغمًا في الدَّلو.

قال وهو يحاول أن يبتسم: «أعطني سيجارةً يا سموكي».

حذَّره سموكي: «عليك أن تتوقَّف عن تدخين السَّجائر يا بنيَّ، ولكنَّني أتفهَّم ما تشعر به. لقد انتهت النَّوبة، أليس كذلك؟».

كان يُخرج السِّيجارة من جيبه وهو يتكلَّم، ولكنَّه أسقطها على الأرض في ذعرٍ شديدٍ حين رأى جسد الصَّبيِّ يتشنَّج على الأرض ويداه متدلِّيتان

على جنبيه. انهمرت الدُّموع من عيني سموكي دون توقُّفٍ حتى تساقطت في حضن الصَّبيِّ:

«أيُّها الفتى الصَّغير المسكين المنسيُّ من رحمة السَّماء».

ابتلع سموكي حسرته وقلب ظهره ليقابل الحائط بصمت. في الواقع، كنَّا جميعًا قد استدرنا بشكلٍ مفاجئٍ لنواري دموعنا بعضنا عن بعض.

بدأ سباغيتِّي يدندن الألحان الإيطاليَّة الوحيدة التي كان يعرفها ليهدِّئ من روع الصَّبيِّ، وأخرج «الكونت» أربعة أنواعٍ من الأدوية بسرعة، أمَّا أنا فلم أملك من أمري سوى أن أجفِّف دماءه بمنديلي الوحيد.

كان سموكي أوَّل من تحدَّث. استدار ووضع يديه تحت إبطَي الصَّبيِّ.

«تعال يا فتى، من الأفضل أن تتمدَّد على السَّرير، وسأرى إن كان بإمكاني أن أحصل على شيءٍ لك».

تساعدنا جميعًا في وضع «الصَّبيِّ» على الفراش، وأصرَّ «الكونت» على إعطائه وسادةً من الرِّيش، وكانت تلك وسادة الرِّيش الوحيدة في الزِّنزانة، وبعد أن تمدَّد الصَّبيُّ على السَّرير وتلحَّف بلحافه، أطلق سموكي نغمةً غريبةً عبر الباب. جاء الرَّدُّ الخافت من الزِّنزانة المقابلة: «مرحبًا».

صاح سموكي: «مرحبًا يا فاتي العزيز، هل هذا أنت؟».

«نعم، ما الخطب؟».

«إنَّ الصَّبيَّ يعاني هنا. هل يمكنك أن تجلب لي شيئًا؟ سوف أقوم بإخراج الخيط».

جاء الرَّدُّ المبتهج: «بالتَّأكيد. يسعدني أن أقدِّم خدمةً لك يا سموكي».

همَّ سموكي بالعمل على الفور. تسلَّل إلى أسفل فراشه، وأخرج كرةً صغيرةً من خيوط الجوت، وبنهايتها علَّق خطَّافًا صغيرًا. ثمَّ شكَّل الخيوط

على هيئة وَهَقٍ، وذهب إلى ثقب الباب، وقَلَبَ الوَهَق إلى الخارج باتِّجاه الزِّنزانة المقابلة. وقف متوتِّرًا لبضع دقائق يختلس النَّظر من الفتحة الصَّغيرة وينصت لوقع أقدام الحارس بتيقُّظ، ثمَّ قام بإنزال الوهق وبدأ بإرخاء الخيط. سرعان ما ظهر ثقلٌ صغيرٌ، فعلَّقه بخطَّافه، فاتَّصل خيطٌ طويلٌ بين الزِّنزانتين. أدركت متأخِّرًا ما حدث. كان أحد الرِّجال في الزِّنزانة المجاورة قد ألقى خيطًا معقودًا بكتابٍ ليسقط على خيطنا، وفي اللَّحظة التي وصل فيها الكتاب اصطاده سموكي بخطَّافه، وهكذا تشكَّل خيطٌ مخصَّصٌ لنقل الأغراض بين الزِّنزانتين.

قال لي سموكي: «هذا مخالفٌ للقواعد، وإذا اكتشف المراقب اللَّيليُّ أمرنا فإنَّه سيرسلنا إلى السِّجن الانفرادي».

مدَّ يده ونقر على الباب، وجاءه الرَّدُّ على الفور، ثمَّ بدأ سموكي بسحب الخيط بسرعةٍ وحذر.

وفجأةً ظهرت عبوةٌ صغيرةٌ من الثُّقب، فأمسك بها سموكي على الفور، ولم ينتظر فكَّ الرِّباط بين الخيطين، بل قطع خيطه، ثمَّ نقر على الباب مرَّةً أخرى:

«لقد قطعتُ الخيط يا فاتي. لقد أنقذتنا ولن أنسى معروفك هذا ما حييت. سأعيد لك خطَّافك في الصَّباح».

راح سموكي يزيل الخيوط والورق من العبوة الصَّغيرة. ثمَّا اغترف كوب ماءٍ من الدَّلو.

«هاك، ابتلع هذه الحبَّة بسرعة، واشرب من هذا الماء».

فتح الصَّبيُّ فمه فألقى سموكي الحبَّة الصَّغيرة بين شفتيه، ثمَّ أشربه من الماء.

تساءلت عن طبيعة ذلك الدَّواء، وبصعوبةٍ استطعت منع نفسي من السُّؤال، فقد أخبرني حدسي أنَّ هناك سرًّا ما حوله.

في غضون عشرِ دقائق كان الصَّبيُّ قد غطَّ في نومٍ عميقٍ، وتثاءب الكونت عدَّة مرَّات، ثمَّ انسلَّ إلى فراشه، وسرعان ما تبعه سباغيتِّي.

كانت لدى سموكي نسخةٌ قديمةٌ من صحيفة «نشرة سان فرانسيسكو المسائيَّة»، فأخذ يقرؤها بصمتٍ من الألف إلى الياء، دون أن يُهمل صفحةً أو إعلانًا. كان وجهه يحمل كمًّا هائلًا من الشَّقاء والهموم، وكان يكزُّ على أسنانه بطريقةٍ عنيفة. عندما يراه المرء للمرَّة الأولى يعرف من وجهه ذي السَّحنة الإجراميَّة أنَّه كان مقاتلًا صعب المراس في عالم الجريمة.

جلست على سريري محدِّقًا في الفراغ. لم أكن أفكِّر في شيءٍ على وجه الخصوص، إذ كان عقلي يشطح بآلاف الأفكار في آنٍ واحد.

أخيرًا، طوى سموكي أوراق الصَّحيفة بعنايةٍ، لكي يقايضها مع شخصٍ آخر مقابل الحصول على سلعةٍ مهرَّبة، وبهذه الطَّريقة يتمُّ تمرير الصَّحيفة من يدٍ إلى يدٍ إلى أن تتآكل أوراقها وتهترئ تمامًا.

همس بصوتٍ خافت: «هل نام الجميع؟».

كان يلمِّح إلى أنَّه يرغب في الحديث معي على انفراد. نهضت ونظرت إلى وجوه زملائنا الثَّلاثة في الزِّنزانة.

همستُ: «نعم، إنَّهم نائمون. ماذا أعطيت الصَّبيَّ؟».

سار سموكي نحوي ونظر في عينيَّ نظرةً طويلةً وثابتةً، ثمَّ رمش وهمس قائلًا:

«أعتقد أنَّك تقف في صفِّنا، ألست كذلك؟».

أجبته بجدِّيَّةٍ: «تأكَّد أنَّك تستطيع أن تثق بي».

«حسنًا. لقد أعطيته مخدِّرًا، مخدِّرًا حقيقيًّا».

كان هناك العديد من الأسئلة التي تدور في ذهني، ولكنَّه حسمها عندما رفع يده وقال:

«لن أجيبك على شيءٍ حتى تقابلني في ساحة الفناء غدًا، هناك الكثير من الأمور التي يجب أن تعرفها، أمَّا الآن فقد حان وقت النَّوم».

قبل أن أخلد إلى النَّوم رغبت في شرب كوبٍ من الماء، ولكنَّ الكوب الذي شرب منه الصَّبيُّ كان متَّسخًا، ولم تكن هناك طريقةٌ متاحةٌ لغسل الكأس، فشربت بيدي.

كان اليوم التَّالي يومَ أحدٍ، فذهبت لأقابل «سموكي» في الفناء. قادني إلى الجانب الشَّرقيِّ من السَّاحة، حيث لم يكن هناك أحد، وتوقَّفنا تحت أحد السَّلالم الحديديَّة.

استهلَّ حديثه قائلًا: «بخصوص ما كنَّا نتحدَّث عنه اللَّيلة الماضية، لم أكن لأسمح لأيِّ شخصٍ عاديٍّ بأن يعرف عن هذا الأمر، ولكنَّ حالة الصَّبيِّ كانت سيِّئةً للغاية وكان عليَّ أن أفعل شيئًا. كما قلت لك من قبل، أعتقد أنَّك تقف في صفِّنا، ولو لم أكن أعتقد ذلك لما خاطرت بإجراء هذا الحديث معك. إنَّ تعاطي وحيازة المخدِّرات أمرٌ خطيرٌ في هذا المكان. إنَّها تسلبك حياتك وتعلِّقها على شباك العنكبوت. لقد قام السَّجَّان بحجز خمس أو ستِّ رجالٍ في السِّجن الانفرادي وألبسهم السُّترة لكي يعترفوا بمصدر الحبوب التي يتعاطونها. أنا شخصيًّا لا أتعاطى هذه القذارة، ولا أشجِّع أيَّ شخصٍ على تعاطيها، ولكنَّ حبَّةً واحدةً منها قد تكون مفيدةً جدًّا، مثلما حصل في اللَّيلة الماضية على سبيل المثال».

كان سموكي ينفعل في حديثه أكثر فأكثر، وبدأت عيناه تتوهَّجان بالذِّكريات، وكنت أعرف ما يكفي لأبقى صامتًا.

«قبل بضع سنواتٍ كانت هذه المزبلة مرتعًا للمخدِّرات. كلَّما قابلت رجلًا وجدته يعاني الإدمان، وكان هناك الكثير من الشُّبَّان الصِّغار الذين جاؤوا إلى هنا بكامل صحَّتهم وقواهم وخرجوا مدمنين على هذه العادة. هل تعرف ماذا

يعني هذا؟ يعني أنَّهم سيعودون في غضون خمسة أو ستَّة أسابيع، أو ربَّما أسوأ من ذلك، لأنَّ كثيرًا منهم اعتادوا العيش كالنِّساء. أنا لست قدِّيسًا ـ لقد خرقت القانون مئات المرَّات، وانتهكت ثغراتٍ كبيرةً فيه، وأنا لست من النَّوع الذي ينظم الأشعار عن نفسه، ولكنَّ هناك أمرين أفتخر بهما، بل ثلاثة أمور، أوَّلها أنَّني لا أتعاطى المخدِّرات مطلقًا، وثانيها أنَّني لم أغوِ أحدًا قطُّ ليتعاطى تلك القذارة، وثالثها أنَّني لا أسرق أبدًا من شخصٍ وثق بي، وربَّما أصبح في يومٍ من الأيَّام شخصًا صالحًا وملتزمًا، طبعاً إذا نسيتُ أمر ذلك القاضي السَّمين وبعض الأمور الأخرى التي أرغب في تصويبها، ولكنَّني أنوي أن أصبح رجلًا صالحًا يومًا ما، طبعًا إذا أعطتني الشُّرطة فرصةً لذلك. ولكن ليس هذا ما أردت إخبارك به. قبل عدَّة سنواتٍ كان السِّجن مليئًا بالمخدِّرات، وبقي كذلك إلى أن جاء المأمور الجديد «آغري». لم يكن آغري هذا رجلًا مميَّزًا، ولكنَّه فعل شيئًا واحدًا لم يفعله أحدٌ قبله، وهو يستحقُّ أنا ينال جائزةً فخريَّةً على ذلك. لقد أخرج المخدِّرات من السِّجن. صحيحٌ أنَّ هذا قتل عددًا قليلًا من الرِّجال الذين كانوا يتاجرون بها، ولكن لم تكن هناك طريقةٌ أخرى. لقد رأيت كثيرًا من الشُّبَّان يلقون بأنفسهم إلى التَّهلكة، وإذا أردنا إيقاف ذلك لا بدَّ لنا من إخراج تلك المخدِّرات من هنا، لماذا أقول «نُخرج»؟، لأنَّها ببساطةٍ تجارةٌ مربحة.

«وعندما جاء إلى هنا أوَّل مرَّةٍ، كان الجميع يمتلك المال، وكانت الأبواب مفتوحةً على مصراعيها، ولم تكن هناك أيَّة رقابةٍ علينا، ولكن بعد فترةٍ وجيزةٍ من تولِّي آغري زمام الأمور، وقعت هنا صدمةٌ مروِّعة. في يومٍ من الأيَّام، صباح أحدٍ بالتَّحديد، لم يرنَّ جرس الصَّباح، وكانت تلك سابقةً لم تحدث قطُّ في تاريخ السِّجن.

«بدلًا من ذلك، أطلقوا صفَّارات الإنذار، وطوَّق الحرس الزَّنازين المغلقة، الأمر الذي جعلنا ننزل من أسرَّتنا بملابسنا الدَّاخلية، ثمَّ اجتاحوا الزَّنازين

وقاموا بتفتيش أجسادنا، ثمَّ فتَّشوا ملابسنا قطعةً قطعةً قبل أن يعيدوها إلينا، وبعد ذلك أخرجونا إلى الفناء وأغلقوا الزَّنازين خلفهم، وأمضوا ذلك اليوم بأسره في تفتيش الزَّنازين، ولم يتركوا شيئًا دون أن يصادروه.

«صادروا المخدِّرات، والنُّقود، والسَّكاكين، ومواقد الغاز، والصُّحف، وكلَّ ما يمكن أن تتخيَّله. وفي حوالي السَّاعة الخامسة مساءً، عدنا إلى زنازيننا مرَّةً أخرى، وبدلًا من أن نذهب للعمل في اليوم التَّالي أجبرونا على البقاء في الدَّاخل، وشرعوا في تفتيش جميع مرافق السِّجن والمصانع، وبهذه الطَّريقة جمعوا كلَّ المخدِّرات المخبَّأة في السِّجن. لقد كانت خطَّةً رائعةً، ولم يجرؤ أحدٌ على الاعتراض. أعرف تاجرًا كان يهرِّب المخدِّرات إلى داخل السِّجن، وخسر حينذاك ما يقرب من ثلاثمائة دولار، لأنَّ المساجين لم يكن لديهم المال ليدفعوا له ثمن المخدِّرات التي صودرت منهم.

«وعندما سمحوا لنا بالخروج من الزَّنازين صباح الثُّلاثاء، وجدنا لافتةً كبيرةً في الفناء كُتِب عليها: «أيُّ شخصٍ يُضبَط وبحوزته أموالٌ أو مخدِّراتٌ بعد التَّاريخ المحدَّد فسيفقد جميع ممتلكاته ويعاقَب على ذلك عقابًا شديدًا، ولكن إذا سلَّم الشَّخص الممنوعات قبل هذا التَّاريخ فلن يمسَّه أيُّ ضرر.

«ولكن بالطَّبع لم يخاطر أيُّ أحدٍ بتسليم ما لديه، أو ربَّما لم أسمع بذلك على الأقلِّ، وبعد أن انتهت حقبة المخدِّرات، رأيت خمسين رجلًا يفقدون عقولهم كالشَّياطين ويُرسَلون إلى مصحَّة الأمراض العقليَّة، ورأيت بأمِّ عينيَّ رجلين أو ثلاثة يأكلون الصَّابون أو الجير كوسيلةٍ لإيقاف شرههم ولَجْمِ إلحاح المخدِّر في دمائهم. لقد كان الأمر مروِّعًا. هناك رجالٌ ما كان ليخطر لي في يومٍ من الأيَّام أنَّهم يتعاطون تلك القذارة، ولكنَّني رأيتهم يتجوَّلون ويتوسَّلون لأصدقائهم أن يطلقوا عليهم الرَّصاص في العراء.

«إذا أخذت المخدِّرات من مدمنٍ، فإنَّك تأخذ منه كلَّ شيء. لن يبقى له عقلٌ أو قلبٌ ليعيش به.

«سرعان ما بدأ الكثير من الرِّجال بالتَّخطيط للحصول على المزيد من المخدِّرات بأقرب فرصة، وكان هناك عددٌ كبيرٌ من الحرَّاس الذين كانوا يعملون كوسطاء بين السُّجناء والعالم الخارجيِّ ليجلبوا لهم الأموال والمخدِّرات، وفي غضون أسبوعين وفَّر أولئك الحرَّاس إمدادًا جيِّدًا، ولكنَّه كان قليلًا جدًّا مقارنةً بما كان لدينا من قبل، وانقضَّ السُّجناء على تلك المخدِّرات كالكلاب المسعورة، ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى عُثِر على سجينٍ ميِّتٍ ممدَّدٍ على الأرض وقد أحكم قبضته على البضاعة الممنوعة.

«في ذلك اليوم طبَّق السِّجن عقوبة السُّترة لأوَّل مرَّة، ولكنَّها لم تكن سهلةً آنذاك، فقد كان المعاقَب يُحبَس بتلك السُّترة من رأسه حتى أخمص قدميه لمدَّة شهرين كاملين في السِّجن الانفرادي. لم يشعر السُّجناء بالخوف من السُّترة عندما سمعوا بها أوَّل مرَّة، ولكن عندما حُبس بها أوَّل رجلٍ لبضع ساعاتٍ صرخ طالبًا النَّجدة وأفشى بجميع المعلومات التي كان يعرفها، وعندما ضغطوا على الرَّجل الآخر استسلم أسرع من الرَّجل الأوَّل، ومن اعترافٍ إلى اعتراف، أصبح هناك عشرون أو ثلاثون شريكًا متورِّطًا في الجريمة، وتمَّ حبسهم جميعًا في السِّجن الانفرادي بالطَّريقة نفسها، وسرعان ما عرف المأمور كيف دخلت المخدِّرات إلى السِّجن، وصرخ في الحرَّاس...».

توقَّف سموكي فجأةً عن الكلام، ونظر حوله بحذر:

«أشعر أنَّ هناك «حمامة براز» تستمع إلينا وتقف خلفنا مباشرةً. لا بدَّ أنَّه قد سمعني عندما تحدَّثت عن المخدِّرات. علينا أن نذهب إلى مكانٍ آخر».

لم يستدر سموكي لينظر خلفه، ولكنَّه كان واثقًا من أنَّ هناك جاسوسًا سيِّئ

السُّمعة يقف في مكانٍ قريبٍ خلفنا. سرت خلف سموكي بصمتٍ إلى الطَّرف الآخر من الفناء، وألقينا معاطفنا على الأسفلت لكي تجفِّفها الشَّمس.

«دعنا نكمل الحديث، أين توقَّفنا؟».

«لقد توقَّفت في الجزء الذي وشى السُّجناء فيه بمموِّل صفقة المخدِّرات».

«أوه، نعم. لقد اعترفوا جميعًا، وجميعهم كانوا من المدمنين، وفي كلِّ مرَّةٍ كانوا يكتشفون حارسًا جديدًا متورِّطًا بصفقات المخدِّرات، وكثيرون منهم فقدوا وظائفهم بسبب ذلك. عندما خرج المدمنون من السِّجن الانفرادي وصفوا السُّترة بأنَّها جحيمٌ مستعرٌ يلجُ القلبَ مباشرةً. ثمَّ أقرَّت الهيئة التَّشريعيَّة قانونًا يجرِّم إدخال المخدِّرات إلى السِّجن، وهذا القانون أصاب جميع الحرَّاس بالخوف، وأصبح من الصَّعب الحصول على المخدِّرات، ولكنَّ بعض الرِّجال استمرُّوا في ذلك، وكانت هناك عدَّة مخاطراتٍ قبل أن يتلاشى الأمر بالكامل. آخر شخصٍ قُبض عليه وُضع في السُّترة لمدَّة عشرة أيَّامٍ قبل أن يعترف، ثمَّ نُقل إلى المستشفى وفارق الحياة هناك. الجدير بالذِّكر أنَّه كان سيغادر السِّجن بعد اثني عشر يومًا فقط منهيًا محكوميَّته التي قضى منها أربع عشرة سنةً في السِّجن. أعتقد أنَّ اسمه كان «بيكر» إذا لم تخنِّي الذَّاكرة.

«تصبح السُّترة قاتلةً عندما يشدُّها بعض الحرَّاس المهملين بإحكامٍ حول العنق. أعرف رجلين أصيبا بالشَّلل بسبب ذلك. سأريكهما لاحقًا، فلا تنس أن تذكِّرني بهما.

«وهكذا يمكنك أن تعرف حجم الفرصة التي أُتيحت للصَّبيِّ اللَّيلة الماضية. تخيَّل لو أنَّ الحارس أمسكنا في تلك اللَّحظة، لكان أمرنا انتهى في السُّترة بكلِّ تأكيد.

«هناك الكثير من الأبرياء الذين عوقبوا بالسُّترة ظلمًا. أعرف سجينًا

ورَّطه أحد الرِّجال الحاقدين عليه بدسِّ مخدِّراتٍ في جيبه دون علمه، ثمَّ أبلغ الحرَّاس عنه، وعندما فتَّشوه وجدوا المخدِّرات بحوزته، وأرسلوه إلى السِّجن الانفرادي وقيَّدوه بإحكامٍ في السُّترة. حاولوا إجباره على الاعتراف، وأخبره الطَّبيب أنَّ عليه أن يستسلم قبل أن يتفاقم وضعه سوءًا، ولكنَّه فارق الحياة دون أن ينبس بحرفٍ واحد.

وهناك حالةٌ أخرى لرجلٍ بريءٍ كان يحصل على دوائه المسكِّن للآلام من شخصٍ يعرفه بالخارج، وكانت طريقة إرسال المسكِّن تتمُّ عن طريق وضعه بين صفحات المجلَّة ثمَّ إلصاق صفحاتها معًا حتى لا يكتشف المفتِّشون أمرها، ولكنَّ بعض المساجين كان يستخدم الطَّريقة نفسها للحصول على المخدِّرات، وصادف أن أُرسِلَت المجلَّتان في اليوم نفسه، فحصل البريء على المجلَّة الخاطئة، وسرعان ما انكشف أمره واتُّهم بحيازة المخدِّرات. أوشك الرَّجل البريء أن يموت مقيَّدًا بالسُّترة، ولكن من حسن حظِّه أنَّ الرَّجل الذي كان مسجونًا في الزِّنزانة المقابلة لزنزانته كان يعرف أمر صاحب المجلَّة الممنوعة، ووشى به وبمن أرسل له المخدِّرات، وكتب للمأمور تفاصيل ما حصل، ولكنَّه بالطَّبع لم يخبره بهويَّة الأشخاص الذين كان من المفترض أن تهرَّب لهم تلك المخدِّرات. لقد كانت ملابسات تلك القضيَّة مروِّعةً جدًّا. صحيحٌ أنَّها أسفرت عن نجاة رجلٍ بريءٍ من الموت المحقَّق، ولكنَّني أعرف الكثير من الحالات التي انتهى بها الأمر من سيِّئٍ إلى أسوأ.

«إنَّ المخدِّرات تدفع الرَّجل إلى فعل أيِّ شيء. ولم يحدث، في تلك الأيَّام، أن انقضى شهرٌ واحدٌ دون أن تقع جريمة قتلٍ. كنت أحمل دائمًا مشرطًا حادًّا في جيبي، والجميع كانوا يحملون معهم أدواتٍ حادَّةً، ولو كنت معنا في تلك الأيَّام لفعلت الشَّيء نفسه. لقد تعرَّضت للطَّعن ذات مرَّةٍ في ساحة الفناء. في ذلك اليوم جاء مدمنٌ مسعورٌ من خلفي فظنَّني شخصًا آخر يريد الانتقام منه. الشَّيء الوحيد الذي أنقذني هو أنَّ حدسي أخبرني بحدوث

شيءٍ ما فاستدرت في الوقت الذي كان يحاول فيه الإمساك بي. خدشني بخنجره بسرعةٍ ولكنَّني أمسكت به وأصبته بجرحٍ تحت أذنه قبل أن يدرك ما حصل له، ثمَّ توغَّلت في الحشد، ووقفت في مكانٍ بعيدٍ عنه. لم يكتشفوا مطلقًا من ضربه، وألقى بعض أصدقائه بخنجره بعيدًا قبل أن ينادوا الحارس.

«ولكنَّ تلك الأيَّام ولَّت بلا رجعة. لا يوجد في السِّجن الآن سوى القليل من المخدِّرات، وهي مخبَّأةٌ بعنايةٍ شديدةٍ حتى لا يتمكَّن أحدٌ من اكتشاف أمرها. لا أعتقد أنَّني في حاجةٍ إلى توجيهك، ولكن توخَّ الحذر من الأشخاص الذين تعمل معهم، وأبقِ فمك مغلقًا، ولكن اترك عينيك وأذنيك مفتوحةً على اتِّساعها، لأنَّك لن تقع في أيِّ مشكلةٍ إذا حرصت على توخِّي الحذر».

وفجأةً، قطع سموكي حديثه قائلًا: «أترى ذلك الرَّجل الأسود الذي ينزل الدَّرج؟ ذاك، صاحب اليد المحمولة؟».

نظرت في الاتِّجاه الذي أشار إليه فرأيت سجينًا زنجيًّا بذراعٍ مثنيَّةٍ بزاويةٍ قائمةٍ من الكوع. كانت أصابعه متيبِّسةً كالمخالب.

«حسنًا، هذا أحد الرَّجلين اللَّذَين أخبرتك عنهما. لقد أصيب بالشَّلل بعد تقييده بالسُّترة. كان قد دخل في نزالٍ مع سجينٍ أبيض في هذا الفناء، والحارس الذي فكَّ عراكهما وضعهما في السُّترة بنفسه. عندما خرج الاثنان كانا مصابَين بالشَّلل. حالة الرَّجل الآخر أسوأ من حالته، ولن يعيش طويلًا. هناك شائعاتٌ تدور حول عرض قضيَّته على الهيئة التَّشريعيَّة، فلذلك الرَّجل الكثير من الأصدقاء في فريسكو، أمَّا الزِّنجيُّ فليس لديه أيُّ أصدقاء أو معارف».

كان الزِّنجيُّ يسير مقتربًا منَّا في تلك اللَّحظة، فنظرت إليه عن كثب. كان وجهه الأسود ممتلئًا ببقعٍ بيضاء، كما لو أنَّه قد تمرَّغ في مسحوقٍ أبيض، ورأيت علامات الموت البشعة تطلُّ من عينيه الواهنتين.

صحت بقلقٍ: «بحقِّ السَّماء يا سموكي! أرني ذلك الحارس الذي فعلها. أريد أن أبتعد عن طريقه».

ضحك سموكي: «كنت أعلم أنَّك ستطلب ذلك. جميع السُّجناء يهابونه. إنَّه المسؤول عن الزَّنازين وساحة الفناء. تعال معي».

نهضنا، وقادني سموكي إلى مكان وجوده. مشينا بمحاذاة الحشد حتى وصلنا إلى الطَّرف الجنوبيِّ من الفناء.

«هل ترى ذلك الحارس الذي يمشي هناك ورأسه للأسفل ويضع يديه في جيبَي بنطاله؟ حسنًا، هذا هو».

نظرت إليه نظرةً خاطفةً ثمَّ استدرت بعيدًا. كان هو الرَّجل نفسه الذي رأيته يضرب السَّجين البائس في زقاق المجانين قبل بضعة أسابيع.

تمكَّن الزِّنجيُّ من البقاء على قيد الحياة حتى نهاية عقوبته وتمَّ تسريحه بخمسة دولارات، في حين مُنح الرَّجل الآخر «سـ...» إفراجًا مشروطًا لاعتلال صحَّته، ووقف لاحقًا أمام الهيئة التَّشريعيَّة لولاية كاليفورنيا بعد أن قدَّم بلاغًا حول قضيَّته، وعُيِّنَتْ لجنةٌ للتَّحقيق في ملابسات عقوبة السُّترة الضَّيِّقة في سان كوينتين. توفِّي «سـ...» بعد ذلك بوقتٍ قصير، ومن المؤكَّد أن ذلك حصل بسبب الشَّلل الذي أصابه بعد تقييده بالسُّترة، أمَّا بالنِّسبة إلى الحارس الذي فعل ذلك فهو ما يزال على رأس عمله، وما يزال يقيِّد السُّجناء بالسُّترة من حينٍ لآخر.

خلال السَّنوات التي تلت ذلك، أصبحت أنظر إلى ذلك الحارس نظرةً مختلفةً، واكتشفت أنَّه يمتلك العديد من الخصال الحسنة، فضلًا عن أنَّه أصبح ضابطًا ممتازًا في الكثير من النَّواحي، وعرفت أنَّه كان يزوِّد كبار السِّنِّ بالمال فور خروجهم من السِّجن، وكان يقدِّم الكثير من الأعمال الخيِّرة والإنسانيَّة، وشخصيًّا، لم يكن لديَّ أيُّ دليلٍ شخصيٍّ ضدَّه أو ضدَّ أيِّ موظَّفٍ آخر في

سان كوينتين، ولكنَّني لن أتغافل عن الحقائق. أعلم أنَّ الإنسان قد يتحوَّل في لحظةٍ واحدةٍ إلى رجلٍ ظالمٍ وقاسٍ ومنتقم، ولقد رأيته بأمِّ عينيَّ يضرب أحد السُّجناء ضربًا مبرِّحًا، وذلك انتهاكٌ مباشرٌ لقانون ولاية كاليفورنيا.

إنَّني أعدُّ نفسي ما أزال سجينًا، وأشعر بذلك في قلبي لأنَّني ما أزال أتضامن روحيًّا مع السُّجناء، وحتى تفهمني بوضوحٍ أريد أن أشرح لك أنَّ تعاطفي ليس مع السُّجناء بوصفهم مجرمين، ولكن بوصفهم بشرًا يستحقُّون أن يعامَلوا بطريقةٍ تُخرجهم إلى العالم كمواطنين صالحين.

أعتقد بصدقٍ أنَّ تأثير هذا الحارس سلبيٌّ للغاية، فكلُّ السُّجناء يكرهونه. إنَّهم لا يكرهون الآمر، ولا يكرهون بقيَّة الحرَّاس، ولا يكرهون أيَّ أحدٍ سواه، ولكن لماذا؟ سيتطلَّب الأمر كتابًا آخر لأشرح ذلك.

إنَّني أعني كلَّ كلمةٍ كتبتها، وأؤكِّد على أنَّ هذا الرَّجل ليس خطرًا على المجتمع فحسب، بل إنَّ وضعه كمسؤولٍ في سجن سان كوينتين خطرٌ يهدِّد أمن النِّظام بأسره. إنَّه ليس صديقًا للقانون، بل عدوًّا للقانون، والقائمون على السِّجن لا يعرفون ما أعرفه وما يعرفه المئات بل الآلاف من السُّجناء. إنَّهم مخدوعون به، وهم أشبه بجيران رجلٍ تخونه زوجته وينظرون إليه كلَّ يومٍ كأنَّ شيئًا لم يكن.

الفصل الثَّامن

أصدرت اللَّجنة التَّشريعيَّة التي حقَّقت في استخدام عقوبة السُّترة الضَّيِّقة في سان كوينتين تقريرًا مثيرًا للاهتمام، ثمَّ أصدر مجلس النُّوَّاب قرارًا بناءً على ذلك التَّقرير يقضي بوضع تعديلاتٍ على تلك العقوبة، وهي أن يُقيَّد السَّجين المعاقَب مدَّةً أقلَّ من السَّابق، وعلى نحوٍ لا يُلحق الضَّرر الجسديَّ به، وينصُّ القرار بالتَّحديد على ألَّا يبقى السَّجين مقيَّدًا بالسُّترة لأكثر من ستِّ ساعاتٍ متتاليةٍ، كما لا يجوز إخضاع أيِّ سجينٍ لذلك العقاب قبل أن يتمَّ فحصه من قبل الطَّبيب والحصول على موافقةٍ موقَّعةٍ منه.

لقد شاهدت بنفسي إجراءات ذلك الفحص وهي تُجرَى على مئات الرِّجال، وتتضمَّن تلك الإجراءات فحص صدر السَّجين بسمَّاعة الطَّبيب، وذلك في حدِّ ذاته اعترافٌ صريحٌ بأنَّ السُّترة تشكِّل خطرًا يهدِّد حياة المريض إن لم نقل يقتله، ولكن قبل تطبيق هذه القوانين كان السُّجناء يقيَّدون بالسُّترة ويُترَكون في السِّجن الانفرادي يومين، أو ثلاثة، أو خمسة، أو حتى عشرة أيَّام دون أن يعيرهم أحدٌ انتباهًا، ولم يكن الحرَّاس يدخلون على السَّجين إلَّا ليضعوا قطعة خبزٍ أو رشفة ماءٍ في فمه، أو ليسمعوا اعترافه.

بعد إصدار هذا القرار الذي يحدِّد فترة العقوبة بستِّ ساعاتٍ فقط، لم يتغيَّر النِّظام إلَّا شكليًّا فحسب، فقد اتَّبع السَّجَّانون الأساليب نفسها التي كانوا يعملون بها للحصول على اعترافات السُّجناء، وتركوا الضَّحايا في السُّترة لعدَّة أيَّام، أو حتى لأسابيع. كلُّ ما في الأمر أنَّهم كانوا يقيِّدون السَّجين

لستِّ ساعاتٍ ثمَّ ينزعون السُّترة عنه لستِّ ساعاتٍ أخرى، ثمَّ يعودون لتقييده بالسُّترة لستِّ ساعاتٍ وهكذا دواليك، وما يزال الضَّحايا يقضون عقوبتهم بالسُّجون الانفرادية على قطعة خبزٍ وقنِّينة ماءٍ صغيرةٍ، وكانت ساعات الاستراحة التي يُحرَّر فيها السَّجين من السُّترة تبدأ السَّاعة السَّابعة مساءً وتنتهي السَّاعة الواحدة صباحًا، ما يعني أنَّك ستستيقظ من نومك في السَّاعة الواحدة صباحًا لتقضي ستَّ ساعاتٍ أخرى مقيَّدًا بالسُّترة!

أشعر أحيانًا بالأسف لعدم خضوعي لعقوبة السُّترة، لأنَّ ذلك كان سيمنحني القدرة الكاملة على وصف جميع الأحاسيس والآثار التي كانت السُّترة ستخلِّفها على جسدي وروحي، ولكنَّني حظيت بفرصةٍ مثاليَّةٍ لمراقبة المعاقَبين بشكلٍ مباشر، فقد عملت لعدَّة سنواتٍ في غرفة الملابس حيث كان السُّجناء المعاقَبون يغيِّرون ملابسهم قبل عودتهم إلى الزَّنازين، ورأيت عشرات الحالات وتحدَّثت مع عشرات الضَّحايا بشكلٍ مباشرٍ بعد انتهاء عقابهم. كنت أشاهد العلامات التي تركتها الحبال، والخطوط الحمراء حول الجذع والأطراف. كانت الكدمات مرئيَّةً، أمَّا الجلد الذي لم تمسَّه الحبال فكان متجعِّدًا ومنهيِّجًا.

غالبًا ما يكون الرِّجال الخارجين غير قادرين على المشي دون مساعدة، وأولئك الذين يستطيعون المشي يفعلون ذلك على نحوٍ واهنٍ ومترنِّح، كما لو كانوا سكارى.

توضع السُّترة في أوَّل ساعةٍ بطريقةٍ قد تقتل المرء في بضع دقائق. لقد عرفت أنَّهم كانوا يتعمَّدون فعل ذلك حتى يصرخ المعاقَب طلبًا للرَّحمة ويعترف بسرعة، وغالبًا ما يسمع نزلاء العنبرين (أ) و(ب) صرخات المعاقَبين وبكاءهم المريع في جوف اللَّيل على الرَّغم من سماكة الجدران وشساعة المبنى.

ما تزال عقوبة السُّترة مطبَّقةً في سجن سان كوينتين وفولسوم.

صحيحٌ أنَّ استخدامها أصبح نادرًا، على الأقلِّ في سجن سان كوينتين، ولكن في هذا الوقت الذي لا تُطبَّق فيه العقوبة بشكلٍ كبيرٍ أصبح سلوك السُّجناء أكثر انضباطًا، ما يعني أنَّها لم تكن وسيلةً فعَّالةً لردع السُّلوكيَّات الخاطئة، بل كانت وسيلةً همجيَّةً ساهمت في زيادة الجرائم والعنف المضادِّ طوال الفترة التي كانت تُطبَّق فيها، أو «يُساء تطبيقها» بمعنًى أدق.

إنَّني أطالب بإلغائها من خلال القضاء التَّشريعيِّ، فمن الواجب أن تكون طريقة معاقبة السُّجناء محدَّدةً بالإرادة المباشرة للشَّعب، والتي يتمُّ التَّعبير عنها عبْرَ هيئتهم التَّشريعيَّة، ففي الوقت الذي يُمنح لإدارات السُّجون الحقُّ بابتكار عقوباتهم الخاصَّة، سيظلُّ احتمال التَّعذيب والقسوة قائمًا لفترةٍ طويلة.

لحسن الحظِّ، أصبحت إدارة سان كوينتين في الوقت الحاليِّ موكلةً لرجلٍ قديرٍ ومنصفٍ وطيِّب القلب. ولكن كيف سيكون الحال مع إدارةٍ جديدة؟

طُبِّقت عقوبة السُّترة لأوَّل مرَّةٍ كوسيلةٍ لإخراج المخدِّرات من السُّجون. ويمكن أن نعدَّ تطبيقها لهذا الغرض، مع وضع جميع الحقائق في الاعتبار، أمرًا مبرَّرًا إلى حدٍّ ما، مثلها مثل جميع العقوبات والقواعد والقيود الأخرى.

ولكن مع التَّخلُّص من المخدِّرات وإعادة ضبط السِّجن، لماذا تبقى هذه العقوبة قائمة؟ لقد ذهب السَّبب الذي سُنَّت هذه العقوبة لأجله ولكنَّها ما تزال مطبَّقةً إلى اليوم.

قبل بضع سنواتٍ كان من السَّهل الحصول على «المخدِّرات» في كلِّ حيٍّ أو مدينةٍ من مدن كاليفورنيا. لقد كان استخدامها منتشرًا جدًّا، وكان السُّجناء يدخلون السِّجن وهم مدمنون، ولكن خلال العامين أو الثَّلاثة أعوام الماضية لم أعرف أيَّ سجينٍ دخل إلى هنا مدمنًا. صحيحٌ أنَّ هناك محاولاتٍ قليلةً لإدخال «المخدِّرات» إلى السِّجن، ولكنَّ الغالبيَّة العظمى من السُّجناء يقفون

ضدَّها، ويبلِّغون عن أيِّ محاولةٍ لفعل ذلك على الفور. وسبب هذا الموقف الذي اتَّخذه السُّجناء يسهل شرحه. فهم ببساطةٍ بشرٌ، ويدركون ما يفعله المخدِّر من أمورٍ مروِّعةٍ بأجسادهم، وكيف يُصبح من الصَّعب على المدمن أن يتخلَّص من عواقب وآثار إدمانه على المدى الطَّويل، وقد تطوَّر هذا الموقف الجماعيُّ في ظلِّ الإدارة الجديدة، ولكنَّ المأمور كان يحثُّهم على عدم الإبلاغ بدافع الانتقام، بل بدافع المساعدة، وذلك عن طريق إبلاغهم بالأشياء التي يشكُّون بأنَّها تمثِّل خطرًا عليهم.

ومع ذلك، وُضِعَتْ بعض القواعد واللَّوائح الخاصَّة التي تحدُّ من إمكانيَّة تهريب المخدِّرات إلى السِّجن، وما تزال هذه القوانين سارية المفعول إلى اليوم، ومنها أنَّه لا يجوز لأيِّ سجينٍ أن يستلم أيَّ هديَّةٍ من أولئك الذين يحبُّونه في الخارج، ولا حتى في أعياد الميلاد، ولا يمكن للسَّجين أن يحصل على الكتب التي يرغب فيها إلَّا بعد إذنٍ من المأمور بمنحه حقَّ شراء الكتب من دور النَّشر المعتمدة فحسب. كنت أعرف سجينًا متديِّنًا يمتلك مجموعةً قيِّمةً من الكتب الدِّينيَّة في منزله، ولكنَّه لا يستطيع الحصول عليها، لأنَّ ذلك مخالفٌ للقوانين. الطَّريقة الوحيدة هي أن يشتري الكتب التي يرغب فيها من النَّاشر، ولأنَّه لم يكن يمتلك المال، لم يحصل على الكتب التي أرادها أبدًا.

عندما تولَّى المأمور الحاليُّ إدارة السِّجن قبل أربع سنواتٍ بدأ بتغيير هذه القواعد، ولكنَّ أعضاء الإدارة نصحوه بعدم تغييرها، وهكذا ما تزال هذه القوانين سارية المفعول إلى اليوم.

ماذا يعني هذا؟

يعني أنَّ كلَّ سجينٍ يدخل سجن سان كوينتين يبقى كما دخل شرِّيرًا حتى ينهي محكوميَّته بعد عشرة أو خمس عشرة سنة، بل إنَّه ينحدر إلى أدنى مستويات الأخلاق بسبب الأوضاع السَّائدة حوله، ويعني أيضًا أنَّه

سيفقد الإحساس بالرَّاوبط العائليَّة ومشاعر المحبَّة التي هي أساس تماسكنا الإجتماعيِّ.

لقد أثبتت التَّجربة أنَّ السُّجناء الذين يُعامَلون بلطفٍ يتعاملون مع غيرهم بلطفٍ، وذلك هو السُّلوك الطَّبيعيُّ لأيِّ إنسانٍ يحمل مشاعر إنسانيَّةً في داخله.

ولمَّا كان الأمر كذلك، فلماذا لا يتمُّ التَّعامل مع السُّجناء بأقصى درجةٍ ممكنةٍ من اللُّطف تتَّفق مع احتجازهم الآمن والمضبوط؟

هناك من يعتقد أنَّ السِّجن يجب أن يكون مكانًا للعقاب أو الانتقام. ولكن لِمَ لا نحاول تطبيق الخيارات الأخرى؟ ألم تثبت أساليب العقاب أنَّها مكلفةٌ وغير فعَّالة؟ لماذا لا نحاول استحداث أساليب أخرى؟

لا أقصد أنَّ السُّجون يجب أن تتحوَّل إلى منتجعاتٍ ترفيهيَّةٍ، بل أن تكون مكانًا تأهيليًّا، سواءٌ على الصَّعيد الأخلاقيِّ أو الجسديِّ، وليس مكانًا مدمِّرًا ومحبطًا للمعنويَّات. عليك أن تتذكَّر أنَّ هناك عددًا لا يقلُّ عن ثلاثة آلاف سجينٍ يافعٍ في ولاية كاليفورنيا وحدها، ثلاثة آلاف شابٌّ يرتدون السَّراويل القصيرة المخطَّطة، وعليهم أن يقضوا سنواتٍ طويلةً من حياتهم خلف قضبان السِّجن.

قد يكون أحدهم ابنك! صحيحٌ أنَّها فكرةٌ مروِّعةٌ، ولكن يجب أن تعرف أنَّ أولئك لديهم آباءٌ أيضًا، ولا يجوز أن يوضع شابٌّ تحت السِّنِّ القانونيَّة في السِّجن، وأن يتعرَّض لهذه الأهوال التي لا يحتملها الكبار. ليس من العدل ولا من المنطقيِّ أن يحصل ذلك، وسيكون من المروِّع أن تعتقد بمشروعيَّة هذا الأمر.

يُسمح لسجناء سان كوينتين بالتَّجمُّع في الفناء أيَّام الآحاد والأعياد، وساحة الفناء عبارةٌ عن مساحةٍ ضيِّقةٍ تحيط بها جدران السِّجن والمباني الملحقة به. هذه المساحة صغيرةٌ جدًّا بالنِّسبة إلى عددٍ كبيرٍ من الرِّجال،

وعندما يجتمع جميع السُّجناء في تلك الأيَّام، يصبح الفناء أشبه بحظيرة الماشية، ويقضي السُّجناء اليوم بطوله يتجوَّلون ويخرجون ويدخلون بلا توقُّف، ولا توجد مساحةٌ كافيةٌ للسَّير في خطٍّ مستقيم. يقضي بعضهم أوقاته في لعب الشِّطرنج أو «الدومينو الصِّيني»، وبعضهم الآخر في قراءة المجلَّات أو الصُّحف، وثمَّة قلَّةٌ قليلةٌ من السُّجناء يقضون أوقاتهم في التَّعلُّم. صحيحٌ أنَّ هناك مقاعد، ولكنَّها ليست سوى لوحاتٍ ممتدَّةٍ بين أعمدة السَّقيفة، ولا يمكن أن تتَّسع لأكثر من مائة شخص، لذلك يجب على المرء أن يقضي وقته إمَّا في المشي المتزاحم طوال اليوم، وإمَّا في الجلوس على الأسفلت. عددٌ قليلٌ من الأشخاص يجلسون على السَّلالم الحديديَّة المؤدِّية إلى الطَّوابق العليا، ولكن لا يُسمح لهم بتجاوز أربع أو خمس درجاتٍ من درجات السُّلَّم. وهناك عددٌ لا بأس به ممَّن يضعون معاطفهم أو صحفهم على الأسفلت، ويمدِّدون أجسادهم عليها ليناموا في العراء، تحت شمس الصَّيف الحارقة.

ولكن لا يجب أن يؤخذ هذا الكلام على أنَّه انتقادٌ لإدارة السِّجن، فبالمقابل هناك سجونٌ كثيرةٌ لا يسمحون فيها للسُّجناء بالخروج أبدًا من زنازينهم، ولا يُسمح لهم بالتَّجمُّع تحت أيِّ ظرفٍ من الظُّروف.

ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ ازدياد نسبة الانتكاس والجنوح إلى الجريمة في تلك السُّجون مقارنةً بسجن سان كوينتين وسجن فولسوم، فالحبس الانفرادي لا يميل إلى جعل المساجين رجالًا أفضل، ولكن أعتقد أنَّ تطبيق نظام «أوبورن» سينجح في ذلك.

في ظلِّ نظام «أوبورن»، لدى السَّجين أكثر من خيارٍ إذا تعرَّض للعقاب، والقدرة على الاختيار الصَّحيح هي الدَّلالة الوحيدة الحقيقيَّة على أنَّ السَّجين يمتلك شخصيَّةً حرَّةً. وعندما يُسحب من السَّجين حقُّ الاختيار، فإنَّه ينحدر إلى مستوى الحيوانات.

والحقيقة أنَّ مسألة السَّماح للسُّجناء بقضاء أيَّام الآحاد حتى السَّاعة الثَّالثة ظهرًا شيءٌ جيِّدٌ، وامتيازٌ إنسانيٌّ يستحقُّ الثَّناء، ولكنَّني لم أكن أنتقد هذه الفكرة بحدِّ ذاتها، بل كنت أحاول أن أنقل ما شعرت وما شعر به آلاف السُّجناء أيضًا.

في البداية يتحرَّر السَّجين الجديد من الحبس البغيض الذي تعرَّض له في مركز الشُّرطة، ويجد في ساحة سان كوينتين متنفَّسًا كبيرًا. ولكن بعد مضيِّ أسابيع قليلةٍ، يبدأ بالشُّحوب. ثمَّ يصبح الأمر مزعجًا، إلى أن يُصاب في النِّهاية بالجنون.

بعد مضيِّ عامٍ لي في السِّجن، أصبحت أخشى قدوم يوم الأحد وبتُّ أعزل نفسي في الفناء إلى أن يسمحوا لنا بالعودة إلى الزِّنزانة مرَّةً أخرى.

بالنِّسبة إلى الزَّائر العاديِّ الذي يأتي إلى سان كوينتين لأوَّل مرَّةٍ، فإنَّه يرى الفناء شيئًا رائعًا، ولكن بالنِّسبة إلى السَّجين العاديِّ المسجون في هذا الجحيم، فإنَّه لا يمتلك أيَّة خصوصيَّة، سواءٌ من رفاقه أو من الحرَّاس.

مع نهاية اليوم يصبح الأسفلت متَّسخًا بالتَّبغ والبصاق والنُّخامة، وفي الأيَّام الحارَّة تصبح الرَّائحة نتنة للغاية، ويتشكَّل الضَّباب الذي يقضي على الحواسِّ ويهدِّد صحَّة الرِّئتين. لم أقضِ يومًا كاملًا في ساحة سان كوينتين دون أن أصاب بصداعٍ شديد. كنت أسعد دائمًا بحلول السَّاعة الثَّالثة ظهرًا، وأصبحت أفضِّل الزِّنزانة المغلقة سيِّئة التَّهوية. إنَّه مجرَّد خيارٍ بين السَّيِّئ والأسوأ.

في الشِّتاء، خلال موسم الأمطار، يكون الوضع أسوأ.

عندما تمطر يوم الأحد، يذهب الرِّجال إلى زنازينهم بعد الإفطار مباشرةً، ولكن عندما تمطر بعد ظهيرة يوم السَّبت، لا يعود بإمكاننا أن نعود إلى زنازيننا.

يُغلق المصنع أبوابه في السَّاعة 2:30 بعد ظهر يوم السَّبت حتى يتمكَّن

السُّجناء من استعارة الكتب من مكتبة السِّجن، ثمَّ نذهب لتناول العشاء في السَّاعة 4:30، وإذا هطل المطر فإنَّ الغالبيَّة العظمى من السُّجناء يكونون مجبرين على البقاء في الفناء والانتظار بصبرٍ إلى حين موعد الإغلاق. أذكر أنَّني بعد ظهر أحد أيَّام السَّبت الماطرة، وبعد وقتٍ قصيرٍ من دخولي السِّجن، كنت خارجًا من المصنع وحدي، واضطررت إلى المشي ببطءٍ، إذ كان المطر يهطل بغزارةٍ شديدةٍ، وعندما وصلت إلى الفناء، وجدت الجميع منزوين في مكانٍ ضيِّقٍ تحت السَّقيفة، فالتصقت بهم بعُسرٍ لدرجة أنَّني لم أستطع التَّلفُّت يمينًا ولا يسارًا. كانت الأمطار عاصفةً، فتحرَّكت بعض ألواح السَّقيفة من مكانها، وانسكب الماء علينا من الأعلى، ولأنَّني كنت آخر الواصلين، لم أجد مكانًا أحتمي فيه من الماء المنسكب، وسرعان ما أغرقت المياه ملابسي.

حين وصلت إلى زنزانتي بعد العشاء، وجدت أنَّ الصَّبيَّ وسباغيتِّي قد عانيا المشكلة نفسها. كانت الزِّنزانة مظلمةً وباردةً ورطبةً، وكان مصدر الدِّفء الوحيد مصباح زيت الفحم. لم نكن نستطيع تجفيف ملابسنا أو تغييرها، فالسُّجناء لا يمتلكون إلَّا بدلةً واحدةً، وذلك مهينٌ جدًّا، ففي الوقت الذي تعاقَب فيه بفقدان جميع الامتيازات في حياتك، تُحرم أيضًا من الحصول على ملابس إضافيَّةٍ، وحتى لو جفَّت ملابسنا الخارجيَّة فإنَّ ملابسنا الدَّاخليَّة تبقى مبلَّلة. لم يكن بوسعنا فعل شيءٍ سوى أن نخلد إلى فُرُشنا وننتظر نهاية ذلك اليوم البائس.

أعرف رجالًا في سان كوينتين لم يتدفَّأوا بشعلةٍ من مصابيح الغاز منذ أن بدأت فترة محكوميَّتهم، وهذا أمرٌ صعبٌ للغاية خصوصًا في فصل الشِّتاء، والوقت الوحيد الذي يشعر فيه أولئك الأشخاص بالدِّفء هو عندما يعملون بالمصنع، وهناك بعض الرِّجال الذين يعانون الهزال ويشعرون بسبب ذلك بالبرد الشَّديد حتى لو دفَّأوا أجسادهم جيِّدًا تحت الفراش.

تتكوَّن ملحقات السَّرير من زوجين ونصف زوجٍ من البطَّانيَّات، ولا

توجد ملاءاتٌ أو وسائد إضافيَّة. اكتشف بعضهم أنَّ استخدام الورق يوفِّر تدفئةً مناسبةً، فأصبح الكثير من الرِّجال يخيطون الورق بين بطَّانيَّاتهم خلال أشهر الشِّتاء. ولكنَّ هذا كان يمنعهم من غسل بطَّانيَّاتهم، وكانوا يُجبرون على إبقائها لعدَّة أشهرٍ إلى أن يتكاثر البقُّ فيها.

يوم الجمعة هو اليوم الذي يُسمَح فيه بنشر البطَّانيَّات على الدَّرابزين في جميع أروقة العنابر. ولكن في الشِّتاء يُنشَر عددٌ قليلٌ جدًّا من البطَّانيَّات. إمَّا بسبب الأمطار، أو لأنَّ أصحابها قد قاموا بخياطتها بالورق.

في أيَّام الشِّتاء الممطرة لا يغادر السُّجناء زنازينهم. تحصل كلُّ زنزانةٍ على نصف لترٍ من الزَّيت، وتزداد هذه الحصَّة في ليالي الشِّتاء الطَّويلة، ولكنَّها تبقى غير كافية، ويتوجَّب علينا أن نخفِّض من اشتعال المصباح حتى لا ينفد الزَّيت سريعًا.

اعتدنا إطفاء المصابيح في السَّاعة السَّادسة مساءَ أيَّام العمل وفي السَّاعة السَّابعة أو الثَّامنة مساء أيَّام الأحد، وإذا لم يكن هناك أحدٌ يقرأ، فإنَّنا نُبقي شعلة المصباح خافتةً حتى لا يستهلك الكثير من الزَّيت.

يتَّبع عددٌ لا بأس به من الرِّجال أسلوب المقايضة للحصول على زيتٍ إضافيٍّ، ويدفعون بضعة أكياسٍ من التَّبغ للسُّجناء الذي يحصلون على نصف لترٍ إضافيٍّ من الزَّيت، وهذا يعني أنَّ المرء قد يرتكب مخالفةً ليحصل على ما يحتاج إليه، وقد يُقبَض عليه بذلك الجرم ويتعرَّض للعقاب. من القسوة أن يعاقَب الإنسان على شيءٍ يحتاج إليه بالفطرة.

بعد أن ذهبنا إلى الفراش مساءَ ذلك السَّبت شرعنا في تجفيف ملابسنا. علَّق سموكي حبلًا فوق المصباح مباشرةً، ثمَّ قمنا بنشر الملابس عليه، قطعةً تلو الأخرى، وانغمسنا في فرك القطع بالصَّابون والماء. لم ننتبه إلى جرس السَّاعة التَّاسعة، وهو الموعد الذي يتوجَّب علينا أن نطفئ مصابيحنا فيه، وبعد بضع دقائق نظر المراقب اللَّيليُّ من ثقب الباب وصرخ فينا قائلًا:

«لماذا ما يزال مصباحكم مشتعلًا؟!».

سأله سموكي: «هل قُرع الجرس؟».

«أوه، أنت تعلم أنَّ صوته مسموعٌ بما فيه الكفاية. أطفئ المصباح فورًا. هذه هي المرَّة الثَّالثة التي أضبطكم فيها ومصباحكم مضاءٌ بعد قرع الجرس، وستكون هذه المرَّة الأخيرة أيضًا».

أطفأ سموكي المصباح وخلع ملابسه في الظَّلام. ثمَّ قال غاضبًا: «هذا يعني أنَّنا سنُحرَم المصباح لمدَّة شهر، ولن نجده بالتَّأكيد عندما سنعود إلى الزِّنزانة بعد ظهر الغد».

وبالفعل، عندما عدنا إلى الزِّنزانة في اليوم التَّالي لم نجد المصباح في مكانه.

قال سموكي بعدما توقَّف عن إلقاء اللَّعنات: «هل ترغبون في المخاطرة أيُّها السَّادة؟ إذا قايضت أحد الزُّملاء، فسوف أشعل مصباحًا آخر، وأخدع هؤلاء النَّاس».

اتَّفقنا جميعًا على اغتنام تلك الفرصة.

حذَّرنا سموكي: «هذا يعني أنَّنا سنذهب إلى السِّجن الانفرادي إذا ضبطَنا المراقبُ اللَّيليُّ».

قلت غاضبًا: «فليذهب السِّجن الانفرادي إلى الجحيم! علينا أن نحصل على مصباحٍ بأقصى سرعة».

في اللَّيلة التَّالية، أخرج لنا سموكي مصباح زيت فحمٍ من تحت معطفه، وكانت المقايضة قد كلَّفته عشرة أكياسٍ من التَّبغ، فاقتسمنا سعر التَّكلفة لاحقًا فيما بيننا، وفي المساء علَّقنا قماشًا أسود على ثقب الباب حتى لا يشكَّ المراقب اللَّيليُّ في أنَّ لدينا مصباحًا، واتَّبعنا الحيلة نفسها طوال الأشهر التَّالية.

بعد حوالي ستَّة أشهرٍ من دخولي السِّجن، رأيت جريمة قتلٍ تحدث أمام عينيَّ. أنا لست مؤيِّدًا لإعادة سرد أحداثٍ كهذه، لأنَّ الكثير من الأشخاص يعتقدون أنَّ السُّجناء أشرارٌ وقتلةٌ بطبيعتهم، ولكنَّني لم أجدهم كذلك، ومع أنَّني رأيت جريمتين أو ثلاث جرائم قتلٍ خلال الأيَّام الأولى من تجربتي في السِّجن، إلَّا أنَّ سببها الرَّئيس كان المخدِّرات، وكانت هناك جرائم قتلٍ واعتداءاتٌ في الفترة الأخيرة من محكوميَّتي، ولكنَّ معدَّلها لم يكن أكثر منه في أيِّ مكانٍ آخر يوجد فيه ألفا رجلٍ معًا، ألفا رجلٍ محرومون من وجود النِّساء المؤثِّر في حياتهم، ومن حضورهنَّ الجميل في نفوسهم، فيصبحون قساة القلب كما يحدث لرجال الجيش أو القوَّات البحريَّة. قد ينتقد البعض هذا الأمر، ولكنَّه مهمٌّ جدًّا لسلوك السُّجناء، وآمل أن أؤكِّد على هذه الفكرة بشكلٍ أكبر قبل أن أنتهي.

يصبح الرِّجال خارجين عن الفطرة في ظلِّ هذه الظُّروف ويميلون إلى إظهار أسوأ ميولهم، وأعتقد أنَّ الشَّاعر كان يجب أن يشير إلى أثر المرأة في حياة السَّجين عندما كتب هذه الأبيات:

«تنبت أبشع الأفعال في السُّجون
كما تنبت الأعشاب السَّامَّة،
وكلُّ ما في الإنسان من خيرٍ
يذبل ويتلاشى هناك».

ولكنَّ مقتل «جيري» فتح عينيَّ على الكثير من التَّفاصيل المتعلِّقة بحياة السَّجين، ومع أنَّني لم أكن أعرفه بصورةٍ شخصيَّةٍ، إلَّا أنَّه ترك أثرًا كبيرًا في نفسي، بما في ذلك الأثر من رعب.

عمل جيري مساعدًا لأحد رجال الشُّرطة في مطحنة الجوت، وكان يعمل معه سجينٌ آخر، ويقوم هؤلاء المساعدين بإحصاء قطع النَّسيج وإرسالها

لاحقًا إلى المكتب، ولذلك كان لكلِّ شرطيٍّ في المصنع عددٌ من المساعدين، ويقوم هؤلاء المساجين بتأدية مهامِّ رجال الشُّرطة اليوميَّة بدلًا منهم، ويحصل رجال الشُّرطة في النِّهاية على رواتبهم الشَّهريَّة دون أن يقوموا بأيِّ عملٍ على الإطلاق. كان «ميلر»، قاتلُ جيري، يعمل في جمع القطع ثمَّ يرسلها لاحقًا إلى جيري ويضعها بالصُّندوق، ولأسبابٍ لا أعرفها كان ميلر يبطن عداوةً شديدةً للمسؤول، وكان ذلك المسؤول رجلًا خلاسيًّا يدعى طومسون. لا أعلم طبيعة المشكلة التي كانت بينهما، ولكن علمت أنَّ طومسون كان يستغلُّ سلطته على ميلر ويعمل على إذلاله، وكان هذا الخلاسيُّ مكروهًا بشكلٍ عامٍّ من قبل بقيَّة السُّجناء، ولكنَّ جيري كان رجلًا مسالمًا دائمًا، وأخذتني الدَّهشة عندما علمت أنَّه اشترك مع طومسون في مؤامرةٍ لتسريح ميلر من مهمَّته، وفي ذلك اليوم وجد جيري نقصًا في حساب القطع واتَّهم ميلر بذلك مع أنَّه لم يكن خطأه، ثمَّ عاد ميلر لإخراج القطع وإحصائها دون أن يبدي أيَّ اعتراض، ولكن عندما وجد نقصًا بمقدار قطعتين أو ثلاث اعترته الحيرة والشَّكُّ، وجلس يراقب سير العمليَّة من حوله، ورأى زميله وهو يضع القطع النَّاقصة جانبًا، ثمَّ حمل الصُّندوق وسلَّمه إلى مكتب الشُّرطيِّ. كان يعرف أنَّ الخطأ لم يكن خطأه، إضافةً إلى انتباهه في المدَّة الأخيرة إلى كثرة المحادثات السِّرِّيَّة التي كان يجريها جيري مع طومسون على غير العادة، فتأكَّد له أنَّهما كانا يتآمران ضدَّه.

كنت حاضرًا في تلك اللَّحظة حين اتَّهم ميلر كلًّا من جيري وطومسون بأنَّهما كانا يعرقلان عمله، وأخبرهما بأنَّ عليهما أن يتوقَّفا عن ذلك في الحال.

كان يقول: «إذا لم تتوقَّفا فسأقتلكما معًا. لستُ أمزح في ذلك. سأعلِّقكما في المشرحة من أقدامكما».

ثمَّ جاء اليوم الذي وقعت فيه المأساة.

كنت أعمل في مغزلي ذات صباح، وسمعتُ جلبةً قادمةً من المكاتب. ذهب عددٌ من العمَّال إلى مكان الجلبة، ولكنَّهم عادوا مصفرِّي الوجوه، وبعد لحظاتٍ انفتح باب الغرفة التي صدرت منها الجلبة، وخرج جيري مترنِّحًا. لن أنسى أبدًا نظرات اليأس المروِّعة التي علت وجهه في تلك اللَّحظة. كانت عيناه شاخصتين من محجريهما، وشفتاه ترتجفان بلا توقُّف. ربَّما كان يصرخ ولكنَّ زئير الآلات منعني من سماع صوته، وكان يمسك بطنه بيده. نظرت إلى موضع الإصابة، ورأيت شرخًا أحمر مريعًا تسيل منه الدِّماء. كان جيري يترنَّح ويمشي كالحيوان المصاب بجروحٍ قاتلة، وفجأةً ألقى بجسده على آلة النَّسيج، وأخذ يتلوَّى ويدور بين الآلات بلا توقُّفٍ حتى أمسكه حزام الدَّوران وقذفه إلى الوراء، ليخرج جثَّةً مطحونةً مضرَّجةً بالدِّماء.

كنت مرعوبًا للغاية ولم أستطع التَّحرُّك أو التَّفكير، شأني في ذلك شأن جميع المساجين الذين كانوا شاهدين على تلك المأساة، ثمَّ اتَّجهت عيناي إلى مكتب الشُّرطيِّ، فرأيت ميلر يمسك بيده سكِّينًا طويلةً ملطَّخةً بالدِّماء. كان يعضُّ شفتيه بأسنانه وقد توقَّدت عيناه بنيران الغضب والانتقام. لم يجرؤ أحدٌ على الاقتراب منه، وشيئًا فشيئًا تشكَّلت حوله حلقةٌ من الحرَّاس والسُّجناء، ولكنَّ أحدًا منهم لم يتحرَّك، فقد كان يصرخ كالمجنون، ثمَّ جاءت اللَّحظة الخاطفة للأنفاس، وتقدَّم حارسٌ طويلٌ في ريعان الشَّباب واقترب منه ببطء. ألقى الحارس عصاه وأشار إلى ميلر بأن يلقي سكِّينه أيضًا، ولكنَّه ظلَّ ممسكاً بها، فواصل الحارس الاقتراب منه. كانت لحظات التَّرقُّب مخيفةً جدًّا. نظر ميلر إلى الحارس بعيونٍ محتقنةٍ بالدِّماء، ولكنَّ الحارس لم يتزحزح أبدًا، وفجأةً أمسك بأصابع ميلر القابضة على السِّكِّين وانتزعها منه بقوَّةٍ، وأمسك ميلر من ذراعه، فهرع الحرَّاس الآخرون لمساعدته في إلقاء القبض عليه.

بعد أن انتهى كلُّ شيءٍ كان السِّجن كلُّه يتحدَّث عمَّا حصل، وعرفت التَّفاصيل الكاملة من أحد الزُّملاء في استراحة ما بعد الظَّهيرة. أخبرني أنَّ

ميلر ضرب رأس طومسون بقطعةٍ من حديد، فأدَّى ذلك إلى حدوث كسرٍ في جمجمته، ثمَّ هرع إلى جيري وشقَّ بطنه بالسِّكِّين.

تعافى طومسون في النِّهاية من إصابته، ولكن لم يُسمح له بالاختلاط بالسُّجناء الآخرين مرَّةً أخرى. كان السِّجن كلُّه حاقدًا عليه، فقد اعتقد الجميع أنَّه كان المسؤول الرَّئيس عن وقوع المأساة، وتمَّ تكليفه بالعمل في حديقة الخضراوات، ولم يُسمح له أبدًا بدخول الفناء وقتَ وجود السُّجناء هناك، وكان عندما ينتهي من عمله يعود إلى زنزانته وحيدًا. قدَّمت إدارة السِّجن التماسًا لميلر بعد معرفتهم بحقيقة ما حصل، وأرادوا أن يحصل على عقوبة القتل غير المتعمَّد، ولكنَّ المحكمة تمسَّكت بالدَّليل الذي قدَّمه الشُّهود فيما يتعلَّق بتهديد ميلر لجيري وطومسون بالقتل، ووجدته هيئة المحلَّفين مذنبًا من الدَّرجة الأولى بارتكاب جريمة القتل المتعمَّد، فحكمت عليه المحكمة بالإعدام، وشُنق في سجن فولسوم بعد عدَّة أشهر.

الفصل التّاسع

خلال الاثنتي عشرة سنةً الماضية، لم تحدث أيُّ محاولةٍ ناجحةٍ للهروب من سجن سان كوينتين. صحيحٌ أنَّ عددًا كبيرًا من السُّجناء حاولوا الهروب، ولكنَّهم كانوا يقعون في قبضة الحرَّاس دائمًا ثمَّ يعاقَبون بالسِّجن الانفراديِّ لأيّامٍ أو أسابيع، ويُجبَرون على ارتداء القمصان الحمر طوال فترة محكوميَّتهم، ورأيت عددًا كبيرًا من هؤلاء الرِّجال في ساحة الفناء خلال الأشهر الأولى من دخولي السِّجن، واستحوذ رجلان منهما على اهتمامي بشكلٍ خاصٍّ. كانا نحيفين وغاضبين، يقتربان من سنِّ الأربعين، وكنت أشعر دائمًا بالأسف عليهما لأنَّ سعيهما للحصول على الحرِّيَّة لم يكلَّل بالنَّجاح، وكنت أسأل عنهما كلَّ من أعرفه، حتى أصبحت لديَّ حصيلةٌ كافيةٌ من المعلومات، ولكنَّني، ولأسبابٍ واضحةٍ، لن أصرِّح باسميهما الحقيقيَّين، وسأكتفي بالإشارة إليهما بحرفي (هـ) و(ج).

قبل محاولتهما الهرب من السِّجن، كان (هـ) و(ج) يعملان في المستشفى القديم، وقد شُيِّد ذلك المستشفى في عام 1869، واستُخدم الطَّابق الثَّاني منه كجناحٍ لتخزين الموادِّ الاستهلاكيَّة وغيرها من الموادِّ التي تُستخدَم في السِّجن، ويبعد مبنى هذا المستشفى حوالي ثلاثين قدمًا عن الحائط الشَّماليِّ للسِّجن. كان الرَّجلان يعملان بحذرٍ ليلةً بعد ليلةٍ من أجل أن يتسلَّلا هاربَين عبر السَّطح، وفي ذلك الوقت لم تكن هناك أنوارٌ كاشفةٌ كهربائيَّةٌ، ولذلك كان السَّطح مظلمًا جدًّا.

تنتشر الحراسة اللَّيليَّة في سان كويتين حول ساحة السِّجن، وتوجد مراكز صغيرةٌ للحراسة داخل مبنى السِّجن لكي يحتمي الحرَّاس بداخلها من الأجواء العاصفة والماطرة، ويبلغ عددها الإجماليُّ ثمانية مراكز، ويوجد في داخل كلِّ مركزٍ حرَّاسٌ مسلَّحون بالمسدَّسات والبنادق.

لا يُسمح باستعمال الأسلحة النَّاريَّة داخل السِّجن إلَّا بعد إغلاق الزَّنازين في المساء، وعندما يرنُّ جرس الصَّباح تعود جميع الأسلحة النَّاريَّة إلى مستودع الأسلحة ولكنَّ الحرَّاس الموجودين في الأبراج يكونون مسلَّحين طوال الوقت، وتحيط بهم مدافع ناريَّةٌ من كلِّ جانبٍ من جوانب السِّجن.

وبسبب حظر استعمال الأسلحة داخل السِّجن في الصَّباح، يكون الحرَّاس في الخارج متيقِّظين طوال الوقت خوفًا من أن يقوم أحد السُّجناء بالاعتداء على الحرَّاس في الدَّاخل، وإذا حصل ذلك فإنَّهم يقومون بإطلاق حالة الطَّوارئ القصوى ويُخرجون المدافع ويطوِّقون مخارج السِّجن بالكامل.

أمَّا بالنِّسبة إلى الحرَّاس في داخل السِّجن فإنَّهم يحملون عصيًّا طوال فترة منع التَّسلُّح، وتكون هذه العصيُّ محوَّطةً بالحديد في نهاية أحد طرفيها، وضربةٌ واحدةٌ بها كفيلةٌ بأن تُفقد المرء وعيه.

تُقرَع أجراس الإغلاق في السَّاعة التَّاسعة مساءً، وتنطفئ جميع الأضواء في الزَّنازين، وينادي حرَّاس اللَّيل بعد مضيِّ كلِّ ساعة: «انقضت السَّاعة التَّاسعة وكلُّ شيءٍ على ما يرام»، «انقضت السَّاعة العاشرة وكلُّ شيءٍ على ما يرام»، ويستمرُّون على هذا المنوال حتى تبزغ شمس الصَّباح، وتكون أصواتهم مسموعةً وواضحةً لنا، وتنتقل بدءًا من المركز رقم 1 وتنتهي بنداء حرَّاس المركز رقم 8.

سماع هذه النِّداءات تجربةٌ لا تُنسَى، فعندما ينتقل الصُّراخ من رجلٍ إلى آخر يزداد الصَّوت خفوتًا مع كلِّ تكرار، حتى تصبح صرخة المركز رقم 8

بعيدةً جدًّا، وكأنَّها قادمةٌ من عالمٍ آخر، وتجعل هذه النِّداءات المراقب اللَّيليَّ متأكِّدًا من أنَّ جميع الحرَّاس مستيقظون ويقومون بعملهم في المراقبة.

وبعد كلِّ إغلاقٍ، يقوم الحرَّاس بإسقاط الحبل المتَّصل بجرس السِّجن الكبير والموجود فوق المدخل الرَّئيس للسِّجن، بحيث تتدلَّى نهاية الحبل على بعد أقدامٍ قليلةٍ من مركز المراقبة الأوَّل. وفي حالة نشوب حريقٍ، أو حدوث محاولةٍ للهرب، يُقرَع ذلك الجرس.

يعيش الحرَّاس جميعًا داخل السِّجن، ولا يُسمح لهم بالمغادرة، حتى في تلك الأوقات التي لا يعملون فيها، إلَّا إذا حصلوا على تصريح خروجٍ موقَّع.

يقع مركز المراقبة رقم 5 بين مبنى المستشفى القديم والسُّور الشَّماليِّ، لذا كان (هـ) و(ج) مضطرَّين إلى المرور أمامه مباشرةً، مع أنَّهما سيكونان على بعد أقدامٍ قليلةٍ من الحارس المناوب هناك.

في ليلة الهروب انتظرا نداء السَّاعة الثَّانية ثمَّ شرعا في تنفيذ العمليَّة.

قاما في البداية بإلقاء حبلٍ مصنوعٍ من ألياف الجوت إلى أسفل المبنى، وعلَّقا في نهاية ذلك الحبل خطَّافًا حديدًا مغلَّفًا بالإسفنج لئلَّا يُحدث الارتطام أيَّ صوت، ثمَّ قاما بسحب الحبل ببطءٍ إلى أن أصبح الخطَّاف فوق الدَّرابزين الممتدِّ على طول الجزء العلويِّ من السَّطح. كانا حذرين جدًّا لئلَّا ينتبه إليهما الحرَّاس المناوبون في ذلك الوقت.

وعندما تأكَّدا من وجود الخطَّاف فوق الدَّرابزين سحب أحدهما الحبل وربط نهايته بفوَّهة المدخنة بإحكام، وهكذا أصبح الحبل جاهزًا للنُّزول.

تدلَّى الحبل لمسافة أربعين قدمًا فوق الأرض، وأمسك (ج) الحبل ونزل متأرجحًا إلى الأسفل، وعندما وصل إلى الجدار دون أن يلحظه أحد، ألقى بنفسه بسرعةٍ إلى الأرض، وانتظر شريكه. حذا (هـ) حذوه على الفور، وعندما كان ينظر إلى الأسفل وهو يتأرجح لاحظ ظلَّ أحد الحرَّاس تحته،

ورأى لمعانَ البندقيَّة تحت ضوء المصباح الذي كان يحمله الحارس. بدا من المستحيل ألَّا يتنبه الحارس إلى تأرجح جسمٍ كبيرٍ فوقه، ولكنَّه كان يدندن بلحنٍ شعبيٍّ وهو يجوب المكان جيئةً وذهابًا، ولم ير أو يسمع شيئًا، وعندما اقترب (هـ) من الجدار همس لشريكه محذِّرًا، وكانت دقَّات السَّاعة الخارجيَّة تقترب من إعلان نداء السَّاعة القادمة.

في بداية كلِّ ساعةٍ يقوم الحرَّاس بعمل جولاتٍ تفقُّديَّةٍ لمَرَافق السِّجن رصدًا لأيِّ محاولة هروبٍ أو ليمنعوا السُّجناء المسرَّحين من العودة إلى الدَّاخل، فقد كان السُّجناء المسرَّحون في السَّابق يعودون لتهريب موادَّ ورسائل ممنوعةٍ ويدسُّونها في مَرافق السِّجن ليحصل عليها من في الدَّاخل لاحقًا. اضطرَّ (هـ) إلى البقاء معلَّقًا بالحبل حتى يذهب الحارس من المكان، ثمَّ قام (ج) بتثبيت حبلٍ آخر وانزلق شريكه إلى الأرض دون أن يُصدر أيَّ صوت.

ولكن لم يكن مقدَّرًا لحرِّيَّتهما أن تستمرَّ طويلًا، فما إن لمس (هـ) الأرض حتى جاء كلبٌ صغيرٌ يتحسَّس أثره، ومع أنَّهما همسا لتهدئته ولاعباه، إلَّا أنَّه رفض مساعدتهما، واستمرَّ بالنُّباح بصوتٍ عالٍ. أدرك الرَّجلان أنَّ أمرهما سيُكشف عمَّا قريب، فركضا سريعًا في الظَّلام، وتركا الحبل معلَّقًا على الجدار.

انجذب الحارس إلى نباح الكلب الذي ركض حوله ثمَّ استدار واستدرج الحارس إلى موقع الحبل، وسرعان ما أطلق الحارس النَّار من مسدَّسه في الهواء لينذر بقيَّة الحرَّاس، ثمَّ سار خلف الكلب الذي اقتفى أثر الهاربَين، وبعد بضع دقائق رآهما الحارس وأمرهما بالتَّوقُّف، ولكنَّهما لم ينصاعا لأوامره، واستمرَّا في الرَّكض. رفع الحارس بندقيَّته، وأطلق النَّار عليهما، فأصاب (هـ) بقدمه، ولكنَّه لم يُصب (ج) فاستمرَّ الأخير في الهرب واختفى في الظَّلام.

بحلول هذا الوقت كان جرس الإنذار يُقرع بلا توقُّفٍ وأخذ الحرَّاس يركضون في كلِّ الاتِّجاهات، وذهبت فرقةٌ كبيرةٌ منهم للبحث عن (ج).

ركض (ج) على منحدر التَّلِّ بسرعةٍ حتى استنفد كلَّ طاقته، فتوقَّف ليأخذ قسطًا من الرَّاحة بين الأشجار، ثمَّ تابع مسيره إلى أن وصل إلى إحدى المزارع، ودخل حظيرة حيوانات، واختبأ في ركنٍ كانت ترقد فيه بقرة، ولكنَّ (ج) لم ينتبه إلى وجودها، فداس بقدمه عليها، فأطلقت البقرة خوارًا مخيفًا، وانتبه أحد الحرَّاس القريبين إلى ذلك الصَّوت، فسار نحو مصدره. أدرك (ج) أنَّ أمره سيُكشف فزحف خارجًا من الحظيرة، ولكنَّهم رأوه وأمسكوا به.

ذات يومٍ اشتكى لي (ج) قائلًا: «لولا تلك الحيوانات لكنَّا نجحنا في الهرب. بدا الأمر كما لو أنَّ القدر قد تآمر علينا. أردنا أن نحصل على ملاذٍ نظيفٍ، وفرصةٍ جديدةٍ للحياة، ولكنَّ ذلك الكلب، وتلك البقرة، فضحا أمرنا. لطالما أحببت الكلاب، ولكنَّني لا أعرف الآن إن كنت سأستمرُّ في ذلك. ربَّما أراد ذلك الكلب أن ينذرني بأنَّني سأموت هنا. لقد تحوَّلت حياتي إلى جحيم، وأصبحت تهمة الهروب بقعةً سوداء في سجلِّي».

نظرت إلى وجهه اليائس، فأشاح بوجهه عنِّي وحدَّق في الحائط الذي أمامنا بغضب.

واصل حديثه: «لن يعود ذلك المسكين كما كان أبدًا. لقد حفروا لحمه ليُخرجوا تلك الرَّصاصة من ساقه دون أن يعطوه أيَّ مخدِّرٍ أو دواء، بل قيَّدوا يديه وقدميه بالسَّرير. كانوا يضحكون وهم يفعلون ذلك، ولكنَّه لم يصرخ من الألم مطلقًا. حاول الطَّبيب أن يزيد من ألمه ونزفه، ولكنَّه لم يُصدر أيَّ صوت. كان يكزُّ على أسنانه وينظر إليهم بهدوءٍ شديد. من المؤكَّد أنَّ هذا النَّوع من التَّعذيب يؤلم المرء بشدَّة. إنَّه جحيمٌ لا يحتمله المرء أبدًا، ومن المؤكَّد أنَّه كان يرغب في الضَّغط على جرحه ليوقف سيلان دمه، بحقِّ السَّماء! يجب

على أيِّ رجلٍ أن يهرب من هذه الحياة إن أمكنه ذلك. إنَّنا نعلم أنَّه يجب أن نُعاقَب على الهرب، ولكن بعد أن قاموا بإطلاق النَّار على (هـ) لم يعد أبدًا ذلك الرَّجل الذي أعرفه. ربَّما لم يعد إنسانًا بعدما حفروا قدمه هكذا».

بعد عدَّة سنوات، حصل (ج) و(هـ) على إفراجٍ مشروطٍ لحسن السِّيرة والسُّلوك والخدمة الممتازة والدَّؤوبة والقيام بالعديد من الأفعال الخيريَّة والتَّطوُّعيَّة، وكلُّ تلك الأمور (إضافةً إلى العديد من الواجبات الأخرى) هي الطَّريقة الوحيدة التي يجب على السَّجين أن يتَّبعها مرغمًا من أجل الحصول على الإفراج المشروط.

في ظهيرة أحد الأيَّام، كنَّا مجتمعين في الفناء ننتظر رنين الجرس الذي سيعيدنا إلى الزَّنازين، وفي أثناء ذلك قام أحد السُّجناء بتسلُّق السُّور، ثمَّ ركض نحو البوَّابة المؤدِّية إلى حديقة الزُّهور. حاول أحد الحرَّاس الواقفين عند البوَّابة منعه، ولكنَّ الرَّجل الذي ركض مسرعًا دفعه واستمرَّ في الهرب. جذب هذا انتباه الجميع، ما جعل الأحداث التَّالية أكثر إثارةً ومأساويَّة.

اختفى السَّجين عن الأنظار، وتبعه الحارس مع أحد مساعديه. بدأنا جميعًا نتكهَّن بما كان يدور في خلد الهارب، وما الذي كان ينوي فعله بالتَّحديد.

قال الرَّجل الواقف بالقرب منِّي: «لقد فقد عقله».

قال رجلٌ آخر: «كلَّا، لقد عاد ليأخذ وجبة الطَّعام التي رفض الطَّاهي أن يعطيها له».

فجأةً سمعت أحدهم يصيح: «ها هو ذا!»، وتحوَّلت أنظارنا إلى موضع الإشارة. كان الهارب يعدو بخطواتٍ هوجاء نحو المبنى القديم ويتعثَّر بين كلِّ خطوةٍ وأخرى، وكان هناك ثلاثة حرَّاسٍ يركضون خلفه، اثنان منهم انضمُّوا إلى المطاردة من صالة الطَّعام، وبعد خروجهم من الصَّالة ركضوا خارج المبنى وعلى مرأىً من الجميع عابرين حديقة السِّجن. كان الهارب يركض بسرعةٍ دون توقُّف، ولاحظت أنَّه كان يمسك بعلبة طعامٍ تحت ذراعه.

يُسمح للسُّجناء بحمل وجبة طعامٍ من غرفة الطَّعام أيَّام الأحد والعطلات لأنَّنا لا نحصل على وجبة عشاءٍ في تلك الأيَّام، حيث يكون الإفطار في السَّاعة السَّابعة صباحًا والغداء في السَّاعة الثَّانية ظهرًا.

وصل الهارب إلى نهاية الحديقة، وتوقَّف قليلًا لينظر خلفه. كان الحرَّاس قريبين منه، وعندما وصلوا إليه ليمسكوا به، ضحك بصوتٍ صاخبٍ، ثمَّ ألقى بجسده عمدًا من فوق سورٍ منخفض، وبدا معلَّقًا في الهواء للحظات، ثمَّ أطلق الحارس النَّار على ظهره، فأطلق الهارب صرخات أنينٍ مخيفةً، وسرعان ما انقلب جسده وهوى على الأرض، وسقطت معه علبة الطَّعام، وبعد لحظاتٍ قليلةٍ تلاشت صرخات الأنين، وعمَّ الصَّمت بيننا، وبدا أنَّ الجميع قد توقَّف عن التَّنفُّس. كان جسده قد ارتطم برصيفٍ من الطُّوب، وكان صوت الارتطام مجلجلًا ومروِّعًا، وكأنَّ جسده قد حطَّم طوب الرَّصيف عندما ارتطم به.

أشاح الرِّجال بوجوههم بعيدًا، وفي تلك اللَّحظة بالتَّحديد قُرعت أجراس الإغلاق.

لا شيء جديد، دائمًا ما تُقرَع أجراس الإغلاق في الوقت المحدَّد.

شققنا طريقنا إلى عنابرنا خائفين وصامتين. وصل سموكي بعدي، وسألني على الفور إن كنت قد شاهدت حادثة الانتحاري.

«نعم، من هو؟».

أجاب سموكي: «لا أعرف اسمه، ولكن كنت أراه دائمًا. إنَّه محكومٌ بسبع سنين، وكان يعمل بتكسير الحجارة. لقد لاحظت أنَّه كان هادئًا ووحيدًا دائمًا، ولكن لم يخطر ببالي أبدًا أنَّه قد يُقدم على الانتحار. إنَّك لا تستطيع تخمين ذلك أبدًا. لقد قابلت الكثير من الرِّجال الجيِّدين، ولكنَّهم كانوا يسلكون ذلك الطَّريق في النِّهاية. إنَّهم يفعلون ذلك بسرعة، فتلك هي الفرصة الوحيدة للانتحار هنا. إنَّهم لا يخطِّطون لذلك إلَّا قبل خمس دقائق من إقدامهم على الهرب».

في تلك اللَّيلة، وبينما كان سباغيتّي يشعل المصباح، أشار سموكي مرَّةً أخرى إلى حادثة المنتحر وهو يغطِّي ثقب الباب.

«لقد سألت أحد العابرين إن كان المنتحر ما يزال حيًّا، فأخبرني أنَّه قد فارق الحياة بعد ساعةٍ من وصوله إلى المستشفى».

ثمَّ واصل حديثه قائلًا:

«أفضل انتحارٍ رأيته في حياتي كان قبل عشر سنوات. يومذاك جاء سجينٌ رفيع الشَّأن ليقضي عشر سنواتٍ هنا، أظنُّه كان طبيبًا، وبمجرَّد أن خطا عابرًا البوَّابة الكبيرة، ألقى نظرةً واحدةً حوله، ثمَّ وضع شيئًا في فمه، أظنُّه كان مخدِّرًا قويًّا، أو شيئًا من هذا القبيل. لم يؤثِّر فيه الأمر في البداية، ولكن عندما دخل للاستحمام خرج الحارس وتركه إلى أن ينتهي، وعندما عاد وجده ممدَّدًا بالحوض ورأسه مغمورٌ بالماء. أطلق الحارس جرس الإنذار، ولكنَّهم لم يتمكَّنوا من إنقاذه. لقد مات في يومه الأوَّل في السِّجن، ولو أنَّه لم يفعل ذلك لكان أنَهى محكوميَّته هذا العام».

في أثناء حديثه، كان سموكي يجمع وجبات الطَّعام التي أحضرناها، وأخرج بعض قطع الشَّحم والبصل من جيبه السِّرِّيِّ، ثمَّ أخذ يقطِّع البطاطس والبصل واللَّحم بالمقص. كان الوعاء الذي وضع فيه المكوِّنات عبارةً عن حوض غسيلٍ إضافيٍّ كنَّا نبقيه مخفيًّا تحت أحد الأسرَّة ولم نكن نستخدمه سوى لإعداد الطَّعام وطهوه.

وعندما أصبحت مكوِّنات الطَّعام جاهزةً، قام سموكي بتتبيل المزيج بالفلفل والملح، وأضاف قليلًا من الماء والشَّحم، ثمَّ وضع الطَّعام في مقلاةٍ صغيرةٍ وثبَّتها فوق المصباح، ووضع قوسًا صُنِعَ خصوصًا ليسمح بمرور الحرارة بين قاع المقلاة وأعلى المصباح.

في غضون بضع دقائق، ملأت الرَّائحة الشَّهيَّة هواء الزِّنزانة، ويمكنني أن

أقول من خلال سلوك رفاقي إنَّهم كانوا جياعًا ومتلهِّفين مثلي لتناول الطَّبق النِّهائي.

إنَّ طهو الطَّعام مخالفٌ تمامًا لقوانين السِّجن، ولكن كنَّا نطهو اليخنة، أو طبق اللَّحم المفروم مع البطاطا مساء كلِّ أحد، ويقضي الحرَّاس المسؤولون عن العنابر جزءًا كبيرًا من وقتهم خلال أيَّام الأسبوع في البحث عن الزَّنازين التي تخبِّئ الموادَّ المهرَّبة، وأيُّ شيءٍ يشبه أواني الطَّهو يُصادَر دائمًا، وفي وقتٍ من الأوقات أصبح من الصَّعب للغاية الاحتفاظ بالأواني المخصَّصة للطَّهو، فلجأ كثيرٌ من الرِّجال إلى استخدام أحواض الغسيل الخاصَّة بهم، وينتظر أولئك الرِّجال حلول الصَّباح ليقوموا بغسلها جيِّدًا ويتخلَّصوا من كلِّ الأدلَّة التي تثبت تورُّطهم بالطَّهو، ولكنَّ إدارة السِّجن أصدرت أمرًا يمنع السُّجناء من غسل أحواضهم بأنفسهم، فأصبح القليل منهم يطهون الطَّعام في زنازينهم. لاحقًا وبعد بضع سنوات، أصبح الطَّهو شائعًا، وبتنا نحتفظ باللُّحوم والبطاطا التي نحصل عليها من غداء يوم الأحد، وكان بعضنا يقوم بمقايضة البصل وغيره من المكوِّنات الإضافيَّة، ويحصل السُّجناء في النِّهاية على وجباتٍ متكاملةٍ شهيَّة. لطالما كنت أستمتع بتناول الطَّعام المطهوِّ يوم الأحد. إنَّه يشبه الطَّعام الذي تتناوله في منزلك.

وكما يقول سموكي: «الطَّعام المطبوخ بعنايةٍ هو أفضل شيءٍ يمكن أن تتناوله».

لو أنَّ المراقب اللَّيلي كشفنا في ذلك الوقت، لما كنَّا خسرنا مصباحنا فحسب، بل الأرجح أنَّنا كنَّا سنعاقَب بالسِّجن الانفراديِّ، ولكن من حسن الحظِّ أنَّ المراقب اللَّيليَّ كان متساهلًا، ولم يكن يبذل جهدًا في التَّحرِّي عن الرِّجال الذي يطهون مساء الأحد، ولو لم يكن كذلك، لكان من المستحيل أن ننجو بفعلتنا، خاصَّةً وأنَّ رائحة الزَّنازين التي يقوم أفرادها بالطَّهو مميَّزةٌ جدًّا ويستطيع المارُّ أن يشمَّها من بعيد.

كنت أستمتع كثيرًا بمشاهدة سموكي في أثناء طهوه الطَّعام. كان يفعل ذلك بزهوٍ كبيرٍ، وأعتقد أنَّه كان يتعمَّد إطالة وقت الطَّهو لكي يثير شهيَّتنا أكثر، وعندما كان ينتهي من إعداد الطَّعام كنَّا نبدو كالذِّئاب المفترسة التي تنتظر الانقضاض على طعامها، وكان أمرًا مبهجًا أن نرى الصَّبيَّ المسكين وهو يستمتع بتناول طعامه.

كان سموكي يتظاهر بأنَّه يتناول الطَّعام بنهمٍ شديدٍ، ولكنَّه في الواقع كان يدَّخر طعامه ليتناوله الصَّبيُّ لاحقًا، تمامًا كما تفعل الأمُّ الحنون مع أطفالها.

قد ينظر العالم إلى سموكي بأنَّه مجرم، ولكنَّ الصَّبيَّ لم يره أبدًا كذلك، ولا أنا، ولا أيُّ شخصٍ آخر عرفه هنا.

الفصل العاشر

مع أنّني تلقّيت الكثير من التّعليم الدّينيّ في طفولتي، إلّا أنّ الدّين بشكلٍ عامٍّ، والدّين المسيحيّ بشكلٍ خاصٍّ، لم يعد يروقني الآن، وأعزو هذا إلى تجربتي مع الدّين خلال وجودي في السّجن.

تجنُّبًا لإهانة القرّاء الذين يعتقدون أنّ الخلاص لا يتحقّق إلّا من خلال الإيمان وحضور الكنيسة وشكر الله على كلّ ما يصيبنا، سواءٌ أخيرًا كان ذلك أم شرًّا، أريد أن أقول إنّني أؤمن بجوهر الدّين، جوهر المسيحيّة والبوذيّة والكونفوشيوسيّة.

أعتقد أنّ دين الرّجل هو ما يفعله وليس ما يقوله أو يعترف به. لا أعتقد أنّ السّجن مكانٌ مناسبٌ لممارسة الطُّقوس الدّينيّة، والأموال التي تُنفَق على الكتب المقدّسة يجب أن تُنفَق على أمورٍ تفوقها أهمّيّةً.

صحيحٌ أنّ مثل هذه الأمور قد تفيد بعض السُّجناء الذين يرغبون في الهرب من واقعهم المرير، ولكنّني تعاملت مع الكثير من المتديّنين في السّجن، ووجدتهم غير جديرين بالثّقة، وميّالين إلى الغدر والخيانة. قد يرى المتديّنون في هذا التّصريح إدانةً لاذعةً بحقّهم، ولكنّني سأوضّح الأمر من وجهة نظري.

هناك مهجعٌ في سان كوينتين يتّسع لأربعين سجينًا، وهو مخصّصٌ لأولئك الذين يُطلق عليهم السُّجناء الآخرون لقب «الحشرات المتديّنة»، ويقوم أولئك السُّجناء بترتيل الصّلوات كلّ ليلة، ويبدو أداؤهم للسّامع صادقًا ومخلصًا، ولكنّه في الحقيقة وهمٌ سريع الزّوال، مجرّدُ نفاقٍ يستدرُّ الشّفقة،

والحقائق تشير إلى أنَّ نسبةً كبيرةً منهم لا يتصرَّفون كمواطنين صالحين بعد الإفراج عنهم أو انتهاء محكوميَّاتهم، وهذا يعني أنَّهم منافقون اختاروا الطَّريق الدِّينيَّ كأقصر وأسهل طريقٍ للخروج من السِّجن.

من الصَّعب أن تفصل الصَّالح عن الطَّالح، ومن المؤكَّد أنَّ هذا الأمر محبطٌ لأولئك الذين ينخدعون بمثل هؤلاء الرِّجال ولديهم الكثير من حالات «الانتكاس» و«الجنوح إلى الجريمة».

ولكن قبل أن أبدأ بسرد تجربتي الشَّخصيَّة أريد أن أعرض بعض الحقائق عن كنيسة السِّجن ورجال الدِّين، وقد تكون هذه الملاحظات مفيدةً للكتَّاب والباحثين في علم الجريمة.

معظم الرِّجال الذي يُسجَنون بتهمة الاغتصاب أو أيِّ جريمةٍ تعكس الاضطراب الجنسيَّ، يدخلون السِّجن وهم يضعون الكتاب المقدَّس تحت ذراعهم، ثمَّ يرفعونه أمام صدورهم ويبكون متضرِّعين عندما يستقبلهم الحرَّاس في المكتب الدَّاخليِّ.

خلال السَّنوات التي أمضيتها في سان كوينتين، كنت أحتقر دائمًا السُّجناء الذين يحكمون على السُّجناء الآخرين بسبب مخالفتهم للقوانين، ولذلك لا أريد أن يؤخذ كلامي الآن على أنَّه إدانةٌ لأشخاصٍ بعينهم، وكما يقول سموكي دائمًا: «لا يوجد سجينٌ يرتدي ملابس مخطَّطةً بخطوطٍ أعرض من خطوط السَّجين الآخر».

ولكنَّ العلاقة بين الجرائم التي أشرت إليها وبين الدِّين أمرٌ مثيرٌ للاهتمام للغاية، وهو معروفٌ جيِّدًا لدى السُّجناء الذين قضوا فترةً طويلةً في السِّجن، لذا فإنَّني أرى نفسي مؤهَّلًا لإعطاء صورةٍ حقيقيَّةٍ عن هذا الأمر.

حصلت على انطباعي الدِّينيِّ الأوَّل عند حضوري الطُّقوس الدِّينيَّة في السِّجن لأوَّل مرَّةٍ في أحد أيَّام الآحاد الباردة. كان الجوُّ باردًا وضبابيًّا، وكان

من المستحيل على المرء طلبُ الدِّفء في الفناء. كان السُّجناء متجمِّعين كالماشية التي تحتمي من العاصفة، وعندما قُرعت أجراس الصَّلاة في السَّاعة التَّاسعة تدافع السُّجناء في خطٍّ منتظمٍ ليدخلوا مبنى الكنيسة. كانت كنيسة السِّجن تتَّسع لستِّمائة رجلٍ كحدٍّ أقصى، ولكن إذا حضر خمسمائةٍ منهم فقط فلن يكون هناك أيُّ ازدحام، وكما أشرت سابقًا، يبلغ العدد الإجماليُّ للسُّجناء حوالي ألفي سجين، ولذلك يحدث تزاحمٌ كبيرٌ بين جموع السُّجناء لكي يحجز الأسرع مكانه في الكنيسة ويحتمي من البرد القارس في الخارج.

في ذلك الأحد، كنت أتحدَّث مع سموكي في ساحة الفناء، وعندما قُرعت الأجراس صاح سموكي:

« أتعرف يا رفيقي؟ يقولون إنَّ الجحيم مكانٌ دافئٌ جدًّا، فلماذا لا نحصل على ذلك الدِّفء مقدَّمًا لقاءَ التَّنازل عن حقِّنا في دخول الجنَّة».

أبديت إعجابي باقتراحه، ثمَّ أخذنا أماكننا في الطَّابور المتَّجه إلى الكنيسة.

في تلك الأيَّام، كان القسُّ المسؤول عن كنيسة السِّجن هو أغسطس دراهمز، ولديَّ شعورٌ مؤكَّدٌ بأنَّني لن أصف ذلك الرَّجل بأمانةٍ وإنصافٍ دون أن أهين أولئك الذين يؤمنون بأنَّ خدم الإنجيل مُعْفَون من النَّقد. كلُّ ما يمكنني قوله هو أنَّني لا أهاجم جوهر المسيحيَّة التي أؤمن بها، وأنَّني أسعى جاهدًا للحفاظ على مصداقيَّة الوقائع كما حدثت بالفعل، ومن المهمِّ أيضًا أن يأخذ القارئ بعين الاعتبار شهادة الأشخاص الذي عرفوه، سواءٌ الأحرار منهم أو السُّجناء، فذلك سيثبت صحَّة ما سأقوله، وإن كان الحديث سيسيء إلى أولئك الذين يفضِّلون الإبقاء على معتقداتهم دون الاستماع إلى شهادة الآخرين، فإنَّه لا يمكنني أن أساعد في تغيير ذلك.

لقد قابلت العديد من رجال الدِّين المسيحيِّين على مدار حياتي. كنت ألتقيهم كلَّ يومٍ ولمست شيئًا رائعًا في العديد من الكهنة الرِّجال والنِّساء

ممَّن كانت لديهم القدرة على وضع أنفسهم مكان الشَّخص الآخر. كانوا يفهمون عامَّة النَّاس ويتعاطفون معهم، ولا يُشعرونهم بأنَّهم أفضل منهم، ولكن لا يمكننا أن نخدع أنفسنا بفكرة أنَّ جميع رجال الدِّين يمثِّلون جوهر الدِّين المسيحيِّ، ومن المؤكَّد أنَّ القسَّ أغسطس كان فاشلًا في ذلك. إنَّني لا أتخيَّله إلى الآن إلَّا كضفدعٍ قبيحٍ ينفخ جسده أينما حلَّ، ولا يمكنني أن أغفر له. لديَّ قناعةٌ راسخةٌ بأنَّه كان السَّبب الرَّئيس في إبعاد الرِّجال عن الدِّين، وبأنَّ دوره في ذلك كان أكبر من أيِّ عاملٍ آخر أوحى إليهم بفكرة الارتداد داخل جدارن زنازينهم الأربعة، ولا يحتاج المرء سوى إلى أن يقرأ كتابه الذي أسماه «المجرم» ليجد فيه جميع الدَّلائل التي تدينه أكثر من أيِّ دليلٍ يمكنني أن أقدِّمه هنا.

في ذلك الكتاب خصَّص القسُّ فصولًا عن «الأذن الإجراميَّة... الأنف الإجراميِّ... الرَّأس الإجراميِّ» وأكَّد في أحد فصوله على أنَّ أكثر السِّمات التي تميِّز المجرمين هي حبُّهم للحيوانات الأليفة، وأورد نماذج عن سجناء مهتمِّين بالفئران والطُّيور والقطط والكلاب، وأنَّ هذا الحبَّ يعبِّر عن حنينهم إلى أصولهم الإجراميَّة.

عمل القسُّ أغسطس في كنيسة سان كوينتين لما يقرب من عشرين عامًا. حاول كلُّ رؤساء السِّجن طرده على مرِّ تلك السَّنوات، ولكنَّهم لم ينجحوا في ذلك لأنَّه كان قسِّيسًا في الجيش خلال الحرب الأهليَّة، وهناك قانونٌ في دستور ولاية كاليفورنيا يمنع تسريح هؤلاء الأشخاص دون إقامة دعوى في المحكمة لإدانتهم بتهمٍ ملموسة.

كان أغسطس يؤدِّي القدَّاس كلَّ يوم أحدٍ ونادرًا ماكان يغادر مقرَّ الكنيسة، ويجب أن أعترف بدور مجلس الإدارة الحاليِّ الفعَّال في إلغاء منصب «القسِّيس المقيم»، وأعدُّ هذا الأمر من أفضل الإنجازات التي قاموا بها.

اعتاد السَّيِّد أغسطس إلقاء المحاضرات الوعظيَّة في المدن الصَّغيرة والمدن السَّاحليَّة قبل انتقاله للعمل في السِّجن، وكان يدعو دائمًا إلى احتجاز كافَّة المجرمين ومعاقبتهم بأقسى العقوبات الممكنة.

وقال في إحدى تلك المحاضرات: «عاقبوهم بالأشغال الشَّاقَّة! شغِّلوهم بأثقل الأشغال ولمدَّةٍ طويلةٍ، ولا تتوقَّفوا عن تحميلهم عبءَ المزيد من الأشغال، أشعروهم بالذُّلِّ والمهانة، وأجهدوهم فلا تكون لديهم الطَّاقة لفعل أيِّ شيءٍ آخر، وعندما يخرجون من السِّجن تأكَّدوا من أنَّهم لن يعودوا أبدًا، فأولئك السُّجناء لا يكرهون شيئًا أكثر من كرههم العمل الشَّاقِّ».

لم تكن هذه كلماته بالضَّبط، ولكنَّها تنقل ما كان يعنيه بصورةٍ واضحة.

ثمَّ أصبح أغسطس قسِّيسًا في السِّجن لمدَّة خمسة عشر عامًا، وكان من المفترض أن يكون نموذجًا مسيحيًّا يُحتذى به، وبطبيعة الحال، اعتقد الكثير من النَّاس أنَّه كان يعرف ماذا يقول، وأنَّ جميع أفكاره كانت مبنيَّةً بالأصل على حقائق لا تقبل الشَّكَّ.

كان هذا هو القسَّ الذي ذهبنا للاستماع إلى صلواته صباح ذلك الشِّتاء البارد من سنة 1902، أي بعد تسعة عشر قرنًا من صلب يسوع الذي (خلَّص الخطاة) من آثامهم.

وصلنا إلى الكنيسة ووجدنا مقاعد شاغرةً بالقرب من الباب. كانت المقاعد مستقيمة الظَّهر، وصلبةً جدًّا. لم أجرِّب في حياتي مقاعد أكثر إزعاجًا من تلك المقاعد، ويبدو أنَّ الرَّجل الذي صنعها لم يكن يعرف شيئًا عن بنية الأجساد البشريَّة.

بمجرَّد أن جلست على المقعد نظرت إلى المنصَّة، فوجدت رجلًا ذا وجهٍ مصفرٍّ ومليءٍ بالتَّجاعيد، يناهز عمره السِّتِّين، وله ملامح قاسيةٌ تختفي تحت خصلات شعرٍ مسترسلٍ جعله يبدو وكأنَّه يضع شعرًا مستعارًا.

نكزني سموكي نكزًا يسيرًا في ذراعي وهمس قائلًا: «هذا هو، هذا هو جلالة أغسطس دراهمز المغمور، كان يجب أن يسمُّوه ديسمبر بدلًا من أغسطس إذ لا يوجد شخصٌ أبرد منه في العالم بأسره».

لم يكمل سموكي حديثه لأنَّ الحارس الواقف في الممرِّ القريب سمع صوته وحاول أن يحدِّد مكان الرَّجل الذي كان يتحدَّث، فالأحاديث الجانبيَّة مخالفةٌ لقوانين الكنيسة.

كان الرِّجال ما يزالون يتجمَّعون في المكان ويتزاحمون في الممرَّات، وعندما أُغلقت الأبواب أخيرًا انحجز عددٌ كبيرٌ في الخارج، ومثل ثعبانٍ مخطَّطٍ ضخمٍ، أدار أولئك السُّجناء ظهورهم وشقُّوا طريقهم عائدين إلى الباحة الباردة الكئيبة، وبقينا نحن المحظوظين بالدُّخول في ذلك المكان الدَّافئ، ولكن لم يكن هناك مصدرٌ حراريٌّ في الكنيسة باستثناء ذلك الموقد الصَّغير الموضوع في الزَّاوية المخصَّصة لمكتب القسِّيس. ولكن في غضون دقائق قليلة، وبفعل التَّزاحم الشَّديد لمئات الأجساد المكتظَّة في مكانٍ واحدٍ، شعرنا جميعًا بالدِّفء.

كان هناك رجلٌ بائسٌ في منتصف العمر، محكومٌ عليه بالسَّجن مدى الحياة، يجلس خلف آلة الأرغنِّ (وهي آلةٌ اشتراها السُّجناء أنفسهم لأنَّ الدَّولة لا تقدِّم أيَّ إضافاتٍ كماليَّةٍ للسِّجن، ولا توفِّر كتبًا للمكتبة، فجميع الكتب الموجودة في المكتبة اشتراها السُّجناء بأموالهم الخاصَّة)، وغنَّى السَّجين ترنيمة «اهدني، أيُّها النُّور البهيُّ»، وكان أداؤه مؤثِّرًا جدًّا، وشعرت ببحَّة صوته الحزينة، وبدا أنَّه كان يشعر بكلِّ كلمةٍ كان يغنِّيها.

تأثَّرت، وعادت إليَّ ذكرى قديمةٌ من طفولتي، عندما كنت أذهب إلى الكنيسة مع أمِّي الغالية التي أتذكَّرها دومًا كأجمل شابَّةٍ رأيتها في حياتي، وكنَّا نردِّد هذه التَّرنيمة خلف جوقة الكنيسة الرَّائعة، وها أنا أسمع التَّرنيمة نفسها

ولكن في كنيسة السِّجن، وأنا محاطٌ بسجناء يرتدون ملابس مخطَّطة، ودون أن تكون هناك أيّة أصواتٍ نسائيَّة. لا يُسمح للنِّساء بدخول أسوار السِّجن تحت أيِّ ظرفٍ من الظُّروف. أعتقد أنَّ هذا هو القانون المطبَّق في الدَّولة.

وفجأةً توقَّف الرَّجل عن الغناء، ومدَّ ذراعيه مرحِّبًا بنا، ثمَّ غنَّت جموع السُّجناء خلفه، وانضممت إليهم بشكلٍ عفويٍّ، ووجدت نفسي قد بدأت بالغناء دون أن أدرك ذلك، وكأنَّ طبيعتي العاطفيَّة التي حسبتها ماتت، بعدما بقيت مكبوتةً زمنًا طويلًا، قد استيقظت من جديد. شعرت بانقلابٍ يجتاح روحي من الدَّاخل، وبدأت بالإشفاق على نفسي وعلى أولئك الذين هجرهم العالم مثلي.

لم أتوقَّف عن الغناء حتى انتهت التَّرنيمة، وعندما جلسنا، صُدمت بمشهدٍ رائعٍ لسموكي وهو ينضمُّ إلى الغناء بكلِّ حماس. لقد غنَّى من كلِّ قلبه، وتفوَّق بغنائه وصوته الصَّادح على كلِّ المساجين الآخرين. شعرت بالدَّهشة، وعندما عاد سموكي للجلوس سألته:

«أين تعلَّمت تلك التَّرنيمة يا سموكي؟».

أجاب باختصار: «في دار الأيتام. كانوا يحشون رؤوسنا الصَّغيرة بتلك التَّرانيم».

لم تكن هناك فرصةٌ لإجراء حديثٍ معه في ذلك الوقت، فالحديث مخالفٌ للقواعد كما أشرت سابقًا. ومع أنَّني شعرت أنَّ تلك اللَّحظة كانت من اللَّحظات النَّفيسة لاسترجاع الذِّكريات، صمَّمت على أن أرافق سموكي بعد خروجنا من الكنيسة وأحاول أن أعرف شيئًا عن حياته السَّابقة، فكلَّما عرفت ذلك الرَّجل أكثر، ازداد إعجابي به أكثر، وأدركت أنَّه كالزَّهرة التي خنقتها الحشائش. كنت أعرف أنَّ حياته كانت مختلفةً عن حياة الآخرين، ولعلَّها كانت ستكون حياةً مختلفةً لو أنَّه حصل على فرصة لتغيير مسارها.

بعد انتهائنا من غناء التَّرانيم، شعرت أنَّ كلَّ المشاعر التي استيقظت في روحي قد نُفيت بلا رحمةٍ في اللَّحظة التي بدأ فيها القسُّ بالحديث. عندما فتح فمه شعرت كما لو أنَّه طبيبٌ يداوي أعضاء البشر المفتوقة بمِسحَجِ مُنْعِلِ أفراس.

كثيرًا ما كنت أشبِّه الأشخاص الذين ألتقي بهم بالحيوانات أو بالزُّهور، ولم أجد حيوانًا يليق بـ «القسّ» أغسطس دراهمز غير الضِّفدع. لم أستطع منع نفسي من تخيُّله هكذا، ولكنَّني مع ذلك لم أُضمر له أيَّ حقدٍ أو كرهٍ في نفسي، فهو لا يستطيع منع نفسه من التَّصرُّف على هذا النَّحو، ولا يجدر بنا أن ندين شخصًا لكونه أعمى، ولكنَّنا نكتفي بفكرة أنَّ فقدان البصيرة أمرٌ فظيعٌ جدًّا.

قرأ القسُّ نصًّا من الكتاب المقدَّس، ولا أستطيع تذكُّر ذلك النَّصِّ بدقَّة، ثمَّ ألقى خطابه الوعظيَّ الأسبوعيَّ. كان يتحدَّث بطريقةٍ متشنِّجةٍ، كما لو كان يقضم كلماته مثل الكلب الذي ينبح آخر اللَّيل. في البداية ينبح الكلب بصوتٍ عالٍ وسريعٍ، ثمَّ يتوقَّف، ويفتر، ويعود للزَّمجرة على نحوٍ أقلَّ من السَّابق. كانت هذه الطَّريقة التي اتَّبعها القسُّ في الحديث قد أثارت إعجابي على نحوٍ ما.

لن أنسى تلك العظة أبدًا. لم يكن فيها أيُّ كلماتٍ تنمُّ عن الرَّحمة أو التَّعاطف. جلسنا نستمع إليه، وكنت أنتفض كلَّما توقَّف عن حديثه لحظاتٍ ليستطرد ويخبرنا أنَّ وجودنا في السِّجن (خيرٌ) لنا، وأنَّ اجتماعنا للاستماع إليه (خيرٌ) لنا.

بعد أن انتهى من حديثه كانت هناك ترنيمةٌ أخرى. لم يكن أثرها في نفسي عميقًا كالتَّرنيمة السَّابقة لأنَّ خطبة القسِّيس قتلت معها كلَّ الحماس الذي استيقظ في داخلي.

ثمَّ دعا القسُّ السُّجناء للإدلاء باعترافاتهم.

استجاب عددٌ لا بأس به من الرِّجال، واستمرَّ سموكي في التَّعليق على كلِّ سجينٍ يدلي باعترافه.

«هذا فقير... هذا منافق... هذا الرَّجل كان يسرق الخواتم من أصابع أمِّه الميِّتة... هذا مسالمٌ مسكين... يستطيع أن يقطِّعك هذا الرَّجل إلى أشلاء صغيرةٍ في دقيقةٍ واحدة»

واستمرَّ على هذا النَّحو كلَّما تقدَّم رجلٌ جديدٌ للإدلاء باعترافه، ولكن فجأةً ظهر رجلٌ لم يرحِّب سموكي به. جلس متصلِّبًا في مكانه، واستمع إلى حديث ذلك الرَّجل لعشر دقائق. كان الرَّجل يتحدَّث عن نفسه، وكم أنَّه سعيدٌ لأنَّ الرَّبَّ قد اختاره للحضور، وأنَّه يستحقُّ اصطفاء الرَّبِّ له بشكلٍ خاصٍّ، ثمَّ قال: «ولكنَّ هناك شيئًا واحدًا أشعر بالامتنان له أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، أنَّني والحمد للّٰه لم أدخل السِّجن بجريمة السَّرقة».

تململ سموكي في مقعده ثمَّ نفض يديه. كنت أعلم أنَّه كان منزعجًا جدًّا، خاصَّةً وأنَّني لم أره قبل ذلك وهو يعبِّر عن كرهه وامتعاضه تجاه أيِّ سجينٍ آخر.

قام القسُّ وألقى الصَّلاة التي طلبها المعترف الأخير، ودعا اللّٰه أن يمنحه المحبَّة واليقظة الدَّائمة.

عندما خرجنا من الكنيسة، وقفنا للحظاتٍ نستنشق الهواء المنعش، وشعرت بالعواطف المتضاربة التي اعترت سموكي في ذلك الوقت.

بادرت سموكي إلى الحديث فور وصولنا إلى الفناء: «ذلك الرَّجل الذي تحدَّث في النِّهاية، لماذا دخل السِّجن؟ لقد حمد الرَّبَّ لأنَّه ليس سارقًا».

استدار سموكي فجأةً لدرجة أنَّني ظننته سيضربني. كانت عيناه تلمعان من الغضب. هزَّ كتفه ثمَّ بصق بقوَّةٍ على الأرض.

سألني: «هل تريد أن تعرف لماذا دخل ذلك الرَّجل السِّجن؟ أحقًّا تريد ذلك؟».

زاد حديثه من فضولي فأجبته: «بالطَّبع».

«حسنًا، سأخبرك. أنت وأنا لن نكون سوى ملاكين أبيضين إذا وقفنا بجانب ذلك الوغد. كلُّ ما فعله هو أنَّه نسي أنَّ الفتاة التي اغتصبها، ذات الخمسة عشر ربيعًا، ليست سوى ابنته! هذا كلُّ ما فعله! وهو يقف كلَّ أحدٍ في الكنيسة مرفوع الجبين ويحمد الرَّبَّ على اصطفائه فوق هذا القطيع، ويترنَّم بالصَّلوات، ويوفِّر له القسُّ مقعدًا خاصًّا بعد خروجنا جميعًا. هراء! إذا كانت هذه هي المسيحيَّة، فإنَّني أحمد الرَّبَّ على أنَّني لست سوى سارقٍ محتالٍ!».

بينما كنَّا في الكنيسة بدَّدت الشَّمس الضَّباب ووجدنا الفناء أكثر دفئًا ممَّا كان عليه عندما تركناه، وكما هي العادة، اجتمعت فرقة السِّجن الموسيقيَّة في تمام السَّاعة الحادية عشرة، وقدَّمت حفلًا موسيقيًّا، وهي فرقةٌ جميع أفرادها من السُّجناء، وهم يدعمون أنفسهم بأنفسهم ويوفِّرون الآلات والمعدَّات الموسيقيَّة من أموالهم الخاصَّة.

كان هناك طلبٌ قويٌّ من قبل السُّجناء على موسيقى الفالس وغيرها من أنواع الموسيقى الرَّاقصة، ولاحظت أنَّ سموكي كان يتَّجه في أثناء سيرنا إلى مكان الرَّقص تحت السَّقيفة. أردت أن أسأله عن بدايات حياته ولكنَّني أحجمت. لو كنت تعرفه جيِّدًا لعرفتَ أنَّه لا يفضِّل الحديث إلَّا عندما يكون في مزاجٍ جيِّد. طلب سموكي منِّي أن أرافقه نحو السَّقيفة، وفعلت ذلك.

كان هناك حوالي ثلاثين زوجًا راقصًا من السُّجناء يرقصون مع نسوةٍ متخيَّلاتٍ بين أذرعهم. نظر سموكي إليهم، واختار شريكًا للرَّقصة. أعتقد أنَّه كان فريسكو سْلِيم، وشرع بالرَّقص معه، وجلست أراقبهم من بعيد.

بدت كلُّ الوجوه المتمايلة راضيةً وسعيدةً، كما لو أنَّهم قد نسوا أمر سجنهم وكلَّ شيءٍ يدور حولهم. أمعنت التَّفكير مليًّا في سبب هذه السَّعادة

العارمة التي غمرت السُّجناء الرَّاقصين على مدى ساعتين كاملتين. استغربت رقص السُّجناء في البداية، ولكنَّني أدركت فيما بعد أنَّه كان متنفَّسًا جيِّدًا لهم.

كلَّما شذَّت حياة الرَّجل، شذَّت تصرُّفاته وأظهر ميلًا إلى الانفصال عن كلِّ ما يحيط به من ظروف.

كان المشهد الذي أمامي مجرَّد فسحة أمانٍ أُتيحت لبعض الرِّجال ليُخرجوا المشاعر المكبوتة في داخلهم. من الأفضل أن ينفِّس السُّجناء عن كبتهم بهذه الطَّريقة، بدلًا من الاحتفاظ به وتخزينه حتى النِّهاية، إذ سرعان ما سيتحرَّر المرء من كبته عندما يخرج من السُّجن ويتَّجه إلى تجاهل القانون والنِّظام، كما هو الحال مع الكثير من السُّجناء.

يميل النَّاس إلى التَّساؤل عن الأمور التي يفعلها السَّجين في اليوم الأوَّل من خروجه من السِّجن، ويتصوَّر بعضهم أنَّه سيقضي ذلك اليوم بالسُّكر وارتكاب الجرائم، ولكنَّ هذا لا يعكس الواقع تمامًا. دعونا نتوقَّف ونتعمَّق في مشاعر السَّجين المحرَّر.

يُمضي السَّجين سنواتٍ في السِّجن، أو ربَّما عقودًا، وخلال ذلك الوقت يُصاب بحالة خضوعٍ عقليَّةٍ وجسديَّة، ويُمنَع من التَّعبير عن غرائزه ورغباته، ويُمضي ساعاتٍ طويلةً يفكِّر في اليوم المنشود الذي سيخرج فيه من السِّجن، ولا يدرك آنذاك حقيقةَ أنَّ الإفراج سيؤدِّي إلى أعباءٍ ومسؤوليَّاتٍ جديدةٍ، ففي السِّجن، يحصل المرء على الطَّعام وعلى مكانٍ ينام فيه. صحيحٌ أنَّه مكانٌ مَهينٌ، ولكنَّه لا يحتاج فيه إلى التَّفكير في الغد، ولا إلى التَّفكير في شؤونه الماليَّة. إنَّه يفقد الإحساس بمسؤوليَّاته، وينسى قيمة المال وكيفيَّة استخدامه، فهو لا يتلقَّى أيَّة أموال في فترة عمله في السِّجن. إنَّه ينحطُّ إلى مستوى الحيوانات التي لا تفكِّر، ويبقى حبيسَ هذا المستوى المَهين.

في يوم الإفراج يحصل السَّجين على بدلةٍ رخيصةٍ وخمسة دولاراتٍ لا

أكثر. ويشعر أنَّه سينطلق ليقضي وقتًا ممتعًا، فقد كان مسجونًا لفترةٍ طويلةٍ تحت حالةٍ من القهر الشَّديد أفقدته القدرة على ضبط النَّفس والاتِّزان. تسعةٌ من أصل عشرة يذهبون إلى أوَّل حانةٍ يصادفونها في طريقهم، ويخرجون إلى أماكن أسوأ منهارين ومحطَّمين، دون أن يكون لديهم مالٌ، أو ثيابٌ، أو مأوىً آمنٌ يغنيهم عن السُّؤال.

عملُ السَّجين في مطحنة الجوت لن يعود عليه بالنَّفع في الخارج. إنَّه عملٌ شاقٌّ تستخدمه إدارة السِّجن كنوعٍ من العقاب، وحتى أولئك السُّجناء الذين كانوا يعملون بحماسٍ في البداية، لن يلبثوا أن تَهِنَ عزيمتهم وتخور قواهم، ولكن هناك بعض الرِّجال الذين استطاعوا بطريقةٍ ما أن يقبضوا على أزمَّة أمرهم، ويتكيَّفوا مع ظروفهم، ويحتفظوا بالمهارات التي اكتسبوها في السِّجن ليعملوا بها في الخارج، فإن حالفهم الحظُّ بعد خروجهم من السِّجن وحصلوا على العمل، فإنَّهم يتشبَّثون به دون أن يبدوا أيَّ اعتراضٍ أو ميلٍ إلى مخالفة القانون مرَّةً أخرى.

ولكن أتحدَّث هنا عن النِّسبة الكبيرة المثيرة للشَّفقة. أولئك الذين يُقذَف بهم إلى الخارج بلا رحمة، ولا يجد الواحد منهم مهربًا من المأزق الذي طرأ عليه سوى أن يعود لارتكاب الجرائم مرَّةً أخرى، وبعضهم يقبض عليهم رجال الشُّرطة بعد أوَّل جريمة، وتستعرض الصَّحافة أخبارهم وتصوِّرهم على أنَّهم (مجرمون بالفطرة).

تقول عناوين الأخبار: «سجينٌ يرتكب جريمة سرقةٍ بعد أربعٍ وعشرين ساعةً فقط من مغادرته السِّجن».

تناولت وجبة الغداء الأسبوع الماضي في مطعمٍ يتجمَّع فيه الآلاف يوميًّا. كان عقلي مزدحمًا بالأفكار، وكان يجب عليَّ أن أستوعب جميع الأمور التي اختبرتها في السِّجن قبل خروجي منه. كنت أشعر بالوحدة في ذلك المكان المزدحم.

كان النَّاس حولي يضحكون ويتحدَّثون، وكانت هناك فتياتٌ جميلاتٌ يقضمن الحلوى، بعضهن سعيداتٌ لوجود عشاقهنَّ على الجانب الآخر من الطَّاولة.

تساءلت عن عدد الرِّجال في سان فرانسيسكو الذين يعيشون دون علاقاتٍ غراميَّةٍ، دون أن يكون لديهم شريكٌ يعرفهم ويفهمهم. ليست هناك عزلةٌ كتلك التي يحسُّها أولئك الرِّجال عندما يكونون في حشدٍ كبيرٍ من النَّاس.

الشَّابُّ الذي قدَّم لي الطَّعام كان سجينًا سابقًا، وعندما رأيته عرفته على الفور وعرفني، ولكنَّنا لم نُبدِ أيَّ إشارةٍ على ذلك. حاولتُ في أثناء تناولي الطَّعام أن أتذكَّر اسمه والمدَّة التي قضاها في السِّجن، ولكنَّني لم أنجح في ذلك. كلُّ ما استطعت تذكُّره هو أنَّه كان سجينًا من بين ستَّة آلاف سجينٍ آخر قابلتهم في السِّجن منذ أن بدأتْ فترة محكوميَّتي إلى أن انتهت.

حين انتهيت من تناول طعامي، وهممت بالمغادرة، جاء رفيقي في السِّجن ووقف بجانب كرسيِّي.

قال بصوتٍ خفيضٍ: «أستميحك عذرًا، ولكن ألست أنت لوري؟».

أجبته: «إنَّه أنا».

سألني: «ألا تتذكَّرني؟».

أجبته: «أتذكَّر وجهك فحسب».

«ألا تتذكَّر ليفتي رايت؟ لقد اعتدتُ أن أركض معه».

تذكَّرته على الفور، فقد كان ليفتي رايت سجينًا معروفًا في السِّجن، وكان يعاقَب بالسِّجن الانفراديِّ دائمًا لكثرة مشاجراته مع السُّجناء.

«أجل، لقد تذكَّرتك الآن، كيف حالك هذه الأيَّام؟».

أجاب بفخرٍ: «أنا بخير، أعمل في هذا المطعم منذ عامين، والأمور جيِّدةٌ

هنا. كنت أجده عملًا صعبًا في البداية، ولكنّني تأقلمت وعقدت العزم على عدم العودة إلى السّجن مرّةً أخرى. هل تعرف كيف كانت حياتي قبل أن أحصل على هذا العمل؟ لقد اضطررت إلى ارتكاب أربع عمليّات سطوٍ قبل أن أعود إلى رشدي. لم أتمكّن من الحصول على وظيفةٍ في البداية، وكنت على وشك أن أموت من الجوع. لقد جئت إلى هنا وأنا أتضوّر من الجوع، وطلبت من صاحب المطعم أن أعمل لديه، فقال إنّني لا أملك الخبرة الكافية في هذا المجال، فأخبرته أنّني سأبذل قصارى جهدي لأتعلّم، وها أنا الآن كما ترى. عليّ الذّهاب الآن، تعال إلى هنا مرّةً أخرى، ستجدني في مثل هذا الوقت كلّ يوم».

بعد أن غادر زميلي بقيت جالسًا في مكاني أفكّر. كنّا سجينين سابقين يتحدّثان وسط حشدٍ كبيرٍ من النّاس، ولم يتعرّف علينا أحد. لو عرف النّاس بأمرنا لطردونا إلى الخارج، أو ربّما لخرجوا على الفور من المطعم، ولكنّنا نعيش الآن حياةً صالحة. إنّنا نكسب قوتنا من عرق جبيننا، وقد دفع كلٌّ منّا عاقبة أفعاله السّابقة. ربّما لم يكن من المناسب أن أكتب هذا الاستطراد الآن، ولكنّها كانت حقيقةً واضحةً لم أستطع منع نفسي من كتابتها. لقد رأيت الكثير من السُّجناء السّابقين الذين استطاعوا الحصول على أعمالٍ شريفةٍ، ورأيت في يومٍ سابقٍ رجلًا قضى عشرين سنةً في سجن سان كوينتين، وخرج بعد كلّ تلك السّنوات رجلًا عجوزًا. رأيته يقود عربة رمادٍ في أوكلاند. كان الحصان عجوزًا أيضًا وكانت عربته قديمةً وخَرِبةً، وعندما رآني عرفني وقاد حصانه نحوي. بادرني بابتسامةٍ لطيفةٍ وقال بفرحٍ:

«مرحبًا».

«مرحبًا! كيف حالك؟».

«بخير، كنتُ فيما مضى ربَّ أسرةٍ وكان لديَّ منزلٌ خاصٌّ بي، ولكنّني

الآن لا أملك سوى هذا الحصان العجوز. لقد سلبني السِّجن كلَّ شيء. أنا أعمل كما ترى، وأحاول أن أستقبل الشَّيخوخة على قدميَّ، ولكنَّها أفضل بكثيرٍ من تلك الحياة التي عشناها هناك».

ضحك الرَّجل العجوز ومضى في طريقه.

إنَّها المرَّة الثَّانية التي يلتقي فيها سجينان سابقان ويتجاذبان أطراف الحديث والمشاعر، ومع أنَّ السُّفهاء قد يعلِّقون على ذلك بقولهم: «الطُّيور على أشكالها تقع»، إلَّا أنَّني أؤكِّد على ما كنت أقوله سابقًا، لا أحد يعرف ما في أعماق السَّجين سوى زميله الذي عاش في الظُّروف نفسها، وفي المكان نفسه.



الفصل الحادي عشر

عندما دخلتُ الزِّنزانة بادرني سموكي بالسُّؤال: «هل تريد حقًّا أن تعرف من أنا؟ من أين جئت؟».

«نعم يا سيِّد التَّدخين»، ندعوه سيِّد التَّدخين أحيانًا بدلًا من سموكي، «أريد أن أعرف كلَّ شيءٍ عنك، ليس من باب الفضول، ولكن لإعجابي بك، ولأنَّني أعتقد أنَّك أفضل منِّي، حتى وإن كنتَ قد سُجنت أربع مرَّات».

قلت له كلَّ ما كنت أشعر به حقًّا، وبدا تأثُّره جليًّا، وسرعان ما هدأ وقال:

«ليس هناك الكثير لأقوله لك يا بيل، ولكنَّك أوَّل شخصٍ يسألني عن حياتي السَّابقة هنا. لا أعرف من أين أتيت، ولا أعرف إلى أين سأذهب، لا أعرف أيَّ شيءٍ، ولا ألقي بالًا لذلك».

ثمَّ استطرد قائلًا:

«أخبروني في دار الأيتام أنَّهم عثروا عليَّ في صندوقٍ كرتونيٍّ موضوعٍ في منطقةٍ نائيةٍ، ولم يجدوا في الصُّندوق سوي جسدي ودميةٍ صغيرةٍ كانت تلهيني عن البكاء. تمنَّيت في كثيرٍ من الأحيان لو أنَّني كنت مجرَّد دميةٍ، فلو كنت كذلك لما امتدَّت أيديهم إليَّ في ذلك اليوم، ولكانوا قذفوا بالصُّندوق إلى القمامة.

«كانت طفولتي في الميتم جحيمًا مرعبًا. كان الأيتام يضربونني دومًا، وعندما كنت أقاومهم، كانوا يجبرونني على إحسان التَّصرُّف إمَّا بضربي أو بإرسالي إلى السَّرير دون عشاء. كنت طفلًا لم أتجاوز الخامسة من عمري،

أذهب كلَّ مساءٍ إلى السَّرير دون أن أتذمَّر، وكان الخبز الذي يقدِّمونه لي جافًّا يخرِّش الحلق، ولكنَّني لم أستسلم أبدًا، ولم أسمح لهم برؤيتي أتألَّم. ربَّما لو كانت أمِّي ميِّتةً لعاملوني على نحوٍ مختلفٍ، وعندما كبرت وجدت أمًّا جديدة، لم أخبر أحدًا بهذا من قبل، ولكنَّني سأخبرك به الآن. كنت قد خرجت من السِّجن لأوَّل مرَّةٍ وقد تغيَّرت جميع قناعاتي. كنت وقتذاك صبيًّا صغيرًا في العمر، ووجدت صعوبةً في الحصول على المال، وأردت أن أقضي بعض الوقت في لعب القمار، وفزت في إحدى المرَّات، وعندما جمعت المال الكافي سافرت في أوَّل باخرةٍ وأوهمت قائد الباخرة بأنَّني أعمل نادلًا هناك. شعرت بأنَّ الحظَّ سيبتسم في وجهي أخيرًا، وعندما وصلت إلى المدينة عملت في أحد المنازل الكبيرة. كانت السَّيِّدة تعاملني بلطفٍ، وكأنَّني ابنٌ لها. لم تكن تأمرني ولم توبِّخني قطُّ، وكنت آكل الطَّعام معها ومع أبنائها على المائدة نفسها، وساعدتني في شراء ملابس جديدةٍ، ولم تسألني في يومٍ من الأيَّام: «من أنت؟ ومن أين جئت؟»، لم أكن أعمل كثيرًا، كنت دائمًا أبحث عن شيءٍ أفعله، شيءٍ أقوم بإصلاحه، وقضيت وقتًا ممتعًا هناك.

«سرعان ما تعلَّقت بابنتها روز وبدأت أشعر أنَّه لا يوجد غيرنا في العالم، وأنَّني حصلت على كلِّ ما كنت أحلم به، وبعد فترةٍ تطوَّرت مشاعري تجاهها، فصرت لا أستطيع التَّفكير بشيءٍ سواها، وكنت متأكِّدًا أنَّها إذا لمستني يومًا فستصعد روحي إلى السَّماء وتحلِّق مع النُّجوم. أحببتها حبًّا جمًّا، وذات أحدٍ عندما كانت تغتسل، وتفرد شعرها الطَّويل، أتمنَّى لو كان بإمكانك رؤية ذلك الشَّعر! كان شعرها أحمر، أجمل شعرٍ رأيته في حياتي، وكان طويلًا وكثيفًا، وكانت عيونها رماديَّةً وكبيرةً، جميلةً حدَّ أنَّك تتمنَّى لو أنَّك تشرب من دمعها، إنَّها...».

صمتَ سموكي فجأةً وتبسَّم، ثمَّ أطلق ضحكةً قصيرةً عالية.

«لا بدَّ وأنَّك تحسبني سخيفًا»، قال ذلك بنبرةٍ حزينةٍ تستدعي الرَّدَّ بإجابةٍ نافية.

أجبته سريعًا: «سخيفًا! لماذا يا سموكي؟ إنَّني أشعر بك، فقد وقعتُ في حبِّ فتاةٍ ذات مرَّة. لقد كانت أكثر...».

توقَّفت فجأةً في الوقت المناسب لحفظ مكانتي الرُّجوليَّة أمام بقيَّة الزُّملاء.

ردَّ سموكي فجأةً: «ضعها هنا!»، ومددت يدي إليه فأمسكها وأطبق يده عليها كأنَّه يمنحني هديَّةً عظيمة.

وتابع حديثه قائلًا: «حسنًا، أنت تعرف كيف كان الأمر، لقد أحببت تلك الفتاة، وكان حبِّي لها نقيًّا وعفيفًا، هذا كلُّ شيء. في ذلك الأحد عندما غسلت شعرها، وكنت جالسًا أمام النَّافذة، أمسكت فرشاةً في يدي وعرضت عليها أن أساعدها في تجفيفه، وسمحت لي بذلك. كانت تقول: «بماذا تفكِّر؟»، «هل انتهيت؟»، ولكنَّني كنت مشغولًا بتقبيل أطراف شعرها، وفجأةً انتبهت إليَّ وصفعتني بيدها. لن أنسى ذلك أبدًا. لا أعرف كيف شعرت بي، ولكنَّني لم أعترض أو أتذمَّر، فقد اعتدت التَّحمُّل في طفولتي. كنت مفتونًا بشعرها ونسيت كلَّ شيءٍ آخر. شعرت أنَّني تصرَّفت بحماقةٍ كبيرة. بدت روز غاضبةً في البداية، ثمَّ نظرت إليَّ بسرعةٍ وأشاحت بوجهها إلى النَّافذة وضحكت، ثمَّ قالت لي بنبرةٍ خَجِلَةٍ: «حسنًا، يجب أن أعترف بأنَّها طريقةٌ لطيفةٌ لتجفيف الشَّعر». أخذتني الجرأة ورددت عليها: «يمكنك أن تراهني على ذلك، أحبُّ أن أعتني بكلِّ ما يتعلَّق بك». حينذاك أدارت وجهها نحوي ونظرت إليَّ بعينيها الكبيرتين السَّاحرتين وتبادلنا النَّظرات دون أن نتفوَّه بكلمةٍ واحدةٍ، ثمَّ ذهبت إلى غرفةٍ أخرى.

«وقفت في مكاني محرجًا لبعض الوقت، ثمَّ ذهبت لأغسل الدَّرَّاجة، وقطعت عشر قُرُماتٍ من الخشب، ولكن كلَّما كنت أفكِّر في الأمر أكثر، كنت أشعر بتحسُّنٍ أكبر، وعندما رأيتها في العشاء كان وجهها متورِّدًا من الخجل. لم يكن ينظر أحدنا إلى الآخر في أثناء تناول الطَّعام سابقًا، ولكن في تلك

المرَّة كنت كلَّما نظرت إليها وجدتها تنظر إليَّ. أظنُّها كانت تنظر إليَّ لترى إن كنت أنظر إليها، وكنت أنظر إليها للسَّبب نفسه أيضًا.

«حسنًا، انتبهت والدتها لنظراتها وخجلها، ويبدو أنَّها كانت راضيةً عن ذلك، وصارت تعاملني أفضل من ذي قبل، وعندما أنظر إلى الوراء، أتذكَّر أنَّها كانت تتعمَّد أن تتركني مع ابنتها كثيرًا حتى يتقرَّب بعضنا من بعض. على أيَّة حالٍ، حمَّسني ذلك التَّطوُّر على العمل بجدٍّ واجتهاد، ثمَّ تولَّد عندي طموحٌ آخر، وذلك الطُّموح هو الذي كسر رقبتي. كنت أرغب في الاستمرار في العمل في منزل السَّيِّدة، ولكنَّني أردت أن أفعل ما هو أفضل، فحصلت على وظيفةٍ كمساعد طبَّاخٍ في أحد الفنادق، ومن هذه الوظيفة اكتسبت خبرتي في طهو الطَّعام كما ترى. سارت الأمور على نحوٍ جيِّدٍ في البداية، وحصلت على زيادةٍ في الرَّاتب، وكنت أعود إلى منزل السَّيِّدة وأساعد في الأعمال المنزليَّة، بينما كانت روز تساعدني في غسل الأطباق. كنَّا عصفورَين سعيدَين، وازدادت لهفتنا إلى إنهاء جميع استعداداتنا للزَّواج، ولكنَّ الرِّياح تأتي بما لا تشتهي السُّفن.

«في يومٍ من الأيَّام جاء أحد المحقِّقين إلى الفندق، وعرفني عندما رآني، وأخبر إدارة الفندق بأمري، فاستدعاني المدير وطردني. توسَّلت إليه أن يمنحني فرصةً، فاعتذر وأخبرني أنَّه لن يتمكَّن من توظيف سجينٍ سابقٍ في فندقه. ربَّما تصرَّف بعدائيَّةٍ بعض الشَّيء، وفكَّرت في الصُّراخ، ولكنَّ ذلك ما كان ليعود عليَّ بشيء. كنت سأُطرَد على أيَّة حال، وكان هناك شخصٌ آخر يعمل في الفندق، ويعرف السَّيِّدة التي أعمل لديها، وعندما عرف بالأمر ذهب إلى منزلها وأخبرها بحقيقتي، ولكن عندما وصلت إلى المنزل عاملتني روز وأمُّها كأنَّ شيئًا لم يكن، لم تسألاني كيف ومتى حدث ذلك، ورحَّبتا بي أحسن ترحيبٍ، ولكنَّني أخبرتهما أنَّني سأرحل بعيدًا، فتوسَّلتا إليَّ أن أبقى. ليتني استجبت لرجائهما يومذاك، ولكنَّني لم أفعل، وذهبت لأحزم أغراضي.

غضبت روز منّي ووصفتني بالجبان. كنت محبطًا جدًّا، فقد عملت بجدٍّ لأتزوَّجها كإنسانٍ شريف. فكَّرت في أنَّها تستحقُّ شخصًا يليق بها، شخصًا لم يُسجَن قطُّ. كان الأمر كلُّه خطأي من البداية.

«وهكذا يا صديقي، نسيتُ كلَّ هذه الأمور عندما سُجنت. لقد حدث كلُّ شيءٍ بسرعة، ولم أعد أفكِّر بها كثيرًا، وانقطعنا عن التَّواصل منذ رحيلي. لقد أعادني ذلك المحقِّق إلى الطَّريق الذي بدأته، فقد ذكَّرني بأنَّني لا أستطيع الزَّواج بِروز، وأنَّني لا أعرف هويَّتي وأصلي الحقيقيَّ، فأنا مجرَّد سجينٍ سابقٍ، ولن يكون من العدل أن أرتبط بفتاةٍ مثل روز. مع ذلك أعتقد في بعض الأحيان أنَّ ما فعلته كان خطأ. كان يجب أن أتمسَّك بها وأتزوَّجها، فهي كانت تحبُّني لحقيقتي لا لأجل ما كنت عليه. لم يحدث أن كتبت إليها رسالةً، وآخر مرَّةٍ رأيتها فيها عندما ودَّعتها قبل ستَّة عشر عامًا. حتى إنَّني لا أعرف إن كانت ما تزال على قيد الحياة.

«ما حدث لاحقًا هو أنَّني سافرت عائدًا إلى هنا، وأدمنت الشُّرب، وعاشرت المجرمين، وسطوت على الكثير من المنازل، وفي يومٍ من الأيَّام اكتشفتني الشُّرطة وحكمت عليَّ بعشرين سنةً».

في تلك اللَّيلة عندما ذهبنا إلى الزِّنزانة لم يكن الصَّبيُّ هناك، وبمجرَّد أن أغلق الحارس الأبواب، سألت سموكي عن مكان الصَّبيِّ، فأجابني:

«أوه، لقد نقلوه أخيرًا إلى المستشفى، أعتقد أنَّنا لن نحظى بفرصة رؤيته مرَّةً أخرى».

في اليوم التَّالي سألت أحد العاملين بالمستشفى عنه.

فأجابني: «أوه، إنَّ ذلك الصَّبيَّ مصابٌ بالسُّلِّ. إنَّه مريضٌ جدًّا، ونقلوه إلى المستشفى القديم. هناك أملٌ ضئيلٌ في أن يقف على قدميه مرَّةً أخرى، فعندما سيرقد مع كلِّ تلك الحالات المستعصية، سيفقد الأمل مثلهم تمامًا».

سألته إن كانت هناك أيُّ فرصةٍ لأحصل على تصريحٍ لزيارته، فأخبرني أنَّ ذلك مخالفٌ للقوانين.

أبلغت سموكي بنتيجة تحرِّيَّاتي، فعلمت أنَّ كلام الرَّجل كان صحيحًا، وأنَّه لا يُسمح للسَّجين بزيارة زميله في المستشفى بأيِّ حالٍ من الأحوال.

قال سموكي: «لا أعرف لماذا، ولكنَّني أتذكَّر حادثةً أليمةً وقعت الشَّهر الماضي. كان هناك صديقان دخلا هذا السِّجن بتهمة السَّرقة، وحُكِم على كلٍّ منهما بعشر سنوات. لم يخبرا إدارة السِّجن باسميهما ومن أين جاءا، لذلك عندما مرض أحدهما أراد زميله أن يزوره في المستشفى ليسأله إن كان يرغب في إعلام عائلته بمرضه، فلم يسمحوا له بذلك، وبعد عدَّة أيَّامٍ مات صديقه، ودفنوه في مقبرة السِّجن، هناك حيث يرقد تشارلي برايس. كنت أتحدَّث مع ذلك الرَّجل في الفناء في اليوم الذي دفنوا فيه صديقه، وأخبرني أنَّه لا يعرف ماذا يفعل، لا يعرف إن كان عليه أن يكتب إلى أمِّه ويخبرها بموت ابنها، أو أنَّ الأفضل ألَّا يخبرها أبدًا. لقد ترعرع الشَّابَّان معًا في البلدة نفسها، وهربا منها معًا إلى هنا، وفي أحد الأيَّام صادفا رجلًا ثملًا في طريقهما، وسرقا سبعة دولاراتٍ منه، وعندما أمسكت بهما الشُّرطة حكم عليهما القاضي بالسَّجن عشر سنواتٍ لأنَّهما لم يخبراه بهويَّتهما ومن أين جاءا. أخبرني الشَّابُّ أنَّه لن يستطيع النَّظر إلى وجه والدة صديقه مرَّةً أخرى. كانت تظنُّ أنَّهما سيبدآن حياةً جديدةً هنا، ويبدو أنَّ صديقه كان مغرمًا بفتاةٍ في بلدته، وأراد أن يدَّخر ليتزوَّج بها، ولكنَّه لن يعود أبدًا إلى حضنها ولا إلى حضن والدته».

قلت: «يبدو أنَّه سيكون من الأفضل أن نخبر والدة الصَّبيِّ بما حدث. إذا لم تعرف ما حصل له فإنَّها ستقضي حياتها كلَّها بالقلق والحيرة. سيكون من الأفضل أن نخبرها بنهايته، حتى وإن كانت سيِّئة».

أجابني سموكي: «حسنًا، لم أحظَ بأمٍّ، ولكنَّني أظنُّ أنَّ من الأفضل ألَّا

نخبرها الآن. سوف تمنّي نفسها بشفائه وتتخيّل كلَّ المعجزات التي قد تحصل له، ثمَّ تخيَّل صدمتها عندما تعرف أنَّ كلَّ آمالها ذهبت هباءً وأنَّ ابنها مات مريضًا، ولكن إن أردت أن تخبر أحدًا فعليك بإخبار شريكه، فهو لا يعرف أيَّ شيءٍ عنه، وإن حصل للصَّبيِّ شيءٌ فسيكون الأمر مختلفًا بالنِّسبة إليه».

بقيت صامتًا بضع لحظاتٍ، وجلست أفكِّر بالصَّبيِّ الذي قضى وقتًا طويلًا معنا في الزِّنزانة.

«أين والد الصَّبيِّ يا سموكي؟».

استدار سموكي إليَّ فجأةً وقال: «ياه! لقد كنت أفكِّر في الأمر نفسه الآن. لقد أخبرني الصَّبيُّ أنَّ والده رجل شرطةٍ يعمل في شيكاغو، وقد حاول أن يُخرجه من السِّجن بكلِّ الطُّرق الممكنة، ولكنَّه لم ينجح في ذلك. يقول القانون إنَّ بإمكانه أن يحصل على الإفراج المشروط بعد عامٍ من دخوله السِّجن، ولكن أصدر المجلس قانونًا خاصًّا ينصُّ على أنَّ السَّجين يجب أن يقضي نصف مدَّة محكوميَّته قبل أن يحصل على الإفراج المشروط، ولكن بالنِّسبة إلى قضيَّة الصَّبيِّ المحكوم بخمسين سنةً، فإنَّهم لم يكونوا سيتركونه يقضي نصف المدَّة، فذلك أشبه بالسَّجن مدى الحياة. ربَّما كانوا سيفرجون عنه بعد ثماني سنوات. لقد فكَّرت في هذا القانون كثيرًا ورأيتهم يطبِّقونه على العديد من الحالات، ويبدو أنَّهم قد أصدروه في ساكرمنتو، وكأيِّ قانونٍ آخر، يقوم القضاة الظَّالمون بتطبيقه كما يحلو لهم، فاليوم قد يطلقون سراح سجينٍ بعد قضائه أربع سنواتٍ من أصل خمس، وغدًا يأتي طفلٌ فقيرٌ، أو مزارعٌ متَّهمٌ بالجريمة نفسها، فيقضي خمس عشرة أو عشرين سنةً بلا رحمة. خذ حالة ليفتي رايت على سبيل المثال. لقد كان ذلك الوغد يجوب المدينة كلَّ مساءٍ ويسطو على المنازل، وعندما أمسكوا به متلبِّسًا، استعان بأصدقائه في الحكومة، ومع أنَّه كان قد سُجن سابقًا بالتُّهمة نفسها ثلاث مرَّات، إلَّا أنَّ

القاضي حكم عليه بأربع سنواتٍ فقط، وفي اليوم نفسه حكم القاضي على شابٍّ من لوس أنجلوس بالسَّجن اثنتي عشرة سنةً لمجرَّد أنَّه سرق بضاعةً رخيصةً من عربة بائعٍ متجوِّل. ليس من العدل أن يحدث ذلك، فكلتا الحالتين متشابهتان في الظَّاهر، ولكنَّ ليفتي كان يجوب المدينة بأسلحته وأدواته الخاصَّة. إنَّه سارقٌ محترفٌ، وكذلك كنت أنا، بينما ذلك الشَّابُّ الذي لا يعرف شيئًا عن المهنة، ولم يرفع سلاحًا في حياته، يُحكَم عليه باثنتي عشرة سنةً. المتَّهم الخبير يعرف كلَّ ما يجب أن يفعله عندما يتعرَّض للاستجواب في المحكمة، فيقصُّ على القاضي حكايةً مثيرةً للشَّفقة عن حياته وينجو بفعلته، أمَّا المتَّهم المبتدئ فيتعرَّض للهجوم من كلِّ حدبٍ وصوبٍ، وعندما يحاول أن يدافع عن نفسه يقضي عليه القاضي بالعقوبة القصوى. هكذا يسير القانون في أكثر الحالات. لماذا إذن لم يفرجوا عن الصَّبيِّ ليذهب إلى منزل والده ويساعد في خروج والدته من مصحَّة الأمراض العقليَّة؟».

لم أجب على سؤاله، فلم يكن لديَّ ما أقوله.

قال سموكي: «يجب أن تضع في اعتبارك أنَّني لا أشفق على نفسي. لقد حصلت على ما أستحقُّه، وهناك الكثير من القضاة الصَّالحين الذين يستخدمون السُّلطة التَّقديريَّة في إصدار أحكامهم. خذ القاضي (ر) والقاضي (ب) على سبيل المثال. لن يحكم أيٌّ منهما بالسَّجن لمدَّة خمسين سنةً على صبيٍّ صغيرٍ، وسوف يحكمون بالعدل حتى على أولئك الرِّجال الذين يهتمُّون بأمرهم، ومثلما هناك قضاةٌ صالحون هناك قضاةٌ ظالمون أيضًا، مثلهم مثل أيِّ شيءٍ آخر، ويمكن لهذه المشكلة أن تُحَلَّ بطريقةٍ ما، كأن يحصل كلُّ السُّجناء على حُكمٍ عادلٍ في المحكمة، وتكون مدَّة محكوميَّتهم قابلةً للتَّغيير حسب سلوكهم اللَّاحق في السِّجن».

سألته: «هل تقصد أن يُصدر القاضي حكمًا غير محدَّد المدَّة؟».

«أجل، إن طُبِّق هذا القانون على الجميع مثلما هو مطبَّقٌ على فئةٍ قليلةٍ في السِّجن، فسوف تتحسَّن أحوال السُّجناء جدًّا، فالرَّجل الذي رأيناه في الفناء يقضي محكوميَّته بسبب زميله، ولا يجد فرصةً للخروج من هنا، وقد يقضي كلَّ حياته في السِّجن، ولكن إن طُبِّق ذلك القانون، يمكن لأيِّ رجلٍ أن يحصل على الإفراج المشروط، وسيحصل مِن ثَمَّ على بدايةٍ عادلةٍ لحياته. أعتقد أنَّه سيحقِّق نتائج جيِّدة. ربَّما لو طُبِّق ذلك القانون عليَّ في أوَّل مرَّةٍ دخلت فيها السِّجن، لما عدتُ إلى هنا، فأنا أحبُّ العمل، وأكره الكسل، وأعلم أنَّ السِّجن لن يدفع لي شيئًا ولن يعود عليَّ بأيِّ فائدة.

«عندما يحصل السَّجين على الإفراج المشروط فإنَّ الضُّبَّاط يقومون بمساعدته، فهم يرون أنَّ الرَّجل الذي ينجح في نيل هذه الصَّفقة يمتلك كلَّ شيء، على عكس الرَّجل الذي يقضي محكوميَّته كلَّها ويخرج من السِّجن دون أن يعرف أين سينام في ليلته الأولى. لقد رأيت الكثير من هذه الحالات في الفترة الأخيرة. هناك عددٌ كبيرٌ من السُّجناء يعودون إلى هنا بعد تسريحهم وإعطائهم خمسة دولارات، ولكنَّ الرِّجال الذين يحصلون على الإفراج المشروط يكونون مدركين أنَّهم تحت المراقبة فلا يعودون أبدًا إلى السِّجن. ألا يثبت هذا أنَّ الإفراج المشروط أمرٌ جيِّد؟ أليس الجميع رابحين عندما يستقيم السَّجين ويفعل الأمور الصَّالحة في الخارج؟ ما الفائدة من إبقائي عشرين سنةً ثمَّ حرماني من القيام بكلِّ ما يحلو لي، وأن أخرج دون أن أعرف إلى أين أنا ذاهبٌ وماذا سأفعل؟ يشعر معظم السُّجناء بالمعاناة، خاصَّةً أولئك المحكومين بفترةٍ طويلة. ليس هذا فحسب، بل إنَّني أعرف الكثير من أولئك الرِّجال الذي تركوا العائلات التي يعيلونها وراءهم. إنَّ الوقت يمرُّ عليهم عسيرًا هنا، والشَّهر بالنِّسبة إليهم كالسَّنة بالنِّسبة إلينا، لماذا؟ لأنَّهم لا يتوقَّفون عن التَّفكير والقلق بشأن زوجاتهم وأطفالهم. لماذا يُسجن هؤلاء الرِّجال لفتراتٍ طويلةٍ لمجرَّد أنَّ جرائمهم لم ترق القاضي فحكم عليهم بخمس

أو عشر سنوات؟ لا عجب أنَّ الكثير من الرِّجال يخطئون مرَّةً أخرى. لقد تحدَّثت مع كثيرين منهم وعبَّروا لي عن آلامهم، وهناك كثيرون ممَّن تفكَّكت عائلاتهم وهم في السِّجن. إنَّ زوجة السَّجين تكافح طوال الوقت، وتحاول أن تعيل أطفالها في غياب زوجها ريثما يعود، ولكنَّ الأمر أكبر من طاقتها، وسوف تستسلم في يومٍ من الأيَّام وتطلب الطَّلاق، فهي لم تعد قادرةً على تأدية مهامِّ زوجها، وسرعان ما ستجد رجلًا آخر يقوم بتأدية هذه المهامَّ عنها.

«ولكن ماذا يقول المجلس؟ يقول اجعلهم يقضون نصف المحكوميَّة، بغضِّ النَّظر عن معاناتهم أو هويَّتهم أو ما فعلوه، اجعلهم يقضون نصف المحكوميَّة، وهكذا تنتقم منهم».

الفصل الثَّاني عشر

بعد فترةٍ وجيزةٍ من دخولي الأوَّل إلى الكنيسة، شعرت بأنَّ معتقداتي وانطباعاتي الدِّينيَّة قد تغيَّرت تمامًا، وما أزال حتى الآن متحفِّظًا على رؤيتي الدِّينيَّة بسبب تلك الفترة التي قضيتها في السِّجن، وأعتقد أنَّ هذا الأمر قد حصل مع العديد من السُّجناء أيضًا.

قبل أن أواصل الحديث عن هذه المسألة، أودُّ أن أقول إنَّ القسِّيس الحاليَّ رجلٌ يعمل بذمَّةٍ وضميرٍ، وخلال الفترة التي قضاها في السِّجن أنشأ مدرسةً للأمِّيين، وعلَّم اللُّغة الإنجليزيَّة أولئك الذين لا يعرفون التَّحدُّث بها، كما قام بتحسين مكتبة السِّجن، مع أنَّ مستواها ما يزال أدنى من المطلوب، فالكتب ما تزال غير مصنَّفةٍ، والرِّجال لا يمتلكون الفرصة للاستفادة من الكتب الموجودة كما ينبغي. وأرى أنَّه يجب تزويد كلِّ سجينٍ بفهرسٍ يضمُّ عناوين الكتب المتاحة، كما يجب استحداث إجراءاتٍ عمليَّةٍ لاستعارة الكتب بطريقةٍ منظَّمةٍ وسلسةٍ أكثر، ففي الوقت الحاضر، يتعيَّن على الرِّجال الرَّاغبين في استعارة الكتب الذَّهاب إلى المكتبة في الصَّباح الباكر أو الانتظار حتى ظهيرة يوم السَّبت، وفي ذلك الوقت يكون عدد السُّجناء كبيرًا وتصبح الخدمة سيِّئةً للغاية.

وحتى وقتٍ قريبٍ، لم تكن مخصَّصات السِّجن تسمح بشراء الكتب الجديدة، ولكن بفضل جهود مأمور السِّجن الحاليِّ، تمَّ اقتطاع فوائد من أموال السُّجناء وأموال الرِّجال الذين حصلوا على إفراجٍ مشروط، وبلغت

قيمة هذه الفوائد اثنين وعشرين ألف دولار، وخُصِّص هذا المبلغ لشراء الكتب الجديدة، وبهذه العمليَّة تحتفظ إدارة السِّجن بهذه الأموال في البنوك الموثوقة دون أن يُقتطع منها أيُّ ضرائب.

ومن الأمور التي تُحسَب للقسِّيس الحاليِّ إسهامه في تقليص التَّحيُّز ضدَّ الدِّين، فسابقًا لم يكن الدِّين هو ما أنكره السُّجناء وأدانوه، بل الأسلوب الدِّينيَّ المتشدِّد الذي اتَّخذه القسِّيس أغسطس دراهمز خلال العشرين سنةً الماضية.

يسارع السُّجناء إلى تقييم الرَّجل الذي أمامهم، ويحرصون كلَّ الحرص على كشف النِّفاق والافتقار إلى التَّعاطف البشريِّ في خطاب المسؤولين والكهنة.

ولكن قبل رواية الحادثة الوحيدة التي تُبرز موقفي من القسِّيس أغسطس، يجب أن أتحدَّث قليلًا عن قساوسة الأبرشيَّة الكاثوليكيَّة في سان رافائيل، فهؤلاء الرِّجال الطَّيِّبون يقومون بزياراتٍ منتظمةٍ نصف أسبوعيَّةٍ (وتكون أحيانًا أكثر تواترًا) إلى مستشفيات السُّجون، ويقومون أحيانًا بإلقاء الخطب الوعظيَّة في كنيسة السِّجن، وهم بذلك يساعدون الكثير من الرِّجال على تخليص أنفسهم بأنفسهم، وأعرف عشرات الحالات من السُّجناء الذين دفعوا لهم مبلغ خمسةٍ وعشرين دولارًا بعد خروجهم من السِّجن، ووفَّروا لهم العمل والملابس اللَّازمة.

ومن الحقائق الجديرة بالذِّكر أيضًا، أنَّ كلَّ سجينٍ مدانٍ تقريبًا يجب أن يعتنق العقيدة الكاثوليكيَّة الرُّومانيَّة قبل نقله إلى مقصلة الإعدام وسقوطه في حفرةٍ سوداء لا قاع لها، وهذا ينطبق بشكلٍ خاصٍّ على الرِّجال الذين أُعدِموا في سجن سان كوينتين في فترة وجود القسِّيس أغسطس، وفي إحدى هذه الحالات كان الطَّلب الأخير لأحد السُّجناء هو أن يخرج القسِّيس أغسطس من غرفة التَّنفيذ، ووافقوا على طلبه، وهذه هي حالة الإعدام الوحيدة التي لم

يشهدها أغسطس خلال فترة عمله في السِّجن، فقد كان يحضر دائمًا حتى عند غياب الضَّابط المسؤول، ولذلك ليس من الغريب أن تكون سمعة الدِّين سيِّئةً بين السُّجناء، وأنا متأكِّدٌ من أنَّك ستتحقَّق من ذلك بنفسك إن قمتُ بملء صفحات هذا الكتاب بكلِّ الحوادث التي أسهمت بذلك. لن تصدِّق الكثير منها، ولكنَّني سأكتفي بسرد حادثةٍ واحدةٍ فقط وهي حادثة تشارلي برايس.

كان تشارلي رجلًا طيِّبًا متديِّنًا، وكان يتمتَّع بشعبيَّةٍ كبيرةٍ بين جميع السُّجناء، وذات ليلةٍ عثروا عليه ميِّتًا بسبب النَّزف. في البداية لم يسمحوا لأصدقائه بحضور جنازته، وحُصِرَ الحضور بخمسين شخصًا من معارفه وأقربائه خارج السِّجن، ولكن بسبب شعبيَّته الكبيرة قدَّم السُّجناء التماسًا إلى المأمور ليسمح لهم بحضور مراسم الجنازة في كنيسة السِّجن، ومن الجدير بالذِّكر أنَّه لم يسبق للسُّجناء أن أجمعوا على التماسٍ واحد، ولم يحدث أن أجمعوا على مثله لاحقًا، وقد وافق المأمور على مطلبهم، واجتمع جميع أعضاء الفرقة الموسيقيَّة ليقدِّموا برنامجًا موسيقيًّا يليق بتشارلي، وسار كلُّ شيءٍ بسلاسةٍ حتى ألقى القسُّ خطابه. صحيحٌ أنَّه بدأه على نحوٍ جيِّدٍ، ولكنَّه سرعان ما نحا به منحىً بعيدًا جدًّا. لقد نسي قدسيَّة هذه المناسبة وأخذ يتحدَّث عن العبرة الأخلاقيَّة المأخوذة من وفاة تشارلي في السِّجن، وصوَّر نهاية السَّجين على أنَّها نهايةٌ مخزيةٌ، وتوقَّع مصيرًا مماثلًا لنا إذا خالفنا تعاليمه ومواعظه.

نفد صبر الجمهور وبدا ذلك واضحًا من ملامحهم وأصواتهم، وسرعان ما عبَّروا عن استيائهم بإطلاق أصواتٍ متذمِّرةٍ وضرب أقدامهم بالأرض، ولكنَّ القسَّ لم يلتفت إليهم، فقد كان غافلًا تمامًا عن حقيقة أنَّه كان يخاطب أصدقاء الرَّاحل، أولئك الذين عرفوه دائمًا كرجلٍ طيِّبٍ ونبيل. أصرَّ القسُّ على مواصلة هجومه، وبدأت أشعر بالتَّوتُّر. انتابني شعورٌ بأنَّ ثورةً جماعيَّةً على وشك الاندلاع، ثورةً لا يمكن إيقافها إلَّا إذا توقَّف القسُّ عن الكلام، ولم أكن مخطئًا، فقد ثار الجمهور بشكلٍ كبيرٍ، وبدا القسُّ منزعجًا من الطَّريقة

التي تصرَّف بها السُّجناء، فتوقَّف فجأةً عن الكلام، وتوقَّف معه الضَّجيج، ثمَّ أشار بإصبعه النَّحيف الطَّويل إلى وجه الجثَّة المستلقية في الصُّندوق الخشبيِّ المطليِّ باللَّون الأسود، وتقدَّم أغسطس خطوتين حذرتين إلى الأمام وقال:

«هنا ترقد عاقبة الخطيئة. لقد صعدت روحه إلى السَّماء كروحٍ سوداء، ولكنَّ الرَّبَّ رحيمٌ، ولعلَّه يرحم هذا الرَّجل حتى لو كان مجرمًا، فقد يجد الرَّبُّ فيه بعض الخير».

لا أدري ماذا قال عن الرَّبِّ أيضًا لأنَّ صوته لم يعد مسموعًا بسبب جلبة واستياء الحضور. نهض الحرَّاس وبذلوا جهدا ضئيلًا في إعادة النِّظام، لأنَّهم كانوا يعرفون تشارلي ويحبُّونه جدًّا، ولكنَّ الأصوات لم تخفت، واستمرَّت في التَّصاعد كلَّما حاول القسُّ أن يُكمل حديثه.

أخيرًا، وبتعبيرٍ ساخرٍ، عاد القسُّ للجلوس في مقعده، وبدأ الرِّجال على الفور بترديد ترنيمة «إلهي، قرِّبني إليك». لن أنسى ذلك المشهد ولا مشاعري ما حييت. شعرت بالأسف لعدم قيام السُّجناء بضرب ذلك الشَّيطان المُخزي، وكان ذلك الشُّعور يمزِّق أعماقي.

بعد الانتهاء من التَّرنيمة سُمح لنا بالاصطفاف في طابورٍ نحو التَّابوت، وعندما أصبحت أمام تشارلي شعرت بسعادةٍ لأنَّه لم يكن يعلم شيئًا عمَّا قاله القسُّ عنه قبل دقائق.

عندما تجاوز الجميع التَّابوت، نظر الحارس نظرةً طويلةً إلى وجه الميِّت كما لو كان يريد أن يتأكَّد من أنَّه ميِّتٌ بالفعل، ثمَّ أطبق الغطاء على الصُّندوق، وحصل خمسون سجينًا على الإذن بحمل التَّابوت وتشييع الميِّت إلى مقرِّ الدَّفن خارج الجدران، وكنت أنا منهم.

في أثناء مرور الموكب عبر الفناء، خرج أحد البستانيِّين من عمله سرًّا ووضع باقةً من أزهار البنفسج على التَّابوت. كان ذلك أكثر الأعمال التي

رأيتها في حياتي إنسانيَّةً، ولكنَّه بدا خجولًا من نفسه عندما قام بذلك، وكأنَّه كان يخشى أن يظنَّه النَّاس مرهف العاطفة. يفشل الكثير منَّا في التَّفريق بين ما هو إنسانيٌّ وما هو عاطفيٌّ.

لم يكن هناك نعشٌ حقيقيٌّ، ولكنَّ السُّجناء السِّتَّة الذين حملوا التَّابوت تصرَّفوا كما لو كانوا يرفعون نعشًا على أكفِّهم، وعندما وصلوا إلى البوَّابة الأماميَّة اضطرُّوا إلى تغيير وضعيَّة التَّابوت لكي يدخل من البوَّابة الصَّغيرة، ذلك أنَّ جميع البوَّابات الخارجيَّة في سان كوينتين مصمَّمةٌ لتسمح بدخول رجلٍ واحد، ولا توجد بوَّابةٌ كبيرةٌ سوى البوَّابة الخارجيَّة المزدوجة، ويوجد بجانبها بوَّابةٌ صغيرةٌ، ولا تُفتح البوَّابة الخارجيَّة الكبيرة إلَّا في حالة نقل السُّجناء من داخل السِّجن إلى خارجه. اضطرَّ حاملو النَّعش إلى الاستغناء عن العارضتين، ووقف رجلٌ في كلِّ طرفٍ من أطراف التَّابوت، ثمَّ قاموا بدفعه من خلال الفتحة الصَّغيرة. شعرت بأنَّ ذلك كان مهينًا لحرمة الميِّت، فقد بدا الأمر وكأنَّهم كانوا يتعاملون مع صندوق شحنٍ، أو شيءٍ من هذا القبيل.

عندما عَبَرَ التَّابوت إلى الجهة الأخرى سرنا خلفه بالدَّور، وعندما عاد الموكب إلى وضعه الطَّبيعيِّ وقف حرَّاسٌ مسلَّحون على جانبَي الموكب، ولكنَّني في ذلك الوقت نسيت كلَّ شيءٍ يتعلَّق بالجنازة. كنت مأخوذًا بمنظر الخليج وأطراف الشَّاطئ البعيدة. كانت تلك هي المرَّة الأولى التي أخرج فيها من جدران السِّجن الأربعة.

كان القسُّ موجودًا في المقبرة قبل وصولنا، وتوقَّف الجميع أمام قبرٍ مفتوحٍ، ورفعنا قبَّعاتنا، ولكنَّ القسَّ احتفظ بقبَّعته، ثمَّ صعد إلى القبر ليتحدَّث، ولكنَّ السُّجناء بدأوا بالغناء قبل أن يشرع القسُّ في حديثه، وما إن انتهوا حتى بدأوا على الفور بحفر القبر. كانوا يغمغمون ويجرفون الأرض على عجلٍ، ولكنَّ القسَّ لم يستسلم، وألقى كلماته، ولم أسمع منها سوى: «من التُّراب خُلقنا، وإلى التُّراب نعود».

ثمَّ وضع السُّجناء بوقَ تشارلي داخل الحفرة برفقٍ مصحوبٍ بشعورٍ مهيب، وبدا البُوق رمزًا لروح تشارلي الذي أمضى كلَّ حياته يعزف به. تأثَّرنا جميعًا بذلك، وعجزت كلُّ الكلمات والتَّرانيم عن التَّعبير عن حزننا. أخذ أحد السُّجناء مجموعةً صغيرةً من أزهار البنفسج من فوق التَّابوت قبل إنزاله، وبعد أن أهَلْنا التُّراب على القبر وضعها عليه.

يقول سيدني لانيير إنَّ البنفسج هو الرَّبُّ.

وبعد ذلك، بقينا واقفين في أماكننا منتظرين إشارة العودة، ووضع حفَّارو القبور لوحًا أبيض على مقدِّمة القبر، ولم يكتبوا على ذلك اللَّوح سوى رقم السَّجين.

كان القسُّ قد أشار إلى تشارلي برايس بأنَّه مجرم. ولكن هل كان تشارلي مجرمًا حقًّا؟ لقد حُكم عليه بالسَّجن المؤبَّد لأنَّه قتل رجلًا هاجمه في أثناء مشادَّةٍ حامية، ودفع حياته كلَّها ثمنًا للحظة غضب، ولكنَّ كلَّ صفةٍ من صفات ذلك الرَّجل أظهرت أنَّه ليس أكثر ولا أقلَّ من إنسانٍ عاديٍّ. لقد كان لطيفًا ومسالمًا مع زملائه، فلماذا يعدُّه النَّاس مجرمًا؟

خلال أوَّل ثمانية عشر شهرًا من سجني لم أغتسل في الهواء الطَّلق سوى مرَّةٍ واحدة. كان المكان الوحيد للاستحمام هو تحت سقيفةٍ مفتوحةٍ من جميع الجهات، يعلو تلك السَّقيفة دشٌّ بدائيٌّ، وفي السَّاعة الثَّانية ظهرًا من كلِّ أسبوعٍ تتدفَّق منه المياه الدَّافئة المالحة، والذين يرغبون في الاستحمام يُعفَون من العمل لمدَّة عشرين دقيقة، ولا يوجد إكراهٌ في ذلك، ولكن ما يثير الدَّهشة هو قلَّة الرِّجال الذين يذهبون للاستحمام، ويقلُّ عددهم بشكلٍ أكبر في فصل الشِّتاء، ففي تلك الأوقات يكون الهواء باردًا أو رطبًا أو ضبابيًّا، وعندما يصبح الجوُّ أكثر دفئًا ينتهز بعض السُّجناء الفرصة للاستحمام، ودائمًا ما يُفتَح الدُّشُّ في يومَي الأربعاء والسَّبت ولا يتغيَّر هذان الموعدان سواءٌ كان الجوُّ ماطرًا أو

عاصفًا أو باردًا. هناك عددٌ كبيرٌ من الرِّجال لا يستحمُّون أبدًا في الشِّتاء، ولا يوجد سجلَّاتٌ تثبت ما إذا كان السَّجين قد استحمَّ أم لا. البرد قارسٌ جدًّا، وقد أصبت بأمراضٍ شديدةٍ بسببه ولم أتمكَّن من تداركها، فتطوَّرت إلى أن وصلت إلى التهابٍ رئويٍّ حادٍّ، ولكن خلال الثَّمانية عشر شهرًا التي عملت فيها في مطحنة الجوت لم أتغيَّب يومًا واحدًا عن تأدية مهمَّتي، حتى عندما كنت أصاب بالمرض بعد استحمامي في الهواء البارد.

وكانت هناك أوقاتٌ لم أجرؤ فيها على الاستحمام لمدَّة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. فالخروج من المطحنة الدَّافئة وخلع الملابس في الهواء الطَّلق، مع عدم وجود حمايةٍ من البرد والرِّياح التي تهبُّ من الخليج الضَّبابيِّ، كلُّ ذلك كان يشكِّل محنةً صعبةً حتى لو كان المرء يتمتَّع بصحَّةٍ جيِّدةٍ، وأمَّا بالنِّسبة إلى من يعاني البرد، ويصاب بالحمَّى، فقد كان الاستحمام عذابًا مستمرًّا لجسده. صحيحٌ أنَّ الحمَّام السَّاخن يعطي شعورًا بالانتعاش والرَّاحة عندما يهطل على الجسد البارد، ولكنَّ الخطر يكمن في الفترة الفاصلة بين تجفيف الجسم والاحتماء من البرد. تخيَّل أن تأخذ حمَّامًا ساخنًا في منتصف الشِّتاء ثمَّ تخرج إلى الشُّرفة أو إلى الفناء الخلفيِّ عاريًا لتجفِّف نفسك وترتدي ملابسك. لقد كنَّا مخيَّرين بين قرارين مصيريَّين، إمَّا أن نحمي أنفسنا من الإصابة بالبرد، وإمَّا أن ننجو بأجسادنا بلا استحمام، والكثير منَّا اختار أن يغتنم الفرصة وينجو بجسده حتى لو كلَّفه الأمر ألَّا يستحمَّ لشهورٍ طويلة.

يستخدم سموكي مصباح الزِّنزانة لتسخين حوض اغتسالٍ، وذلك مساء كلِّ سبتٍ، ونجح في إقناع الصَّبيِّ المريض والزُّملاء الآخرين في الزِّنزانة بأن يحذوا حذوه، ولكنَّني لم أجرِّب ذلك سوى مرَّةٍ واحدةٍ فقط، لأنَّه لم تكن هناك كمِّيَّةٌ كافيةٌ من الماء، ولم أشعر بالرَّاحة أو النَّظافة بعد أن قمت بذلك، فعقدت العزم على أن أتعوَّد الاستحمام في الهواء الطَّلق في ساحة مطحنة الجوت. بعض الرِّجال، وهم قلَّةٌ، فعلوا الشَّيء نفسه وأصيبوا بأمراضٍ خطيرةٍ

نُقلوا على إثرها إلى المستشفى وفارقوا الحياة بعد أن أصيبوا بالتهابٍ رئويٍّ أو أزمةٍ صدريَّةٍ حادَّة.

وإضافةً إلى الخطر الجسديِّ الذي يتسبَّب به الاستحمام دون حمايةٍ، كانت هناك مهانةٌ كبيرةٌ تنال السُّجناء من عدم حصولهم على أيِّ خصوصيَّةٍ، فقد كان على السَّجين الرَّاغب في الاستحمام أن يخلع ملابسه ويستحمَّ بحضور المئات من الرِّجال الآخرين، وفي كثيرٍ من الأحيان يحضر الحرَّاس والزُّوَّار الذين يدخلون السِّجن. طبعًا هناك بعض السُّجناء الذين لا يمانعون ذلك، ولكنْ كثيرٌ منهم يشعرون بالحرج في أثناء تعرُّضهم لذلك الموقف. وأكثر ما كان يزعجني هو سماع شرح الحرَّاس المسؤولين للزُّوَّار عن آليَّة الاستحمام في أثناء وقوفنا أمامهم.

اعتاد أحد الحرَّاس أن يصيح: «هذا هو الحمَّام... دشٌّ ساخنٌ رائعٌ... ماءٌ مالحٌ... مثل الخدمة الفندقيَّة».

وقلَّةٌ قليلةٌ من الزُّوَّار علَّقوا على الطَّريقة اللَّاإنسانيَّة التي يتَّبعها السِّجن في جعل الرِّجال يستحمُّون عراةً في الهواء الطَّلق، وقد بقيت هذه الطَّريقة متَّبعةً في سان كوينتين لسنواتٍ، ولم يستحدث السِّجن حمَّامًا خاصًّا ومغلقًا إلَّا في العام الماضي، وفي هذا العام انتهى بناؤه وبدأ استخدامه. يحتوي الحمَّام على أربعين مقصورةً تقريبًا، وكلُّ مقصورةٍ مزوَّدةٌ ببابٍ ودشٍّ يتدفَّق منه الماء المالح السَّاخن أو البارد، إضافةً إلى صنبورٍ للمياه العذبة، وأصبحت عمليَّة الاستحمام منظَّمةً بحيث يُجبَر كلُّ سجينٍ على الاستحمام مرَّةً واحدةً على الأقلِّ في الأسبوع ما لم يحصل على عذرٍ من الطَّبيب، ويتمُّ تفتيش كلِّ سجينٍ في أثناء مروره إلى الحمَّام ويحصل على غيارٍ داخليٍّ جديد. وهذه واحدةٌ من الكثير من التَّحسينات التي استحدثها المأمور الجديد، والتي تضفي طابعًا إنسانيًّا على السِّجن وتلبِّي حاجة السُّجناء بصورةٍ عامَّة.

ويوجد حوض سباحةٍ في الفناء العلويِّ، ولكنَّه صغيرٌ ولا يستخدمه إلَّا قلَّةٌ من الرِّجال الذين يسمح لهم عملهم بالوصول إليه بعد ملئه بالمياه العذبة. ولكن في بعض الأحيان يكون الحوض مزدحمًا في الصَّيف، وخاصَّةً بعد ظهيرة يوم السَّبت، ففي يوم السَّبت تغلق مطحنة الجوت في السَّاعة الثَّانية والنِّصف ظهرًا، ويتجمَّع السُّجناء في الفناء العلويِّ.

السَّبت هو يوم الإثارة في سان كوينتين.

في ذلك اليوم كنت موجودًا عندما انتهى الجميع من إنجاز مهامِّهم وتنظيف الآلات. هناك لافتاتٌ موضوعةٌ في جميع أنحاء المصنع تحذِّر الرِّجال من تنظيف الآلات في أثناء تشغيلها، ولكن مع ذلك، وعلى الرَّغم من وجود عقوبةٍ لمن يفعل ذلك، كان عددٌ كبيرٌ من الرِّجال يصرُّون على التَّنظيف في أثناء تشغيلها. نادرًا ما يمرُّ سبتٌ دون أن يصاب رجلٌ بسبب ذلك، وفي كثيرٍ من الأحيان يكون هناك مصابان أو ثلاثةٌ يعلقون بالآلات ويفقدون أصابعهم أو أطرافهم. لقد رأيت العديد من الإصابات المروِّعة لسجناء علقوا بكسَّارة الصَّناديق الضَّخمة الموجودة في نهاية المصنع. في كثيرٍ من الأحيان يُعاقَب الرَّجل المصاب دون ذنبٍ تعمَّده. أعرف الكثير من الرِّجال الذين علقوا بآلاتهم لأنَّ شخصًا ما قام في أثناء تنظيفهم التُّروس بتشغيل الآلة، كما عندما يبدأ سائق القطار رحلته قبل أن ينتهي المهندس الميكانيكيُّ من إصلاح الأعطال أو البحث عنها. عرفت من بعض الأشخاص أنَّ هناك من تعمَّد القيام بهذه الجريمة الخسيسة لأنَّه كان يكنُّ العداء للضَّحيَّة، وكان يتحيَّن الفرصة لينتقم منها بهذه الطَّريقة.

ولكن في أكثر الأحيان تحصل هذه المشكلة مع الرِّجال العاملين في الآلات أو في الأحزمة بسبب قلَّة الخبرة أو قلَّة التَّوجيه المناسب أو الخوف من المخاطر، فلم يسبق لي أن رأيت حاجزًا للحماية في أيِّ آلةٍ مسنَّنةٍ في

مطحنة الجوت في سان كونيتين، وبالتَّأكيد لم تكن الأنوال محميَّةً هي الأخرى.

تكشف التَّقارير الرَّسميَّة لفحوصات الطَّبيب المقيم في سنة 1909 حدوث تسع عشرة عمليَّة بترٍ خلال السَّنة، ولا يشمل التَّقرير أولئك الذين علقوا بالآلات وتمكَّنوا من التملُّص دون أن تطحن المسنَّنات عظامهم. من المؤكَّد أنَّ أحدًا منهم لم يكن ليصاب بالأذى لو أنَّ الآلات المسنَّنة زُوِّدت بحواجز وقائيَّة.

إنَّ الرَّجل الذي يُصاب خلال وجوده في السِّجن يخرج إلى العالم بخمسة دولارات، دون أن يكون له أيُّ أملٍ أو عملٍ أو أصدقاء.

لقد زُعِم أيضًا أنَّ بعض الرِّجال كانوا يتعمَّدون وضع أصابعهم في العجلات المسنَّنة لأسبابٍ قهريَّة. أعرف واحدًا ممَّن حدث معهم ذلك. كان (ب) مريضًا بالسُّلِّ، وكان يعمل وراء الآلة التي بجانبي. كنت أراه يتعذَّب في كلِّ لحظةٍ من اليوم، وذات مرَّةٍ، بعد عودتنا من العشاء مباشرةً، بادلني النَّظرات وابتسم في وجهي. كانت ابتسامته شاحبةً وحزينةً، ثمَّ وضع سبَّابته اليسرى عمدًا في التُّرس. تجمَّدت الابتسامة على وجهه مع دخول إصبعه وتحوَّل لونه إلى الأبيض المحتضر، ولكنَّه تعافى على الفور، ولفَّ قطعةً من الجوت حول عضوه المسحوق، وارتدى معطفه على مهلٍ ثمَّ ذهب ليُبلغ المكتب بإصابته، فتمَّ نقله إلى المستشفى وبتروا إصبعه من المفصل الثَّاني. لم يعد للعمل في المصنع، ولكن بعد عامين، رأيته في المستشفى ممدَّدًا في السَّرير المجاور لي عندما كنت مصابًا بحمَّى التِّيفوئيد، وبدا لي أنَّه قد وصل إلى المراحل الأخيرة من المرض. كان يسعل بشدَّةٍ وبلا توقُّف. علم أقاربه بحالته، ونجح في الحصول على إفراجٍ مشروط. جاء أقاربه ليأخذوه من السِّجن بسيَّارتهم الخاصَّة، وكانت تلك أوَّل سيَّارةٍ تدخل السِّجن، لذلك حصلتْ على إعجاب واهتمام الكثير من السُّجناء وغيرهم من العاملين في

السِّجن. كنت في ذلك الوقت في فترة نقاهةٍ ورأيت جموع الرِّجال وهم يرفعون أعناقهم من الأسوار لينظروا إلى السَّيَّارة، وتمكَّنت من رؤية (ب) وهو يُحمَل إلى السَّيَّارة ويوُضع في المقعد الخلفيِّ بجانب أخته الباكية.

مات (ب) في سان فرانسيسكو بعد ثلاثة أسابيع من خروجه.

الفصل الثَّالث عشر

لا تخلو الحياة في السِّجن من المزاح. في الواقع، هناك عددٌ كبيرٌ من السُّجناء الذين يحاولون إنقاذ غيرهم بجعلهم يرون الجانب المشرق من الأشياء، وكثيرٌ منهم لا يفوِّتون أيَّ فرصةٍ لخلق أجواء مرحةٍ ومثيرةٍ للضَّحك.

كان سموكي من أولئك السُّجناء الذين يتمتَّعون بحسٍّ دعابةٍ قويٍّ، ولعلَّكم لاحظتم ذلك بأنفسكم، وإنَّني أتذكَّر الآن حادثةً كادت توقعه في مشكلةٍ خطيرة.

كنَّا قد خرجنا من مطحنة الجوت في الاستراحة الأولى بعد الظَّهيرة، ووجدنا الفناء العلويَّ خاليًا نسبيًّا من السُّجناء. اعتدنا أن نستغلَّ الاستراحة الأولى قدر الإمكان لنتمكَّن من إكمال مهامِّنا لاحقًا، وكان الفناء العلويُّ مكانًا ممتعًا لتمضية الوقت، وبعد ظهر ذلك اليوم بالتَّحديد رأينا سمكةً (سجينًا جديدًا) يسير من الحديقة إلى المكتب، ثمَّ تبع الحارس الصِّينيَّ إلى غرفة المراتب، ثمَّ صعد به هذا الأخير إلى أحد العنابر ليريه زنزانته، وكعادته، قام سموكي بتحليل الوافد الجديد بمجرَّد مروره أمامنا.

«لقد أسقطته شاحنة التَّبغ عند البوَّابة الأماميَّة، ولكنَّه يبدو بائسًا ولطيفًا. أراهن على أنَّ القاضي قد حكم عليه بعشر سنوات، أو نحو ذلك. دعنا ننتظر حتى يكون وحده في الأسفل، وسنرى إن كان بإمكاننا أن نهوِّن عليه أمره».

عندئذٍ ظهر الحارس الصِّينيُّ مرَّةً أخرى، وخلفه السَّجين الجديد، وتوقَّفا على مقربةٍ منَّا، وكان الحارس الصِّينيُّ يلقِّنه بقيَّة التَّعليمات:

«لا تنس... يجب أن تعود إلى الزِّنزانة عندما يُقرع الجرس، لا تتأخَّر، إذا تأخَّرت ولم تكن في الزِّنزانة وقت إحصاء المساجين فسوف نرسلك إلى السِّجن الانفراديِّ».

لطالما تساءلت عن سبب وضع رجلٍ صينيٍّ كدليلٍ للسُّجناء الجدد، فهو لا يتحدَّث بلهجةٍ مفهومةٍ ويجد أغلب السُّجناء صعوبةً في فهم ما يقصده.

عندما ابتعد الحارس الصِّينيُّ، اقتربت مع سموكي من الرَّجل الجديد، أو بالأحرى الصَّبيِّ الجديد. كان أوَّل شيءٍ لاحظته هو أنَّه لم يُرسَل إلى غرفة الحلاقة. لم تكن هناك حاجةٌ إلى ذلك، فقد كان وجهه ناعمًا وخاليًا من الشَّعر كوجه فتاةٍ صغيرةٍ، ولاحظت من الزَّاوية اليمنى أنَّ عينيه كبيرتان وواسعتان، ولكن خاليتان من أيِّ تعبير. ذكَّرتني عيناه بعيون البقر، ولكنَّ جسده كان ضخمًا كجسد رجلٍ يبلغ طوله ستَّة أقدام، وكانت ثياب السِّجن لا تتَّسع لجسدٍ كجسده، ولذلك كان يتحرَّك بصعوبةٍ لا سيَّما وأنَّ قدميه الضَّخمتين لم يكن يسعهما الحذاء الذي كان ينتعله، وعندما تحدَّث إليه سموكي التفت إليه بطريقةٍ شبه خائفة.

قال له سموكي وهو يقلب كفَّه: «دعنا نرى هذه اليد المباركة... كما توقَّعت، إنَّها يد مزارعٍ يعمل في حقول الذُّرة».

أظهرت كفُّ الصَّبيِّ أنَّه قضى ردحًا طويلًا ومنهكًا في العمل.

سأله سموكي: «هل عملت في الحراثة سابقًا؟».

أجابه الصَّبيُّ: «نعم، لقد بدأت العمل في المزرعة أوَّل ما تعلَّمت المشي».

«لماذا ألقت بك الحياة هنا؟».

«أوه، لقد سرقت مجموعةً من الأسواط الخاصَّة بمزرعة جونز. أردت أن آخذها لرجلٍ يعمل في سيرك «سنيثيا بيل» في أوروفيلي. لم أكن أمتلك المال لشراء أسواطٍ جديدةٍ. كنت قد أنفقت كلَّ نقودي في السُّوق قبل أسبوعين،

لذلك تسلَّلت إلى مزرعة جونز، وأخذت مجموعةً جيِّدةً من الأسواط. أخبرني بيل ستارشلي أنَّ هناك شخصًا يعرفه في أوروفيلي يرغب في شراء الأسواط وما شابهها من أدوات السِّيرك، ولكن عندما ذهبت إلى هناك، اعتقلتني الشُّرطة قبل أن أحصل على ثمنها».

سأله سموكي: «بم حكموا عليك؟».

قال الصَّبيُّ بنبرةٍ تنمُّ عن الضَّجر: «قالوا إنَّه سطوٌ من الدَّرجة الأولى، وحكموا عليَّ باثنتي عشرة سنةً، بينما حكموا على رجل السِّيرك بإحدى عشرة سنة».

قال سموكي بهدوء: «حسنًا، إنَّ ما تمرُّ به أمرٌ صعبٌ أيُّها الفتى، ولكنَّك لن تكون وحيدًا هنا. خذ نصيحتي، لا تفكِّر كثيرًا بالسَّنوات التي بقيت لك. أعتقد أنَّك ستخرج قبل سنتين أو ثلاث من انتهاء محكوميَّتك. هناك الكثير من السُّجناء المحكومين هنا بسنين طويلةٍ، وأنت تنظر الآن إلى اثنين من السُّجناء القديمين في السِّجن».

نظر إليَّ سموكي، وغمز لي بمرح.

«حسنًا يا رفيقي، أرني ماذا بداخل هذا الكيس».

أجاب الصَّبيُّ: «إنَّها ملابس إضافيَّة».

«أريد أن أطمئنَّ إلى أنَّك حصلت على جميع مخصَّصاتك. هل أعطوك ملاءةً ومنشفةً وفرشاة شعر؟».

قاطعه الصَّبيُّ: «لم أحصل على ملاءاتٍ. لقد أعطوني هذا الكيس فحسب».

صاح سموكي متعجِّبًا: «لم تحصل على أيِّ ملاءةٍ! هذا لا يصدَّق! هل أنت متأكِّد؟».

أجاب الصَّبيُّ: «أجل، لم يعطوني أيًّا منها».

استدار إليَّ سموكي وسألني: «هل تفكِّر بما أفكِّر به؟ لا بدَّ أنَّ اللُّصوص الذين يعملون في غرف التَّخزين قد سرقوا حصَّتك من المخصَّصات، يا لهم من أوغاد عديمي الضَّمير، كيف لهم أن يفعلوا ذلك بصبيٍّ محكومٍ باثنتي عشرة سنة!».

عاد إلى الصَّبيِّ مرَّةً أخرى، وقال:

«هل ترى ذلك الرَّجل العجوز الذي يمشي صعودًا وهبوطًا ويضع القفَّازات في جيبيه الخلفيَّين؟ حسنًا، هذا هو العقيد، وهو أفضل شخصٍ يمكن أن يأخذ لك حقَّك. اذهب إليه وأخبره أنَّ اللُّصوص قد أخذوا مخصَّصاتك، وسيلقِّنهم درسًا لن ينسوه أبدًا».

اعترض الصَّبيُّ: «لكنَّني لا أريد أن أوقع أيَّ شخص في المشاكل».

وأوضح أنَّه يرغب في استعادة مخصَّصاته دون أن يُلحق الأذى بالآخرين.

«أوه، لا تقلق يا فتى، لن يُلحق العقيد الأذى بهم. سيأخذ منهم مخصَّصاتك، وسيقولون له إنَّهم أخذوها من دون قصد. لا داعي للقلق عليهم، هيَّا، اذهب إليه الآن، وتأكَّد أنَّني لا أنصحك لتقوم بشيءٍ خاطئٍ أبدًا».

تردَّد الصَّبيُّ لحظةً ثمَّ ذهب إلى مكتب العقيد.

من الجدير بالذِّكر أنَّ الملاءات لا تُمنح عادةً للسُّجناء، فكلُّ ما يحصلون عليه هو مرتبةٌ من القشِّ، وبضع بطَّانيَّات.

ضحك سموكي وهو يمسك ذراعي: «تعال معي لنرى السِّيرك الحقيقيَّ. إذا ذهبنا إلى تحت السَّقيفة فستتمكَّن من رؤية كلِّ شيء».

ثمَّ أردف قائلًا: «لقد كرهت أن أرى ذلك المزارع يتعرَّض للاحتيال، ولكنَّه كان مسالمًا جدًّا ولم أستطع منع نفسي من مساعدته. سوف يتولَّى جوني أمره بشكلٍ منصف».

في ذلك الوقت كان النَّقيب رجلًا عجوزًا، ومن المحتمل أنَّه أمضى معظم

سنوات حياته في السِّجن، ولكنَّه كان يُعرف بحكمته وعدالته، وقد تصدَّى لكلِّ حوادث السَّرقة التي حصلت داخل السِّجن، ومثل جميع ضبَّاط السِّجن، كان له لقبٌ يميِّزه عن الآخرين، وذلك اللَّقب كان «جوني». كان من اللَّافت في شخصيَّته تمسُّكه دائمًا بأحكامه المسبقة، فإذا قابل سجينًا وأخذ انطباعًا جيِّدًا عنه فضَّله على الجميع، وبالمثل، إذا كره رجلًا معيَّنًا، فإنَّه لا يفوِّت فرصةً لتوبيخه أو معاقبته، ومع تبدُّل إدارات السِّجن على مدى السَّنوات بقي هو مسؤولًا عن الفناء، أمَّا مسؤول الفناء الحالي فهو تلميذه الذي كان ملازمًا له على الدَّوام.

عندما اقترب السَّجين الجديد من عتبة المكتب رآه النَّقيب وتوقَّف عن السَّير. لم يستطع سموكي تمالك نفسه. «سحقًا، لن أتمكَّن من سماعهما، ولكنَّ (جاك السَّعيد) يقف عند المدخل، سوف يسمعهما وأسأله ما حدث هذه اللَّيلة، سوف يسمعهما، سنكتشف ذلك اللَّيلة».

بقي النَّقيب والصَّبيُّ يتحدَّثان لعدَّة دقائق، وكنَّا ننظر إليهما ونحن جالسَين القرفصاء في الأسفل، وسرعان ما ذهبا إلى غرفة الملابس معًا، وأحسَّ سموكي بالقلق حيال ذلك الأمر.

تمتم قائلًا: «تبًّا، أرجو ألَّا يضعه في السِّجن الانفراديِّ. إذا بدأ علاقته بالنَّقيب على هذا النَّحو فإنَّه لن ينجو من سوء العواقب».

ولكن عندما خرج الصَّبيُّ من غرفة الملابس لم يلتفت إلى الطَّريق المؤدِّي إلى الزِّنزانة، وخرج النَّقيب وتحدَّث معه قليلًا، ثمَّ نزل الصَّبيُّ إلى الفناء حيث كنَّا ننتظره، وكان يحمل شيئًا أبيض تحت ذراعه.

فجأةً غرق سموكي في نوبةٍ من الضَّحك، وذلك النَّوع من الضَّحكات النَّابعة من القلب يسعدني جدًّا.

قال لي: «ما رأيك في هذا يا رفيقي؟ أراهنك على أنَّ العقيد قد حلَّ مسألته على الفور».

اقترب الصَّبيُّ منَّا، وهرع سموكي إليه.

قال له بنبرةٍ سعيدةٍ: «جميل! أرى أنَّك حصلت على ملاءاتٍ جديدة، ولكن ماذا جرى بينكما؟».

«أوه، لقد سألني الكثير من الأسئلة. قلت له إنَّ رجلًا طيِّب القلب قد أرسلني إليك لأحصل على ملاءاتٍ جديدة. سألني من يكون ذلك الرَّجل، فأخبرته أنَّني لا أعرفه، ولكنَّه أراد أن أصفه له، وهكذا...».

قاطعه سموكي: «هل أخبرته عنِّي؟».

«أجل، عندما أخبرته عنك، حكَّ رأسه ونظر إليَّ مليًّا ثمَّ أخذني إلى غرفة الملابس وأعطاني الملاءات، وبعد أن خرجنا قال لي: «كن حذرًا مع من تحدَّثت»، ثمَّ قال: «انتبه جيِّدًا، لا تفقد هذه الملاءات، وعندما تعود إلى الفناء أخبر صاحب القلب الطَّيِّب أن يأتي للتَّحدُّث معي»».

كان سموكي ما يزال يضحك من هذه الدَّعوة المفاجئة حتى جاء حارسٌ ليقبض عليه.

أمسك الحارس ذراعي ونظر إلى الصَّبيِّ قائلًا: «هل تدخَّل هذا الرَّجل أيضًا وأخبرك بأنَّك يجب أن تحصل على ملاءاتٍ جديدة؟».

«كلَّا، لم يقل أيَّ شيء»، ثمَّ سأله بنبرةٍ حائرة: «ما المشكلة؟».

أجابه الحارس: «أوه، لاشي، في حالة كهذه سيقضي الواشي حسب علمي ليلةً أو ليلتين في السِّجن الانفراديِّ».

وعلى الرَّغم من مأزقه انفجر سموكي ضاحكًا، ثمَّ قال:

«حسنًا، هذا مثيرٌ للسُّخرية حقًّا. في المرَّة القادمة عندما أرى سجينًا جديدًا بلا ملاءاتٍ لن أتحدَّث معه. لا مزيد من الأعمال الخيريَّة للعمِّ سموكي».

بقلقٍ شديدٍ، وقفت أشاهد تطوُّرات الاستدعاء عندما وصل سموكي برفقة

الحارس إلى شرفة مكتب النَّقيب. رأيتهما وهما يجريان محادثةً طويلةً للغاية تخلَّلتها إيماءاتٌ وتعابير متفاوتة الحدَّة، وسرعان ما بدأت الأمور تأخذ منحىً وديًّا، إلى أن حيَّا سموكي النَّقيب وعاد إلى الفناء.

هتف وهو يقترب منَّا: «حسنًا، لقد تحدَّثت معه كعجوزٍ هولنديٍّ، ولكنَّني أفحمته. في البداية كان غاضبًا جدًّا وأخبرني أنَّه سيضعني في السِّجن الانفراديِّ طوال اللَّيل، ولكنَّني كنت أعرف أنَّه يتمتَّع بحسِّ الفكاهة، وإلَّا ما كنت لأمزح معه مطلقًا، وبعد أن تمازحنا سمح لي بالرَّحيل، الشَّيء الوحيد الذي أشعر بالأسف له هو أنَّني لم أطلب منه زوجًا جديدًا من الملاءات قبل مغادرتي».

في صباح أحد الأيَّام، وقعت حادثةٌ طريفةٌ عندما كنَّا مصطفِّين لتناول الإفطار. يتشكَّل الطَّابور عند إطلاق صافرة الشُّرطة قبل دقائق من موعد الوجبة، وبسبب ضيق الفناء، يكون شكل الطَّابور ملتويًا. جزءٌ من الرِّجال كانوا تحت السَّقيفة، بينما وقفت الغالبيَّة العظمى في العراء، وكان الطَّقس حارًّا جدًّا في ذلك اليوم، وبعد أن اكتمل الطَّابور، أخذت مياه الدُّشِّ بالتَّدفُّق بشكلٍ مفاجئٍ، وأولئك الذين كانوا تحت السَّقيفة لم ينتظروا الإذن ليغادروا أماكنهم، بل ركضوا مسرعين هربًا من المياه.

كان هناك حارسٌ جديدٌ، قادمٌ حديثًا من المناطق الرِّيفيَّة شمالي الولاية، وكان واقفًا أعلى درج صالة الطَّعام عندما بدأت جموع السُّجناء بالاندفاع والهرب من الماء. لم يكن قد مضى على تولِّيه العمل سوى بضعة أيَّام، وكأغلب الحرَّاس الجدد، كان يتخيَّلنا مجموعةً من السَّفَّاحين القتلة، ولكن لم يمض وقتٌ طويلٌ حتى عرفنا على حقيقتنا.

عندما رأى ذلك الحشد من المساجين الذين يرتدون الملابس المخطَّطة يفضُّون الصُّفوف ويتدافعون هاربين من السَّقيفة باتِّجاهه، وقف بمكانه

مشدوهًا، وتراجع إلى الخلف، ولعلَّه تبنَّى وجهة النَّظر التي تقول: «من الأفضل أن تكون جبانًا حيًّا على أن تكون حارسًا ميّتًا»، ثمَّ ألقى عصاه على السَّفَّاحين المتقدِّمين، على أمل أن تكون عصاه لقمةً تلجم تعطُّشهم الغاضب إلى الدِّماء، ثمَّ صعد الأدراج متَّجهًا إلى صالة الطَّعام.

لاحظ أحد السُّجناء في الأسفل خوفه وأراد أن يسخر من تصرُّفه، فصرخ بأعلى صوتٍ:

«ها هو ذا! اقترب منه! غافله من وراء ظهره، واضربه بقوَّة!».

خدمت هذه الملاحظة الطَّريفة الغرض المطلوب منها، وألقى الحارس الهارب نظرةً بائسةً خلفه ثمَّ ركض وقفز بخطواتٍ متباعدةٍ إلى أن دخل صالة الطَّعام. رآه الحرَّاس المناوبون هناك وحاولوا منعه، ولكنَّه تجاهلهم. من الواضح أنَّه كان متيقِّنًا من حدوث عصيان، لأنَّه صرخ بكلِّ الحرّاس الذين قابلهم: «لقد تمرَّد السُّجناء».

وبعد خروجه من صالة الطَّعام انزلق إلى نهاية الدَّرج الآخر بأربع قفزاتٍ، واندفع راكضًا نحو حديقة الزُّهور، ومنها إلى البوَّابة الأماميَّة. كانت تلك المرَّةَ الوحيدةَ التي شهدت فيها محاولةً ناجحةً للهرب من السِّجن. سرعان ما عاد الحارس وسلَّم نفسه لمأمور السِّجن، ولكنَّ المأمور رفض استقباله. كان الحرَّاس منفعلين جدًّا بسبب إنذار التَّمرُّد الذي أعلنه الحارس الهارب، فاندفعوا مسرعين إلى الفناء متخيِّلين أنَّهم سيخوضون معركةً ستنتهي إمَّا بحياتهم وإمَّا بموتهم، ولكنَّهم وجدوا السُّجناء محتشدين تحت السَّقيفة يراقبون المياه المتدفِّقة كالمطر. تطلَّب الأمر قدرًا كبيرًا من الشَّرح لتصويب الأمر، وعندما اتَّضحت الصُّورة لهم، غرقنا جميعًا في الضَّحك.

في معرض الكتابة عن الحرَّاس أريد أن أقول إنَّ معظم الحرَّاس الذين قابلتهم في سجن سان كوينتين كانوا على درجةٍ عاليةٍ من العدالة والوعي،

وطبعًا كانت هناك استثناءاتٌ، ولكن أريد أن أتحدَّث الآن عن حارسٍ استغلَّ سلطته الممنوحة في إهانة السُّجناء، ويبدوا أنَّ ذلك الأمر كان يمنحه نوعًا من السَّعادة، ولم يحدث أن فوَّت ذلك الحارس أيَّ فرصةٍ لتوبيخ السُّجناء، وكان يستخدم أكثر الكلمات المسيئة في معجمه. ذات مرَّةٍ نادى السَّجينَ كوكي هانز قائلًا: «أيُّها البومة القذرة، إنَّك لم تقم أبدًا بعملٍ جيِّدٍ في حياتك. لم تكن سوى متشرِّدٍ قذرٍ في الخارج، أعرف ذلك جيِّدًا، وتقول عن نفسك إنَّك سارق؟ هاه! لا يمكنك أن تنتشل نيكلًا من القمامة».

كان كوكي يعمل في جمع أكياس الجوت، وكان رجلًا مجتهدًا في عمله، ولم يفعل شيئًا يستحقُّ بسببه أن يصرخ عليه الحارس بهذه الطَّريقة، كما كان معروفًا بمكانته كسارقٍ محترفٍ، ولذلك عندما سخر الحارس من براعته كلصٍّ، شعر كوكي بالإهانة، فلا شيء يؤذي السَّارق سوى الاستهزاء ببراعته. ذلك أشبه بأن تخبر شخصًا ذكيًّا بأنَّه غبيٌّ. فكَّر كوكي بأن يردَّ الإهانة وينتقم منه، وفي ظهيرة ذلك اليوم ذهب إلى عمله وقد بدا عليه النَّشاط والحماس، ولوحظ أيضًا أنَّه كان يعامل الحارس الذي أهانه باحترامٍ شديدٍ، لدرجة أنَّه توجَّه إليه ليطلب المشورة منه، وفي أثناء عمله لم يلفت كوكي انتباه أحد، ولكن قبل ساعةٍ من انتهاء العمل حصل كوكي على إذنٍ بالتَّوجُّه إلى مشرف العمَّال، وعندما خرج من عنده صاح ساخرًا من الحارس بأعلى صوتٍ، وقرَّر الحارس أن يعاقبه على ذلك فقال له:

«تعال معي، سألقِّنك درسًا لن تنساه».

لم يُبد كوكي أيَّ اعتراضٍ، ورافق الحارس بخضوعٍ إلى مكتب المشرف، وعندما وصلا إلى هناك سجَّل الحارس شكوى ضدَّه وقال للمشرف:

«إنَّ هذا السَّجين يستفزُّني دائمًا وينظر إليَّ باحتقار».

سأله المشرف: «ولكن ألم تنعته بالمتشرِّد هذا الصَّباح؟ ألم تقل له إنَّه ليس لصًّا بارعًا؟».

«لقد قلت ذلك بالفعل، ما المشكلة في ذلك؟».

قال المشرف: «لا يحقُّ لك ولا لأيِّ رجلٍ آخر أن يتحدَّث بهذه الطَّريقة إلى السُّجناء. إنَّك كمن يعتدي على امرئٍ يداه مقيَّدتان وراء ظهره. هل تظنُّ أنَّك ستنجو من العقاب إذا تحدَّثت إلى رجلٍ بهذه الطَّريقة؟».

«أوه بالطَّبع! لماذا تقف في صفِّ هذا المحتال بدلًا من الوقوف في صفِّ زميلك؟ حسنًا، سأذهب لأُطلع المأمور على هذا الأمر».

«عظيمٌ جدًّا، وفي أثناء ذهابك لرؤيته، قد يلزمك أن تتفقَّد ساعتك ومحفظتك».

سأله الحارس: «ساعتي ومحفظتي؟ ماذا تقصد؟».

وفي أثناء طرحه ذلك السُّؤال، كانت يداه تتفقَّدان جيوبه ومعصمه، واكتشف أنَّه قد تعرَّض للسَّرقة.

صرخ قائلًا: «لقد اختفتا! لقد اختفت ساعتي ومحفظتي!».

ابتسم المشرف: «إذا ذهبت إلى المأمور اطلب منه أن يبحث عنهما، طالما أنَّك ترغب في تجاوز مشرفك».

كان هذا الاقتراح كافٍ لإثارة فضول الحارس، فبادره بالسُّؤال:

«ماذا تقصد يا سيِّد (ب)؟ من المؤكَّد أنَّك كنت تعرف بأمر سرقة ساعتي ومحفظتي، هل تعرف أين أجدهما؟».

سأله المشرف: «كم كان في محفظتك من مال؟».

«لا أعرف بالضَّبط، ولكن أظنُّ أنَّها كانت تحتوي على ثمانية عشر دولارًا تقريبًا، لماذا؟».

«أوه، لا شيء. افحص هذه فحسب وانظر إن كانت تحتوي على كلِّ شيء».

سحب المشرف يده من جيب معطفه، حيث كان يمسك بالمحفظة، وسلَّمها للحارس.

كان الرَّجل مندهشًا جدًّا لدرجة أنَّه عجز عن الكلام ووقف يبتلع ريقه ويقلِّب نظره بين الوجوه التي حوله.

وبعد أن تجاوز دهشته على نحوٍ كافٍ قال: «إنَّني ممتنٌّ لك كثيرًا يا سيِّد (ب) ولكن كيف حصلت عليهما بحقِّ السَّماء؟ لقد ظننت أنَّ أحد المحتالين سرقهما منِّي، وأنَّني لن أسترجعهما أبدًا!».

«ألا يمكنك تخمين ما حصل؟».

بدا الحارس في حيرةٍ من أمره، ثمَّ استقرَّت عيناه بدهشةٍ على كوكي.

قال المشرف: «أجل، لقد نشلهما كوكي منك. يمكنني الإبلاغ عنه وزجُّه في السِّجن الانفراديِّ، وبالطَّبع يمكنك فعل ذلك بنفسك إذا أردت، ولكن لو كنت مكانك لعددت الأمر منتهيًا هنا وحرصت على معاملة الرِّجال بطريقةٍ أفضل من الآن فصاعدًا. لقد كنت أكثر الحرَّاس تسبُّبًا في المشاكل في هذه المطحنة، ولا أعتقد أنَّ سلوك السُّجناء الذين يعملون هنا أسوأ من سلوك السُّجناء الذين يعملون في الأقسام الأخرى».

ابتلع الحارس ريقه مرَّتين أو ثلاث مرَّاتٍ وهو يقاوم رغبته في الدِّفاع عن نفسه، وأخيرًا التفت إلى كوكي وقال:

«يبدو أنَّك لصٌّ محترفٌ فعلًا، وأنتم جميعًا على حقٍّ، سأرى إن كان بإمكاني أن أتعامل مع السُّجناء على نحوٍ أفضل من الآن فصاعدًا».

كانت هذه الحادثة جيِّدةً لدرجةٍ يصعب كتمانها، ففي الوقت الذي تعرَّض الحارس فيه لقدرٍ كبيرٍ من الغضب، حاول أن يتعامل مع الموقف بلطفٍ شديدٍ، ومنذ ذلك اليوم وهو يعامل كوكي كصديقٍ له، وعندما خرج كوكي من السِّجن ساعده في الحصول على منصبٍ في إحدى البواخر التي تُبحر إلى أستراليا، حيث تعود جذوره.

هذه الحادثة لا تخلو من العبر، وبالنِّسبة إلى ذلك الحارس، فقد بذل جهدًا كبيرًا ليعامل السُّجناء باحترامٍ وتقدير، وأصبح ودودًا مع جميع السُّجناء منذ ذلك اليوم.

كان سموكي معتادًا على القدوم إلى الزِّنزانة مع كيسٍ جديدٍ من التَّبغ كلَّ ليلة، وكنت في كثيرٍ من الأحيان أتساءل من أين حصل عليه. يحصل السُّجناء على حصَّةٍ أسبوعيَّةٍ من التَّبغ الرَّخيص، ويُسمح لهم بشراء كمِّيَّةٍ محدودةٍ عن طريق مكاتب البيع في حال كان لديهم رصيدٌ من المال في حساباتهم. ولكنَّ التَّبغ المعروض لا يوجد منه نوعٌ آخر، والحصول على نوعٍ مختلفٍ من التَّبغ يُعَدُّ انتهاكًا للقوانين، ومع أنَّني كنت أتساءل عن طريقة حصول سموكي على ذلك النَّوع المختلف من التَّبغ، إلَّا أنَّني لم أجرؤ يومًا على سؤاله. فهذه هي الجريمة الوحيدة التي لا تُغتفَر في السِّجن. لا يمكنك أن تسأل رجلًا آخر: «من أين لك هذا؟»، خاصَّةً عندما يتقاسم تلك الممنوعات معك.

ولكن ذات ليلةٍ أخبرني سموكي من تلقاء نفسه من أين كان يحصل على هذا التَّبغ.

بدأ حديثه قائلًا: «حدث شيءٌ مضحكٌ في المطحنة اليوم. من المؤكَّد أنَّك كنت تتساءل عن كيفيَّة حصولي على هذا النَّوع من التَّبغ. حسنًا، تموت الأوزَّة عندما يعرف أحدٌ أنَّها وضعت بيضةً ذهبيَّةً، وقد حدثت بعض التَّطوُّرات الجديدة اليوم».

سألني: «أنت تعرف جيم، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي، فقد كنت أعرف ذلك الحارس. كان رجلًا ضخمًا ورحيمًا.

«حسنًا، اعتاد جيم وضع التَّبغ الخاصِّ به في الجيب الجانبيِّ من معطفه، وقد اعتدتُ أن أسرق ذلك التَّبغ مرَّتين أو ثلاث مرَّاتٍ في الأسبوع. كثيرًا ما كنت أتساءل عن سبب تهاونه في معرفة من يكون سارقه، فقد كان يأتي كلَّ صباحٍ إلى المطحنة وجيبه ممتلئٌ بالتَّبغ، وفي المساء يكون قد اختفى.

«ولكن يبدو أنَّه لم يكن فطنًا على الإطلاق، ففي كلِّ صباحٍ كان يحصل على كيس تبغٍ جديدٍ عوضًا عن الكيس الذي فقده بالأمس. أنا مقرَّبٌ منه كما تعلم، وكانت سرقته في البداية تؤنِّب ضميري، ولكن بعد فترةٍ من الوقت، أصبحت أشعر بأنَّني أستحقُّ تلك الأكياس. إنَّه يتركها في جيبه طوال الصَّباح ولا ينتبه إلى ضياعها حتى نهاية اليوم، ولكنَّ الأمر اختلف الآن. لقد قرَّرت أن أنسحب من هذه اللُّعبة.

«في صباح هذا اليوم جاء جيم إليَّ وقال:

«أتعرف يا سموكي. لقد انتبهت لتوِّي لأمرٍ ما. هناك من ينشل التَّبغ الخاصَّ بي. كنت أتساءل دائمًا أين يذهب كلُّ ذلك التَّبغ. أنا أعلم أنَّني لم أكن أدخِّنه، ولكن لم أعتقد أبدًا أنَّني كنت أتعرَّض للسَّرقة طوال ذلك الوقت. بالأمس قمت بحيلةٍ لأتأكَّد من صحَّة ظنوني. دخلت المصنع مع كيسٍ جديدٍ ووضعته في جيب بنطالي عن قصدٍ، وعند الظَّهيرة وجدته قد اختفى. لم ألبس معطفي طوال الصَّباح، لذلك توقَّعت ألَّا يسرقني أحد. لا أريد أن أوقع أحدًا في مشكلة، ولكن أريد أن أعرف من يكون ذلك السَّارق. إنَّني أفكِّر الآن بخطَّةٍ جديدةٍ وجيِّدة».

«طبعًا كنت أستمع إليه بتعاطفٍ شديدٍ، وقلت له إنَّ السَّرقة شيءٌ مخزٍ ومقزِّز، وما إلى ذلك، ثمَّ سألته عن خطَّته.

«حسنًا، سأضع هذا الكيس الجديد في جيب معطفي وأترك الخيط معلَّقًا حتى يتمكَّن الجميع من رؤيته، ولديَّ دبُّوس أمانٍ معلَّقٌ في نهاية الخيط. سنقوم بتثبيت الخيط ببطانة الجيب، وبالطَّبع عندما يحاول الرَّجل سرقة الكيس، سيُكشَف أمره وسأعرف من يكون».

«جيِّد! سيقع السَّارق المغفَّل في شرِّ أعماله. من المؤكَّد أنَّك ستمسك به بهذه الطَّريقة!»، كنت أتظاهر بالتَّحمُّس لخطَّته، بينما لم أتوقَّف عن السُّخرية منه في سرِّي.

«حسنًا، الجزء المضحك في الأمر هو أنّني ساعدته في تثبيت كيس التّبغ في جيبه. ولكن بدلًا من تثبيت الكيس نفسه، قمت بتثبيت الخيط، وتركت النّهاية معلّقةً حتى يتمكّن الجميع من رؤيتها. كان سعيدًا بهذا الإنجاز، وعندما انتهيت، وضع يده لأسفل، وشعر بالكيس، ثمَّ بدأ بالمشي صعودًا وهبوطًا في الممرّ، وكان بين الحين والآخر يقف بالقرب من الأنوال ويقلب جيبه الجانبيّ تجاه الرَّجل الذي يقف بجانبه وينظر في الاتّجاه الآخر ثمَّ يعود إلى الممرّ ويلقي نظرةً جانبيَّةً لأسفل ليرى إن كان الخيط ما يزال موجودًا.

«كانت التَّمثيليَّة متقنةً جدًّا بحيث لم أستطع العمل عليها وحدي، لذلك قمت بإعلام أفراد عصابتي بالأمر، وتظاهر الجميع بأنّهم مستغرقون في العمل، ولكنّهم كانوا متيقّظين جدًّا لجميع تصرُّفات جيم. لقد أثار إعجابي جدًّا، فقد كان يقترب من الرِّجال ويحتكّ بهم أحيانًا، ويصطدم بهم أحيانًا أخرى، ثمَّ ينظر في الاتّجاه الآخر، ويترك معطفه مفتوحًا ناحيةَ الجيب، ثمَّ يبتعد قليلًا وينظر إلى جيبه ليتأكّد من وجود الخيط، واستمرَّ على هذا المنوال لمدَّة ساعتين، وبدأت ألاحظ ملامح اليأس على وجهه. عادةً يكره المرء أن يتعرَّض للسَّرقة، ولكنَّ جيم كان متلهّفًا إلى رؤية ذلك. كنت أخشى أن يقوم أحد أعضاء العصابة المغفّلين بسرقته، ولكنّهم التزموا بالخطّة، وفي حوالي السَّاعة الحادية عشرة صباحًا ذهبت إلى مغزل روجي سميث وأخبرته أن ينتهز الفرصة عندما يمرُّ جيم بالقرب منه، وسرعان ما توقَّف جيم بجوار روجي ونظر حوله، ثمَّ نظر إلى السَّقف، وأدخل روجي مقصَّ النَّول في جيبه وقطع الخيط المعلّق بالدَّبُّوس، وأخرج كيس التَّبغ دون أن يشعر جيم بشيء. «إنَّه يومٌ جميلٌ، أليس كذلك يا جيم؟»، قال روجي ثمَّ استدار إلى مغزله وواصل عمله.

«استمرَّ جيم في التَّردُّد بين العمال لبضعة دقائق ثمَّ غادر المغزل، وعندما وصل إلى الممرّ نظر إلى الأسفل، وكان الخيط ما يزال هناك. بالطَّبع كنَّا

جميعًا نعرف ما حدث، وكنَّا نراقبه على أمل أن يضع يده في جيبه ويتحسَّس الكيس، ولكنَّه لم يفعل ذلك. أعتقد أنَّه كان شارد الذِّهن آنذاك، وسرعان ما عاد إلى المغزل وأعاد الكرَّة مرَّةً أخرى مقلِّبًا عصاه ومُصدرًا صفيرًا بشفتيه حتى يبدو طبيعيًّا، ثمَّ فجأةً وضع يده على جيبه وتحسَّس مكان الكيس.

«أتعرف؟ كم أتمنَّى لو أنَّك رأيت تلك النَّظرة على وجهه عندما اكتشف الأمر، ولكنَّني أدين له بالفضل في استخدام عقله. توقَّف جيم في مكانه وابتسم لنفسه ثمَّ مضى في طريقه. كان يأمل أن يقلِّد حركات المهرِّج، ويقلب جيبه من الدَّاخل إلى الخارج، ولكنَّه لم يفعل، وسرعان ما وصل إلى مكان عملي، وتظاهرت بأنَّني أعمل بجدٍّ كما لو كنت سأتقاضى أجرًا على ذلك.

«أخبرني يا سموكي، كم تبقَّى على محكوميَّتك؟».

«ثلاثة عشر شهرًا، لماذا؟»

«حسنًا، سأترك عملي عندما تخرج من السِّجن، وسنفتح معاً مكتبًا للتَّحرِّيات. من المؤكَّد أنَّنا عندما سنبدع في عملٍ كهذا، سوف تحصل على دعمٍ من شارلوك هولمز شخصيًّا».

قلت له مدَّعيًا البراءة: «كيف ذلك؟».

ثمَّ أخذني إلى ركنٍ منزوٍ، وأراني الخيط المقطوع. نظرت إليه عن قربٍ، ثم نظرت إلى جيم وقلت:

«يبدو أنَّ أحد السُّجناء قد قطعه بمقصِّ النَّول، يجب أن تخبر واطسون[1] بذلك على الفور، ولكن لا تخبر الشُّرطة عن الأمر مهما حدث. سأرسل برقيَّةً عاجلةً إلى باريس، وسنذهب بأقرب رحلةٍ إلى المدينة».

«استغرق جيم وقتًا طويلًا حتى فهم النُّكتة، وبعد رحيله ذهبت إلى روجي

---

(1) دكتور واطسون: شريك شارلوك هولمز المقرَّب.

وأخذت منه كيس التَّبغ ثمَّ أعدته إلى جيم بعد الظُّهر. سألني: «من أين حصلت عليه؟»

قلت: «لا تهتمَّ بذلك، ولكنَّني أضمن لك أنَّك لن تتعرَّض للسَّرقة بعد الآن».

«كنت قد أخبرت أفراد العصابة بأن يتركوا التَّبغ الخاصَّ بجيم وشأنه، لذا فإنَّ مسؤوليَّة البحث عن مصادر جديدةٍ للتَّبغ ستقع على كاهلي الآن».

بينما كان سموكي يحدِّثنا بهذه الحكاية سمعت صوت صافرةٍ بدت وكأنَّها صافرة قارب، وبمجرَّد أن انتهى سألته عنها.

«هل سمعت تلك الصَّافرة قبل بضع دقائق يا سموكي؟ لقد سمعتها عدَّة مرَّاتٍ هذا المساء. ما الأمر؟».

أجابني سموكي: «أوه، ألم يخبرك أحدٌ عنها؟ هذه صافرة كارولين، القارب الذي يجلب الفاصولياء وجميع الأشياء التي نحصل عليها. الرَّجل الذي يملكه هو الكابتن لوي، ألم تسمع عنه من قبل؟ إنَّه يقوم بالكثير من الأعمال لأجلنا، وعندما يخرج السُّجناء المزارعون من السِّجن يستقبلهم في مزرعته ليعملوا فيها. ألا تتذكَّر الفاكهة الطَّازجة التي تناولناها خمس أو ستَّ مرَّاتٍ في الصَّيف الماضي؟ حسنًا، هو من أحضرها. كان يحصل عليها من تجَّار الجملة في ليالي السَّبت قبل أن تفسد في أيَّام الاثنين. إنَّه أفضل رجلٍ يمكن أن تتعرَّف عليه، ولكنَّ ما يثير إعجابي هو رغبته المتواصلة في المساعدة، مع أنَّه قد تعرَّض للخيانة من قِبَل عشرين سجينًا على الأقلِّ، ومع ذلك استمرَّ في مساعدة أيِّ سجينٍ محرَّرٍ يلجأ إليه. إنَّها تقارب التَّاسعة الآن، وسيتوقَّف صوت الصَّافرة عمَّا قليل. دعنا نخلد إلى النَّوم الآن. سأخبرك المزيد عن الكابتن لوي في وقتٍ لاحق. أتساءل كيف حال الصَّبيِّ المسكين الآن. كان يحبُّ أن يستمع إلى قصصي مع جيم. كان سينفجر ضاحكًا لو سمع بما حصل».

الفصل الرَّابـع عشر

بعد ثمانية عشر شهرًا من عملي في مطحنة الجوت تمَّ استدعائي في صباح أحد الأيَّام وإرسالي إلى غرفة الملابس لأباشر العمل فيها. إلى هذه الغرفة يدخل السُّجناء أوَّل قدومهم إلى السِّجن، كما تكون هذه الغرفة آخر محطَّةٍ لهم قبل خروجهم منه، وفي كلتا الحالتين يتمُّ توفير الملابس اللَّازمة لهم، وهذه كانت مهمَّتي، والتي كانت أيضًا مفاجئةً لي، فأنا لم أطلب يومًا من إدارة السِّجن أن يغيِّروا عملي، ليس لأنَّني لم أرغب في ذلك، ولكن لأنَّني لم أفكِّر في إمكانيَّة الحصول على فرصةٍ كهذه، لا سيَّما وأنَّ هناك الكثير من السُّجناء ممَّن قضوا فترةً أطول منِّي في السِّجن، وكانوا أكثر استحقاقًا لها منِّي. كنت أعرف عشرات الرِّجال الذين عملوا في مطحنة الجوت عامًا بعد عام، وبعضهم استمرَّ في العمل لعشر سنواتٍ أو اثنتي عشرة سنة، ولم يحصل أيٌّ منهم على عملٍ مختلف.

من النَّاحية النَّظريَّة، من المفترض أن يحصل الرَّجل على وظيفةٍ جديدةٍ بعد أن يقضي عددًا من السَّنوات في السِّجن ويقدِّم خدمةً مخلصةً في مطحنة الجوت، ويكون سجلُّه نظيفًا، ولكن لا يبدو أنَّ الأقدميَّة لها أهمِّيَّةٌ معتبرةٌ هذه الأيَّام، فتوزيع الأعمال يتمُّ عن طريق الاختيار العشوائيِّ، وهناك بعض السُّجناء الذين اختيروا عشوائيًّا قبل أن يدخلوا مطحنة الجوت في الأساس، وعُيِّنوا في صالات الطَّعام أو غيرها من الوظائف (النَّاعمة). إنَّ هذا يؤدِّي بكلِّ تأكيدٍ إلى توليد الكثير من مشاعر الاستياء لدى السُّجناء الذين عملوا

بجدٍّ وإخلاصٍ لسنواتٍ طويلةٍ خاصَّةً عندما يرون سجينًا جديدًا يعمل بوظائف سهلةٍ ويُعامَل بدلالٍ من قِبَل المسؤولين.

في الوقت الحاضر يجب على كلِّ سجينٍ أن يقضي ستَّة أشهرٍ على الأقلِّ في مطحنة الجوت قبل أن ينتقل إلى أيِّ عملٍ جديد، وتُعطى الأولويَّة للسُّجناء القدماء كلَّما توفَّر شاغرٌ في عملٍ آخر، وهذا أقلُّ حقوقهم، ومن المؤكَّد أنَّ هذا القرار يحسِّن من انضباط السِّجن، فمجرَّد شعور السَّجين بأنَّ المسؤولين عادلين في قرارتهم يجعله يحترمهم ويثق بالقوانين التي يأمرونه بها، ولكن لا تخلو كلُّ قاعدةٍ من استثناء، فهناك بعض السُّجناء الذين يظنُّون أنَّهم يستحقُّون معاملةً أفضل من الآخرين، ويعدُّون العمل في مطحنة الجوت اضطهادًا قاسيًا لا يليق بأشخاصٍ مثلهم، ولكن ما دامت مطحنة الجوت موجودةً في السِّجن فإنَّه يجب على كلِّ سجينٍ أن يقوم بنصيبه من العمل فيها، إلَّا إذا كان مريضًا بالطَّبع.

في الوقت الذي عملت فيه في غرفة الملابس، كان هناك شابٌّ يُشرف عليَّ، وكان يدخِّن السَّجائر طوال اليوم ولا يتحدَّث إلَّا قليلًا. عرَّفني ذلك الشَّابُّ بطبيعة واجباتي مستخدمًا عباراتٍ موجزةً جدًّا. كان عليَّ أن أتذكَّر كلَّ أنواع الملابس التي تدخل الغرفة، وأقوم بتوزيعها على المساجين، وأن أبقى في الغرفة طوال اليوم.

«عليك أن تستيقظ قبل نصف ساعةٍ من قرع جرس الصَّباح، وسوف تنتقل إلى العنبر الثَّاني، ستكون في زنزانةٍ فرديَّةٍ وستتناول الطَّعام في صالة الطَّعام المخصَّصة لعنبرك».

كان هناك عددٌ من الامتيازات الأخرى التي حملتها تلك الوظيفة، والاختلاف بينها وبين طريقة عيشي السَّابقة كان ملحوظًا. كان الأمر أشبه بالحصول على إفراجٍ مشروط، ولكنَّني في الوقت نفسه شعرت بالحسرة

لترك سموكي ورفقاء الزِّنزانة الآخرين. صحيحٌ أنَّها كانت زنزانةً بائسةً وغير صحِّيَّة، وأشبه بدبَّابةٍ صغيرةٍ تحتجز أربع رجالٍ بداخلها، وصحيحٌ أنَّني كنت أعدُّ الزِّنزانة الفرديَّة امتيازًا عظيمًا، إلَّا أنَّني كنت قد اعتدت الحياة في زنزانتي السَّابقة، ولم أكن أبالي بكلِّ تلك الأمور السَّيِّئة التي كانت تحتويها.

ولكن عندما ذهبت إلى صالة الطَّعام الجديدة ظُهرَ ذلك اليوم، وتناولت الطَّعام المطهوَّ بعنايةٍ والمقدَّم على موائد مغطَّاة بالقماش، مع حصولنا على امتياز التَّحدُّث في أثناء تناول الطَّعام، لم أستطع منع نفسي من الشُّعور بالسَّعادة، ولكنَّني مع ذلك لم أحمل في مشاعري شيئًا من الغرور والزَّهو الذَّاتيِّ.

من الغريب أنَّ عددًا كبيرًا من السُّجناء الذين نجحوا في الحصول على وظيفةٍ مكتبيَّةٍ أو خدميَّةٍ في سان كونتين كانوا يشعرون فور تعيينهم بالتَّفوُّق على أقرانهم، حتى إنَّ بعضهم كان يذهب إلى حدِّ التَّبختر والتَّباهي بين السُّجناء الأخرين.

لقد اتَّخذت قرارًا من يومي الأوَّل في العمل بألَّا تؤثِّر الامتيازات التي حظيت بها في علاقتي بالسُّجناء الآخرين. والتزمت بهذا القرار طوال السَّنوات التي تلت ذلك، ويستطيع أن يشهد بذلك آلاف الرِّجال الذين جاؤوا وذهبوا بعد ذلك الوقت بلا استثناء. أرى أنَّ توضيح هذه النُّقطة مهمٌّ جدًّا، لأنَّ هناك بعض الأشخاص الذين يمتلكون معرفةً سطحيَّةً أو لا يمتلكون أيَّ معرفةٍ بدوافع الآخرين، ويقومون بالحكم على دوافع الآخرين بطريقةٍ سلبيَّة. لقد اتَّهمني هؤلاء الأشخاص بادِّعاء المثاليَّة، ولا يوجد ما هو أكثر سوءًا من هذا الاتِّهام.

أوَّل سمكةٍ (سجينٍ جديدٍ) صادفته في عملي كان يحمل الرَّقم (19723)، وكان مدانًا بجريمةٍ ارتكبها في مسقط رأسه (سكرامنتو)، وعندما دخل غرفة

الملابس عرَّفني المرشد بكيفيَّة القيام بقياس ملابسه. كان الرَّجل الذي سيأخذ مكانه بالزِّنزانة قد قضى محكوميَّته بالكامل وسيغادر السِّجن بعد ثلاثة أيَّام. عندما دخل الوافد الجديد سأله المشرف عن المدَّة التي سيقضيها بالسِّجن، ولكنَّ الرَّجل لم يجب على سؤاله، واكتفى برسم ابتسامةٍ واهنةٍ على وجهه.

قال الضَّابط الذي كان يقف بجانبه: «إنَّه بالجانب الآخر»، وأومأ برأسه نحو عنبر السُّجناء المحكومين بالإعدام.

لم أستطع فهم ذلك في البداية، ولكن عندما رأيت النَّظرة الجادَّة على وجهه وهي تحلُّ محلَّ الابتسامة عرفت أنَّه كان محكومًا بالإعدام. لا يمكنني أن أقول إنَّني شعرت بالذُّعر، ولكنَّها كانت صدمةً أشبه بضربةٍ مفاجئةٍ في الوجه.

لم أفكِّر في حقيقة أنَّني سأقابل الكثير من الرِّجال الذين سيتَّجهون في نهاية المطاف إلى حبال المشنقة، وكان هذا الحادث أشبه ببدايةٍ مشؤومةٍ لوظيفتي الجديدة. أيُّ صدفةٍ تلك التي ساقتني إلى قياس ملابس رجلٍ محكومٍ بالإعدام؟ لم يعجبني ذلك. جعلني الموقف منقبض النَّفس، وشعرت بالاستياء. بطريقةٍ ما شعرت أنَّني مشاركٌ في الجريمة، وأنَّني ترسٌ في المقصلة التي ستأخذ روحه. أذكر أنَّني أصبت بغثيانٍ طفيفٍ، وللحظاتٍ رغبت في التَّراجع عن الوظيفة، ولكنَّ هذه المشاعر تلاشت عندما تناولت وجبة طعامٍ لذيذةً وقت الغداء. لقد كانت تلك أوَّل وجبةٍ لذيذةٍ أتناولها منذ ثمانية عشر شهرًا. هناك مثلٌ قديمٌ يقول إنَّ لحم الرَّجل المقتول سيكون سمًّا لرجلٍ آخر، ولكنَّني لم أملك إلَّا أن أخدع نفسي بفكرةٍ تافهةٍ: «إذا لم أفعل ذلك، فسيفعله رجلٌ آخر، ولست الملوم على شنق ذلك الرَّجل».

بعد أن ذهب السَّجين المحكوم بالإعدام إلى الحمَّام، تبعه الضَّابط المسؤول عنه، والذي كان يراقب كلَّ خطوةٍ من خطوات السَّجين. التفتُّ بدوري إلى مشرف غرفة الملابس، وسألته:

«هل يحدث هذا كثيرًا؟».

«أوه، كلَّا. ربَّما مرَّةً في الشَّهر. يدخل السِّجن عشرة أو اثنا عشر سجينًا محكومًا بالإعدام كلَّ عام، ولكنَّ معظمهم يطلبون إذنًا بتخفيف الحكم، وينجحون في الحصول عليه، ولذلك لا يُشنَق إلَّا ثلاثة أو أربعة سجناء من أصل اثني عشر. إنَّه أمرٌ هيِّنٌ ستعتاده قريبًا. انتظر حتى يخرج أولئك الرِّجال المحتجزون في السُّجون الانفراديَّة بعد أن يكونوا قد قضوا أسبوعًا كاملًا مقيَّدين بالسُّترة. إنَّ رؤية رجلٍ مقبلٍ على الإعدام لا تعادل شيئًا أمام رؤية واحدٍ منهم».

في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم عرفت الجريمة التي ارتكبها ذلك السَّجين. كان متَّهمًا بالسَّطو على منزلٍ في سكرامنتو بالاشتراك مع صديقه. في ذلك اليوم ترك صديقه في الخارج ليراقب الأوضاع، وعندما عاد صاحب المنزل في وقتٍ غير متوقَّعٍ أمسك به واحتجزه منتظرًا قدوم الشُّرطة، ولكنَّ الرجل المحكوم بالإعدام اندفع لمساعدة صديقه عندما سمع صوت الشِّجار، وصوَّب مسدَّسه نحو صاحب المنزل، ولم يأبه لتوسُّلاته بأن يتركاه وشأنه، بل أطلق عليه النَّار، ولاذ مع صديقه بالفرار، وعندما وصلت الشُّرطة وجدت صاحب المنزل ممدَّدًا عند الباب وهو يلفظ أنفاسه، وأخبرهم بما حصل بعباراتٍ موجزةٍ، ثمَّ فارق الحياة. بحثت الشُّرطة عن الجناة في كلِّ المدينة، ولكن بلا فائدة.

بعد حوالي شهرين احتجزوا القاتل بتهمة التَّشرُّد، وأخبر زميله بالزِّنزانة بأنَّه من ارتكب جريمة القتل التي وقعت في سكرامنتو قبل بضعة أسابيع. من المدهش أنَّ مثل هذه الاعترافات تحصل كثيرًا بين زملاء الزِّنزانة الواحدة، ولا يعرف صاحبها أنَّه سيدفع حياته ثمنًا لها. ربَّما كان الملل المخيِّم على تلك الزَّنازين المميتة هو ما يحرِّض السُّجناء على فتح قلوبهم بعضهم لبعضٍ دون تحفُّظ. أخبر القاتل زميله الغريب بسرِّه، ولم يكن يعرف أنَّ زميله

«حمامةُ براز» وأنَّه سينقل هذه المعلومات إلى مسؤولي السِّجن، وعندما فعل ذلك، تواصلت إدارة السِّجن مع شرطة سكرامنتو وأرسلت رجلًا ليأتي بملفِّ الجريمة. حاول القاتل إنكار جريمته، ولكنَّ زميله بالزِّنزانة كشف تفاصيل دقيقةً لا يعرفها إلَّا القاتل نفسه، وجمعت الشُّرطة أدلَّةً أخرى ضدَّه بعد أن حصلت على ما معه من مسروقات، وحاول المحقِّقون بكلِّ الطُّرق حمله على الاعتراف بهويَّة صديقه، ولكنَّه التزم الصَّمت حتى النِّهاية، وعندما وقف في المحكمة أُدين بجريمة القتل المتعمَّد والسَّرقة وحكم عليه بالإعدام.

علمت لاحقًا أنَّ ملفَّ قضيَّته قد فُتح مجدَّدًا، وسيصدر حكمٌ جديدٌ بعد عدَّة أشهر، ومن المحتمل أن يُلغَى حكم الإعدام. جعلني هذا أشعر ببعض التَّحسُّن.

كان أسبوعي الأوَّل في غرفة الملابس حافلًا بالخبرات الممتعة. تعلَّمت العديد من الحقائق الجديدة المتعلِّقة بالسِّجن وتعرَّفت إلى أشخاصٍ جُدُد. عندما كنت أعمل في مطحنة الجوت كنت أسأل كلَّ من أقابله عن العدد الإجماليِّ للسُّجناء، ولم أحصل على أيِّ عددٍ تقريبيٍّ، فلم يكن للعمَّال أيُّ معرفةٍ بهذا الأمر، ولكنَّ غرفة الملابس كانت مرتبطةً بشكلٍ مباشرٍ بمكتب تسليم المفاتيح حيث يُحتفَظ بالسِّجلَّات الرَّسميَّة للسُّجناء، ويُحصَى تعداد السُّجناء في هذه الغرفة كلَّ ليلة. في خريف 1902 بلغ عدد السُّجناء 1450 سجينًا، أمَّا الآن فيزيد عدد سجناء سان كوينتين عن ألفي سجين.

كنت مهتمًّا جدًّا في البداية بالطَّريقة التي يتمُّ بها «استقبال» السُّجناء الجدد، ولكن سرعان ما أصبحت غير مبالٍ بها. يأتي شريف الشُّرطة برفقة ضابطين عند اصطحاب السَّجين الجديد ويسلِّمون ملفَّه إلى رئيس العنبر أوَّلًا، ويدقِّق الرَّئيس في صحَّة الأوراق ليقوم بدوره بفكِّ أغلال السَّجين وتولِّي أمره.

ولكن عند وصول سجينين جديدَين أو ثلاثة سجناء جُدُدٍ مُصادفةً، يتمُّ

استدعاء العمدة أو مأمور السِّجن ليُشرف على عمليَّة استلام الملفَّات بغرض تحديد التُّهم الخاصَّة بكلِّ سجينٍ على حدة. هذا الإجراء ضروريٌّ لمنع تبادل الهويَّات، فمن الشَّائع أن يقوم السُّجناء بتبادل أسمائهم في أثناء توجُّههم إلى السِّجن. أذكر حادثةً من هذا النَّوع استمرَّت عدَّة سنواتٍ في ولاية بنسلفانيا. كان هناك سجينان مكبَّلان في المركبة مع نائب الشَّريف، وفي الطَّريق إلى السِّجن وضعا خطَّةً ليتبادلا هويَّتيهما. لم يكن نائب الشَّريف يعرف هويَّتيهما. كلُّ ما كان يعرفه أنَّه كان يصطحب سجينين، أحدهما جون سميث والآخر ويليام جونز، وأنَّ سميث محكومٌ بعشر سنوات وجونز محكومٌ بعامين، وعندما وصلوا إلى السِّجن، أجاب جونز عندما نادى الضَّابط باسم سميث، وكان يظنُّ أنَّ زميله محكومٌ بالمدَّة نفسها التي سيقضيها في السِّجن، وكان من المسلَّم به أنَّ الرَّجل الآخر هو سميث الحقيقي. بعد انقضاء عامين، خرج سميث المحكوم بعشر سنوات من السِّجن.

آنذاك احتجَّ جونز (الذي تمَّ تسجيله في السِّجلِّ باسم سميث) بأنَّ محكوميَّته قد انتهت، وأنَّه قد أخطأ عندما دخل إلى السِّجن وأجاب على اسم سميث، وأنَّه يجب أن يقضي حكمًا بسنتين لا بعشر سنوات.

في فترة وجوده في السِّجن، كان جونز غامضًا بين الجميع، وكان معروفًا برقم سجنه فحسب، وعندما دقَّق المسؤولون في الأمر اكتشفوا صحَّة ادِّعائه، وكان من المستحيل إثبات التَّواطؤ بينه وبين سميث الحقيقي، وبعد رفع دعوى قضائيَّةٍ مستعجلةٍ، اضطرَّت سلطات السِّجن إلى إطلاق سراحه، وفي غضون ذلك كان سميث الحقيقيُّ قد اختفى عن الأنظار ولم يُقبض عليه أبدًا.

بعد أن يتعرَّف الضُّبَّاط على السَّجين الجديد، يُخضعونه لتفتيشٍ شامل، ويأخذون كلَّ ما في جعبته ويضعونه أمامه على المكتب، ويحصرون جميع الأموال والأشياء الثَّمينة التي معه، ويُطلَب منه بعد ذلك التَّوقيع على صحَّة الجرد الذي يبيِّن مقدار المال وطبيعة الأشياء الثَّمينة. ثمَّ يُساق إلى غرفة

الملابس، حيث يؤخذ مقاس جسمه للتَّأكُّد من حجم الملابس التي يحتاج إليها. وبعد تحديد الملابس المناسبة له، يُساق إلى الحمَّام، حيث يُجبر على خلع ملابسه أمام الضَّابط، ويخضع لمزيدٍ من الفحص، أوَّلًا لمعرفة أنَّه ليس مصابًا بمرضٍ جلديٍّ مُعدٍ، وثانيًا للتَّأكُّد من أنَّه لا يخبِّئ شيئًا في فتحات وتجاويف جسده، وفي حال إصابة السَّجين بأمراضٍ جلديَّةٍ يُستدعَى الطَّبيب لفحصه، ويُنقَل إلى المستشفى إذا لزم الأمر، وإذا كانت الملابس التي أتى بها تستحقُّ الحفظ، يأخذها المسؤول إلى غرفةٍ أخرى ويقوم بتفتيشها بدقَّة، وإذا لم تكن الملابس ذات قيمةٍ، فإنَّها توضع في كيسٍ وتُحمَل إلى الفرن لتُحرَق، ولكن في أكثر الأحيان تولي إدارة السِّجن قدرًا كبيرًا من العناية بملابس المواطن وتحتفظ بها في المخازن المخصَّصة لذلك.

بحكم التَّجربة، تحرص إدارة السِّجن على إخضاع جميع ملابس السُّجناء لفحصٍ دقيق، فقبل بضع سنواتٍ علم شياطين المخدِّرات أنَّ ملابس السُّجناء الجُدد لا تخضع للكثير من الفحص، فبمجرَّد أن يستلمها المسؤولون يقومون بنقلها إلى غرفة الإمدادات ويخزِّنونها ليتمَّ تسليمها للسُّجناء المفرج عنهم، فبعض السُّجناء يفضِّلون الحصول على الملابس المستعملة بدلًا من الملابس الجديدة حتى لا يلفتوا الأنظار في الخارج، واستغلَّ تجَّار المخدِّرات نقطة الضَّعف هذه، وحدثت عمليَّةٌ ذكيَّةٌ لتهريب المخدِّرات إلى داخل السِّجن عندما أرسل أحد تجَّار المخدِّرات طلبًا إلى خياط السِّجن لكي يتولَّى عمليَّة تجديد ملابس رجلٍ ينتظر محاكمته بتهمة السَّرقة من الدَّرجة الأولى، وطلب منه أن يفتح كتفَي معطفه اللَّتين خاطوا المخدِّرات بداخلها، وعندما وصل الرَّجل تمَّ إرسال معطفه إلى غرفة الإمداد ليخضع لعمليَّة التَّجديد المعتادة، وكان خيَّاط السِّجن يراقب سير العمليَّة، وعندما انتهوا قام الخيَّاط بفتح الغرز وحصل على المخدِّرات المخبَّأة.

حصلت هذه الحادثة في وقتٍ كانت فيه المخدِّرات محظورةً في السِّجن،

وفي غضون أيّامٍ قليلةٍ اكتشف الضُّبّاط تصرُّفاتٍ مريبةً للسُّجناء الذين تعاطوا المخدِّرات، فقاموا بحملة تفتيشٍ واسعةٍ اكتشفوا فيها وجود مخدِّراتٍ مهرَّبةٍ مع السُّجناء، فأرسلوا المتعاطين إلى السُّجون الانفراديَّة وعاقبوهم بالسُّترة، وحصلوا على اعترافاتهم عن طريق التَّحقيق والصِّياح المتكرِّر، وعلى إثر ذلك ألقوا القبض على الرَّجل الذي أحضر المخدِّرات، واضطرَّ الرَّجل إلى الكشف عن ملابسات المؤامرة، وأُرسِلَ إلى محاكمة محاربة الفساد، وحُكم عليه بالسَّجن سبع سنواتٍ مع الأشغال الشَّاقَّة.

حُرم خيَّاط السِّجن من العمل بالخياطة لمدَّة سنتين، وكان الخيَّاط سجينًا محكومٌ عليه باثنتي عشرة سنةً، ولذلك لم يشمل العقاب زيادةً في سنوات سجنه، كما عوقب الرِّجال الآخرون المتورِّطون، وعرفوا من خلالهم أماكن المخدِّرات المخبَّأة في السِّجن، ومنذ ذلك الحين تخضع جميع الملابس المأخوذة من السُّجناء لفحصٍ دقيقٍ للغاية، وتُطمَس معالمها حتى لا يعرف أحدٌ هويَّة صاحبها.

في بداية الأسبوع الثَّاني من كلِّ شهر، يُطلَق سراح السُّجناء الذين انتهت مدَّة محكوميَّتهم، ويُسمح لهم باختيار الملابس المستعملة التي يرغبون في ارتدائها، أمَّا أولئك الذين يرغبون في الحصول على ملابس جديدةٍ فيتولَّى الخيَّاط مهمَّة خياطة بدلةٍ جديدةٍ لهم حسب الطَّلب ووفقًا للميزانيَّة المحدَّدة لذلك، وإضافةً إلى الملابس المستعملة يحصل السُّجناء على قبَّعاتٍ وأحذيةٍ وملابس داخليَّةٍ مستعملةٍ، ويفضِّل عددٌ كبيرٌ من السُّجناء الحصول على مجموعةٍ كاملةٍ من الأغراض المستعملة، وبعض الرِّجال يطلبون استعادة ملابسهم التي قدموا بها إلى السِّجن.

تكلِّف بدلة السَّجين المسرَّح الدَّولةَ أقلَّ من 7 دولارات، وتقلُّ التَّكلفة إذا كانت الملابس المستعملة هي المختارة، وفي يوم التَّسريح يتلقَّى السَّجين 5 دولاراتٍ ويُنقَل بأرخص وسيلة نقلٍ إلى حيث يريد، وإذا كان يمتلك أكثر من

عشرين دولارًا في رصيده في المكتب، فإنَّه لن يحصل سوى على عشرين دولارًا إضافةً إلى الدُّولارات الخمسة. أدَّى هذا القانون إلى حدوث بعض التَّلاعبات الذَّكيَّة من جانب السُّجناء المفرَج عنهم. أعرف حالةً واحدةً حدثت أخيرًا. كان هناك رجلٌ يمتلك 23 دولارًا في رصيده في المكتب، فذهب قبل أيَّام قليلةٍ من انتهاء محكوميَّته إلى طبيب أسنان السِّجن وطلب منه أن يعالج له أسنانه بما لا يزيد عن 4 دولاراتٍ، فأدَّى هذا إلى خفض رصيده إلى 19 دولارًا، وفي يوم تسريحه تلقَّى 24 دولارًا، وخرج ووجهه مكلَّلٌ بابتسامةٍ سعيدةٍ تسفر عن أسنانٍ برَّاقة.

كنت قد تحدَّثت في هذا الكتاب عن جناح السُّجناء السَّيِّئي السُّمعة، والمعروف باسم (جناح الفاسدين) وهو عبارةٌ عن مجموعةٍ من السُّجون الانفراديَّة في سان كوينتين، وأرى أنَّني سأعود للحديث عنه بشيءٍ من التَّفصيل، فسيكون من المفيد لك أن تعرف هذا المكان عن قرب.

قبل عشرين أو ثلاثين عامًا، كان نزلاء سان كوينتين يعملون في صناعة الأثاث، وخاصَّةً في صناعة النَّوافذ والأبواب والسَّتائر، وتمَّ إنشاء مبنىً خاصٍّ لهذا العمل، وهو مبنىً ضخمٌ يبلغ طوله 400 قدمٍ ويمتدُّ ارتفاعه أربعة طوابق. يُستخدم هذا المبنى الآن لأغراضٍ مختلفةٍ. الطَّابق الأرضيُّ يشتمل على مغسلةٍ وحمَّامٍ جديدٍ وآلة نجارةٍ ومخزنٍ للقصدير، أمَّا الطَّابق الثَّاني فيُستخدم للتَّخزين والمَرافق العامَّة، وفي الطَّابق الثَّالث توجد غرف الخياطة وصناعة الأحذية، ويحتوي أيضًا على مهجعٍ معروفٍ باسم (العنبر السَّابع) يضمُّ مائة سجينٍ من ذوي المحكوميَّات القصيرة، وكان من الضَّروريِّ فتح هذا المهجع بسبب حالة الاكتظاظ الكبير في السِّجن، إذ لا يوجد في مبنى سان كوينتين الرَّئيس سوى 650 زنزانةً لحوالي ألفي سجين. الطَّابق العلويُّ من المبنى هو مكان المآسي. في أحد طرفيه توجد غرف المحكومين بالإعدام وغرفة تنفيذ حكم الإعدام حيث تتدلَّى المشنقة البشعة المخيفة، وتكون

حبالها جاهزةً دائمًا لاستقبال الضَّحيَّة التَّالية، وهي مكانٌ مناسبٌ لاستقبال زيارات الأشخاص المهووسين بتطبيق العدالة، وبجانب هذا المكان الكئيب يوجد العنبر الثَّامن حيث يقبع السُّجناء السَّيِّئي السُّمعة في سجونٍ انفراديَّةٍ، ويُشرف الطَّرف الجنوبيُّ على جدران مطحنة الجوت. لا يُسمح للسُّجناء العاديِّين بدخول هذا الطَّابق، ومع أنَّه قُيِّض لي أن أصل إلى كلِّ زاويةٍ وركنٍ في سجن سان كوينتين طوال السَّنوات التي مكثت فيها هناك، إلَّا أنَّني لم أستطع أبدًا الوصول إلى ذلك الطَّابق. في الواقع، هناك بعض الرِّجال الذين بقوا في ذلك الطَّابق طوال فترة محكوميَّتهم، وأعتقد أنَّه يوجد عشرة سجناء أو اثنا عشر سجينًا لم يخرجوا من ذلك الطَّابق أبدًا.

من حينٍ لآخر يُستدعَى سبَّاكٌ أو نجَّارٌ ليقوم بأعمال التَّصليح في ذلك الطَّابق، ويدخل أولئك العمَّال الطَّابق بشكلٍ مستعجلٍ ليقوموا بإنجاز العمل بأسرع وقتٍ ممكنٍ، وحتى الرَّجل الذي يقوم بتسليم وجبات الطَّعام لا يُسمح له بالدُّخول، بل يترك سلَّته وعلب الطَّعام على عتبة الباب.

يتكوَّن «جناح الفاسدين» من ردهةٍ يبلغ طولها حوالي أربعين قدمًا، وعلى جانبيها صفَّان من السُّجون الانفراديَّة، وقد بُنِيَتْ هذه السُّجون بحيث يكون ظهر كلِّ سجنٍ منها مواجهًا لظهر السِّجن المقابل له، بحيث لا يستطيع السُّجناء رؤية زملائهم في السُّجون الأخرى، وتكون النَّوافذ مطليَّةً بالأسود حتى لا يستطيع السَّجين الرُّؤية من خلالها، وهي مغلقةٌ بالخشب من الخارج حتى لا يستطيع فتحها. يحتوي كلُّ سجنٍ انفراديٍّ على مرحاضٍ خاصٍّ به، ولا يُسمح للسُّجناء المحتجزين هناك بمغادرة الزِّنزانة إلَّا للاستحمام مرَّةً واحدةً في الأسبوع، ومن وقتٍ لآخر، يُسمح للسُّجناء بالخروج للتَّمرُّن، ويكون ذلك بالسَّير في الممرِّ لفترةٍ قصيرةٍ كلَّ يوم، ويخرج كلُّ سجينٍ على حدة، مع مراقبةٍ مشدَّدةٍ يقوم بها ثلاثة حرَّاسٍ مخصَّصين، ويعمل الحرَّاس في مناوباتٍ تستمرُّ ثماني ساعات، وهناك حارسان يجب أن يكونا موجودين في

جميع الأوقات، وهؤلاء الرِّجال ينامون ويتناولون وجباتهم في مكان عملهم، ويقف كلُّ حارسٍ على مسافةٍ قريبةٍ من الحارس المناوب معه، وعندما يكون الحارس الثَّالث نائمًا فهذا يعني أنَّ ذلك الوقت هو وقت استراحته.

من خلال التَّحدُّث مع رجالٍ احتُجزوا في «جناح الفاسدين» ومقارنة شهاداتهم بالمعطيات المختلفة التي حصلت عليها، أعتقد أنَّني كوَّنت معرفةً حقيقيَّةً ببعض الظُّروف التي تحصل هناك، إضافةً إلى بعض الفظائع التي حدثت بالفعل. رفض أحد الحرَّاس السَّابقين التَّحدُّث معي حول ذلك الجناح. كان السُّجناء لا يخرجون من زنازينهم، وكانت شعورهم ولحاهم شعثاء ومغبرَّة، ولم يكونوا يستحمُّون إلَّا إذا سمح لهم الحارس المسؤول بذلك.

كان الحرَّاس يتعمَّدون معاملتهم على نحوٍ سيِّئٍ بغية الحصول على اعترافات بعض السُّجناء هناك، ومن أجل ذلك كانوا يحتجزونهم في جناح الفاسدين ويعاقبونهم بالسُّترة والضَّغط ومختلف طرق الإيذاء النَّفسيِّ حتى يعترفوا، وكان بعضهم يعترف بمجرَّد سماعه صراخ وتوسُّلات الآخرين وهم يعاقَبون بالسُّترة. هذا المبنى بعيدٌ عن الأجزاء الأخرى من السِّجن، ولذلك لا يعرف أحدٌ ماذا يحصل هناك إلَّا إذا تحدَّث الضَّحايا الخارجون عمَّا حصل لهم.

تحدَّثت هذا الأسبوع مع رجلٍ خضع لكلِّ أشكال التَّعذيب في جناح الفاسدين لمدَّة ثلاث سنوات، وحالما التقيته تذكَّرت سبب احتجازه هناك، ولكنَّني سأتطرَّق إلى هذه القصَّة لاحقًا.

يدخل الرِّجال السُّجون الانفراديَّة لارتكابهم جرائم معيَّنة، كمحاولة الهرب، والاعتداء القاتل على السُّجناء، والعصيان المستمر، وغيرها من الجرائم الكبيرة، ويُحكَم على هؤلاء بالحبس الانفراديِّ لمدَّةٍ تتراوح بين ستَّة أشهرٍ وعشر سنوات. في بعض الأحيان يُساق الرِّجال إلى «جناح الفاسدين»

ويبقون هناك لفتراتٍ طويلةٍ دون أن يعرف أيٌّ من السُّجناء الآخرين السَّبب. أتذكَّر حالةً كهذه حدثت في الفترة الأخيرة. سيق الرَّجل من زنزانته في جوف اللَّيل وذهبوا به سريعًا. انتشرت التَّكهُّنات حوله لبضعة أيَّام، ولكن لم يعرف أحدٌ ماذا فعل، ثمَّ نُسي أمره مع مرور الوقت. أعتقد أنَّه ما يزال هناك. أخبرني رجلٌ بقي محتجزًا في «السِّجن الانفراديِّ» لمدَّة خمس سنواتٍ أنَّه لم يحافظ على حياته إلَّا من خلال العيش «عقليًّا». لقد أمضى أيَّامه في التَّفكير في كلِّ شيءٍ باستثناء حالته، وأتقن حيلةً مكَّنته من العيش بشكلٍ كاملٍ داخل عقله. هناك سجينٌ متديِّنٌ احتُجز في «جناح الفاسدين» لعدَّة أشهر، ثمَّ أصيب بالجنون، ونقلوه إلى إحدى المصحَّات العقليَّة. من المؤكَّد أنَّ جميع السُّجناء الذين يعيشون في ظلِّ تلك الظُّروف يصبحون مع مرور الأيَّام قساةً وقبيحين للغاية، وقد شوهدت محاولاتٌ عديدةٌ للهروب من السُّجون الانفراديَّة. في إحدى تلك المرَّات قام سجينٌ بالتَّقرُّب من حارسه حتى أصبحا مقرَّبَين، وفي يومٍ من الأيَّام قام بتعليق غطاء سريره على باب الزِّنزانة، وبطريقةٍ ما، نجح في إقناع الحارس بالوقوف وظهره إلى الباب، واستغلَّ الفرصة بوضع الغطاء حول عنق الرَّجل وسرعان ما أحكم قبضته حول قضبان الباب. نجح الحارس في الصُّراخ طلبًا للنَّجدة قبل أن يحقِّق السَّجين هدفه، فقد تمثَّلت خطَّته في خنق الحارس حتى يفقد الوعي، ثمَّ أخذِ المفاتيح من جيبه وفتحِ باب الزِّنزانة وإطلاقِ سراحِ السُّجناء الآخرين المحتجزين في الجناح. كانت تلك اللَّيلة باردةً وعاصفةً، ولو أنَّ الحارس لم يصرخ طلبًا للنَّجدة، لكان من المرجَّح أن تنجح تلك الخطَّة.

في بعض الأحيان يُحكَم على رجالٍ أبرياء بالحبس الانفراديِّ. أعرف حالةً سأتحدَّث عنها لاحقًا عن رجلٍ قضى خمس سنواتٍ في السِّجن الانفراديِّ ظلمًا، ولكنَّ هذا لا يحدث كثيرًا الآن، فقد بات الحرَّاس الحكماء يتجنَّبون أخذ المعلومات المصيريَّة من «حمائم البراز».

الفصل الخامس عشر

مع فوز المحافظ الجديد بالانتخابات، حدث تغييرٌ شاملٌ في إدارة السِّجن، وأصبحت المناصب المختلفة في السِّجن مفتوحةً أمام مؤيِّدي الحزب الجديد الذين كانوا في حاجةٍ إلى وضع أقدامهم في جميع مؤسَّسات الولاية بعد فوزهم بالانتخابات، وبالنِّسبة إليهم كان السِّجن مكانًا (ورديًّا) مقارنةً بغيره من الأماكن (الحمراء).

ذات صباحٍ وبعد حوالي شهرين من تعيين المأمور الجديد كنت مشغولًا بفرز الملابس عندما سمعت صوت خطواتٍ على الرَّصيف الأسفلتيِّ بالخارج، وفجأةً أظلم المدخل. اعتقدت أنَّه كان واحدًا من المساجين الجُدُد أو سجينًا بائسًا سيُساق إلى السُّجون الانفراديَّة لكي يعاقَب بالسُّترة، فلم ألتفت إليه، ولكن عندما سمعت صوت الضَّابط وهو يقول: «امنح هذا الرَّجل زيًّا جديدًا كاملًا»، أثار ذلك اهتمامي، فقد كان الأمر جديدًا عليَّ. نظرت إلى الرَّجل وشعرت بصدمةٍ محيِّرة.

البشر معرَّضون دائمًا لمواجهة الأمور المقدَّرة التي لا يملكون مفرًّا منها. بعضهم يسمِّيها (مشيئة الله) وبعضهم الآخر يسمِّيها (الكارما) وأنا أفضِّل هذا المصطلح. إنَّها لحظاتٌ معيَّنةٌ من حياتنا. أشخاصٌ جُدُدٌ يظهرون بشكلٍ واضحٍ وفريدٍ، ويُحدِثون ثورةً في أفكارنا وأفعالنا وتطلُّعاتنا. في بعض الأحيان عندما يلتقي رجلٌ وامرأةٌ لأوَّل مرَّةٍ، يشعران بأنَّ أحدهما يعرف الآخر منذ زمنٍ طويلٍ، وفي بعض الأحيان يشعر الرَّجلان عندما يتقابلان لأوَّل مرَّةٍ

بأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يكنُّ كراهيةً غريزيَّةً للآخر دون سبب. كلُّ لقاءٍ يمكن أن يصنع المستقبل أو يفسده، وقد يكون اللِّقاء بدايةً لمجموعةٍ من النِّعَم أو لمجموعةٍ من النِّقَم. تبقى الحقيقة أنَّنا جميعًا قد مررنا في يومٍ من الأيَّام بمثل هذه اللَّحظات، وبمثل هذه اللِّقاءات.

تلك اللَّحظة كانت لقاءً بين اثنين من المدانين في غرفة الملابس الوضيعة وفي سجنٍ عتيقٍ وهمجيٍّ، ولذلك كانت الأجواء محفوفةً بالتَّوتُّر. عندما نظرت إليه، أدركت بحدسي أنَّ وجهه كان بوَّابةً لفهم روح وطبيعة هذا الشَّخص الذي سأتعامل معه، وأنَّه شخصٌ يعطي أفضل ما لديه في الصَّداقة والمعاضدة، ولكنَّني كنت مشوَّشًا في تلك اللَّحظة ومتردِّدًا بشأن حقيقة ذلك الحدس الغامض الذي كان نوعًا من المعرفة الفائقة الوعي، مثل الذي نختبره جميعًا في لحظات التَّوتُّر، مع أنَّنا نادرًا ما ندرك ذلك. ومع أنَّنا كنَّا غرباء بالجسد، بدا الأمر كما لو أنَّني قابلت شخصًا كنت أعرفه منذ زمنٍ طويل.

تفحَّص أحدنا الآخر بنظرةٍ خاطفةٍ شاملةٍ، ودون أن نستخدم أيَّ كلمةٍ منطوقةٍ أصبح كلٌّ منَّا على درايةٍ جيِّدةٍ بالآخر. لقد أزعجني وجوده لعدَّة أيَّام، ولم أفهم سبب ذلك. كان شابًّا نحيفًا متوسِّط الطُّول وذا لحيةٍ وشعرٍ أشقر طويل. كان يرتدي بدلةً ممزَّقةً بتقليماتٍ متَّسخةٍ، وعندما رأيته لأوَّل وهلةٍ رمشت عيناه الرَّماديَّتان كما لو أنَّ الضَّوء آذاهما، ومع ذلك كانت عيناه متيقِّظتَين للغاية، وكانتا تشيان بتحدٍّ لا يُقهَر في أعماقهما. كانتا بارزتَين قليلًا، كما هي عيون الأشخاص الذين عانوا كثيرًا، ونمَّت التَّجاعيد البارزة على طرفَي عينيه عن ضغطٍ نفسيٍّ وجسديٍّ، إضافةً إلى الشُّقوق المتقطِّعة في شفتيه. كان جلده شبيهًا بأرضٍ قاحلةٍ، وبدت ملابسه باليةً وكأنَّه لم يخلعها منذ شهور. كان معطفه المهترء يخفي ركبتيه ومرفقيه. كنت مدركًا للصِّراع الدَّائر في داخلي. لم أكن قد عرفت من هو بعد، ولكنَّني كنت أعلم أنَّني أحدِّق في مخلوقٍ بشريٍّ قادمٍ من الجحيم.

كلُّ هذا الكمِّ من الجهل المركَّز واللَّامبالاة والرُّعب النَّابع من «غربة الإنسان تجاه الإنسان» كان ماثلًا أمامي. تحوَّلت عقوبتي أمامه إلى أمرٍ تافهٍ وكأنَّها لم تكن شيئًا. كان هذا الرَّجل دليلًا حيًّا على معاناة البشر. لم يكن في نظري فردًا واحدًا، بل كائنًا مركَّبًا من الماضي القاسي والظَّالم. كلُّ هذه الأفكار مرَّت في ذهني مثل الوميض. لم أكن مدركًا لذلك، ولكنَّني شعرت بمعاناته. لقد ولَّد بداخلي شيئًا جديدًا وغريبًا وقويًّا. عرفت من تلك اللَّحظة أنَّني يجب أن أعتاد هذا الشُّعور الذي لم أشعر به من قبل.

تذكَّرت فجأةً صورةَ ريب فان وينكل، ذلك العجوز المسكين. لقد عاد على هيئة هذا الرَّجل ليجد نفسه في مفارقةٍ تاريخيَّةٍ، فقد مات ودُفن منذ سنوات.

قال له الملازم، مشيرًا إليَّ: «هذا الرَّجل سوف يجعلك أنيقًا، خاصَّةً عندما تلبس (حكمًا) جديدًا في مكتب المأمور»، وقال وهو يميل برأسه مبتسمًا: «أرجو أنَّك ما تزال قادرًا على التقاط روح الدُّعابة».

ثمَّ قال لي منبِّهًا: «اعتنِ بـ (موريل) جيِّدًا»، ثمَّ انسحب من الغرفة مغادرًا.

(موريل! إد موريل)، ذلك السَّجين السَّيِّئ السُّمعة الذي سمعت عنه كثيرًا، والذي كان محتجزًا في جناح «الفاسدين» لمدَّة خمس سنوات! يعتقد غالبيَّة السُّجناء، وكذلك الأحرار، أنَّه بريءٌ من الجريمة التي اتُّهم بها وتعرَّض بسببها لهذه العقوبة الفظيعة. إذن هذا الرَّجل كان إد موريل! لا عجب أنَّني كنت مضطربًا. عندما اختفى الملازم، ابتسم موريل بوهنٍ، وجلس على الكرسيِّ، ثمَّ قال:

«لقد تعبت من عبور الفناء من المكان الذي كنت مدفونًا فيه لسنواتٍ عديدةٍ بعيدًا عن الشَّمس والهواء والرُّفقة البشريَّة».

قلت: «لقد سمحوا لك بالخروج أخيرًا»، وأخرجت السِّيجار الذي كنت

أدخِّنه من فمي ومددت يدي لأصافحه. لم أكن أعرف أنَّ السِّيجار ما يزال في فمي. أخبرني موريل عن هذا لاحقًا، قال إنَّه وجد الأمر مضحكًا خاصَّةً بعد خروجه من حصاره الطَّويل في الظَّلام.

«هل ثمَّة فرصةٌ للاستحمام هنا؟» استفسر موريل بلهفةٍ. «أشعر برغبةٍ في غسل بقايا الجحيم العالقة بجسدي».

لاحظت أنَّه كان يتحدَّث بصوتٍ خافتٍ، فسألته:

«هل تشعر بالبرد؟».

اقتربت منه لأسمع ردَّه.

«كلَّا، ليست هناك فرصةٌ كبيرةٌ للتَّعرُّض للبرد في المكان الذي أتيت منه. لا أعرف ما الأمر، ولكنَّ صوتي قد ارتدَّ إليَّ. لا يمكنني التَّحدُّث بصوتٍ عالٍ بعد الآن. لقد ازداد الأمر سوءًا خلال العامين الماضيين. لو بقيت هناك لفترةٍ أطول لفقدت صوتي تمامًا. لكنَّني سأستعيده الآن، فقد أُتيحت لي الفرصة لاستخدامه مرَّةً أخرى».

نظرت إليه بذهول، وسألته: «هل تقصد أنَّك فقدت صوتك؟».

«إنَّك تسمع صوتي يجيب على هذا السُّؤال، أليس كذلك؟» أشرقت عيناه المتعبتان ببريقٍ مرحٍ.

كان انطباعي الأوَّل هو الدَّهشة أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، ولكن مع إدراكي الحقيقة الكاملة شعرت كما لو أنَّني صادفت أعظم رعبٍ في حياتي. يقف أمامي ذلك الرَّجل الذي عانى خمس سنواتٍ، رجلٌ بريءٌ من الإساءة المنسوبة إليه، رجلٌ سرقت العزلة صوته. قد تكون هذه الحالة مزمنةً، وقد يزداد الأمر سوءًا. ربَّما لن يمضي وقتٌ طويلٌ قبل أن يُصاب بالخرس. ومع ذلك، كان من الواضح أنَّه كان حريصًا على التَّكلُّم، وأنَّه يريد أن ينفِّس عن كلِّ السَّنوات التي قضاها مكبوتًا. شعرت مرَّةً أخرى أنَّني دخلت حقبةً جديدةً من الحياة. كان المستقبل يلوح في الأفق ويومئ لي.

«حسنًا، هل سأستحمُّ، أم أنّك نمت؟».

سأل الرَّجل بصوتٍ خافت.

أعادني السُّؤال إلى رشدي، فأجبته: «كلَّا، يمكنك أن تراهن على يقظتي، ولكن دعني أوّلًا آخذ مقاسك لتحصل على بعض الخرق الجديدة».

قام عن الكرسيِّ ووقف مستسلمًا بينما كنت آخذ القياسات اللَّازمة، ثمَّ قدته إلى الغرفة الخلفيَّة حيث يوجد حوض الاستحمام، وعدت إلى غرفة الثِّياب لأضع علامةً على ملابسه، ولكنَّه أوقفني قبل أن أصل إلى هناك.

قال لي:

«انتظر لحظة. تعال وانظر كيف يبدو جسد الرَّجل بعد أن يقضي خمس سنواتٍ في الجحيم. كنت غضًّا طريًّا عندما ذهبت إلى هناك. كانت عظامي قويَّةً كالحجر، ووجهي ممتلئًا بوجنتين متورِّدتين، ولكن انظر إليَّ الآن».

كان ينزع ملابسه الخارجيَّة وهو يتكلَّم، وبعد لحظةٍ وقف عاريًا بجانب حوض الماء الدَّافئ. لم يكن من الممكن إثبات معاناته الفظيعة إلَّا برؤية آثارها. كانت أطرافه هزيلةً بشكلٍ رهيبٍ، وبرزت عظام الرُّكبة والكوع والكتف كنتوءاتٍ ضخمةٍ من جلده الأصفر المجعَّد، بينما ذكَّرتني أضلاعه بجثَّة خروفٍ معلَّقٍ أمام دكَّان جزَّار. كانت التَّجاويف البارزة بين كلِّ ضلعٍ وآخر عميقةً ومعتمةً. ذكَّرني منظره بصور الأطفال الذين عانوا المجاعة في الهند.

قال بمرارةٍ: «كان وزني 160 رطلًا قبل خمس سنواتٍ، فماذا تتوقَّع أن يكون وزني الآن؟».

أجبته هامسًا ليوافق صوتي صوتَه: «حوالي 95 رطلًا بناءً على مظهرك. لو أبقوك هناك فترةً أطول لكنتَ ستتحوَّل إلى قطعة قماش».

«قطعة قماش!»، نظر إليَّ بحدَّة، ولوَّح بأصابعه الرَّفيعة مشدِّدًا على

الكلمات التي حاول أن يُخرجها من أعماق حنجرته كما لو كان شبحًا يحاكي صوت إنسانٍ طبيعيٍّ:

«قطعة قماش! لن تراني ضعيفًا أبدًا. لقد عاهدت نفسي منذ اليوم الأوَّل على ألَّا أجعلهم ينالون منِّي أبدًا. كنت سأعيش بقيَّة حياتي قويًّا حتى لو مرَّت عشرون سنةً بدلًا من خمس».

كان يدخل الحوض وهو يتحدَّث، ولكنَّه توقَّف واستدار نحوي.

قال: «ربَّما لم يكن عليَّ أن أتحدَّث معك بهذه الطَّريقة. يعلم اللّٰه أنَّني رأيت ما لم يره أحدٌ من خيانة، وقد تكون جاسوسًا مثل غيرك، وتنقل كلامي إلى مسؤوليك، ولكن لا، أعلم أنَّك لست كذلك، وسأثبت لك ثقتي بك بهذه الحقيقة، عليك أن تعلم أنَّني لم أنج من الموت إلَّا بفكرةٍ واحدةٍ، فكرةٍ سأنفِّذها حتى لو كلَّفني الأمر كلَّ ما تبقَّى من حياتي. سيدفع كلُّ رجلٍ تسبَّب بما مررت به الثَّمن. لن يكون هناك عنفٌ، ولا دماء، بل سآخذ بثأري وحسب، هذا كلُّ ما أريده. لقد حلمت بهذا الأمر مرارًا وتكرارًا، وكنت أمنِّي نفسي كلَّ ليلةٍ بأنَّ كلَّ شخصٍ سوف ينال الجزاء المناسب له. أنت تتساءل لماذا أنا نحيفٌ للغاية. في الواقع، بقيَّة السُّجناء المحتجزين هناك ليسوا نِحافًا، بل إنَّ معظمهم مصابون بالسُّمنة. الوحيد الذي يشاركني هذه النَّحافة هو جيك. سأخبرك الكثير عنه لاحقًا، عندما تُتاح لنا فرصة اللِّقاء مرَّةً أخرى. إنَّه مثلي تمامًا؛ لا يعيش داخل جسده على الإطلاق، إنَّه يعيش في عقله وحسب، وهذا الشَّيء هو الذي جعلنا نواصل الحياة».

وضع موريل طرف سبَّابته على صدغه، وثنى المفصل الأوَّل للخلف واستقرَّ هناك. كان يريد أن يثبت لي أنَّه لم يعد يشعر بالألم الجسديِّ.

«لقد مات جسدي منذ سنوات، ولم أعد أعيش إلَّا في المسافة التي تعلو رقبتي، نعم، من أذني إلى أعلى. في وقتٍ ما، استطعت أن أعيش لما هو

أعلى من ذلك. شعرت بأنّني خرجت من هذه الجثّة المحطّمة تمامًا، اللّعنة عليهم!»، زمجر غاضبًا، ثمّ صعد إلى الحوض.

«ما تلك النُّدوب التي على ظهرك؟»، سألته عندما أدار ظهره ليغطس في الماء.

«ندوب؟»، ضحك ساخرًا، «أيّة ندوب؟ هذه ليست ندوبًا. إنّها مجرّد آثارٍ تركها الشّيطان على جلدي. كنت مقيّدًا بالسُّترة، مشدودًا بها، بحيث لم أستطع أن أتنفّس من حلقي، وعندما جاء الحارس ليُحكم الحبال، سخرت منه، فركلني على موضع كليتي، لا أعرف كم مرّةً ركلني، ولكنّ الرّكلة الأولى أخذت أنفاسي، ولم أر إلّا شاشةً سوداء أمامي، وعندما أخرجوني من السُّترة لم أتمكّن من النُّهوض، وبقي جلدي متقرّحًا لبضعة أشهرٍ لاحقة. صحيحٌ أنّني لست هناك الآن. ولكنّني ما أزال أشعر بالحبال تمزّق جلدي، وأحيانًا أشعر بسكّينٍ مغروزةٍ في داخلي. لم يكن الأمر سيؤثّر فيّ كلّ هذا التّأثير لو أنّني كنت مذنبًا، ولو أنّهم صدّقوني من المرّة الأولى، ولكنّ الجحيم هو أن تضع الرّجل في كلّ هذا العذاب ظلمًا».

بقيت صامتًا. لم يكن لديّ ما أقوله. ولكنّني أمعنت التّفكير. تساءلت أين كان اللّٰه طوال ذلك الوقت؟ ثمّ ضحكت. كفر؟ أطلق عليه ذلك إن أردت، ولكنّ هذا ما حصل حقًّا.

غمر موريل نفسه بالماء، ورشق الماء على جوانب حوض الاستحمام وهو يضحك مثل طفلٍ صغير.

صاح قائلًا: «هذا عظيم! ما أروع أن يعود المرء حرًّا مرّةً أخرى».

تركته يضحك وعدت إلى غرفة الملابس لأضع علامةً على ملابسه. وبعد بضع دقائق انتهى من الاستحمام وارتدى ملابسه، وساعدته في تجفيف شعره ولحيته. كان شعره المجعّد يتدلّى على كتفيه، وكانت لحيته تغطّي الزّرّ

الثَّاني من قميصه، وعندما أصبح جاهزًا، اصطحبته إلى صالون الحلاقة، وعندما دخلنا إلى هناك كان الجوُّ مشحونًا بالتَّرقُّب، فقد تسرَّب خبر إطلاق سراح (إد موريل) من سجينٍ إلى آخر. كان جميع الحلَّاقين السِّتَّة غرباء عن موريل باستثناء واحدٍ منهم، ذلك أنَّهم دخلوا السِّجن في وقتٍ كان فيه موريل محبوسًا في السِّجن الانفرادي. الوحيد الذي عرف موريل شخصيًّا هو فرانك العجوز، ذلك السَّجين المحكوم بالمؤبَّد والذي قضى عشرين عامًا من حياته في السِّجن، وهو صديق الحلَّاق الثَّرثار الذي حلق لي شعري يوم وصولي إلى السِّجن. كان فرانك العجوز رئيسًا لصالون الحلاقة، ولم يكن مطالَبًا بالحلاقة، فمهمَّته تقتصر على مراقبة الحلَّاقين الآخرين وتوجيههم ليقوموا بالعمل بشكلٍ صحيح وحفظ النِّظام، ولكن عندما دخل موريل إلى الصَّالون، نهض عن كرسيِّه ومدَّ يده ليصافحه.

قال: «مرحبًا إد، أنا سعيدٌ برؤيتك مرَّةً أخرى. كيف كانت الحياة على سطح المرِّيخ؟»

وأكمل كلامه بعد ذلك دون أن ينتظر الرَّدَّ: «أطالب بأن تمنحني شرف حلاقة شعرك. لم أحلق لرجلٍ منذ شهرين، ولكنَّني لن أفوِّت فرصة الحلاقة لك بالطَّبع».

وعندما ردَّ عليه موريل بصوته الخافت، تراجع فرانك إلى الوراء ونظر إليه بذهول.

سأله: «ماذا جرى لصوتك؟».

أجابه إد وهو يغمز لي: «أوه، لقد أُصبتُ بنزلة برد، دعنا نرى كيف ستجزُّ كلَّ هذا الصُّوف».

أخرج الحلَّاق العجوز قماشةً جديدةً ولفَّها على عنق إد، ثمَّ انحنى بغتةً أمام الكرسيِّ ونظر إلى وجه موريل بحماس.

قال: «أخبروني يا رفاق! تعالوا إلى هنا للحظةٍ، بمن يذكِّركم موريل؟».

جاء بقيَّة الحلَّاقين ووقفوا أمام الكرسيِّ باحترام. كان لديهم فضولٌ طبيعيٌّ لرؤية موريل عن قرب، كما أنَّ سؤال فرانك العجوز كان قد أثار لديهم المزيد من الفضول.

كرَّر الرَّجل العجوز سؤاله: «أخبروني قبل أن أبدأ بتغيير ملامحه، بمن يذكِّركم؟».

عندما أدلى الحلَّاقون بتخميناتهم، اكتفى فرانك بالضَّحك، ووجدت نفسي أنظر إلى موريل باهتمامٍ جديد. لقد سقط الضَّوء على وجهه وبرزت القماشة ملوَّنةً تحت ذقنه على نحوٍ جعل وجهه مألوفًا جدًّا. كانت ملامحه من النَّوع المكرَّر، ووجدت إجابة فرانك تتراقص في ذهني ذهابًا وإيابًا، ولكنَّني لم أتمكَّن من صياغتها في كلمات.

انتظر الحلَّاق العجوز بضع دقائق في صمتٍ وابتسم في وجه موريل.

«على ماذا تبتسم يا فرانك؟»، سأله موريل في همسةٍ بائسةٍ، محاولًا أن يتحلَّى بالصَّبر الذي شارف على النَّفاد.

أجابه فرانك: «هل تريدني أن أخبرك؟».

«بالتَّأكيد! أنت تجعلني أشعر وكأنَّني شخصٌ غريب الأطوار في هذا المكان».

تراجع فرانك خطوةً إلى الوراء وقال:

«مع كامل احترامي يا إد، أنت أفضل صورةٍ حيَّةٍ رأيتها في حياتي ليسوع المسيح، لذا فليساعدني الرَّبُّ في عملي». وأضاف على عجلٍ، بصوتٍ متحشرج: «كلُّنا نصبح صورةً عن المسيح إذا حملناه في قلوبنا. أعرف أنَّ هذا ليس وقتًا مناسبًا للوعظ، وأعرف ما مررت به، ولكنَّك لا تبدو شخصًا سيِّئًا. دعنا نتعاون جميعًا لنقضي وقتنا في السِّجن على نحوٍ أفضل».

لقد أغضبني كلامه جدًّا، كنت أرغب في ضربه، ولكنَّ الصَّوت الذي في عقلي نصحني بالعدول عن ذلك.

كان الصَّوت الذي بداخلي يقول: «لقد زحفت إليه الحشرة الدِّينيَّة ووجدَتْ طعامًا جيِّدًا في عقله! يا لك من مسكينٍ يا فرانك، كنتُ أظنُّك قائدًا قويًّا».

كانت الظُّروف التي أدَّت إلى إدانة موريل والحكم عليه بالسَّجن مدى الحياة ذات طبيعةٍ رومانسيَّةٍ وفريدةٍ من نوعها. عندما كان ما يزال في سنِّ المراهقة التقى موريل ابنةَ إيفانز، رئيس عصابة اللُّصوص الذَّائعة الصِّيت، والتي أرهبت المقاطعات الوسطى في كاليفورنيا قبل بضع سنوات، وطوال علاقتي المقرَّبة بموريل، لم أستطع أبدًا دفعه إلى الحديث عن ذلك الجزء من حياته، وكلَّما كان يتحدَّث عن قصَّة حبه، كان يغيِّر الموضوع فجأةً، فعرفت أنَّ ذلك الجزء كان سرًّا مقدَّسًا بالنِّسبة إليه. كلُّ ما أعرفه هو أنَّ حبيبته كانت شابَّةً جميلةً مفعمةً بالحيويَّة وتحبُّ والدها حبًّا جمًّا يبلغ حدَّ العبادة، وهذا التَّعلُّق بأبيها لم يأت بلا سبب، فقد كان والدها يعبدها أيضًا، وكان يعاملها دائمًا بلطفٍ وحنانٍ، وفي الوقت الذي قابل فيه موريل تلك الفتاة، كان والدها محتجزًا في سجن المقاطعة في فريسنو بعد أن أُدين بقتل أحد الأشخاص الذين أمسكوه متلبِّسًا بالسَّرقة، وحُكم عليه بالسَّجن مدى الحياة في سجن ولاية فولسوم.

عندما علم موريل بهذه الحقيقة، قرَّر على الفور أن يذهب إلى السِّجن ويحرِّر إيفانز، وبعد فترةٍ طويلةٍ قضاها في مراقبة السِّجن، علم أنَّ إيفانز كان يحصل على وجباته من أحد المطاعم، فابتكر خطَّةً تمكِّنه من الوصول إلى المكان بسهولةٍ وتهريب إيفانز. وفي ليلةٍ مظلمةٍ وممطرةٍ، ارتدى موريل مئزر نادلٍ وسارع في الذَّهاب إلى مطعم آخر قريبٍ أيضًا من السِّجن، وطلب صينيَّة طعامٍ أُعدَّت له على عجل، ثمَّ شقَّ طريقه إلى السِّجن، ومرَّت بضع

دقائق قبل أن يحين موعد قدوم النَّادل الأصليِّ مع وجبة إيفانز المسائيَّة، وعند ظهور رجلٍ يرتدي مئزرًا أبيض ويحمل صينيَّةً بيده، فتح السَّجَّان الباب على الفور. أخفى موريل مسدَّسين محشوَّين بالرَّصاص على الصِّينيَّة وغطَّاهما بمنديل، وكانت خطَّته تتمثَّل في جعل إيفانز يستولي على هذين المسدَّسين فور تقديمه الطَّعام له فيشهرهما في وجه السَّجَّان. ولكن مع تقدُّمهما نحو الممرِّ الذي توجد فيه زنزانة إيفانز، اكتشف السَّجَّان فجأةً أنَّه كان نادلًا غريبًا، فتوقَّف ليستعلم عن الأمر. أدرك موريل على الفور خطورة الموقف. إذا رفع السَّجَّان المنديل واكتشف المسدَّسين، فلن تفشل الخطَّة فحسب، بل ستنقلب الآية عليه. لذلك، عندما توقَّف السَّجَّان، أسقط موريل الصِّينيَّة، وأخرج مسدَّسًا من جيبه وأمر السَّجَّان برفع يديه.

انصاع الرَّجل المصدوم لأمره. ثمَّ أمره موريل بإدارة ظهره لينزع منه أسلحته ومفاتيحه. سار الرَّجل إلى زنزانة إيفانز الذي كان ينتظره وفتحها، ثمَّ قاما بتقييد السَّجَّان ليمنعاه من الصُّراخ طلبًا للمساعدة، ثمَّ نجحا في الخروج من السِّجن.

كان هناك أكثر من مئة سجينٍ محتجزين في السِّجن في ذلك الوقت، وكانت أحكامهم تتراوح بين السَّنة والمؤبَّد، ولكن لم يفكِّر أحدٌ منهم بالهرب من السِّجن من قبل، ولم يتجرَّأ أحدٌ منهم على فعل ذلك سوى موريل، ولكن لم يُنسب إليه الفضل في ذلك مطلقًا.

بعد خروجه إلى الشَّارع، مشى موريل بضعة خطواتٍ للأمام، وقاد الطَّريق إلى المكان الذي تنتظره فيه عصابته. تبعه إيفانز مصطحبًا معه السَّجَّان المقيَّد، وعلى بعد مسافةٍ قصيرةٍ من السِّجن صادفوا في طريقهم قائد الشُّرطة برفقة رجلٍ آخر. شعر قائد الشُّرطة بالشَّكِّ حيالهم وحاول إيقافهم، ولكنَّ موريل أشهر مسدَّسه على الفور في وجهه، وحدث اشتباكٌ بين إيفانز والشُّرطيِّ المرافق للقائد، وبين قائد الشُّرطة وموريل، وانتهى الاشتباك بتقييد موريل

والإمساك به. أمر إيفانز القائد بترك موريل، وهدَّده بإطلاق النَّار عليه إن لم يفعل ذلك، ولكنَّه لم يفعل، فأطلق عليه إيفانز النَّار، ثمَّ شقَّ الهاربان طريقهما للخروج من فريسنو سيرًا على الأقدام، وصادفا العصابة في ضواحي المدينة وذهبوا جميعًا إلى التِّلال التي تبعد ثلاثين أو أربعين ميلًا عن فريسنو، وتمكَّنوا من التَّسلُّل عبر المزارع التي صادفوها في طريقهم، وبعد يومين من التَّعب المضني نجحوا في صعود الجبل والاختباء هناك.

ثمَّ بدأت واحدةٌ من أكثر عمليَّات المطاردة شهرةً في العصر الحديث، وبعد عدَّة مناوشاتٍ ومعارك في منطقة الجبل استُدرِجَت العصابة إلى فخٍّ بالقرب من فيساليا ونجحوا في محاصرتهم. تجوَّل إيفانز حول المكان لبضعة ساعات، ولكنَّه استسلم في النِّهاية وسلَّم نفسه، ونُقل في اليوم التَّالي إلى فولسوم، حيث حُكم عليه بالسَّجن مدى الحياة، ووُضِع موريل في الحبس الانفراديِّ في سجن فريسنو، وبعد شهرين من الجهود الحثيثة لإجباره على الاعتراف، والتي قاسى خلالها شتَّى أنواع العذاب، نجح المسؤولون في النَّيل منه وإضعافه، وطالبوا بإرساله إلى المحكمة. كانوا يعتقدون أنَّه سيفيدهم في معرفة أسرار العصابة، وكانوا مصمِّمين على أخذ جميع الاعترافات منه، ولكنَّه التزم الصَّمت. استمرَّت المحكمة ثلاثة أيَّام، ثمَّ صدر حكم إدانته بالسَّرقة، وحُكِم عليه بالسَّجن مدى الحياة.

قد تتساءل: «لماذا حكموا عليه بالسَّرقة؟» سأقول لك ببساطة. لقد سرق موريل المسدَّس من السَّجَّان. صحيحٌ أنَّه لم يأخذ السِّلاح لقيمته الجوهريَّة ولكن ليمنع السَّجَّان من استخدامه ضدَّه، ولأنَّ عقوبة مساعدة السَّجين على الهرب لا يتعدَّى حكمها العشر سنوات، بينما تصل عقوبة السَّرقة إلى السَّجن المؤبَّد، ارتأت المحكمة أن تنزل به أقصى عقوبةٍ ممكنةٍ وتحكم عليه بتهمة السَّرقة.

نُقل موريل إلى سجن فولسوم حيث عومل معاملةً قاسية. قال الضُّبَّاط

الذين سلَّموه لمسؤولي السِّجن: إنَّه «رجلٌ سيِّئٌ» للغاية وإنَّه يخطِّط للهرب من اليوم الأوَّل. أدَّى ذلك إلى زرع الجواسيس حوله، وكانوا يبلِّغون عنه إذا ارتكب أبسط مخالفةٍ للقوانين، فتقوم إدارة السِّجن باستدعائه ومعاقبته، وبقي موريل يتردَّد سنتين بين الزِّنزانة والسُّجون الانفراديَّة، ثمَّ تقرَّر نقله إلى سان كوينتين. من الغريب أن تقوم إدارات السِّجن دائمًا بنقلِ السُّجناء الذين يخشون سوء أفعالهم إلى سجونٍ أخرى. لعلَّ فرصة التَّخلُّص منهم تبدو لهم مغريةً جدًّا، ولا تعنيهم حقيقة أنَّهم سوف يتسبَّبون بالمشاكل للسُّجون الأخرى، وفي تجربتي الخاصَّة، رأيت الكثير من الرِّجال السَّيِّئين الذين كانوا ينتقلون إلى سجننا من وقتٍ لآخر، آخرهم كان ذلك الرَّجل الذي نُقِلَ من فولسوم إلى سان كوينتين وتسبَّب في مقتل اثنين من السُّجناء قبل أن يكتشف الطَّبيب أنَّه يعاني اضطراباتٍ عقليَّةً ويرسله إلى مصحَّة الأمراض العقليَّة.

عندما انتقل إد موريل إلى سجن سان كوينتين، وقعت له أكبر مأساةٍ في حياته.

الفصل السَّادس عشر

خلال الأسبوع الأوَّل من إطلاق سراح موريل من «جناح الفاسدين»، سُمح له بالبقاء في الفناء دون مطالبته بالعمل. ثمَّ حصل أمرٌ أثار دهشة الجميع، فقد عيَّنه المأمور الجديد مسؤولًا عن حمل المفاتيح، وهذا أكثر منصبٍ موثوقٍ ومرموقٍ يمكن للسَّجين أن يحصل عليه، ومثل هذا الأمر لم يحصل من قبل في السِّجن، وراحت التَّكهُّنات والشَّائعات حول سبب هذا التعيين تنتشر بين جميع السُّجناء.

لقد جرت العادة أن يعمل السَّجين في مطحنة الجوت فور خروجه من السِّجن الانفراديِّ، ويمكن أن يبقى في ذلك العمل بقيَّة حياته، وإذا حالفه الحظُّ، وخدم لسنواتٍ طويلةٍ في المصنع، مع سجلٍّ مثاليٍّ ونظيفٍ، فيمكن للرَّجل الخارج من «جناح الفاسدين» أن يمنِّي نفسه بالحصول على منصبٍ محترم، وحتى أولئك الذين حصلوا على هذه الفرصة كان السُّجناء ينظرون إليهم دائمًا بدرجةٍ معيَّنةٍ من الشَّكِّ والتَّخوُّف، ونادرًا ما كانت المناصب الممنوحة للسُّجناء جيِّدة.

المسؤول عن حمل المفاتيح هو مساعد الرَّقيب اللَّيلي. تتمثَّل واجباته في حمل المفاتيح إلى جميع الزَّنازين بعد الإغلاق ومرافقة الرَّقيب في جولاته لفتح وإغلاق أبواب الزَّنازين، وقد يسبق المراقبَ ليفتح الزِّنزانة التَّالية ويحصي السُّجناء الموجودين فيها ويطابق أسماءهم مع اللَّائحة المرفقة على الباب. ويعمل حامل المفاتيح في ساعاتٍ منتظمةٍ، ومن المفترض أن

يكون متاحًا في أيِّ وقتٍ يُطلَب فيه، وخاصَّةً في حال حدوث طارئٍ ما، كنشوب حريقٍ في جزءٍ من السِّجن، أو وقوع شجارٍ في الزَّنازين، أو استدعاء المستشفى له لنقل سجينٍ متوفًّى إلى المشرحة. بغضِّ النَّظر عن السَّاعة التي يموت فيها الرَّجل في مستشفى السِّجن، يجب نقل جثَّته على الفور إلى المشرحة.

ينتهي دوامُ العمل الرَّسميُّ لحامل المفاتيح في تمام السَّاعة 9 مساءً، عندما يطفئ الجميع مصابيحهم، ولكن يجب أن يستيقظ قبل رنين الجرس في الصَّباح لكي يفتح الزَّنازين ثمَّ يعيد كلَّ مفتاحٍ إلى مكانه الصَّحيح.

وخلال النَّهار يعمل حامل المفاتيح في خدمة رئيس الفناء، ويساعد الحرَّاس في نقل السُّجناء إلى السُّجون الانفراديَّة، ويرسل الرَّسائل عندما يكون سعاة البريد العاديُّون مشغولين، ويساعد أيضًا في استقبال السُّجناء الجُدُد، وتتمثَّل إحدى واجباته في حفظ حاجيَّات السَّجين الجديد في الأماكن المخصَّصة لذلك، وجعل نفسه مفيدًا بشكلٍ عام. إنَّها مهمَّةٌ شاقَّةٌ تتطلَّب رجلًا يتمتَّع بلياقةٍ بدنيَّةٍ جيِّدةٍ وبعقلٍ متَّزن.

يستغلُّ شاغلو هذا المنصب السَّيِّئون نفوذهم على بقيَّة السُّجناء، وتُتاح لهم فرصةٌ أكبر للقيام بأفعالٍ قذرةٍ لا حدود لها. يمكن للرَّجل الصَّالح في هذا المنصب أن ينجز الكثير من الأفعال الطَّيِّبة التي من شأنها أن تجعل الحياة أقلَّ بؤسًا أمام من يخالفون قواعد السِّجن؛ وبالمثل يمكن للرَّجل السَّيِّئ أن يجعل الحياة شيئًا لا يطاق أمام الجميع.

عندما تأكَّد خبر تعيين موريل بهذا المنصب، عمَّت الفوضى جميع أنحاء السِّجن. رأى الحرَّاس والضُّبَّاط أنَّ المأمور اتَّخذ قرارًا غبيًّا، وأنَّه سيندم على اليوم الذي وثق فيه برجلٍ مثل موريل، بينما رأى السُّجناء أنَّ موريل قد شقَّ طريقه للحصول على تضامن المأمور من خلال إفشاء بعض أسرار «الاستراحة» المتوخَّاة ومُنِحَ تلك الوظيفة كمكافأةٍ إضافيَّة.

لم تثبت صحّة أيٍّ من هذه التّخمينات والتّنبّؤات.

بحكم وجودي في غرفة الملابس المجاورة للمكتب، كنت على تواصلٍ مستمرٍّ مع موريل كلَّ مساء، ويمكنني أن أقول بلا مبالغةٍ إنّني لم ألتق في حياتي رجلًا أطيب قلبًا منه، وأكثر إنصافًا في الحكم على الآخرين، أو أكثر قدرةً على تطبيق العدالة وفقًا لإحساسه الصّادق، منه.

لقد مكّنته معاناته الخاصّة من تقدير معاناة الآخرين بشكلٍ كاملٍ، ومرّةً بعد مرّةٍ رأيته ينتهز فرصًا من شأنها أن تكلّفه منصبه وقد تعيده إلى «السّجن الانفراديّ» من جديد. سخّر موريل سلطته لغرضٍ واحدٍ فحسب وهو التّخفيف من البؤس أو العقاب المُنزَل بالسّجناء الآخرين.

لم يتغيّر موريل مطلقًا، ولم يكن من المفترض له أن يفكّر بعقليّة السّجين، خاصّةً وأنّه كان يعبّر عن أفكاره بصوتٍ مرتفع. إنّ التّفكير بعقليّة السّجين مؤشّرٌ إمّا على «الإجرام» وإمّا على التّعاطف الرّوحيّ مع المجرم.

بدا أن كسر روح الإنسان هو الهدف الرّئيس من السّجن في تلك الأيّام، وما يزال الأمر كذلك إلى حدٍّ كبير، وإن كان المأمور الحاليّ لسجن سان كوينتين حالة استثناء. فمعاملته للسّجناء تشير إلى أنّه يؤمن بتطويرهم لا بسحقهم، وأنّه يؤمن بأنّ صفاتٍ مثل الاستقلال، والمبادرة، واحترام الذّات ينبغي تنميتها لا خنقها. ربّما تعلّمت من «إد موريل» أكثر ممّا تعلّمت من أيّ سجينٍ آخر تعاملت معه. صحيحٌ أنّني تعلّمت الكثير من سموكي، وفي مواقف عديدةٍ ذكّرني موريل بقوّته وخبرته، إلّا أنّ مواقف سموكي كانت سلبيّةً، بينما كانت مواقف موريل إيجابيّة.

في غضون أيّامٍ قليلةٍ من صدور قرار تعيينه، بدأ موريل يهتمّ بصحّته وباستعادة قوّته، وقبل موعد إطلاق السّراح المشروط لحامل المفاتيح السّابق، كان موريل قد ألمّ بكلّ تفاصيل واجباته وأصبح مستعدًّا تمامًا للبدء

بعمله الجديد، ولاحظت أنَّ صوته قد علا قليلًا، ومع أنَّه لم يعد كما كان عليه قبل خمس سنوات، إلَّا أنَّه تمكَّن في وقتٍ قصيرٍ من إجراء محادثةٍ على مسافة عشرة أو خمسة عشر قدمًا.

لم يحدث ذلك إلَّا بعد أن عرفته لعدَّة أشهرٍ وتعلَّمنا أن يفهم أحدنا الآخر ويثق به لدرجة أنَّه أخبرني بالحقائق التي أدَّت إلى حبسه في «السِّجن الانفراديِّ» لمدَّة خمس سنوات. كنت قد سمعت العديد من الرِّوايات عن هذه القضيَّة خلال «استراحة اللَّيل الكبيرة»، ولكن لم أتمكَّن أبدًا من معرفة الرِّواية الصَّحيحة الكاملة، فقد كانت تلك الرِّوايات تفتقد الدَّافع، أو تحتوي على العديد من الهفوات والأمور المستحيلة، أو أنَّ فيها حلقةً مفقودةً تثير الشَّكَّ في مصداقيَّتها. كنت أعرف أنَّ السَّيِّد هاري إيستوود هوبر ـ المزوِّر الذَّكيَّ الذي خدع عددًا من أفضل رجال الأعمال في سان فرانسيسكو وجعلهم يظنُّونه نبيلًا إنجليزيًّا قبل أن يتمَّ القبض عليه وحبسه في سجن سان كوينتين ـ كان الخائن اللَّدود الذي وشى بموريل، ووشى بعشرات السُّجناء الآخرين، واتَّهم كثيرين بالتَّآمر للهرب من السِّجن، لكي يُزَجَّ بهم في السُّجون الانفراديَّة ويُعَذَّبوا بطرقٍ أخرى، واستخدم هذه الطَّريقة ضدَّ موريل؛ ولكن لم أفهم أبدًا سبب معاقبة هوبر وحرمانه من امتيازاته، فلم يكن من المعقول أن يُعاقَب الرَّجل الذي كشف هذه المؤامرة الهائلة للهرب الجماعيِّ من السِّجن. صحيحٌ أنَّني لم أر هوبر قطُّ، على الأقلِّ ليس في ذلك الوقت، ومع أنَّه عاد في وقتٍ لاحقٍ إلى السِّجن بتهمة تزويرٍ أخرى، أو بالأحرى بسبب حنثه باليمين في عمليَّة تزوير، إلَّا أنَّني شعرت نوعًا ما أنَّه قد اتُّهم ظلمًا، وأنَّ ثمَّة دخانًا غامضًا في تلك القضيَّة، كما اعتاد سموكي أن يقول. اعتقدت أنَّه كان كبش الفداء وأنَّ ثمَّة شخصًا آخر معنيًّا بتلك المؤامرة وأنَّه المخبر الحقيقي. ولكن سرعان ما حرمني موريل من التَّفكير بهذه الأوهام التَّعاطفيَّة، وبدأ يسرد لي وقائع المأساة بشكلٍ تدريجيٍّ، ولكن حتى ذلك الحين كان الأمر معقَّدًا للغاية

ومربكًا وغير قابلٍ للتَّصديق لدرجة أنَّني غالبًا ما كنت أشكِّك بمصداقيَّته. أقلقتني القصَّة وبدأت أنظر إلى موريل في بعض الأحيان بشيءٍ من انعدام الثِّقة، وفي النِّهاية شعر بي، وأراد أن يوضِّح جميع الأمور التي التبست عليَّ، وذات ليلةٍ، عندما كان الجميع محبوسين وكنَّا في المكتب وحدنا، روى القصَّة من البداية إلى النِّهاية. سأحاول أن أرويها كما رواها لي، مستخدمًا كلماته الخاصَّة بقدر ما تسمح به الذَّاكرة.

«يجب أن تتذكَّر أنَّه عندما تمَّ نقلي من فولسوم إلى سان كوينتين، كان هناك أملٌ ضئيلٌ في الخروج. يوجد بالطَّبع قانونٌ يسمح بالإفراج المشروط، ولكنَّك تعرف كيف كان يطبَّق في تلك الأيَّام. لا ينجح في الخروج سوى اثني عشر سجينًا من أصل ألفي سجين، لذلك كانت فرصة الحصول على إفراجٍ مشروطٍ أشبه بفرصة الحصول على لقب ملك إنجلترا، وبطبيعة الحال، أردت الخروج. لم أرغب في البقاء في السِّجن إلى أن أصبح عجوزًا على حافَّة القبر، أردت أن أحظى بفرصة العيش كإنسانٍ طبيعيٍّ، كما أراد الله، أو كما أراد من أدخلني إلى هنا كائنًا من كان.

«في الطَّريق من فولسوم، فكَّرت كثيرًا. كنت أعلم أنَّ جميع الحرَّاس سيكونون مستنفرين ضدِّي، ولكنَّني اتَّخذت قراري بالهرب من السِّجن حتى لو أُتيحت أمامي نصف فرصةٍ لفعل ذلك. لم أشعر بأنَّني أستحقُّ هذه الحياة، ولو أنَّني قمت بتهريب سجينٍ وقت الحرب لكنت بطلًا في نظر الجميع، ولكن لأنَّني هرَّبت سجينًا في وقت السِّلم أصبحت في نظرهم مجرمًا شرِّيرًا وهمجيًّا. هل فكَّرت في هذا الأمر من قبل؟

«مع مرور الوقت أصبح لديَّ الكثير من الأصدقاء في السِّجن، واتَّخذت أسرع وأضمن طريقةٍ لإخراجهم، وهذا ما جعلني خارجًا عن القانون، وأصبحت مساويًا للرَّجل الذي يُطلق النَّار على الآخرين وينهي حياتهم. حاولت أن أرى الجانب الآخر بالطَّبع، وأنَّني على يقينٍ بأنَّ القانون والنِّظام

أمرٌ ضروريٌّ، ولكن لو كنت قاضيًا لوضعت في الاعتبار دوافع الرَّجل وجميع الظُّروف التي دفعته إلى ارتكاب الجريمة قبل أن أحكم على حياته.

«يا إلهي، انظر إلى حال القضاء اليوم. إنَّه لا يفيد أيَّ شخص. إنَّني أنظر حولي كلَّ يومٍ وأرى زملائي الشَّباب يفعلون كلَّ شيءٍ ابتغاءَ أن يعيشوا حياةً كريمةً. بعضهم يحصل على بضعة دولاراتٍ تافهةٍ لكي يشتري طعامًا أو يحصل على مكانٍ ينام فيه، ثمَّ يُلقَى القبضُ عليهم ويحبَسون لسنواتٍ طويلة. يدهشني صمودهم في هذا المكان رغم كلِّ شيء، ولكن لا أريد أن أبتعد عن قصَّتي.

«بعد يومٍ من وصولي إلى هنا، أرسل الحرَّاس في طلبي وأخذني المأمور إلى مكتبه الخاصِّ. جلس على مكتبه ونشر ملفًّا من الورق أمامه، وتركني واقفًا في منتصف الغرفة.

قال لي: «موريل، أريد أن أحيطك علمًا بما ستواجهه هنا منذ البداية. هذا هو ملفُّك الجنائيُّ في فولسوم. قد تعتقد أنَّك رجلٌ سيِّئٌ، ولكن أريد أن أحذِّرك أنَّك في اللَّحظة التي سترتكب فيها أيَّ حماقةٍ هنا، ستعتقد أنَّ فولسوم جنَّةٌ قياسًا بهذا المكان».

قلت: «كلَّا، كلَّا! لن أفعل شيئاً».

حاولت أن أقول شيئًا ولكنَّه قاطعني قائلًا: «إنَّني أتحدَّث الآن. كلُّ ما عليك فعله هو الاستماع والإصغاء جيِّدًا. نحن نراقب كلَّ خطوةٍ تخطوها، وأيُّ حركةٍ خاطئةٍ سترسلك إلى السِّجن الانفراديِّ، وسيصدمك ما ستراه هناك. إنَّ وقعه أشدُّ من العاصفة على البشر».

حاولت التَّحدُّث مرَّةً أخرى. أردت إخباره أنَّني قرَّرت أن أعيش في السِّجن دون مشاكل، ولكنَّه أوقفني مرَّةً أخرى.

قال: «هيَّا، ارجع إلى عملك. لا أريد أيَّ مشاكل هنا، أتفهم؟».

«كنت ما أزال راغبًا في التَّحدُّث، ولكنَّني خنقت العبرة في داخلي ونظرت إليه نظرةً طويلة. ثمَّ استدرت إلى الشُّرفة وبدأت بالتَّذمُّر، وفي تلك اللَّحظة فحسب، تغيَّرت جميع قراراتي الجيِّدة إلى أخرى سيِّئة. إذا كانت هذه هي الطَّريقة التي بها استقبلني المأمور على أرضه الخاصَّة، فيجب أن يعلم أنَّه إذا لم يسمح للمجرم بالتَّحدُّث بلسانه، فإنَّه سوف يتحدَّث بأفعاله، وهكذا اتَّخذت قرارًا بالانتقام من هذا المكان حتى لو كلَّفني ذلك حياتي.

«حسنًا، مضت الأمور على ما يرام لبضعة أسابيع أخرى. كنت أستلقي طوال الوقت، وأدرس الموقف بكلِّ إيجابيَّاته وسلبيَّاته. بالطَّبع كنت أعرف السَّلبيَّات جيِّدًا، وكنت أعلم أنَّني يجب أن أكون حريصًا مع الذين سأتحدَّث معهم وأمنحهم ثقتي.

«في أحد الأيَّام، بعد حوالي شهرٍ من وصولي إلى هنا، اتَّهمني أحد الحرَّاس بافتعال التَّزاحم في أثناء الاصطفاف في الطَّابور وأرسلني إلى المكتب. لم أفتعل أيَّ تزاحمٍ. كان هناك رجلٌ ورائي، ولكنَّه تقدَّمني ولم يصغ إليَّ. تحمَّس المأمور عندما رآني وقال:

«ها أنت ذا! لا يمكنك أن تحسن التَّصرُّف من تلقاء نفسك، أليس كذلك؟»، والتفت إلى الحارس وسأله: «ماذا فعل؟».

قال الحارس: «إنَّه يدفع السُّجناء ويحدث اضطرابًا في الطَّابور. إنَّه سجينٌ سيِّئٌ، وقد كنت أراقبه لعدَّة أيَّام».

وبعد ذلك، ودون أن ينبس ببنت شفة، التفت المأمور إلى الملازم الواقف بالقرب منه حاملًا عصاه:

«أرسله إلى السِّجن الانفراديِّ لثمانٍ وأربعين ساعة»، قال ذلك ثمَّ أدار ظهره وخرج من المكتب.

«حسنًا، كنت أعلم أنَّه لا فائدة من المقاومة، وذهبت إلى العقاب كالحمل الوديع، ولكنَّ نيران الجحيم كانت تشتعل في داخلي. لقد صفعوني في

الزّنزانة، وقيّدوني بالسّلاسل المعلّقة بالحائط، وبقيت هناك يومين كاملين دون أن أحصل على شيءٍ سوى الخبز والماء. لقد حصلت على هذا العقاب بلا ذنبٍ منّي، دون أن تتاح لي الفرصة للدّفاع عن نفسي.

«وعندما خرجت، كنت حاقدًا على ذلك الحارس بالطّبع، ولم أضيّع أيّ فرصةٍ لأُظهر له مدى كرهي له، وفي كلّ مرّةٍ كنت أقابله فيها، كنت أحدّق في وجهه باحتقار. صحيحٌ أنّ هذا لم يعد عليّ بأيّ نفع، بل على العكس من ذلك، ازدادت قسوة الحارس عليّ، وافتعل مشكلةً معي مرّةً أخرى.

«ما المشكلة الآن؟»، سألنا المأمور عندما صعدنا إلى الشُّرفة.

«أوه، هذا المتخلّف يحاول إثارة المشاكل طوال الوقت، وهو يراقبني باستمرار. إنّه أسوأ سجينٍ في القسم الخاصّ بي يا حضرة المأمور».

«كنت أعلم أنّه لم يكن هناك أيُّ فائدةٍ من قول أيِّ شيء. لاحظ المأمور أنّني كنت أشعر بالاستياء، ولذلك طلب منّي أن أوضّح الأمر. يمكن لأيِّ شخصٍ أن يعرف أنّني كنت أشتعل من الدّاخل من مجرّد النّظر إليّ، وأفترض أنّه اعتقد أنّه سيجعلني أغضب أكثر فأكثر. ولكنّني لم أشارك في لعبته، ووقفت هناك دون أن أنبس ببنت شفة.

قال المأمور: «حسنًا، عندما يتحدّث إليك الضّابط عليك أن تجيبه على الفور، أتفهم؟ أخبرني بماذا كنت تفكّر؟».

«جعلني كلامه أزداد غضبًا، وعرفت أنّني إذا فتحت فمي فسأشتم هذا الحارس بأقذع الشّتائم. لذلك وقفت ونظرت إليه، متظاهرًا بالابتسام، كما لو أنّني شعرت بالملل حتى الموت. كنت أعرف أنّ ذلك سيستفزُّ المأمور، وهذا ما حصل. لقد رفع عصاه الصّغيرة كما لو كان سيضربني، متوقّعًا أن أتراجع أو أن أراوغ، ولكنّني لم أتوقّف عن التّبسُّم. وسرعان ما أمر الملازم بأن يضعني في «السّجن الانفراديّ» لمدّة أسبوعٍ وقال:

«واحرص على ألَّا يحصل على الكثير من الخبز والماء».

«حسنًا، استمرَّ النَّسج على هذا المنوال لمدَّة شهرين أو ثلاثة أشهر، وقضيت معظم الوقت مقيَّدًا بالسَّلاسل في السُّجون الانفراديَّة، ثمَّ أخبرني صديقٌ لي كان يعمل بالحراسة بحقيقةٍ فتحت عينيَّ على كلِّ شيء. كان صديقي يعرف الحارس جيِّدًا وذات يومٍ سأله بشكلٍ عفويٍّ:

«كيف تسير الأمور في السِّجن؟».

«أوه، على نحوٍ جيِّد، ولكن أصبح لدينا بعض الأعداء اللَّدودين هنا. لقد دبَّرت لأحدهم مكيدةً ليداوم على الذَّهاب إلى السِّجن الانفرادي. إنَّه واحدٌ من أفراد عصابة إيفانز، أولئك الأوغاد الذين قتلوا ابن عمِّي عندما حاصرهم بالجبل، وأريد أن آخذ بثأره من جلد ذلك الرَّجل».

«عندما جاء صديقي إلى المصنع في صباح اليوم التَّالي، نظر إليَّ وانفرد بي ليخبرني بما سمعه. وعندما عرفت الحقيقة أصابني ذلك بالجنون. في البداية فكَّرت في الحصول على مطرقةٍ أو سلاحٍ لأقتل ذلك الحارس الذي كان يترصَّدني، ولكنَّني لم أفعل. قرَّرت أن أفضح أمره. فذهبت إلى مكتب المأمور عندما كان الحارس موجودًا هناك، وحاول منعي من التَّحدُّث إليه، ولكنَّني لم ألق أيَّ بالٍ لما سيحصل. لا أتذكَّر بالضَّبط ما قلته، ولكنَّني أخبرته بما أعرفه، وكيف تفاخر هذا الحارس أنَّه كان ينتقم منِّي لما حصل لابن عمِّه، وأنَّه هدَّد بأنَّني إذا أزعجته في المرَّة القادمة فسوف يقتلني بطريقةٍ بشعةٍ لدرجة أنَّ أهوال القيامة لن تؤثِّر بي.

«كانت تلك المرَّة الأولى التي تحدَّث المأمور فيها بلطفٍ معي، ولكن بعد فوات الأوان. لقد عاملني مثل كلبٍ، وما فعله لا يمكن محوه بكلمةٍ طيِّبة، خاصَّةً عندما علمت أنَّ لطفه لم يكن نابعًا من قلبه وأنَّه كان حريصًا على فضح ذلك الحارس منذ البداية وأخذ الفضل في كشف مكائده. أوه، لقد كان أمره مكشوفًا مثل كتاب مفتوح.

«نتيجةً لما حصل، نُقل الحارس من المطحنة إلى البوَّابة الخارجيَّة، ولم تُتح لي فرصة اللِّقاء به مرَّةً أخرى. ولكنَّني كنت ممتلئًا بالكراهية، وكنت أكثر تصميمًا من أيِّ وقتٍ مضى على جعلهم يرقصون على موسيقاي بدلًا من أن أرقص على إيقاعهم. شعرت وكأنَّني أستطيع الوقوف وحدي في مواجهة العالم كلِّه لأنتصر عليه.

«وكان هذا الشُّعور الذي نمَّاه الظُّلم في داخلي قد مهَّد الطَّريق لتورُّطي مع السَّيِّد هاري هوبر.

«لقد تعرَّفت على السَّيِّد هاري هوبر عن طريق أحد السُّجناء المزوِّرين في فولسوم. في البداية لم أشعر بالإعجاب نحوه. كانت هناك مبالغةٌ زائفةٌ في صوته ونوعٌ من نظرات الاحتقار في عينيه، كتلك التي تراها في عيون وكيل الرُّهونات. سرعان ما خدعني بشخصيَّته الأنيقة، ولكنَّه علَّمني درسًا واحدًا، وهو أن أصدِّق أوَّل انطباعٍ يتكوَّن عندي تجاه أيِّ شخصٍ أقابله. وبعد تلك الورطة، صرت أطبِّق الدَّرس الذي تعلَّمته، ولم أعد أهتمُّ بكلِّ الصِّفات الخارجيَّة إذا شعرت أنَّ الشَّخص سيِّئٌ من الدَّاخل. كان أسلوب هاري الحنون واهتمامه المزعوم بي قد تغلغل إلى قلبي. إضافةً إلى ذلك، كان نحيفًا وسيِّئ المظهر، ولا تستطيع سوى أن تشعر بالشَّفقة عليه، كأنَّه يريد أن يخبرك بأنَّه رجلٌ نبيلٌ ولكنَّ الزَّمان جار عليه. أنت تعرف هذه النَّوعيَّة من النَّاس بلا شك. على أيَّة حال، تقرَّب منِّي هاري وأخبرني برغبته في الخروج من السِّجن، وأوكل لي مهمَّة التَّخطيط لذلك، ووثقت به لأنَّ أيَّ رجلٍ كان سيحتفظ بسرِّ هروبه من السِّجن مهما اقتضى الأمر، ودبَّرت مخطَّطًا لاختراق نظام إدارة السِّجن المنيع، ولأنَّني كنت في حاجةٍ إلى مزوِّرٍ جيِّدٍ في خطَّتي استعملت هاري لهذا الأمر، وبدأت أسعى لتوظيفه في مكتب الأمور. يبدو هذا مضحكًا، أليس كذلك؟ إنَّني أسوأ رجلٍ في هذا السِّجن، وسأرسل أفضل المزوِّرين ليعمل في مكتب المأمور.

«ولكنَّ الأمر لم يكن بهذه السُّهولة. لقد راقبت كيف تجري الأمور في السِّجن، وخلصت بنتيجةٍ أكيدةٍ، ثمَّ أخبرت هاري بأنَّ عليه أن يقوم ببعض الأعمال النَّافعة للمأمور كأن يحصل على معلوماتٍ سرِّيَّةٍ عن السُّجناء والحرَّاس المتآمرين، وأن يتودَّد إليه ويكسب ثقته. كنت أعرف أنَّه كان يتوق إلى التَّقرُّب من المأمور، وقد أعجبته خطَّتي كثيرًا. كان هاري يتعاطى المخدِّرات في ذلك الوقت، ومن خلال معارفي تمكَّنت من توفيرها له. وكنت أمدُّه بمخدِّراتٍ جديدةٍ كلَّ يومين أو ثلاثة أيَّام. وكنت أمدُّه بنصائح جديدةٍ من وقتٍ لآخر، وفي أقلِّ من شهرين حصل هاري على وظيفةٍ كمساعدٍ للمأمور. كان هذا هو ما أردته تمامًا، وانتهزت الفرصة لأخبره بمخطَّطي الكامل. كانت الخطَّة تقتضي أن يحصل هاري على السِّجلِّ الجنائيِّ الخاصِّ بي وبثلاثة سجناء آخرين، وأن يقوم بتزوير الحكم الموقَّع لكلِّ واحدٍ منَّا، ويكتب لنا بدلًا منه حكمًا بسنواتٍ أقلَّ، وعندما تتغيَّر إدارة السِّجن، ويطَّلعون على سجلَّاتنا، يُفرجون عنَّا وفق الأحكام المدوَّنة بالسِّجلِّ. كان من المقرَّر أن يغيِّر محكوميَّتي من السَّجن المؤبَّد إلى السَّجن تسع سنوات، وكان من شأن هذا أن يُخرجني بعد بضعة أشهرٍ من وصول الإدارة الجديدة. كان من المقرَّر تغيير أحكام الآخرين بالطَّريقة نفسها، الأمر الذي سيجعلنا نخرج من السِّجن جميعًا في الوقت نفسه. عندما شرحت كلَّ هذا لهاري، غرق في الضَّحك، ثمَّ وافق على الخطَّة وبدأ بالاشتغال عليها على الفور، وفي غضون أيَّامٍ قليلةٍ سلَّمني أربعة سجلَّاتٍ بيضاء، ولكنَّ ملفَّه لم يكن موجودًا بينها، فسألته عن السَّبب.

أجابني: «أوه، سوف أتدبَّر أمري لاحقًا».

«وكما ترى، لقد وظَّف هاري مزوِّرًا آخر ليساعدنا في هذه العمليَّة، وكان هذا الرَّجل يؤدِّي أعماله في زنزانته، وكنت أتركه وحده دون مراقبة، وهذا كان الخطأ الوحيد الذي ارتكبته. كان يجب أن أصرَّ على أن تتمَّ العمليَّة تحت ناظريَّ بالكامل.

«حسنًا، بعد يومٍ أو نحو ذلك، أعطاني هاري السِّجلَّات الأربعة، وقمت بتسليمها للرَّجل الَّذي كان من المقرَّر أن يقوم بعمليَّة التَّزوير، وبعد يومين استعدتها جميعًا. ليتك رأيتها! كان التَّزوير مثاليًّا. لقد احتوى على جميع التَّواقيع والأختام المطابقة للأصل. لا أعرف كيف فعل ذلك، ولكنَّني قارنت بين السِّجلَّات المزيَّفة وتلك الأصليَّة ولم أجد فرقاً بينها إلَّا في مدَّة المحكوميَّة. ربَّما لم أشعر بالسَّعادة المرجوَّة عندما رأيت سجلًّا يمنحني تسع سنواتٍ كاملةٍ بدلًا من السِّجن المؤبَّد، ولكنَّ الآخرين كانوا سعداء جدًّا.

«عندما تأكَّدت من أنَّ كلَّ شيءٍ يجري على ما يرام، أحرقت السِّجلَّات الأصليَّة في في زنزانتي مساءً، ثمَّ أعطيت هاري السِّجلَّات المزيَّفة. نظر إليها وقال:

«حسنًا! جيِّد! لقد كان بإمكاني أن أزوِّرها بنفسي. يجب أن ترى سجلِّي، إنَّه مثاليٌّ. بقي لي سنةٌ واحدةٌ فقط بدلًا من أربع سنوات، وسأخرج في غضون خمسة أشهر. سوف أقوم الآن بوضع السِّجلَّات الجديدة في مكتب المأمور، وستطبَّق الأحكام الجديدة عندما تبدأ الإدارة القادمة بالعمل. يمكنني إجراء جميع التَّغييرات النِّهائيَّة في ليلةٍ واحدةٍ عندما يحين الوقت».

«بشَّرت أعضاء العصابة بنجاح العمليَّة، وشعرنا جميعًا بالتَّناغم كأنَّنا شخصٌ واحد، فقد كنَّا راضين بالسَّنوات القليلة التي تبقَّت لنا في السِّجن. وبعد انتهاء العمليَّة ابتعدت عن أفراد العصابة اجتنابًا للمشاكل والشُّكوك، وقد آلمني ذلك كثيرًا، ولكنَّني كنت أقابل هاري من وقتٍ لآخر لأعطيه حصَّته المعتادة من المخدِّرات. ولاحظت أنَّه كان يعاملني بطريقةٍ مريبةٍ طوال الوقت، فقد بدأ يتصرَّف معي بطيبةٍ مبالغٍ فيها، وهنا بدأت الأمور تأخذ منحًى معقَّدًا. ليت بإمكاني أن أخبرك بالقصَّة كما حدثت تمامًا، ولكنَّني كنت نائمًا في زنزانتي في الظَّلام واستيقظت لأجد نفسي في السِّجن الانفرادي، ولم أعِ ما حصل إلَّا بعد مرور عدَّة أشهرٍ من انتهاء العمليَّة. لا يمكنك أن تخمِّن ما كان يدور في رأس ذلك الشَّيطان طوال الوقت.

«كان يعلم منذ البداية أنَّني كنت بعيدًا كلَّ البعد عن خداع إدارة السِّجن من خلال تغيير سجلِّي الجنائيِّ، فقد كان يعلم أنَّ ذلك مستحيل، لأنَّ كلَّ سجينٍ يأتي من خارج المنطقة يجب أن يحصل على براءة ذمَّةٍ موقَّعةٍ من الحاكم لكي يخرج من السِّجن، ولأنَّني كنت من سكرامنتو فيجب أن يشمل سجلِّي ذلك التَّوقيع، وبالطَّبع، كان من المستحيل الحصول على صورةٍ مشابهةٍ من تلك الورقة وتزويرها. لم أكن أعرف كلَّ ذلك، ولكنَّ السَّيِّد هاري كان يعرف كلَّ شيءٍ من البداية، ومع ذلك أخذ السِّجلَّات الأصليَّة وأعاد تلك المزيَّفة إلى أماكنها.

«لقد كان يخطِّط لمكيدته الخاصَّة طوال الوقت. أراد أن يمهِّد الطَّريق ليخرج من السِّجن وحده ويتركنا كالخرفان التَّائهة هنا.

جاء إليَّ ذات ليلةٍ وقال:

«سأترك العمل في مكتب المأمور يا إد، لقد أصابني ذلك الرَّجل بانهيارٍ عصبيٍّ، ولقد جعلته يظنُّ أنَّني أفضل رجلٍ يمكن أن يحصل عليه. أريد أن أعمل في المناوبات المسائيَّة. سيُحدث ذلك تغييرًا جيِّدًا في مسيرتي الوظيفيَّة، وأعتقد أنَّني سأقوم بنقل وجبات العشاء إلى حرَّاس اللَّيل دون أن أتسبَّب لنفسي بشيءٍ من المشاكل».

سألته غاضباً: «ولكن ماذا عن السِّجلَّات التي لم تتغيَّر بعد؟».

«صهٍ، صهٍ يا رجل!»، قال ذلك وهو يربِّت على كتفي ويضحك، «سوف يأخذ الأمر بعض الوقت، ما تزال أمامك سنواتٌ طويلة. إنَّني أعرف هذا من المكتب من الألف إلى الياء، وستسمح لي الوظيفة المسائيَّة بالذَّهاب إلى أيِّ مكانٍ في السِّجن. كلُّ ما عليَّ فعله هو التَّسلُّل إلى هناك ذات ليلةٍ عندما تكون الأجواء لطيفةً وهادئةً، وعندئذٍ سأقوم بإجراء التَّغييرات القليلة المتبقِّية. وهناك شيءٌ آخر يجب أن تعرفه أيضًا، لقد تركت هذه الوظيفة حتى

يحلَّ مكاني شخصٌ آخر، وعندما تكتشف الإدارة أمر هذه السِّجلَّات، فلن يقع اللَّوم عليَّ، لأنَّني لم أترك أثرًا خلفي، بل سيقع كلُّ اللَّوم على الموظَّف الجديد، ولكنَّ الأمور ستجري على ما يرام، لا تقلق».

«بدت خطوته محكمةً جدًّا، وقد أخبرته بذلك، ولكن بطريقةٍ ما شعرت في أعماقي بأنَّه كان يكذب، ولكنَّني لم أكن أعرف أنَّه كان يخطِّط للإيقاع بي، وبدت تصرُّفاته مثاليَّةً جدًّا على نحوٍ لا تستطيع معه أن تشكَّ بحسن نواياه. لذلك رفضت أن أصدِّق الإحساس الذي بداخلي. يا لي من مغفَّل!».

الفصل السَّابع عشر

«بعد يومين، افتعل السَّيِّد هاري نوبةً من الغضب والجنون وألقى بنفسه من الشُّرفة. نقله الحرَّاس إلى المستشفى، وشاع لغطٌ مبالغٌ فيه حوله، وبعد ثلاثة أيَّام من ملازمته الفراش، عاد إلى السِّجن، وأعطاه المأمور وظيفةً ليليَّةً في الموقع الذي أراده، وماذا تنتظر؟ لقد كان ذلك اللَّغط مسرحيَّةً محكمةً أتقن تمثيلها بالمشاركة مع المأمور.

«لقد أخبر هاري المأمور أنَّ هناك مؤامرةً كبيرةً تُحاك في اللَّيل، وأنَّه يتواصل مع منفِّذي تلك المؤامرة، وأنَّهم طلبوا منه مساعدتهم، وأمروه بأن يطلب من المأمور العمل في الوظيفة اللَّيليَّة ليكون حاضرًا في المكان نفسه والتَّوقيت نفسه ويقدِّم لهم المساعدة اللَّازمة.

«رأى المأمور أنَّ الإيقاع بتلك المؤامرة سيُبرز نجاحه في إدارة السِّجن، لا سيَّما وأنَّ عقده في العمل قد شارف على نهايته، وأنَّهم إذا تمكَّنوا من القضاء على مخطَّطٍ إجراميٍّ كبيرٍ في مهده، فسوف يمنحهم ذلك دفعةً قويَّةً، وقد يتمكَّنون من البقاء حتى الفترة القادمة من الانتخابات.

«في واقع الأمر، كان هاري قد أشرك سجينين أو ثلاثة سجناء في مكيدته، وأخبرهم أنَّه يشعر بالأسف لما سيحصل بهم، وأنَّه يرغب في تقديم نفسه فديةً لينقذهم من الحكم المُنزَل بهم. مهما اقتضى الأمر. أخبرهم بضرورة أن يحصل على الوظيفة اللَّيليَّة لأجل تنفيذ الخطَّة، ثمَّ أخبر المأمور أنَّه سيقوم بمسرحيَّةٍ ممنهجةٍ لينتقل إلى الوظيفة اللَّيليَّة دون أن يثير شكوك الرِّجال الذين لا يثقون به. هل فهمت اللُّعبة؟

«لقد خدع الجميع. جعلهم واثقين من أنَّ ما يفعله مجرَّد تمثيليَّةٍ وليس مكيدةً حقيقيَّةً كي يقوم الضُّبَّاط بنقله إلى العمل اللَّيليِّ، وأنا لم أكن أعرف شيئًا، كلُّ ما كنت أعرفه أنَّ هذا الرَّجل الدَّاهية أراد أن يغطِّي على آثار جريمته الشَّنعاء التي قام بها وهي عمليَّة التَّزوير.

«كانت فيه كلُّ صفات الشَّخص الخبيث الذي يتعامل بالحيل ويتلاعب بالآخرين ويحرِّكهم كيفما شاء. هدفه الأكبر أن يظهر وكأنَّه شهيد الشُّرطة الذي قام بمساعدتهم وضحَّى لأجلهم، وأنَّ ما يستحقُّه هو أن يقف عند بوَّابة السِّجن وفي جيبه حكم الإعفاء.

«في بداية حصوله على الوظيفة اللَّيليَّة بدأ السَّيِّد هاري يُخبر عن كلِّ شيءٍ يحدث في السِّجن، وقال للمأمور إنَّ العصابة انطلت عليهم حيلته فأخبروه بخطَّتهم كاملةً وأرادوا منه أن يقوم بترؤُّسها، وسأل المأمور عن موافقته وإن كان من الممكن قبول عرض العصابة. أخبر المأمور بأنَّ أحد رجال العصابة المتواطئين سيخونهم وسيأتي إليه ليخبره بكلِّ شيء. ثمَّ أفصح السَّيِّد هاري عن جميع الخطط أمام رجلٍ يعرف أنَّه سيقوم بالإبلاغ عنهم.

«لم أسمع طوال حياتي عن عمليَّة تواطؤٍ بهذه الدَّناءة، ومع هذا ما أزال أضحك كلَّما تذكَّرت ما فعله هذا الرَّجل وكيف استطاع التَّلاعب بالجميع. بعد أن نال هاري مراده قام مأمور السِّجن بتشديد الحراسة، ولم تتوقَّف حركة الحرَّاس بين الأقسام من الصَّباح إلى المساء.

«كان السَّيِّد هاري يذهب يوميًّا إلى مكتبهم كي يخبرهم بآخر المستجدَّات، وفي يومٍ من الأيَّام أخبرهم بأنَّه أصبح متعبًا ومرهقًا وغير قادرٍ على تحمُّل أعباء هذه التَّمثيليَّة، وأنَّ عليهم أن يستعجلوا في القبض على السُّجناء في أقرب فرصةٍ ممكنة، وفي الحقيقة لم يرغب هاري في القبض على السُّجناء في ذلك الوقت؛ وكلُّ مراده كان أن يظهر أمامهم بأنَّه الشَّخص الذي يحبُّ

خدمتهم ومساعدتهم. ومن جهةٍ أخرى استطاع أن يُشعل حماس السُّجناء ويدفعهم إلى التَّفكير بالمكيدة، وأخبرهم أنَّه سيقوم بتجريب الدَّواء على أحد الحرَّاس:

«سأقوم بوضع الدَّواء في قهوة أحدهم ليلة الأحد القادم حتى أتأكَّد من مفعول الدَّواء».

«من المتعارف عليه في السُّجون أنَّ من ينام في أثناء المناوبة يُطرد من عمله والجميع يعلمون هذا. فكَّر هاري أنَّ هذه الحيلة سوف تزيل أيَّ ذرَّة شكٍّ موجودةٍ لدى السُّجناء تجاهه، وأنَّهم سوف يتدافعون خلفه كالخراف.

«كان السَّيِّد هاري يطبِّب زوجة أحد الحرَّاس، ويُقال إنَّه درس الطِّبَّ وكان ملمًّا به أكثر من الطَّبيب المقيم في السِّجن، لذا كان الحارس يأخذه إلى بيته كي يعالج زوجته التي كانت مصابةً بمرضٍ عصبيٍّ حادٍّ، وكان يستخدم قطعةً مغناطيسيَّةً لعلاجها.

«وعلمت فيما بعد أنَّه كان يمتلك مكتبًا متخصِّصًا في العلاج في إحدى الولايات الشَّرقيَّة. أقنع هاري ذلك الحارس بأن يقوم بتهريب دواءٍ يحتاج إليه إلى داخل السِّجن وكتب له الوصفة كي يحضِّرها له، وقال له إنَّه علاجٌ لزوجته ولكن يجب أن يمزجه بمكوِّناتٍ أخرى.

«بعد عدَّة ليالٍ قام هاري بوضع الدَّواء المخدِّر في قهوة أحد الحرَّاس الذين لا يحبُّهم، فنام الحارس في أثناء مناوبته وطُرد من عمله. هل سبق أن رأيت شرًّا كهذا؟ لم يكتف بإقناع السُّجناء بأنَّ لديه مخدِّرًا قويَّ المفعول، بل إنَّه انتقم أيضًا من الشَّخص الذي يكرهه. إنَّه ليس سوى شيطانٍ على هيئة إنسان.

«لم يعلم المأمور بهذا الجزء من الخطَّة، وصدَّق أنَّ ذلك الحارس كان نائمًا بإرادته، ومع أنَّ الحارس حاول تبرئة نفسه إلَّا أنَّ أحدًا لم يصدِّقه.

«بدأ السَّيِّد هاري بالعمل على الجزء الثَّاني من خطَّته، وقال للمأمور إنَّ هناك مجموعة أسلحةٍ ستدخل السِّجن قريبًا وإنَّه يحاول أن يأخذها كلَّها. لم أفهم حتى الآن لماذا قام هاري بهذا الشَّيء؛ ولكن أظنُّ أنَّه أبحر بخياله بعيدًا. قال للمأمور إنَّ الأسلحة ستدخل عن طريق أحد الحرَّاس، وإنَّ العصابة ستدفع له خمسمائة دولارٍ ليقوم بتهريبها إلى الدَّاخل، ولكنَّ الحارس الذي تكلَّم عنه هاري لا يعلم أيَّ شيءٍ عن هذه الأسلحة. كلُّ ما في الأمر أنَّ حظَّه العاثر سيجعله ضحيَّةً جديدةً من ضحايا هاري، فقد أوهم هاري المأمور بأنَّ الحارس كان عميلًا مزدوجًا.

«كان هناك سجينٌ يعمل في مطبخ السِّجن، وقبل دخوله السِّجن كان يعمل شرطيًّا. ولكن حُكم عليه بالسَّجن عشر سنواتٍ لأنَّه قتل رجلًا مقابل مبلغٍ ماليٍّ. ولأنَّه كان يعمل سابقًا في قسم الشُّرطة، أصبح يتمتَّع بقدرةٍ كبيرةٍ على استشعار الأمور المريبة وتوقُّع الحوادث قبل أن تقع. وكان هاري يعلم هذا جيِّدًا، ولكي يعزِّز مكيدته مع المأمور، أصبح يتصرَّف بشكلٍ يدعو للرِّيبة ويتوخَّى الحذر أمام هذا الطَّبَّاخ ليوقعه في الشَّكِّ فيبدأ هذا الأخير بمراقبته، وكان كلَّما قابل أحد الحرَّاس طلب الانفراد به في ركنٍ منعزلٍ وراح يتحدَّث معه همسًا، ومع أنَّه كان يسألهم أسئلةً عاديَّةً جدًّا أو يخوض معهم في أحاديث تتعلَّق بأحوال الطَّقس، إلَّا أنَّ الطَّبَّاخ بدأ يرتاب بأمره وبأنَّه متواطئٌ مع الحرَّاس. ثمَّ قام الطَّبَّاخ بنقل هذه المعلومات إلى المأمور، فأمر المأمورُ الطَّبَّاخ بأن يراقب هاري ويخبره بكلِّ تحرُّكاته. لم يرتب المأمور بهاري أبدًا، ولم يكن يرغب في إخضاعه للمراقبة؛ ولكنَّه أراد أن يُلهي الطَّبَّاخ بفعل شيءٍ ما لكيلا يكشف المكيدة الكبرى، وأمره بالمراقبة كي يظنَّ أنَّه نجح في مساعدته».

يعلم هاري بكلِّ ما يحدث لأنَّ كلَّ ما يحدث جزءٌ من مخطَّطه.

سألني موريل: «هل استطعت أن تستوعب الآن ما حدث؟».

أجبته: «أجل... أظنُّ ذلك... أكملْ».

تابع موريل حديثه قائلًا: «من المؤكَّد أنَّ السَّيِّد هاري كان متواطئًا مع الحرَّاس، وكان يعلم أنَّ الطَّبَّاخ يراقب كلَّ تصرُّفاته كبيرها وصغيرها، وأنَّه قام بعمل فتحةٍ بين صالة الطَّعام والمطبخ لكي يراقب كلَّ شيء، وهذا بالضَّبط ما أراده هاري. أن تكون القصَّة محبوكةً حبكةً دراميَّةً كاملةً أمام المأمور مثلما كان يخبره تمامًا.

«لقد كانت خطَّة هاري محبوكةً بشكلٍ مثاليٍّ بحيث إذا رآه الطَّبَّاخ يتواطأ مع الحرَّاس فإنَّه سيذهب إلى المأمور ويخبره بكلِّ شيءٍ ظنًّا منه أنَّه يؤدِّي إليه خدمة. وهو لا يدري أنَّ هذا ما خطَّط له هاري حتى يجعل المأمور متأكِّدًا من سريان الخطَّة بنجاح.

«قام هاري بإخبار أحد الحرَّاس أنَّه سيعطيه عشرين دولارًا إذا أدَّى إليه خدمةً وقام بتهريب صندوق تبغٍ يزن خمسة باوندات عندما يذهب إلى مناوبته في المساء. كان الطَّبَّاخ يراقب من فتحة التَّجسُّس وسمع شيئًا كما أراد هاري.

«في اليوم التَّالي، انتظر السَّيِّد هاري أن يخبر الطَّبَّاخُ المأمورَ بكلِّ ما رآه ليلًا، وبعد أن خرج من عنده دخل إلى المأمور وأخبره بأنَّه قد استلم الأسلحة.

«لقد حصلت على الأسلحة وقمنا أنا وموريل بتخبئتها في الباحة السُّفليَّة. سيبدأ الاقتحام ليلةَ الأحد القادم».

«حصلت على ماذا؟»، سأله المأمور متوتِّرًا، «خبَّأت الأسلحة مع موريل؟ يا إلهي! هل جننت؟ اذهب وأحضرهم، أحضرهم بأقصى سرعةٍ ممكنة. ظننت أنَّك ذكيٌّ، كان عليك أن تحضرهم إليَّ فورًا أيُّها الأحمق».

«وهنا تظاهر هاري بالخوف.

«أنا آسفٌ يا حضرة المأمور. ظننت أنَّ الخطَّة كانت واضحةً من البداية. كانوا يعلمون أنَّ الأسلحة ستدخل اللَّيلة إلى السِّجن وإن لم أجلبها لهم فسوف يشكُّون بأمري».

«جرذا!» ردَّ المأمور قائلًا، «كان بإمكانك أن تقوم بإلهائهم ليومٍ أو يومين. لا يهمُّ الآن، لقد فات الأوان يا هاري. ولكن قد يكون بوسعك أن تتدارك هذه المصيبة إن أسرعت. اذهب واحفر المخبأ وأحضر الأسلحة إليَّ فورًا. ما الذي حلَّ بعقلك لتتصرَّف من تلقاء نفسك وتخبِّئ تلك الأسلحة في الباحة السُّفليَّة؟».

«اصطنع هاري الصَّدمة وأظهر النَّدم على خطئه الفادح. وهرع سريعًا نحو الباحة السُّفليَّة. وبالطَّبع لم يجد الأسلحة لأنَّها لم تكن موجودةً إلَّا في خياله. عاد هاري إلى المأمور شاحب الوجه. «يا إلهي يا حضرة المأمور»، قال جَزِعًا «لقد اختفت جميع الأسلحة... أرجوك لا تعاقبني... لم أقصد الإساءة... سنستولي عليهم مجدَّدًا ليلة الأحد القادم عندما نكشف المكيدة. وسيكون من السَّهل علينا الاستيلاء عليهم حينئذٍ».

«استشاط المأمور غضبًا وأراد أن يقطِّع هاري إلى أشلاء صغيرةٍ، ولكنَّه استعاد رشده مع مرور الوقت وأعاد التَّفكير برويَّةٍ وهدوء. لقد أدرك أنَّ الوضع وصل إلى مرحلةٍ ميؤوسٍ منها، وأنَّه لن يتمكَّن من استعادة الأسلحة في الوقت الحاضر، لأنَّ هذه العمليَّة ستكشف الخطَّة وتُظهر أنَّه كان متآمرًا مع هاري منذ البداية. ولكنَّه سرعان ما غضب مرَّةً أخرى وعنَّف هاري أكثر من ذي قبل. عندئذٍ تمكَّن هاري من تدارك موقفه مستخدمًا أمهر حيله الفكريَّة. «رودين» وغيره من المحتالين لا يشكِّلون نقطةً في بحر هاري، فعندما كان المأمور يعبِّر عن غضبه. أوقفه هاري وادَّعى أنَّ كرامته قد أهينت وأنَّه قد تأذَّى من كلامه. قال:

«لقد تعبت من كلِّ ما يحدث... بعد كلِّ ما فعلته لأجلكم لم أحصل إلَّا على الإهانات والتَّعنيف... تستطيع فعل ما تريده بي يا حضرة المأمور، ولكنَّني سأنسحب من هذه الخطَّة ولن أشارك بها أبدًا. إذا تركتني لأمري فسوف أتمكَّن من القبض على كلِّ أعضاء العصابة مع كلِّ الأسلحة التي

معهم، ولكن إذا كنت تظنُّ أنَّك حكيمٌ وذكيٌّ جدًّا، فتفضَّل... أكمل الخطَّة بنفسك... هذا كلُّ ما أستحقُّه منك. بعد كلِّ ما فعلته لأجلك. إذا علموا بما قمت به فسيقتلونني كالكلب. من المفترض أن تقوموا بحمايتي بدلًا من أن تعاملوني هكذا...».

كانت تمثيليَّةً احترافيَّةً بامتياز، وبالطَّبع انطلت على المأمور بنجاح. وقضى كلَّ وقته يعتذر من هاري ويتذلَّل إليه، وطلب منه ألَّا ينسحب من الخطَّة وأن يكملها حتى النِّهاية.

ردَّ عليه هاري: «سأكمل ولكن بشرط... أريد أن أحصل على عفوٍ من كلِّ التُّهم الموجَّهة إليَّ فور الانتهاء من هذه المهمَّة. حياتي كلُّها بين يديك، ووجودي هنا لا يقدِّم ولا يؤخِّر شيئًا. لقد قدَّمت لكم الكثير!».

«أخذ المأمور في التَّشاور في الأمر مع الحارس، وفي النِّهاية نجح هاري في الحصول على وعدٍ بالعفو.

«وافق هاري على الوعد المقدَّم له، وقال:

«سوف أعود إلى إكمال خطَّتي، ولكن دعوني أعمل بمفردي، فإذا استمرَّ الوضع على هذا النَّحو وواصلتم تدخُّلكم بمجريات الخطَّة فسوف نخسر كلَّ شيء. إنَّ ما فعلته اليوم كان خطأً كبيرًا. لقد رأتني العصابة عندما نزلت إلى المخبأ السِّرِّيِّ، ولا أعرف كيف سأبرِّر ذلك الأمر لهم».

توقَّف موريل قليلًا عن سرد الحكاية ليشرب شيئًا من الماء البارد الموضوع في زاوية غرفة الملابس، وقبل أن يعود إلى مكانه ليكمل حكايته، نظر إليَّ وقال:

«هل استطعت أن تفهم ما حدث حتى الآن؟».

أجبته: «أعتقد ذلك، ولكنَّني لم أسمع قطُّ عن روحٍ خبيثةٍ كتلك، وهناك بعض المشاهد التي لم أستطع استيعابها؛ ولكن عندما تنتهي من رواية الأحداث سأسألك عنها لكي توضِّحها لي».

قام موريل بتقريب كرسيِّه منِّي وربَّت على ركبتي.

«الآن ستسمع ما يُفجعك؛ ولكن تذكَّر أنَّني لم أكن أعلم شيئًا عمَّا حصل، حتى حانت ليلة الاقتحام.

«ليلة الأحد كنت نائمًا في زنزانتي وفجأةً دخل الحرَّاس وقاموا بتكتيفي. عادةً وأنا نائم أسمع كلَّ شيء، حتى دبيب النَّمل؛ ولكنَّني في تلك اللَّيلة لم أسمع شيئًا لأنَّهم عندما حبسوني لم يغلقوا الباب جيِّدًا كي يصبح من السَّهل عليهم فتحه. استيقظت من نومي على صوت رفس أرجلهم ببابي. حاولت أن أقاوم وأقاتل ولكنَّني لم أتمكَّن من صدِّ الهجوم لأنَّني كنت مقيَّدًا وملفوفًا بالبطَّانيَّات التي أعاقت حركتي. لم أشعر بعد ذلك بما حلَّ بي. لقد تحوَّل كلُّ شيءٍ فجأةً إلى اللَّون الأسود، وأحسست بأنَّني قد ابتلعت ذلك السَّواد حتى وصل إلى معدتي.

«استمرَّ ذلك لدقائق، وعندما صحوت كنت مصابًا بإعياءٍ شديدٍ فلم أبذل أيَّ جهدٍ لمنعهم من القبض عليَّ. أحدهم أمسك بي، وآخر كان يفتِّش السَّرير، ومن فرط حماسته مزَّق الفراش. كنت أتساءل عمَّا يبحثون، ولكنَّني لم أتفوَّه بشيء، ثمَّ قال من كان يمسكني إنَّه سوف يُنزلني إلى الطَّابق السُّفليِّ، وإنَّهم سيلقون القبض على سجناء آخرين، وسيقومون بإغلاق جميع منافذ السِّجن وضرب جرس الإنذار.

«منعوني من ارتداء ثيابي، وجرجروني إلى خارج الزِّنزانة عبر جميع الممرَّات المؤدِّية إلى الباحة السَّفليَّة للعنبر، وهناك رأيت رجالًا آخرين يفعل بهم الحرَّاس ما فعلوه بي. لم أكن أعرف ماذا يجري، وعندما وصلت إلى العنبر السُّفليِّ، رأيت المأمور واقفًا هناك بجانب عددٍ من الحرَّاس.

سأل المأمور الحارس فور دخولنا إلى العنبر السُّفليِّ: «ها... هل وجدت سلاحًا مع هذا الرَّجل؟».

أجاب الحارس الذي كان يمسكني من رقبتي: «كلَّا... لا أثر لأيِّ سلاح».

«شخر المأمور وساعد الحرَّاس في زجِّي في إحدى الزِّنزانات، ثمَّ أقفلوا الباب عليَّ، وظللت أسمع جلبةً صاخبةً لما يقارب نصف ساعة، فقد كانوا ما يزالون يجلبون المزيد من الرِّجال إلى الأسفل، وبعد فترةٍ من الوقت هدأ كلُّ شيء، ثمَّ سمعت شتائم وعرفت صوت صاحبها. إنَّه جورج (سارق الأسواق)، ذلك الرَّجل الذي أعرفه جيِّدًا.

«مرحبًا جورج، أهذا أنت؟! أجبني».

أجابني: «نعم، من أنت؟».

«إد موريل... ماذا يجري هنا؟».

أجاب: «هناك عميلٌ مندسٌّ في مجموعتنا. لقد أخبر الإدارة بالخطَّة ووشى بنا جميعًا. إنَّنا متورِّطون الآن من رؤوسنا إلى أخمص أقدامنا».

«كان جورج أحد المتورِّطين بالعمليَّة، وظننته يتحدَّث عن خطَّة التَّزوير، فقلت له:

«ولكن الشَّيء الجيِّد أنَّكم ما تزالون متكتِّمين على الأمر».

«لم يكن جورج يعلم شيئًا عن موضوع الأسلحة، وفي تلك الأثناء كان جميع السُّجناء يتجاذبون أطراف الحديث، وفهمت أنَّه يوجد ما بين 10 و12 رجلًا في العنبر، وقد قُيِّد كلٌّ منهم في سجنٍ انفراديٍّ، وكان الجميع يرغبون في معرفة سبب إلقاء القبض عليهم.

«حاولت جاهدًا أن أدفع جورج إلى الحديث كي أفهم ما حصل؛ ولكنَّه قال إنَّ في الأمر مخاطرةً كبيرة.

«من الممكن جدًّا أن يكون أحد هؤلاء السُّجناء جاسوسًا (قالها لي محذِّرًا) لا أحد يعلم!».

«بعد ذلك أمضيت اللَّيل بطوله صامتًا. كنت خائفًا من الكلام حتى لا

يسمعني الجاسوس الذي قد يكون موجودًا في إحدى الزِّنزانات كما قال جورج، ولكن عندما طلعت شمس الصَّباح، سمعت صوت نداءٍ قادمٍ من الزَّنازين المجاورة. كان السُّجناء ينادون بعضهم بعضًا ليعرِّف كلُّ واحدٍ منهم بهويَّته، واكتشفت حينذاك أنَّ جميع زنازين العنبر كانت ممتلئةً بالسُّجناء، وكان من المستحيل أن يكون هناك جاسوسٌ واحدٌ فقط».

توقَّف موريل عن الحديث وسألني: «هل ذهبت إلى السِّجن الانفراديِّ يومًا؟».

أجبته: «نعم، نزلت يومًا مع حامل المفاتيح. يومذاك قام سجينٌ صينيٌّ يعمل في غرفة الحلاقة بجرح الحارس المسؤول عن العنبر الأوَّل، واصطحبني حامل المفاتيح معه كي أتفاهم مع الرَّجل، ولكنَّه أبى أن يتكلَّم».

قال موريل: «لا أقصد هذا؛ هل بقيت في ذلك المكان وحدك يومًا؟».

«كلَّا»، أجبت، «لماذا؟».

«لا شيء، ولكن؛ ماكنت أودُّ قوله هو أنَّ الضَّوء لا يدخل إلى هناك في الصَّباح. تدخل أشعَّةٌ قليلةٌ عند طلوع الشَّمس فحسب، مثل تلك الأشعَّة التي تومض عند نهاية نفقٍ طويلٍ، هل فهمت ما أعنيه؟».

واصل موريل حديثه قائلًا:

«استطعت أن أتحدَّث مع أعضاء المجموعة، وعرفت في أيِّ زنزانةٍ يوجد كلُّ واحدٍ منهم، وأمضيت الوقت بالتَّحدُّث معهم قبل أن يقرع جرس الصَّباح بساعات. حينذاك عرفت لأوَّل مرَّةٍ بأمر الاقتحام الذي كان سيحدث اللَّيلة الماضية، وبكيفيَّة سير الخطَّة، والحرَّاس الذين سيقومون بتخديرهم، وكيف أنَّ السَّيِّد هاري سوف يصعد إلى الأعلى ويقوم بإخراج السَّجين المسكين الذي قضى الكثير من الأسابيع في صنع هياكل مستنسخةٍ لمفاتيح زنازين السُّجناء الآخرين المشاركين في الخطَّة.

«كانت مجازفةً كبيرةً أن يقوم بصناعة هذه المفاتيح، فقد كان من المحتمل أن يكشف الحرَّاس أمره ويتورَّط معنا. جلست أتحدَّث مع جورج بينما كان بقيَّة السُّجناء يتحدَّثون مع زملائهم القابعين في الزَّنازين المقابلة لهم، وساعد الضَّجيج على تشويش حديثنا. في الحقيقة لا يمكنك أن تتحدَّث في العنبر السُّفليِّ، بل يجب عليك أن تصرخ، وهذا يختلف تمامًا عن السُّجون الانفراديَّة، فالقابعين هناك لا يمضون وقتًا طويلًا كافيًا لاختراع شيفرة تواصلٍ جديدةٍ للحديث فيما بينهم، ولذلك كان التَّواصل يتمُّ بيننا من خلال الطَّرق على الحائط.

سألت جورج: «ماذا كانوا يقصدون عندما تحدَّثوا عن الأسلحة المخبَّأة اللَّيلة الماضية؟».

ردَّ عليَّ: «ليتني أعلم... لا أعلم أيَّ شيءٍ عن الأسلحة. جوني أوَّل من أخبرني عنها. كنت أقف عند باب زنزانتي أنتظر وقت الاستراحة؛ ولكنَّ هؤلاء الثِّيران تسلَّلوا واقتحموا البوَّابة وقاموا بتثبيتي. ثبَّتوا الجميع بثيابهم وتركونا ننتظر. السَّيِّئ في الأمر أنَّ الجميع كان مرتديًا ثيابه، وليس هناك حجَّةٌ لارتداء الثِّياب في هذا الوقت من اللَّيل. أخبرت الحرَّاس أنَّني أخرج للعمل في السَّاعة الواحدة ليلًا، ويجب على الجميع أن يكون مستعدًّا. كانت بالتَّأكيد خطَّةً مُحكمةً. من وشى بنا كان شخصًا من بيننا، لأنَّه من الواضح أنَّهم كانوا يعرفون تمامًا الزِّنزانات التي يجب عليهم أن يقتحموها ويلقوا القبض على أفرادها متلبِّسين بالجريمة».

«والأسلحة؟»، سألته، «هل تعرف شيئًا عن الأسلحة؟».

أجابني: « كلَّا... وهذا ما يحيِّرني... لقد كان هذا أوَّل سؤالٍ يطرحونه عليَّ... إنَّني لا أفهم شيئًا».

«سألخِّص لك القصَّة. بدأت إدارة السِّجن التَّحقيق معنا بالسُّؤال عن

الأسلحة، وأين قمنا بتخبئتها؟ لم يكن عقاب السُّترة موجودًا في تلك الأيّام، لذلك قيّدوا الجميع إلى جدران الزِّنزانة، ولأنّنا لم نكن نعرف شيئًا عن الأسلحة، لم نتمكّن من الإجابة على أسئلتهم، وكعقابٍ على ذلك قاموا بتقليل حصصنا الغذائيّة بحيث لم نُمنح سوى قطعة خبزٍ وكوب ماءٍ طوال اليوم، وتركونا معلّقين بالسّلاسل إلى الجدران لمدة 14 ساعة، وكنّا ننام كلّ مساءٍ على أرضيّةٍ حجريّةٍ دون فرشٍ أو أغطية.

«في اللّيلة الثّالثة على احتجازنا في السُّجون الانفراديّة، سمعنا أحد السُّجناء يشتم ويصرخ ويستجدي الرّحمة من الحرّاس، ولكنّهم لم يعيروه أيَّ اهتمام، وسرعان ما أصبح السّجن كالجحيم، وتعالت أصوات الصُّراخ والشّتائم والبكاء من كلِّ جانب. هل تستطيع أن تتخيّل ذلك الشُّعور؟!

«بعضهم لم يكونوا مشاركين في الخطّة من الأساس، وكانوا يتطلّعون للخروج من هذا المكان في أسرع وقت، ولكنّهم وجدوا أنفسهم وقد خسروا كلَّ شيء. كانوا يتعرّضون للتّعذيب اليوميّ كي يعترفوا بجرمٍ لا يعرفون عنه شيئًا. من المحال أن أكرّر هذه التّجربة مرّةً أخرى مهما كلّفني الأمر، حتى لو كانت الجائزة أن أحصل على عفوٍ تامٍّ. يتجمّد الدّم في عروقي كلّما تذكّرت أصوات السُّجناء وهم يصرخون ويتضرّعون إلى الرّبّ أن يقبض أرواحهم ويخلّصهم ممّا هم فيه.

«بعد مرور أسبوعٍ بدأ الحرّاس بإخراج عددٍ من المعاقَبين، ولا أعرف ماذا حلَّ بهم بعد ذلك، وبين فترةٍ وأخرى أصبح الحرّاس يأتون بمساجين جُدُدٍ ويُخرجون آخرين. وفي كلِّ مرّةٍ يحصل فيها ذلك يمرُّ الحرّاس بزنزانتي ويسألونني إن كنت مستعدًّا للحديث عن مكان الأسلحة. عرفت مع تكرار ذلك السُّؤال أنّهم كانوا يظنُّون أنّنا خبّأنا تلك الأسلحة في السّجن، وأنّنا نعرف مكانها، وطالما أنّهم لم يجدوا الأسلحة، فسيظلُّ خطر التّعذيب محدقًا بنا، وسيكون هناك المزيد من الضّحايا. كانوا يظنُّون أنّهم قد ألقوا القبض على

الأشخاص الذين يعرفون مكان الأسلحة، وأنّهم سيقومون بالضّغط عليهم ليعترفوا بمكانها. والحقيقة هي أنّ كلّ الشُّكوك كانت تدور حولي على وجه التّحديد.

«كما أخبرتك سابقًا، أخبر هاري المأمور بأنّه قد قام بتخبئة الأسلحة في زنزانتي السُّفليّة، وعندما ذهب إلى هناك وادّعى أنّه لم يعثر عليها، ظنّ الجميع أنّها قد أصبحت بحوزتي. اكتشفت فيما بعد أنّهم ألقوا القبض على الحارس الذي أدخل الأسلحة المزعومه إلى السّجن.

«في البداية أنكر الحارس كلّ شيء، ولكنّ الطّبّاخ جاء إلى مكتب المأمور وشهد بأنّه رآه وهو يسلّم الصُّندوق لهاري. أوهم هاري الطّبّاخ بأنّ الصُّندوق مليءٌ بالأسلحة، وعندما استلمه لم يفتحه بل ذهب مباشرةً إلى زنزانتي السُّفليّة وخبّأه.

«في اللّحظة التي شعر بها الحارس بالخوف، بدأ بقول الحقيقة. قال إنّ الصُّندوق يحتوي على التّبغ؛ ولكنّ المأمور لم يصدّقه، لأنّه كان قد أنكر كلّ شيءٍ في البداية، والحقيقة أنّه لم يكن يريد أن يخسر وظيفته، لذلك أخبرهم بكلّ شيء. ظنّوا أنّه قد اختلق قصّة التّبغ لأنّه يعلم جيّدًا أنّ إدخال الأسلحة إلى السّجن جريمةٌ يعاقب عليها القانون.

وعندما يئس من إقناعهم، قال لهم:

«لا تستطيعون إثبات أيّ شيءٍ ضدّي، إلّا إذا وجدتم الأسلحة...».

«أترى كيف أصبح الوضع مزريًا؟

«ولأنّ الوضع كان يزداد سوءًا، أحسّ الحارس بأنّه سيُدان لا محالة، فما كان منه إلّا أن هرب من السّجن، ممّا زاد من تأزُّم المشكلة وتعقيدها، فبهروبه أثبت إدانته أمام الجميع. لقد أوحى إليهم بأنّه قد هرب لئلّا يُقبض عليه بعد أن يُكتشف الدّليل الذي يجرّمه.

«وبعد شهرٍ من التَّعذيب أدركوا أنَّ السُّجناء الآخرين لا يعرفون شيئًا عن مكان الأسلحة، وهكذا أصبحت المُدان الوحيد، وانتظر الحرَّاس مجيء الفرصة المناسبة لأخبرهم بمكانها. لقد حملت وزر كلِّ ما حصل على كاهلي. تأمَّل الأمر للحظات، وفكِّر بالورطة التي وقعت فيها. لقد اتُّهمت بحيازة الأسلحة، وأصبحت المتَّهم الوحيد الذي يجب أن يقرَّ باعترافه بأيِّ حالٍ من الأحوال.

«أخبرتهم مرارًا أنَّني لا أعلم شيئًا عن مكان الأسلحة أو عن عمليَّة الاقتحام، والدَّليل أنَّني لم أكن مرتديًا ثيابي وكنت نائمًا في سريري عندما حضر الحرَّاس للقبض عليَّ، ولكنَّهم ببساطةٍ استنتجوا أنَّني شخصٌ ماكرٌ وأنَّني أخبث عضوٍ في العصابة وأنَّني لزمت السَّرير كي لا أجازف بحياتي ويُكشَف أمري.

«لا أذكر كم بقيت محبوسًا ومعلَّقًا إلى جدران تلك الزِّنزانة السُّفليَّة، ولكنَّني أظنُّ أنَّها كانت 33 أو 34 يومًا، وبعدها صفَّدوني وساقوني إلى السِّجن الانفراديِّ في منتصف اللَّيل. عاد جميع أعضاء العصابة إلى العنابر بعد أن ألبسوهم قمصانًا حُمرًا، وأخذوا جميع نقودهم من صندوق الأمانات. كنت السَّجين الوحيد الذي ذهب إلى السِّجن الانفرادي.

«لم أستطع أن أفهم لماذا ورَّطني هاري بهذه الجريمة. الأمر الوحيد الذي خطر في بالي هو أنَّه شعر بالاستياء عندما عرضت عليه أن يشارك في الخطَّة، وأهينت كرامته لأنَّني تعاملت معه كأبله يسهل التَّلاعب بعقله، وظنَّ أنَّه سيقلب الطَّاولة عليَّ ويحصل على العفو إذا نجح في خطَّته وورَّطني بجريمة حيازة الأسلحة.

«والآن سأخبرك بالجزء السَّاخر من الحكاية. عندما فتَّشت إدارة السِّجن جميع مرافق العنابر والزِّنزانات، ولم يعثروا على أيِّ أثرٍ للأسلحة، ألقوا

القبض على السَّيِّد هاري شخصيًّا، وبدلًا من أن يحصل على العفو، زجُّوا به في السِّجن الانفرادي.

«لا أنسى أبدًا ذلك اليوم. وضعوه في الزِّنزانة المقابلة لزنزانتي. في البداية سمعت لغطًا وهمسًا فاقتربت من فتحة الزِّنزانة لأختلس النَّظر منها، وإذا به السَّيِّد هاري يكاد ينسلُّ من جسده النَّحيف، وقد تحوَّل لونه إلى الأبيض المائل للزُّرقة. لم يلتفت إليَّ، وقبع في زنزانته أيَّامًا قبل أن يعرف أنَّه جاري.

«يجب أن تتذكَّر أنَّني في ذلك الوقت لم أكن أعلم أنَّه سبب بلواي.

«سمعت من جورج أنَّ السَّيِّد هاري كان يعلم بأمر الاقتحام الكبير، وأنَّه كان من المفترض به أن يقوم بتخدير الحارس ويفتح الزِّنزانة الأولى؛ ولكنَّني لم أكن أعلم أنَّه ورَّطني بكلِّ تلك الجرائم.

«أوَّل ما خطر في بالي عندما رأيته، هو أنَّه قد تورَّط في الخطَّة معنا، ولكن بعد مرور أسبوعين خرجت من زنزانتي لأقف أمام المحكمة، وتمَّت مواجهتي بالأدلَّة التي تُثبت إدانتي. عندئذٍ علمت أنَّ السَّيِّد هاري هو من ورَّطني. كنت متحمِّسًا جدًّا لاغتنام تلك الفرصة وإقناع القضاة ببراءتي، وكدت أفقد وعيي من فرط حماستي، وعندما استجمعت قواي مرَّةً ثانيةً طلبت منهم أن يُحضروا السَّيِّد هاري؛ ولكنَّهم رفضوا طلبي، فاستشطت غضبًا. لا أذكر ماذا قلت، فقد كنت غاضبًا جدًّا، ثمَّ أعادوني للسِّجن الانفراديِّ وأبقوني هناك حتى أعترف لهم بمكان الأسلحة.

«أترك لك مساحةً لتتخيَّل شعوري وأنا عائدٌ إلى زنزانتي. ارتميت على فراشي وعضضت اللِّحاف بأسناني. شعرت لأوَّل مرَّةٍ أنَّني بقايا إنسان، ولم أعد إلى طبيعتي إلَّا بعد مرور ثلاثة أو أربعة أيَّام؛ ولكنَّني بقيت في حالةٍ من الصَّدمة، وكنت أوبِّخ الحارس كلَّما اقترب من بابي، إلى أن أصبحت مكروهًا من قِبَل جميع الحرَّاس، وحوَّلوا حياتي إلى جحيمٍ مستمر.

«عقدت العزم على أن أقتل السَّيِّد هاري في أوَّل فرصةٍ تحالفني. آمل ألَّا تتكرَّر هذه المشاعر تجاه أيِّ كائنٍ آخر في حياتي. كنت أجلس لليالٍ طويلةٍ أستمع إلى صوت أنفاسه، وأفكِّر بنشب أظافري في حنجرته وإخراج الرُّوح من حلقه. أردت أن أخنقه حتى يفقد الوعي ثمَّ أترك له أنفاسًا قليلةً ليضعف جسده شيئًا فشيئًا إلى أن يبلغ مرحلةً يموت فيها ألف مرَّة ويتمنَّى أن أقتله قتلًا رحيمًا فلا أفعل، ياه!».

قال لي موريل حين لاحظ تعابير وجهي الخائفة: «لا تنظر إليَّ بهذه الطَّريقة. لم أكن يومًا شخصًا حاقدًا. كنت رجلًا مرحًا ولطيفًا كاليعسوب. لهذا السَّبب يمكنني أن أفهم ما حصل مع جيك أوبنهايمر حقَّ الفهم، أتعلم؟ لقد كان جيك زميلي في السِّجن الانفراديِّ لخمس سنوات، وأعلم جيِّدًا أنَّه تورَّط كثيرًا بجرائم لم يرتكبها، وأنَّه تعرَّض لمكائد من أشخاصٍ وثق بهم، أشخاصٍ ادَّعوا أنَّهم أصدقاؤه، وكانوا يأخذون منه الخطط لكي يخبروا الحرَّاس بها ويحصلوا بالمقابل على مكافأة الخروج من السِّجن الانفراديِّ، وكان الهروب أمله الوحيد للخروج من السِّجن.

«قف لحظةً وتخيَّل شعورك إن حدث لك ما حدث له. ألن تراودك أفكارٌ إجراميَّة؟ ألن تشعر بأنَّ العالم كلَّه يقف ضدَّك؟

«استغرق الأمر سنتين حتى جعلت أوبنهايمر يثق بي ويقرِّبني منه، سنتين كاملتين من القرع على الحائط وإرسال الرَّسائل، إلى أن حدث ما كنت أصبو إليه، ومع كلِّ ما حدث بيننا كان الشَّكُّ ينتابه أحيانًا، لدرجة أنَّه قيَّدني في يومٍ من الأيَّام وسألني:

«لماذا لم تخرج من الانفراديِّ حتى الآن؟ لديَّ خطَّةٌ جديدةٌ للمكر بهم، سأقف معك. سأتظاهر بأنَّني أقوم بحَبْكِ خطَّةٍ وعليك أن تخبر الحرَّاس بها. لا فائدة تُرجَى من بقائنا جميعًا هنا. ستخلِّصك هذه الخطَّة من حبسك

الانفراديِّ، ومن ثمَّ سيكون بمقدورك أن تساعدني وأنت في الخارج. نستطيع ترتيب عمليَّة تهريبٍ بيننا، وسأتمكَّن من استخدام الأغراض المهرَّبة لأُخرج نفسي من هنا».

«لم أقع في فخِّ تلك الخدعة، فقد كنت أعرف أنَّه يختبرني. كان يحاول أن يعرف نيَّتي وإن كنت سأوافق على الاستفادة من ضرره. أصرَّ على إقناعي بتلك الخطَّة أسبوعًا، ولكنَّني بقيت متمسِّكًا برأيي حتى اللَّحظة الأخيرة، وبعد انتهاء هذه القصَّة راجعت أفكاري، وسألت نفسي: لماذا لم أوافق على عرضه؟ فعرفت أنَّ ذلك كان لسببين، أوَّلهما أنَّني كنت متعاطفًا مع جيك، وثانيهما كرهي الشَّديد للحرَّاس، فكما تعلم، إن وافقت على خطَّة جيك سيتعيَّن عليَّ أن أساعد الحرَّاس، ولذلك لم أكن لأقوم بشيءٍ كهذا ولا سيَّما على حساب لصٍّ مسكين، حتى وإن استدعى الأمر أن أموت في السِّجن الانفراديِّ وأتعفَّن فيه.

«وهكذا أصبحنا أنا وجيك أوبنهايمر صديقين مقرَّبين. كنَّا نجلس معًا دائمًا، ووضع جيك كلَّ أسرار حياته أمامي. آه لو كان بإمكاني أن أنشر قصَّته في يومٍ من الأيَّام! يا لها من مأساة! كان جيك أوبنهايمر من أسوء النَّاس حظًّا في هذه الحياة. لا أتعجَّب أبدًا ممَّا فعله. إنَّه يتعامل بجنونٍ مع جميع النَّاس الذين لا يعرفهم، وكلَّما حاول شخصٌ التَّقرُّب منه عدَّه عدوَّه، والشَّيء الوحيد الذي تعلَّمه بعد تجربته هو أنَّ العدوَّ الميِّت صديقٌ جيِّد. سأخبرك أكثر عن قصَّته لاحقًا. دعني أركِّز الآن على سرد قصَّتي.

«بعد عدَّة أسابيع من احتجازي في السِّجن الانفراديِّ بدأ الحرَّاس بفرض عقوبة «السُّترة» عليَّ، وظننت آنذاك أنَّني قد اقتربت من الموت.

«رأيت النِّهاية نَصْبَ عينيَّ أكثر من مرَّة.

«ولكن في يومٍ من الأيَّام، قام الحرَّاس بركل جسدي كثيرًا، وأعطاني ذلك هدفًا جديدًا في هذه الحياة. لقد آلمت الرَّكلات جسدي، لدرجة أنَّني ما أزال

أشعر بألمها إلى اليوم. هذا الألم أشعل بفكري النِّيران، وقرَّرت أن أنتقم، وأردت أن أنجو بذلك الدَّافع حتى لو كلَّفني الأمر حياتي.

«وفي يومٍ كنت فيه مقيَّدًا بالسُّترة، جاءني أحد الحرَّاس ليحاول إرغامي على الاعتراف للمرَّة الأخيرة. وضع ذلك الحارس إصبعه بالقرب من عينيَّ وقام بحركاتٍ مفادها أنَّه سيقتلع عينيَّ من مكانهما. صحيحٌ أنَّني أغمضتهما بصورةٍ تلقائيَّة، ولكن أتذكَّر جيِّدًا أنَّني عندما نظرت إلى أصابعه تمنَّيت لو يمدُّهم إلى فمي كي أقتلعهم بأسناني. حينذاك كنت في حالةٍ من الجنون؛ كنت شخصًا يائسًا لا حول له ولا قوَّة، ولو أنَّه قرَّب أصابعه من أسناني لاضطرُّوا إلى قتلي ليخلِّصوه منِّي.

«استمرَّ عذابي ستَّة أو سبعة أشهر، وبعدها فقد الحرَّاس الأمل منِّي، واتَّضح لهم أنَّني لن أتكلَّم مطلقًا عن الأسلحة ولا عن مكانها.

«لم يسمح الحرَّاس لي بقراءة الكتب ولا بإدخالها إلى الزِّنزانة، وحتى لا أبلغ حافَّة الجنون بدأت بالعمل على إنقاذ نفسي مستخدمًا عقلي وحسب. لم أكن أملك شيئًا، لا ورقةً ولا قلمًا، فكلُّ شيءٍ ممنوع. رحت أرسم صورًا كثيرةً في رأسي، وتخيَّلت أنَّني سأرسلها إلى صحيفة واشنطن في اليوم الذي سأخرج فيه حيًّا من السِّجن. رسمت عالمًا جميلًا في خيالي، وابتكرت آليَّةً عقليَّةً كاملةً لأنقذ نفسي من الموت.

«كما أنَّني قضيت الكثير من الوقت في تعلُّم شيفرة البرقيَّات. كنَّا نتَّبع نظامًا معيَّنًا بالطَّرق على الجدران من زنزانةٍ إلى أخرى، وكانت تلك وسيلتنا الوحيدة في التَّواصل؛ ولكنَّ جيك كان يمتلك قطعة رصاصٍ من رأس قلم رصاصٍ وجدها ملقاةً على الأرض. أنت تعرف أنَّ أقلام الرَّصاص تنكسر بسرعة، ولذلك كان يستخدمها في كتابة الرَّسائل التي يبعثها إليَّ كلَّما سنحت له الفرصة بذلك.

«كان الحرَّاس يفتِّشون زنزاناتنا كلَّ أسبوع، وهذا أمرٌ مثيرٌ للسُّخرية، فما الفائدة من تفتيش زنزانات سجناء قابعين في سجونٍ انفراديَّةٍ مغلقةٍ من كلِّ اتِّجاه؟ مع كلِّ تلك الحراسة المشدَّدة والرِّجال الذين يمشون ذهابًا وإيابًا عند الباب طيلة الوقت!

«صحيحٌ أنَّنا كنَّا نحصل على أشياء بسيطةٍ من وقتٍ لآخر، وكان الحرَّاس يعلمون ذلك بالطَّبع، ولكنَّ قطعة الرَّصاص التي امتلكها جيك كانت صغيرةً جدًّا لدرجة أنَّهم لم يلحظوا وجودها البتَّة. كانوا يهابون جيك كثيرًا، ولم أر شخصًا لديه مثل ذلك الإصرار والأمل. يقولون إنَّ الأمل يشقُّ آبارًا في صدور البشر، وأظنُّ أنَّ صدره كان أعمق بكثيرٍ من أيِّ بئر. لا أفهم كيف كان يظلُّ متمسِّكًا بالأمل طوال الوقت؟! كان يخطِّط للهروب دائمًا، لا يهمُّه كم مرَّةً ألقي القبض عليه، ففي كلِّ مرَّةٍ يعيدونه فيها كان يبدأ بالتَّخطيط من جديد.

«لم نسمع من قبل أنَّ الحبس الانفراديَّ قد أفاد أيَّ شخص. القمع لا يُصلح البشر، فتكبيل الكلب لا يجعله أكثر لطفًا.

«أذكر أنَّه كان لديَّ حصانٌ في الجبل، وكان أعجوبةً في السَّفر، يستطيع المشي من الصَّباح إلى اللَّيل دون أن يتناول سوى حفنةٍ صغيرةٍ من الشُّوفان، ولكنَّه كان خبيثًا، ينتهز أيَّ فرصةٍ يجدها ليركلك أو يعضَّك، وكان جنباه مخدَّشَين من موضع الرَّسن، وكان السَّفر مع هذا الحصان يتعبني دائمًا، وحتى عندما كنَّا نجلس بمفردنا لنتشاطر النَّظر إلى السَّماء والصُّخور، كنت أبقى حذِرًا منه، فقد حاول إيذائي ثلاث أو أربع مرَّاتٍ مع أنَّني لم أضربه قطُّ ولم أُنزل به أيَّ أذى. أصبحت أنتهز كلَّ فرصةٍ أجدها لأربِّت على جسده وأتحدَّث معه وأبحث له عن شيءٍ يأكله، وبعد أن أتممنا ثلاثة أسابيع على هذه الحال، صار يتبعني في كلِّ مكانٍ كالحمل الوديع، وعندما ودَّعته لآخر مرَّةٍ كانت تلك من أصعب اللَّحظات التي مرَّت عليَّ. ما أزال أذكر تلك الأسابيع الثَّلاثة جيِّدًا وكيف

تقرّب فيها أحدنا من الآخر كثيرًا، وأظنُّني كنت حينذاك في أقرب حالةٍ تصلني بالرَّبِّ.

«كما ترى، جميع النَّاس مثل ذلك الحصان، قد تكون لديهم نزعةٌ صغيرةٌ لفعل الشَّرِّ، ولكنَّ الحبس الانفراديَّ والرَّكل والعنف لا يمكن أن يجعلهم أفضل، ولا يمكن أن يحسِّن من سلوك أحد، وهذا ما حصل معي، لم يتحسَّن سلوكي أبدًا بدخولي السِّجن الانفرادي».

«ولكنَّك الآن أصبحت شخصًا أفضل، وستقوم بفعل الشَّيء الصَّحيح يا موريل» (قاطعتُه) «وقبل أن تذهب إلى هناك كنت من الرُّؤوس الصَّعبة المراس وكنت تحبُّ افتعال المشاكل، كيف تفسِّر هذا؟».

أغمض موريل عينيه قليلًا وتأمَّلني بصمتٍ ثمَّ قال:

«هل تعتقد ذلك حقًّا؟! هل تعتقد أنَّني قد تحسَّنت لأنَّني كنت أخاف الحبس الانفراديَّ؟ أهذا ما تظنُّه حقًّا؟».

«هذا ما بدا لي».

أجابني بنبرةٍ تنمُّ عن خيبة أمل: «حسنًا، دعني أكمل لك قصَّة السَّيِّد هاري، وسأطلعك على المزيد من التَّفاصيل، ومن ثمَّ احكم بنفسك.

«بعد وقتٍ قصيرٍ من زجِّنا في السِّجن الانفراديِّ اكتشفت إدارة السِّجن أمر الخطَّة، فأحضروا السَّيِّد هاري واتَّهموه بها، وحينذاك انهار هاري تمامًا، كما لو كان بالونًا وأُفرِغَ من الهواء، ذلك أنَّه لم يتعامل قطُّ مع رجالٍ أشدَّاء مثلنا، ولم يسبق له أن ذاق طعم النَّوم تحت سماءٍ مليئةٍ بالنُّجوم، ولم يصعد التِّلال وخلفه ثلاثون رجلًا متعطِّشين إلى شرب دمائه. كان رجلًا نبيلًا، شهمًا من أولئك الذين يخفضون قبَّعاتهم حتى الرُّكبة عندما يلتقون بامرأةٍ جميلةٍ، ولكنَّه يفرُّ في أوَّل مشكلةٍ تواجهه مع تلك المرأة، بدلًا من أن يحميها.

«كان يمتلك المال والقليل من لباقة اللُّورد فونتليروي، ولكنَّه كان غضًّا

وظهره طريٌّ لا يتحمَّل العقاب، وكان يتوسَّل إلى الحرَّاس باستمرار ليسمحوا له برؤية المأمور، وعندما انكشفت الخطَّة اعترف بكلِّ شيء. استمتع الحرَّاس بوقتهم وهم يكتشفون تفاصيل الخطط التي حاكها، وأخبرهم بحقيقة الأسلحة وأنَّها كانت كذبةً وأنَّ الصُّندوق الذي أعطاه إيَّاه الحارس كان يحتوي على التَّبغ، ولكنَّهم لم يصدِّقوه، وطردوه من المكان.

«قبعت في زنزانتي خمس سنواتٍ لا أكلِّم أحدًا، وكلَّما زارني المأمور أو أيُّ أحدٍ آخر كنت أوليهم ظهري. ولكن عندما كان القسُّ دراهمز يدخل إلى سجوننا مرَّةً كلَّ شهرين كنت أشعر بتسليةٍ كبيرة. ظنَّ بعض السُّجناء أنَّ القسَّ يستطيع إخراجهم من هناك، فكانوا يكلِّمونه دائمًا، وعندما كان يعود لزيارتنا كان يقف أمام السَّجين نفسه الذي كلَّمه في المرَّة السَّابقة ثلاثين دقيقةً ويعيد عليه أسئلته القديمة نفسها: « أهلًا بنيَّ، لماذا أنت هنا؟ ما اسمك؟».

«في يومٍ من الأيَّام أتوا بشخصٍ مكسيكيٍّ وألقوه في آخر زنزانة، تمامًا أمام المكان الذي يجلس فيه الحارس. كان الحارس حاقدًا على ذلك المكسيكيِّ، وكان المكسيكيُّ يشعر بالاستياء من وجود الحارس الدَّائم بالقرب من زنزانته. برأيك ماذا فعل ذلك الرَّجل؟ كان يضع كرسيَّه أمام الباب مباشرةً ويهزُّ أرجل الكرسيِّ للأمام والخلف ويدخِّن السِّجار وينظر إلى الرَّجل القابع في السِّجن وكأنَّه وحشٌ برِّيٌّ.

«عمَّ شعورٌ غريبٌ أنحاء العنبر، وشعرنا أنَّ شيئًا ما سيحدث، وفي يومٍ من الأيَّام، وبينما كان الحارس جالسًا جلسته المعتادة يهزُّ كرسيَّه للأمام والخلف ويدندن بأغانيه، جُنَّ جنون المكسيكيِّ فانحنى في نهاية الزِّنزانة وركض بأقصى سرعةٍ ثمَّ انقضَّ على الباب الحديد وبدأ يزأر مثل النَّمر، وطفق يضرب الباب بقبضته حتى انحنى الحديد في موضع الضَّرب، وشعرنا أنَّ المبنى يهتزُّ بأكمله. حينذاك كان الحارس مائلًا إلى الخلف وعندما سمع ما حدث أكمل ميلانه وسقط على أمِّ رأسه. هرعت إلى بابي لأرى ما حدث، واستطعت أن

أرى وجه الحارس وهو يحاول استعادة قواه والعودة إلى مكانه. كان جاثيًا على أطرافه الأربعة ويرتجف وهو ينظر إلى داخل الزِّنزانة. وقعت ساعته من جيبه وتدلَّت من جسده، وبدت عيناه مشدوهتين للغاية، بينما كان المكسيكيُّ المسكين ممدَّدًا على أرض الزِّنزانة بسبب قوَّة الضَّربة، وعندما أتى الحرَّاس ليأخذوه صرخ في وجوههم وزأر بصوتٍ مرتفعٍ وخدَّشهم بأظافره، وتطلَّب الأمر استدعاء المزيد من الحرس للمساعدة في وضعه في السُّترة. أبقانا صراخه مستيقظين أسبوعًا كاملًا.

«وبعد أن انقضى ذلك الأسبوع كفَّ عن الصُّراخ، وعندما دخل عليه الحرَّاس وجدوه يأكل يده وينهش بها ويقطِّعها قطعًا كبيرةً بأسنانه ويزأر كالضِّباع. خلص الحرَّاس إلى أنَّه فقد عقله وذهبوا به إلى مصحَّة الأمراض العقليَّة. قيل لي بعد ذلك إنَّه توفِّي بسبب تسمُّمٍ في الدَّم بعد بضعة أسابيع.

«بعد هذه الحادثة تغيَّر حارس العنبر، وأصبح يمشي خافضًا رأسه ووجهه ممتلئٌ بملامح الرُّعب، وصار كلَّما قابلنا يسألنا إن كنَّا نحتاج إلى أيِّ شيء.

«ما حدث يخبرنا أنَّ الإنسان يحتاج أحيانًا إلى قرصة أذنٍ قويَّةٍ تهزُّ كيانه هزًّا ليفهم أنَّه إنسانٌ مثل بقيَّة البشر. كنت أسمع المكسيكيَّ وهو يستجدي ربَّه كلَّ ليلة، وكان عليَّ أن أشعر بالخجل من نفسي أو أن أشنقها إذا لم أشعر للحظةٍ بالشَّفقة عليه. إنَّه لأمرٌ مريعٌ أن ترى شخصًا يُجَنُّ أمامك. لا أنكر أنَّني بدأت أشعر بإحساسٍ غريبٍ؛ ولكنَّني كنت أشغل نفسي لأقاوم ذلك الإحساس. غالبًا ما كنت أستيقظ من نومي مرعوبًا من كابوس أفعى تلفُّ جسدها عليَّ وتعصر الحياة في عينيَّ. كنت أصرخ من الخوف إلى أن أكتشف تدريجيًّا أنَّه لم يكن سوى حلم، ثمَّ يأتي الحارس متسلِّلًا ليرى ما يحدث. ولأنَّي لم أكن مستيقظًا تمامًا كنت لا أحسُّ بقدومه، وعندما يظهر لي وجهه عند الباب كنت أشعر بالرُّعب لدرجة أنَّ ملابسي كانت تبتلُّ بالعرق البارد، والصَّباح لا يخفِّف من هول رؤيتهم، فمنظر الحرَّاس قاتمٌ كاللَّيل مهما كان

الوقت الذي يتسلَّلون فيه إلينا، ذلك أنَّهم كانوا يتعلون أحذيةً ناعمةً ويرتدون ملابس داكنة، ومع أنَّنا كنَّا نسمع صوت قدومهم ونحن مستيقظين، إلَّا أنَّ الشَّخص النَّائم أو المستيقظ حديثًا من حلمٍ سيِّئٍ لا يسمع الأصوات بالقدر الكافي، وأظنُّني كنت أحلم ذلك الكابوس بسبب الآلام التي أصابتني بها السُّترة. كنت أشعر بأنَّها كالأفعى حقًّا، وما يزال هذا الكابوس يزورني إلى اليوم، وإن بوتيرةٍ أقلَّ من السَّابق.

«مرَّت سنواتٌ طويلةٌ وأنا محتجزٌ في السِّجن الانفراديِّ، وتبيَّن لي أنَّني أصبحت نسيًا منسيًّا. كان كلُّ يومٍ يمضي عليَّ في الحجز مثل الأيَّام التي سبقته، وفقدت إحساسي بالوقت، ولكنَّنا كنَّا نميِّز أعياد الميلاد المجيدة وعيد الاستقلال من وجبة العشاء اللَّذيذة وأكياس التَّبغ الإضافيَّة، وبهذه الطَّريقة كنت أحصي عدد السِّنين التي تمرُّ عليَّ.

«مرَّت خمس سنوات، وفي أحد الأيَّام أتى رجلٌ غريبٌ عابرًا الممرَّ ووقف أمام باب زنزانتي. كان عريض المنكبين، أبيض اللِّحية، ولا خبث في صوته. تعوَّدت ألَّا أعير حضورَ أيِّ أحدٍ اهتمامًا، وعندما وقف ببابي لم ألتفت إليه، ولكنَّني سرت باتِّجاه الباب، وعندما رأيته عدت أدراجي.

قال لي: «تعال إلى هنا يا رجل، أريد أن أكلِّمك».

أجبته: «ولكنَّني لا أرغب في محادثتك».

سألني: «ما المشكلة؟ هل أنت مصابٌ بالزُّكام أو شيءٌ من هذا القبيل؟».

«لم أجبه وظللت أجوب الزِّنزانة ذهابًا وإيابًا، وفي كلِّ مرَّةٍ كنت أصل فيها إلى الباب كنت أحدجه بنظرةٍ من نظراتي الحادَّة؛ ولكنَّه لم ينزعج من تصرُّفي، بل وقف في مكانه صامتًا لبضع دقائق ثمَّ سار في اتِّجاهٍ آخر.

وعندما عاد، قال لي:

«أنا آمر السِّجن الجديد. لا أعرفك ولا تعرفني؛ ولكنِّي رجلٌ منصف، ما رأيك أن نتعارف؟».

«كنت راغبًا في صدِّه، ولكنَّ شيئًا ما دفعني إلى الوقوف عند الباب والتَّحدُّث معه. وجدته مهتمًّا بأمري، فأخبرته بكلِّ قصَّتي، وأنَّني اتُّهمت بحيازة الأسلحة بلا ذنب. أنصت لكلامي جيِّدًا وحاول أن يفهم كلَّ شيءٍ منِّي من خلال طرحه الكثير من الأسئلة، ثمَّ قال:

«إنَّني أصدِّق أنَّك بريء، وسأثبت لك ذلك؛ ولكن ماذا ستفعل إن أخرجتك من هنا ومنحتك ثقتي وعملًا مناسبًا لك؟».

كان جرح كرامتي ما يزال مفتوحًا في ذلك الوقت فلم أتحمَّس كثيرًا للأمر، وقلت له: «ماذا سأفعل؟ سأقتلك عند أوَّل فرصةٍ تُتاح لي، وسأحصل على طنٍّ من الدِّيناميت لأفجِّر هذا السِّجن بأكمله».

راعه ما سمعه منِّي وبان ذلك على ملامح وجهه، ولكنَّه ابتسم.

قال لي: «أوه، أنا أعقل من أن أصدِّق هذا. هب أنَّني أخذت كلامك على محمل الجدِّ، تذكَّر أنَّني الآمر، وإذا شعرت بأيِّ شكوكٍ في أمرك فسوف أبقيك في السِّجن إلى الأبد دون أن أشعر بأيِّ ندم. أريدك أن تجيبني بجدِّيَّة، ماذا ستفعل إن أعطيتك فرصة؟».

«لم يعجبني ما حدث، فقد شعرت بأنَّه علَّقني بأملٍ مشروط، وبدلًا من أن أستجيب لطلبه اشتعلت غضبًا، لدرجة أنَّني كدت أقضي على الفرصة الأخيرة لحياتي. كنت أحمق آنذاك؛ ولكنَّني لم أستطع أن أتحكَّم بنفسي.

قلت له: «أنا رجلٌ لا يعرف معنى الشَّرف، رجلٌ يعتدي على النَّاس ويقطع حناجرهم، أنا شخصٌ سيِّئ؛ وإن كنت تريد أن تعطيني فرصةً كي أقطع حنجرتك، فأنا موافق».

«في هذه اللَّحظة ظهر الغضب واضحًا على ملامح المأمور؛ ولكنَّه سار بضع خطواتٍ ثمَّ عاد إلى زنزانتي.

«سأخرجك من هنا غدًا، وسأسلِّمك وظيفةً من أحسن الوظائف في السِّجن، ولكنَّك لن تتمكَّن من قتلي»، قال ذلك ثمَّ مضى في طريقه.

«هذه بداية معرفتي بالآمر تومبكينس. لقد حافظ هذا الرَّجل على وعده طوال حياته، وسأبقى أدافع عنه مهما حصل. هو صديقي الذي أخرجني من الموت، وأعطاني دافعًا قويًّا كي أتغيَّر وأعود إلى الحياة.

«هل فهمت الآن لماذا تغيَّرت حياتي إلى الأفضل؟ أما زلت تظنُّ أنَّني أخشى العودة إلى السِّجن الانفرادي؟».

أجبته: «أرجو أن تعذرني، لم أكن أعرف كلَّ هذه الأمور، فجميع السُّجناء هنا يقولون إنَّك قمت بعملٍ دنيءٍ كي تخرج من السِّجن الانفراديِّ وتستلم الوظيفة التي تعمل بها الآن. لم أصدِّق هذا أبدًا. ولكن كنت أتساءل دومًا كيف استطعت فعلها. يمكنني الآن أن أفهم كلَّ ما حصل. لقد استاء تومبكينس من طريقة تعاملك معه، وقال في نفسه إنَّه يستطيع التَّلاعب بعقلك كما فعلت معه، واستطاع أن يستفيد من كلِّ الغضب الكامن في داخلك ليحوِّله إلى طاقةٍ فعَّالة، أليس كذلك؟».

حكَّ موريل رأسه ثمَّ أجاب:

«لا أظنُّ أنَّه قد استغلَّني؛ ألا تريد أن تعطيه فرصةً ليكون إنسانًا جيِّدًا؟ كان يريد أن يصحِّح الخطأ الذي اقترفوه بحقِّي، وهذا كلُّ ما قام به».

خلال السَّنوات التي مضت أثبت موريل نفسه بقوَّة. لم يؤدِّ واجبه على أكمل وجهٍ فحسب بل كان يفيض بالأمل والتَّفاؤل. كانت تراودني فكرةٌ مفادها أنَّ الشَّخص الذي تعرَّض لأشدِّ أنواع العقاب لا بدَّ وأن يصبح متشائمًا وبائسًا وفاقدًا للأمل؛ ولكن من خلال تجربتي اتَّضح لي العكس تمامًا. رأيت أنَّ النَّاس الذين يعانون كثيرًا، وخاصَّةً ذوو الطِّباع الحادَّة، يصبحون أرقَّ وأكثر طيبةً وتصبح أحزانهم ساحةً كبيرةً للخلاص.

بعد عدَّة سنين من عمله كمسؤولٍ عن المفاتيح، نجح موريل في الحصول على العفو. أتذكَّر تلك اللَّحظة جيِّدًا. جاء القاضي بنفسه إلى السِّجن وجلب

معه عدَّة أحكام عفوٍ، ومن خلال عدَّة زياراتٍ للسِّجن التقى القاضي بموريل وسنحت له الفرصة ليعرفه شخصيًّا، وفي تلك اللَّيلة وقف بجانب المأمور ليزفَّا البشرى للمعفوِّ عنهم.

تلقَّى موريل الخبر برصانةٍ وهدوء، كما لو أنَّه كان يتوقَّع حدوث ذلك. شعرت أنَّه كان يجب أن يُظهر فرحته بصورةٍ أكبر، ولكنَّني، وبعد قضائي سنواتٍ طويلةً في السِّجن، أدركت أنَّ السُّجناء الذين قضوا محكوميَّاتٍ طويلةً لا يتفاعلون مع خبر إطلاق سراحهم كما يجب، وذلك لشدَّة ما تعرَّضوا له من أذىً وكبتٍ للمشاعر والأفكار، فمع مرور الوقت تُسلَب مشاعرهم منهم، وذلك لأنَّهم لم يكونوا يعبِّرون عنها بشكلٍ طبيعيٍّ، فتصبح كما لو أنَّها قد تبخَّرت ولم تعد موجودة. لقد فقدوا القدرة على الاستجابة الصَّحيحة للمشاعر الجميلة.

الرِّجال الذين يبقون وقتًا طويلًا في السِّجن تصبح وجوههم متشابهةً، قسماتها هادئةٌ وحزينةٌ وكأنَّهم غائبون عن الوعي. هل رأيت من قبل رجالًا كانت أرواحهم تفيض بالحماس والمرح ثمَّ تحوَّلوا الى كتلةٍ هائلةٍ من الحزن والسَّوداويَّة؟ إنَّه أسوأ ما يمكن أن تراه في حياتك.

استبدل موريل الفرح والاحتفال بإطلاق سراحه بشكر القاضي بكلماتٍ قليلةٍ، ثمَّ أخذ القاضي جانبًا، وقال له:

«أيُّها القاضي المبجَّل، يوجد لدينا سجينٌ مسنٌّ مريضٌ في المستشفى. إنَّه رجلٌ كبيرٌ في السِّنِّ، وقاتل لخدمة هذه البلاد من قبل أن أخرج إلى هذه الحياة. يقول الأطبَّاء إنَّه لن يعيش كثيرًا، ولا يريد أن يموت وهو في السِّجن. لقد حُكم عليه بعشرين سنةً لتسبُّبه بحادثة قتلٍ غير متعمَّدٍ عندما كان تحت تأثير الكحول، ولم يتبقَّ من محكوميَّته سوى ستِّ سنوات. ألا توجد فرصةٌ لكي يعيش ما تبقَّى له من حياته خارج السِّجن؟ هل يمكنك أن تزوره في المستشفى لتطَّلع على حالته؟

«أعطني المفاتيح»، ردَّ القاضي، «وسر معي».

سار القاضي بصحبة موريل عبْرَ حديقة المستشفى إلى أن دخلا غرفة المريض حيث جلسا لمدَّة نصف ساعة، وعندما خرجا بدأت الفرقة بالعزف وكانت السَّعادة تعلو وجه القاضي. بعد ثلاث ليالٍ عاد القاضي إلى السِّجن حاملًا ورقتَي عفوٍ إحداهما للجنديِّ المسنِّ والأخرى لمريضٍ آخر رآه بالمستشفى. إنَّهم رجالٌ تحتاج إليهم نساؤهم أكثر ممَّا تحتاج إليهم جنازير وقضبان سان كوينتن.

حدث كلُّ هذا قبل أربعة أعوام. أصبح موريل رجلًا حرًّا الآن، وما يزال محبًّا لفعل الخير. رأيته البارحة، وكان الحزن قد تلاشى من وجهه واستعادت عيناه بريقهما. لم يكن يشبه أبدًا ذلك الرّجل الذي رأيته خلف جدران السِّجن، وحتمًا لم يكن بقايا الإنسان التي رأيتها عندما خرج من الحبس الانفراديِّ لأوَّل مرَّة.



الفصل الثَّامن عشر

في أثناء الحديث مع هـ. ب. وورنر التَّابع لشركة «أليَاس جيمي فالنتين» قبل أيَّام، ذكر لي حادثةً رآها أمامه وهو يزور السِّجن المركزيَّ في ولاية بنسلفانيا.

«كنت أزور أحد العنابر مع المأمور ورأيت شخصًا مقيَّدًا في السُّترة، وعندما رآنا جاء نحونا مسرع الخطى».

«كان مقيَّدًا في السُّترة؟»، قاطعته باستنكارٍ، «وكان يمشي على قدميه؟ أيُّ نوعٍ من السُّترات هذا؟».

ردَّ السَّيِّد وورنر: «لماذا؟ هذا هو النَّوع العاديُّ من السُّترات. كانت يداه مقيَّدتين؛ ولكنَّه كان يستطيع تحريك كوعيه. وكان متحمِّسًا جدًّا لرؤية الآمر».

أكمل السَّيِّد وورنر قصَّته ولكنَّني لم أصغِ إليه. كنت أفكِّر بما قاله عن تلك السُّترة. كنت ذكرت عقاب السُّترة في بعض فقرات هذا الكتاب، وسأذكره مرَّةً أخرى خلال متابعتي لسرد الأحداث التي حصلت معي، ولكنَّ السُّترات المستخدمة في سجون كاليفورنيا كانت مختلفةً عن تلك المستخدمة في بقيَّة الولايات. قد يتخيَّلها الجميع كالسُّترات الشَّائعة التي رآها السَّيِّد وورنر، وكالتي يستخدمونها في المصحَّات العقليَّة مع المرضى العدائيِّين، ولكنَّها لم تكن كذلك. سترة سان كوينتن شيءٌ آخر، ويجب أن أصفها لكم، فهي شكلٌ من أشكال التَّعذيب، ومسؤولو كاليفورنيا يسمحون باستخدامها على نحوٍ سيِّئ. يجب أن تعرفوا أنَّها تتكوَّن من قطعٍ من الخيش يصل طولها تقريبًا

إلى أربع أقدامٍ ونصف، وهي مصمَّمةٌ بشكلٍ يناسب الجسم البشريَّ، وعندما تفردها على الأرض فستجد أنَّ شكلها يشبه غطاء التَّابوت، فهي عريضةٌ عند الكتفين، وتتقلَّص تدريجيًّا نحو الأسفل، وحوافُّها كبيرةٌ ومحاكةٌ بخيوطٍ من نحاس، وتتوافر بأحجامٍ مختلفة، وقد صُنعَتْ خصِّيصًا لتكون أداةً من أدوات التَّعذيب.

عندما يُحكَم عليك بارتداء السُّترة، ستُساق إلى غرفة تبديل الملابس، وهناك يجرِّدونك من الثِّياب ويسلِّمونك بزَّةً قديمةً تتكوَّن من قميصٍ وبنطالٍ وحذاءٍ مهترئ. سيأخذك إلى الزِّنزانة السُّفليَّة حارسٌ متمرِّسٌ مسلَّحٌ، وهناك سيُلبسك الحرَّاس السُّترة المناسبة لحجمك. ويتمُّ ذلك بعد فرد السُّترة على الأرض واستلقائك عليها، ثمَّ يقومون بطيِّ جانبيها على ظهرك، ثمَّ يربطونها بحبلٍ بطول طرف النَّافذة ويثبِّتون الحبل في الفتحات التي على الجانبين.

وإذا تلقَّى الحارس أوامر بإحكام السُّترة على جسد السَّجين، فإنَّه يقوم بوضع رجله على ظهر الضَّحيَّة ليحصل على قوَّة رفعٍ ويستمرُّ في سحب الحبل وشدِّه بقوَّة، وعندما ينتهي من ربط بقيَّة الحبل يلفُّه حول الضَّحيَّة ويربطه به، ثمَّ يرفس الضَّحيَّة ليستلقي على ظهره ويتركونه في مكانه ليفكِّر بالخطأ الذي ارتكبه. يبقى السَّجين ممدَّدًا في إحدى الزِّنزانات السُّفليَّة، في مكانٍ باردٍ ورطبٍ وخالٍ من الضَّوء.

قبل سنواتٍ من اختراع السُّترة كانت السُّجون تلفُّ المعاقَبين بغطاءٍ أبيض، خاصَّةً إذا كان السَّجين نحيفًا جدًّا حتى لا يتركوا أيَّ فرصةٍ ليكون الغطاء فضفاضًا عليه.

يمكن أن يتحمَّل الإنسان قضاء يومٍ كاملٍ في السُّترة، ولكنَّني أعرف حالاتٍ كثيرةً تُركوا أسبوعًا كاملًا مقيَّدين بها، وبعضهم تُرك عشرة أيَّام. تصوَّر هذا قليلًا، أن تكون مقيَّدًا داخل قطعة قماشٍ ثقيلةٍ وخشنةٍ جدًّا بحيث

تكون أطرافك معصورةً بشكلٍ مؤلمٍ، وتُترَك هناك لأيّامٍ دون أن تحصل على أيِّ استراحة، تُترَك مقيَّدًا من يوم الاثنين إلى يوم الأحد القادم. وطوال ذلك الوقت يجب أن تظلَّ ثابتًا بلا حراك. لا تستطيع تغيير موضعك إلّا على أحد جانبيك أو أن تضع وجهك على سطح الأرض الحجريَّة.

صحيحٌ أنَّهم يمنحونك فراشًا قديمًا؛ ولكنَّ أغلب الذين كانوا يُعذَّبون هناك، كانوا ينزلقون عن ذلك الفراش ولا يعرفون كيف يرجعون إليه. ويجب على السَّجين أن ينادي الحارس مرَّةً كلَّ يوم حتى يقضي حاجته، ولا يُسمح له بطلب ذلك أكثر من مرَّة، ولذلك يعاني السُّجناء مذلَّة الحرج، وعندما يحلّ المساء ينزل الحرَّاس إلى هناك حاملين قنِّينة ماءٍ وقطعة خبزٍ ويضعونهما عند شفاه الضَّحيَّة، وذلك هو الوقت الوحيد لتناول الطَّعام.

عندما تُربط السُّترة على جسد السَّجين بعنفٍ، وهو ما يحصل غالبًا، فإنَّه يتنفَّس بصعوبة، ويفقد الشُّعور بيديه وقدميه، وتصبح أطرافه باردةً وعاجزةً عن الحركة، ويعاني من التَّنميل الذي يصيب الإنسان إذا ظلَّ على وضعيَّةٍ واحدةٍ لفترةٍ طويلة. وفي كلِّ مرَّةٍ يُحرَّر فيها السُّجناء من السُّترة لا يستطيعون الوقوف على أقدامهم، ويضطرُّون إلى الزَّحف والحبو على الأرض كالأفعى حتى يعود جريان الدَّم إلى أطرافهم، وعندما يعود جريان الدَّم إلى طبيعته يبدأ شعورهم بالألم المبرِّح.

تحدَّثت مع أشخاصٍ قالوا إنَّهم استطاعوا أن يقفوا وهم داخل السُّترة. أحدهم أخبرني أنَّ الأمر استغرق منه نصف ساعةٍ حتى وقف على قدميه بعد أن تدحرج إنشًا بعد إنشٍ نحو زاوية الحائط.

«ولكنَّني بعد أن وقفت شعرت بالنَّدم على ذلك، فقد بقيت واقفًا في الزَّاوية وقدماي متضامَّتان بقوَّة. ولم أعرف كيف أعود إلى مكاني، فإذا حرَّكت قدميَّ إلى الأمام سأسقط على الأرض بقوَّة، حتى لو بقي ظهري

مستندًا إلى الحائط، ومن المستحيل أن أخاطر بالوقوع على وجهي. وقفت هناك نصف ساعةٍ لا أجرؤ على الحركة، ثمَّ قرَّرت القفز على الفراش. لم أستطع رؤيته في الظَّلام؛ ولكنَّني ظننت أنَّني أعرف مكانه. كنت في السُّترة لمدَّة ثلاثة أيَّام في ذلك الوقت، وكنت ضعيفًا جدًّا، ولكنَّني قفزت بكلِّ ما تبقَّى لي من قوَّة، ورفعت قدميَّ في أثناء هبوطي ممَّا أدَّى إلى وقوعي باتِّجاه الحائط واحتكَّ وجهي بدهان الجدار الذي على الجانب الآخر من الزِّنزانة، ولم أستطع فعل شيءٍ لإيقاف النَّزف.

اتَّكأت على الجدار ساعتين، ثمَّ جاء الحرَّاس بالطَّعام وأخرجوني من السُّترة بسبب ما حدث. ظنُّوا أنَّني قد تعمَّدت حكَّ وجهي بالحائط لكي أنزف».

وهناك رجالٌ آخرون قالوا لي إنَّهم كانوا يفتحون أكواعهم ويفردون قبضات أيديهم عند تقييدهم في السُّترة حتى يحصلوا على مساحةٍ أوسع بعد الانتهاء من تقييدهم. ولكنَّها خدعةٌ تنطوي على العديد من المخاطر، فإذا اكتشف الحارس ذلك فإنَّه يسحب الحبال ويشدُّها أكثر على جسده. وإذا لم يرخِ الضَّحيَّة نفسه فإنَّه يمسك رأسه ويثبِّته بوضعيَّةٍ يصعب الخلاص منها، ممَّا يجعل العقاب مضاعفًا عليه، وهذا الشَّيء قد يتسبَّب له بالشَّلل.

أتذكَّر حادثتين خرج فيها رجلان من السُّترة مصابَين بالشَّلل، وقد توفِّي أحدهما بعد ذلك بفترةٍ قصيرة.

هذه الحقائق وأخرى تشبهها في بشاعتها بلغت أسماع رجال القانون، فشكَّلوا مجموعةً للتَّحقيق، وقضوا عدَّة أيَّامٍ في كلِّ سجنٍ من سجون الولاية، وبدلًا من أن يلغوا عقاب السُّترة في السُّجون لأنَّه عملٌ غير إنسانيٍّ ويشكِّل خطرًا على حياة السُّجناء، كما أثبتت الدَّلائل، اقترحوا استمراريَّة تطبيقه تحت إشرافٍ مشدَّد.

وتطبيقًا للاقتراح، أوصى مكتب العاصمة المختصُّ بشؤون السُّجون أن يبقى الضَّحيَّة في السُّترة لمدَّة 6 ساعاتٍ متواصلة، ومنذ ذلك الوقت أصبحت السُّجون تُبقي الضَّحيَّة في السُّترة ستَّ ساعاتٍ ثمَّ تُخرجه ليأخذ استراحةً لمدَّة ستِّ ساعاتٍ ثمَّ يعيدونه إلى السُّترة لستِّ ساعاتٍ أخرى، وهكذا دواليك، ولكنَّ هذا التَّجاوز ليس مذكورًا في القانون. ليس هذا فحسب، بل إنَّ عقاب السُّترة وسيلةٌ لاستخراج الاعترافات، وعندما تغيَّر القانون ليقلِّل مدَّة التَّقييد أصبح الحرَّاس يربطون السُّترة بشدَّةٍ أكبر. أتذكَّر حادثةً قريبةً كان السَّجين المعاقَب فيها يصرخ بأعلى صوته ويتوسَّل إليهم أن يرحموه، وبعد نصف ساعةٍ من العقاب خرج الحارس ليخبر إدارة السِّجن بأنَّ السَّجين قد اعترف.

لا ينبغي لأحدٍ أن يدافع عن عقابٍ كهذا، فهو شكلٌ غير هادفٍ من أشكال البربريَّة، ولم يحدث أنَّني قابلت رجلًا خاض تجربة السُّترة ولم يُصَب بالكآبة والبؤس وتردَّت حالته الجسديَّة والنَّفسيَّة بسبب الإساءة والذُّلِّ الذي تعرَّض له. لا أرى فائدةً من استخدام السُّترة كوسيلةٍ للتَّأديب، فهي أداةٌ كاملةٌ للسَّاديَّة والتَّعذيب.

في ظلِّ الإدارة الحاليَّة لسان كوينتن، ما يزال عقاب السُّترة موجودًا ولكن بشكلٍ قليل، وفي الوقت الحاليِّ من النَّادر جدًّا أن يُستخدم، ولوحظ تحسُّنٌ جيِّدٌ في سلوك السُّجناء تحت إشراف الآمر الجديد، ويمكننا أن نضمن أن السُّجناء لا يتعرَّضون لأيِّ شكلٍ من أشكال التَّعنيف، إلَّا إذا كان الآمر غافلًا عمَّا يحصل خلف الجدران، فهو لديه مسؤوليَّاتٌ كثيرةٌ وضروريَّةٌ، وكوسيلةٍ للإسراع في إنجاز العمليَّات يقوم بتعيين شخصٍ ليشرف على السُّجناء، وطالما أنَّ ذلك يحدث، فقد يقع الظُّلم، كالذي سأخبركم عنه لاحقًا.

لا يوجد ضمانٌ لاستمرار صلاح السُّجون، وليس من الممكن أن تبقى تحت إدارة رجلٍ حكيمٍ وعادل. الموت والسِّياسة هما الشَّيئان غير المضمونَين في هذه الحياة.

استخدام السُّترة كوسيلةٍ للعقاب يجب أن يُلغى بقانونٍ فعليٍّ، بدلًا من ذلك القانون الذي سنَّه أحد القضاة السَّاديِّين. لماذا ما يزال هذا العقاب غير الإنسانيِّ مطبَّقًا في السُّجون حتى الآن؟

سأذكر واحدةً من الحالات التي استُخدِمَت السُّترة فيها وسأتطرَّق إلى حجم الظُّلم والإساءة الذي وقع آنذاك.

اسم الضَّحيَّة: براون، سأستخدم اسمًا وهميًّا متعارفًا عليه كما فعلت في الأسماء الأخرى، لئلَّا يتعرَّض الشَّخص لأيِّ أذىً، فالكثير من الأشخاص الذين ذكرتهم أحرارٌ الآن، وقد التقيت بعضهم في بداية كتابتي هذا الكتاب.

اتُّهم براون بمعرفة مكان تخبئة المخدِّرات أو حيازتها، وعند إلقاء القبض عليه وجَّهوا إليه التُّهمة المذكورة ولكنَّه أنكرها. وُضِع براون في السُّترة، وبسبب طريقة التَّعنيف الذي تعرَّض له من أحد الضُّبَّاط واستمرار صمته، أحسُّوا بأنَّه الرَّجل المطلوب، وأخبروه أنَّه لن يخرج حتى يعترف.

المسكين براون لم يكن لديه ما يعترف به، وهذا يشبه قصَّة موريل، وعانى لأيَّام وأيَّام مرارة التَّعذيب القاسي والإهانة. وضعوه في السُّترة لمدَّة 136 ساعةً ثمَّ أُخرج منها لأنَّ الطَّبيب قال إنَّه لن يتمكَّن من المشي مرَّةً أخرى.

هذا النَّوع من التَّعذيب دمَّر جسده، ولن يتعافى منه مطلقًا، وقد ثبتت براءته بعد خروجه، وعُرِضَت الأدلَّة على مكتب الولاية المختصِّ بالسُّجون، وعلى إثر ذلك أرسلوا برقيَّةً إلى القاضي جيليت مطالبُها أن يمنح براون عفوًا بسبب صحَّته التي تضرَّرت من التَّعذيب الذي تعرَّض له في أثناء تقييده بالسُّترة رغم براءته.

وبناءً على هذا الخطاب منح القاضي جيليت عفوًا لبراون. وأودِعَت هذه البرقيَّة في ملفِّ أرشيفات ساكرامينتو، وستبقى شاهدةً على أشدِّ أنواع العذاب التي تسبَّب فيها هذا النِّظام الظَّالم، وعلى الرَّغم من معرفة القاضي والمسؤولين بالذي حدث، ما يزال عقاب السُّترة يُطبَّق حتى هذه اللَّحظة.

بعد مرور بضعة أسابيع على العفو عن براون، تعرَّض رجلٌ آخر للتَّعذيب نفسه وللسَّبب نفسه. كان يعمل كاتبَ برقيَّاتٍ في مكتب الآمر، واتُّهم بإدخال الأفيون إلى السِّجن. كان ذلك السَّجين ينفي التُّهمة بكلِّ ما أوتي من قوَّة، وقد وُضِع في السُّترة ليعترف. واستسلم بعد 83 ساعةً من العذاب واعترف. التقيت هذا الرَّجل في الشَّارع البارحة، وأخبرني القصَّة كما حدثت تمامًا.

«لماذا اعترفت وأنت بريء؟»، سألته.

أجابني: «لم يكن أمامي خيارٌ آخر. لم أكن أعلم شيئًا عن التُّهمة الموجَّهة إليَّ، وحتى براون لم يكن يعلم شيئًا عن تهمته. في البداية فضَّلت الموت على الاعتراف؛ ولكن مع استمرار التَّعذيب، رحت أفكِّر بما حدث لبراون بعد خروجه، وكيف أصبحت حالته، وأنَّه لن يعود لسابق عهده أبدًا. كنت أضعف كلَّ يومٍ أكثر فأكثر، وفي النِّهاية لم أستطع تحمُّل العذاب، فاعترفت بما كانوا يرغبون في سماعه.

«أتعرف ماذا حدث؟ القصَّة المعتادة. أرسلوني إلى المطحنة ولم أكن قادرًا على المشي، وعندما اجتمع المشرفون لم يلزمهم سوى ثلاث دقائق ليحكموا عليَّ، يا لروعة أدائهم! يحتاجون إلى أربعة أشخاص ليحكموا بالعفو، ولكنَّهم لا يحتاجون سوى إلى شخصٍ واحدٍ وبضع دقائق ليوجِّهوا إليك تهمةً تُنهي حياتك.

«ولا تنس أنَّهم يعيدون المساجين للعمل في الوقت نفسه الذي يخرجون فيه من السُّترة. رأيت رجالًا زُجَّ بهم في السُّجون الانفراديَّة عصر يوم السَّبت لأنَّهم لم يكملوا المهامَّ الموكلة إليهم، وتُركوا هناك على الماء والخبز حتى صباح الاثنين، ثمَّ أُرسِلوا إلى المطحنة، ويُنتظَر منهم أن ينجزوا مهامَّ الأسبوع القادم. وإذا فشلوا في إنجاز المهامّ، فذلك يعني أنَّهم سيعودون إلى السُّترة مرَّةً أخرى حتى يوم الأحد القادم. بعضهم أُصيب بالجنون من كثرة ما حدث

لهم ذلك، ويتحدَّثون عن الاحتلال الإسبانيِّ وكيف أنهم كانوا وحوشًا! يا للسُّخرية! أظنُّ أنَّ جميع النَّاس هكذا؛ ولكنَّ الفرق أنَّ ما يحدث في السِّجن يحدث في العلن، وما يحدث في الخارج يحدث في الخفاء.

«لقد تعرَّضت لذلك العقاب، ولم أعد كالسَّابق، ولن أعود أبدًا، وتستطيع التَّأكُّد من ذلك بنفسك. ولكنَّني لست مجرمًا ولم أكن كذلك يومًا. سُجنت لأنَّني انتهزت فرصةً حالفتني في وقتها، وحُكم عليَّ بالسَّجن ثماني سنواتٍ وأظنُّه عقابًا كافيًا.

«أنا أعمل الآن من 9 إلى 10 ساعاتٍ في اليوم، والشَّخص الذي وضعني في السُّترة يستلم راتبًا يصل إلى 165 دولارًا في الشَّهر. ألا يكفي هذا حتى نشعر بالمرارة والحقد نحوهم ونودَّ لو ننقضَّ عليهم ونأخذ بثأرنا منهم؟ بلى، وهذه هي المشاعر نفسها التي يصل إليها السَّجين داخل زنزانته، وهي ما يجعله يصرُّ على ارتكاب الخطأ.

«أنا وأنت لدينا الوعي الكافي بأنَّ كلَّ ما يحدث هو لعبةٌ يتسلَّى بها أولئك الحمقى، ونحاول جاهدَين ألَّا نعود إلى تلك القضبان الحديديَّة، ولكنَّ هناك كثيرين غيرنا ممَّن لا يملكون الوعي الكافي ولا يدركون حقيقة ما يحصل بالفعل. ولا أحد يعرف من يكون الضَّحيَّة التَّالية، ما رأيك؟ كلُّ هذا الكلام عن تحسين أوضاع السُّجون لأجل تحقيق هدفٍ سامٍ بدلًا من هذه السُّجون السَّيِّئة والمسمومة هو محض كلامٍ نظريٍّ. أنا لم أقل إنَّه يجب أن نخلي سراح مَن يخرق القوانين. لديَّ الوعي الكافي لأرى منطق الطَّرفين. خذ قضيَّتي على سبيل المثال، أنا أعمل بجدٍّ واجتهادٍ للحصول على ما أحصل عليه، فتخيَّل أن يدخل شخصٌ ما إلى غرفتي أو يحاصرني في الشَّارع ويسرق كلَّ ما أملك بعد أن كنت قد كددتُ للحصول عليه. لا بدَّ وأنَّني سأحقد عليه، وسأرغب في الانتقام، ولكن بعد كلِّ ما مررت به لم أعد متأكِّدًا من مسألة الانتقام؛ ولكن أتفهَّم الذين يختارون ذلك، فهذه هي طبيعة البشر، ولكنَّ هذه العقليَّة تقتل كلَّ

الخير الذي تبقَّى فينا. أنا لا أقول إنَّ السُّجون يجب أن تتحوَّل إلى منتجعاتٍ صيفيَّةٍ، أو أن تكون الحياة فيها ممتعةً، ولكن أقول إنَّ السَّجين يجب أن يعامَل بإنسانيَّة، علَّهم يدركون بعد فترةٍ أنَّه بالفعل إنسانٌ مثلهم.

«يجب أن يكون هناك هواءٌ نقيٌّ، مكانٌ جيِّدٌ للنَّوم، أكلٌ نظيفٌ، عملٌ نتقاضى عليه أجرًا، ويجب أن يكون التَّعذيب ممنوعًا. ماذا ستقول عن أمٍّ وأبٍ أخذ أحد أبنائهم قطعةً من الحلوى، ولا يدريان من الفاعل، وأوَّل ابنٍ يمرُّ من أمامهما يمسكانه ويعذِّبانه إلى أن يعترف؟ من ستلوم إذا أصبح هذا الابن سيِّئًا؟ إنَّه سؤالٌ وجيهٌ، وهو مشابهٌ جدًّا لما يحدث في السُّجون.

«عندما يرتكب رجلٌ جريمةً، ويُزَجُّ به في السِّجن، ويخسر حرِّيَّته وعائلته، يجب أن يُمنح فرصةً عادلةً، ويجب أن يتعلَّم شيئًا مفيدًا في سجنه ليكون شخصًا أفضل عندما يخرج، هذا هو رأيي.

«هذا النِّظام القديم مطبَّقٌ منذ سنواتٍ طويلةٍ، أليس كذلك؟ لم لا يجرِّبون شيئًا جديدًا ويرون كيف ستكون النَّتائج؟ وإذا لم يحدث أيُّ تحسُّنٍ فإنَّهم لن يخسروا شيئًا، ويستطيعون إعادة النِّظام القديم مرَّةً أخرى.

«ولكنَّني أعتقد أنَّ النِّظام الذي أطمح إليه نظامٌ جيِّد، وأعتقد أنَّك تراه كذلك أيضًا. لا أتخيَّل أنَّك قد تؤمن بعكس ذلك. إنَّني أنتظر منك أن تُحدِث تغييرًا. لا تستسلم ولا تُرهِم رايتك البيضاء. بعض النَّاس لا يفكِّرون أبعد من أنوفهم، أو من خلال النُّقود فحسب، سمِّهم ما شئت، سيعارضونك في البداية ولكنَّهم مع مرور الوقت سيفكِّرون بهذه الأمور. كثيرون منهم سيفكِّرون كما أفكِّر أنا الآن.

«تذكَّر يا لوري، الآلاف منهم يعوِّلون عليك. كن مع الحقائق. قل كلَّ الأشياء المفيدة التي تستطيع قولها، وابتعد عن الكلام اللَّطيف. أرهم أنَّ التَّكبيل والتَّكميم والرَّكل لا يجعل من السَّجين شخصًا جيِّدًا، خاصَّةً عندما يكون جائعًا. وداعًا».

الفصل التَّاسع عشر

توجد في سان كوينتن فرقةٌ موسيقيَّةٌ تتدرَّب كلَّ ليلة، ولكن في اللَّيلة التي ينفَّذ فيها حكم الإعدام تتوقَّف جميع الآلات الموسيقيَّة عن العزف. لا يوجد أيُّ قانونٍ يمنعهم من العزف إن أرادوا ذلك؛ ولكن عندما تلفظ الرُّوح البشريَّة آخر أنفسها تأبى الأرواح الأخرى أن تعبِّر عن فرحها بأيِّ طريقةٍ كانت. في إحدى المرَّات طلب رجلٌ محكومٌ عليه بالإعدام أن تواصل الفرقة عزفها في ليلته الأخيرة. غرفة الإعدام قريبةٌ جدًّا من غرفة الفرقة، وصوت الآلات الموسيقيَّة يكون مسموعًا بوضوحٍ هناك.

من تقاليد الفرقة القديمة أنَّهم يقيمون حفلةً قصيرةً قبل الحفل الكبير أو عند الإفراج عن سجينٍ مشهور، وتُقام له حفلةٌ بسيطةٌ في اللَّيلة التي تسبق خروجه من السِّجن؛ ولكنَّ تلك الحادثة كانت الأولى من نوعها. ستعزف الفرقة الموسيقى لرجلٍ سيُخرج روحَه داخل السِّجن، وسيُدفن جسده في المقبرة برقبةٍ مكسورةٍ ووجهٍ متورِّم. استجابت الفرقة لطلبه وعزفت إحدى المقطوعات؛ ولكن كانت هناك العديد من النُّوتات الخاطئة، وكانت النَّغمات حزينةً وباكية.

التَّأثير الذي يخلِّفه إعدام شخصٍ في نفوس السُّجناء الآخرين عظيمٌ جدًّا ويصعب وصفه بالكلمات، خاصَّةً للسُّجناء الذين يرونه لأوَّل مرَّة. أمَّا الذين مكثوا في السِّجن سنواتٍ طويلةً فقد اعتادوا فكرة الإعدام نوعًا ما وأصبحوا مدركين أنَّ هناك شخصًا يعرفونه سيُعدَم يومًا ما. وكانت عمليَّة الإعدام تقام

صباحًا في السَّاعة العاشرة والنِّصف بالضَّبط من يوم الجمعة، ومع كلِّ حالة إعدامٍ يراها السُّجناء تموت قطعةٌ من قلوبهم.

المرور بجانب المشنقة للمرَّة الأولى لهو من أكثر الأشياء التي قد يصادفها السَّجين في فترة سجنه إثارةً للرُّعب، لدرجة أنَّ بعضهم يتقيَّأ من الطَّريقة التي تُزهَق بها الرُّوح بدمٍ بارد. ولكن من يعملون هناك ماتت لديهم هذه المشاعر بسبب تكرار مشاهد الرُّعب، ووصلوا إلى مرحلة انعدام الإحساس. وهذا يحصل دائمًا مع أولئك الذين يعملون في إزهاق الأرواح ومن يضطرُّون إلى الوجود في غرفة الإعدام.

والرِّجال الذين كان يُغمى عليهم من منظر الدَّم يصبحون من أقسى وأشرس الجنود، ويصبحون مستعدِّين لقتل جماعاتٍ من البشر. يستطيع الإنسان أن يتعوَّد أيَّ شيء؛ ولكن هناك بعض الأمور التي إذا تعوَّدها فقدَ إنسانيَّته. هذا ما يحصل مع الذين يشنقون البشر، ويحصل أيضًا مع المؤيِّدين لحكم الشَّنق؛ ولكن بدرجةٍ أقلَّ قليلًا، فهم يرون أنَّ الحياة البشريَّة رخيصةَ جدًّا، وقد يتَّجه أحدهم لقتل أشخاصٍ آخرين متَّبعين ذلك الاعتقاد.

وعلى النَّقيض تمامًا، هناك قلَّةٌ من الرِّجال الذين عانوا صنوف التَّعذيب المتكرِّرة التي تُطبَّق في السِّجن وعانوا أقسى أشكال التَّعنيف أضعافَ ما عاني المعاقبون أنفسهم.

عند إصدار الأحكام لا يفكِّر القضاة بهذه النُّقطة وبهذا النَّوع من العقاب. من الظُّلم أن يعاني السُّجناء هذا الأمر، وهو في الحقيقة وصمة عارٍ على جبين الحضارة الإنسانيَّة جمعاء. من العار أن يُقتل الإنسان بدمٍ باردٍ، ومن العار المناداة بقتل من يقتل لحماية المجتمع، وبأنَّ العقاب سيخيف النَّاس؛ ومع أنَّه يُطبَّق بقصد التَّخويف، إلَّا أنَّهم يزيدون وطأته بصورةٍ متحايلةٍ، ومخجلةٍ، ومتواريةٍ خلف الجدران.

يحتاج تنفيذ الحكم من ثماني إلى اثنتي عشرة ثانيةً من وقت دخول المحكوم عليه غرفة الإعدام إلى وصوله معلّقًا بنهاية الحبل. لِمَ كلُّ هذه السُّرعة؟ ولماذا يُستخدَم الكرسيُّ الكهربائي؟ هل الغرض منه أن تخرج الرُّوح بسرعة؟ إن كان الغرض من الإعدام هو التَّخويف والتَّرهيب، فلماذا لا يعذِّبون الضَّحيَّة؟ لماذا لا يخنقونه ببطءٍ حتى الموت؟ لماذا لا يقومون بكافَّة الإجراءات في الشَّوارع العامَّة ليراها جميع النَّاس رجالًا ونساءً وأطفالًا؟ كانوا يقومون بها في العلن، فلماذا مُنعت عن العامَّة؟ لأنَّهم وجدوا أنَّ منظر القتل يقسِّي قلوب بعض النَّاس، ولأنَّهم يعرفون أنَّ منظرًا كهذا ليس منظرًا مناسبًا ليتعرَّض له قلب الإنسان العاديِّ وعيناه البريئتان.

وبعد كلِّ هذا، وحده الفقير مَن تنتظره المشانق. في سان كوينتن وخلال كلِّ السَّنوات التي مرَّت لم يُشنَق سوى رجلٍ غنيٍّ واحد. كان البقيَّة صينيِّين أو هنودًا أو أفارقةً أو مكسيكيِّين أو معاقين أو مرضى عقليِّين. كلُّهم ماتوا معلَّقين مقابل رجلٍ غنيٍّ واحدٍ فقط، أمَّا من لديه أصدقاءٌ مستعدُّون لإنفاق المال في سبيله فإنَّه يخرج بتخفيف المؤبَّد أو حتى عدد السَّنوات لأنَّه لا يستحقُّ الموت أبدًا.

بالمقارنة بين من شُنقوا ومن حُكم عليهم بالسَّنوات، يتبيَّن لنا أنَّ من شُنقوا كانوا أبرياء.

في جلسات المحاكمة حيث يحضر المحامون الذين دُفعت لهم أموالٌ طائلة، تكون التَّسوية وكأنَّها بين المحامين وليس بين الضَّحايا والمكلومين، ويُصدر القضاة الحكم وفقًا لموقف المحامي الأقوى.

قبل بضع سنوات، كانت هناك خمس قضايا لخمسة رجالٍ قتلوا زوجاتهم خلال أسبوعين في سان فرانسيسكو. رجلٌ أطلق النَّار على زوجته الشَّابَّة وهي نائمة. حُكم عليه بعشرين سنة. وآخر ذهب إلى الجهة الأخرى من

المدينة حيث توجد زوجته وأطلق النَّار عليها بوجود أبنائهم الصِّغار، وحُكم عليه بالمؤبَّد. وآخر، سائق قطار، نحر زوجته وحُكم عليه بعشر سنوات، وواحدٌ أطلق النَّار على خطيبته في الشَّارع، كانت تتوسَّل إليه وهي ممدَّدةٌ على الأرض ألَّا يقتلها، ولكنَّه أفرغ المسدَّس في جسدها المتلوِّي من الألم، وحُكم عليه بالمؤبَّد. الخامس وجدوه منبطحًا بجانب زوجته وهو سكران غير واعٍ بما يحدث، وكان يحمل مسدَّسًا في يده، ولم يكن يتذكَّر ما الذي حدث بينهما، فحُكم عليه بالإعدام شنقًا حتى الموت.

عندما حان موعد إعدام هذا الأخير خيَّم الحزن على جميع السُّجناء، وكانت قد بُذلَت جهودٌ جبَّارةٌ لتخفِّف المحكمة عقوبته إلى المؤبَّد. تواصلوا مع أفضل المحامين ليهتمَّ بقضيَّته، وحتى الآمر هويل ذهب إلى ساكرامينتو ليقابل الحاكم، ولكنَّ إدانته الكبرى كانت لأنَّه فقير، فقيرٌ لدرجة أنَّه لم يستطع تعيين محامي دفاعٍ في جلسة الاستماع. وفي النِّهاية تمَّ شنقه بلا رحمة.

بعض المحكوم عليهم كانوا يحاولون الانتحار، ولكنَّهم كانوا مراقبين بشكلٍ مكثَّف، لدرجة أنَّهم لم يمتلكوا فرصةً حتى لإنهاء حياتهم. الرَّجل الوحيد الذي استطاع أن ينجح في سان كوينتن هرب من زنزانته عندما فتح الحارس الباب في موعد الإفطار، وبسرعة البرق ركض متخطِّيًا الحارس وصعد الدَّرج إلى أن وصل إلى السَّطح. حاول القفز ثلاث مرَّاتٍ قبل أن يقفز القفزة النِّهائيَّة متمايلًا إلى الأمام والخلف على حافَّة السَّطح، وما كان من الآمر رودولف إلَّا أن هرع من مكتبه ليمسك بالسَّجين ولكنَّه ألقى بنفسه قبل أن يصل إليه، وحين أمسكوه في الأسفل كان ما يزال واعيًا، ثمَّ نُقل إلى المستشفى حيث مكث عشرة أسابيع كابد خلالها آلامًا وعذابًا مبرِّحًا، ثمَّ فارق الحياة.

في اليوم الذي سبق إعدام سيمسن ودابنر، كنت في طريقي للصُّعود إلى غرفة المعدَّات. ورأيت العمَّال وهم يزيِّنون التَّابوت كما لو كانوا يزيِّنون

صندوق عيد الميلاد. كان هناك عمَّالٌ يضعون البطانة القماشيَّة داخل التَّابوت، وبالقرب منهم كان هناك تابوتٌ آخر جاهزٌ للاستخدام. هذان التَّابوتان كانا يُعدَّان لمخلوقَين بشريَّين كانا ما يزالان على قيد الحياة وفي صحَّةٍ جيِّدةٍ في تلك اللَّحظة.

في تلك اللَّيلة قابلت السَّجين المسؤول عن غرفة الإعدام وسألته عن حال المحكوم عليهما أو بالأحرى عن الرَّجل والصَّبيِّ اللَّذَين كانا ينتظران الموت.

أجاب: «أوه، إنَّهما بحالةٍ جيِّدة، ولكنَّ يومي كان صعبًا. شنقت بعد الظُّهر ستَّة رجال. كما ترى كانوا يرغبون في أن يُشنقوا معًا، وبعض الحرَّاس معتادون على هذا الأمر. لا يريدون أيَّ تأخيرٍ أو خطأٍ، ولهذا جعلوا منِّي فأر تجارب للحرَّاس المستجدِّين كي يتدرَّبوا على طريقة الإعدام. أدَّيت التَّمثيليَّة ستَّ مرَّاتٍ على المنصَّة مربوط القدمين والغطاء الأسود على رأسي والحبل حول عنقي. آه كم كان ذلك شنيعًا!».

ثمَّ تحدَّثت مع الحلَّاق الذي يحلق للمحكوم عليهم بعد الظُّهر قبل أن يُشنَقوا، وقال لي إنَّ سيمسن طلب منه أن يحلق له شاربَيه ليصبح «أخفَّ».

قبل عدَّة أيَّام من إعدام دابنر، خرجت أمُّه من بوَّابة السِّجن لآخر مرَّة. والد الصَّبيِّ توفِّي قبل إعدامه بأيَّامٍ قليلة. هذه الأمُّ لم تستطع القدوم لرؤية طفلها صبيحة موته، المخلوق الذي عاشت معه ولأجله وأحبَّته منذ صغره. كان عمره أقلَّ من 20 عامًا حين أُعدم.

إذا كان البشر يشعرون حقًّا بالخوف والرَّهبة من عقوبة الإعدام، فلماذا إذن حدثت جريمة قتلٍ مروِّعةٌ في الحيِّ الكبير نفسه الذي عاش فيه هذا الصَّبيُّ بعد أربعٍ وعشرين ساعةً من إعدامه على فعلته؟

يوجد في سان كوينتن مصنع ألبسةٍ قديمٌ في الطَّابق العلويِّ، وفي ذلك الطَّابق توجد غرفتان مخيفتان، وهما غرفتان كبيرتان بحيث يضيع صوت

المرء وصداه بين جدرانهما الواسعة. في منتصف هاتين الغرفتين يوجد قفصان مفصولٌ أحدهما عن الآخر بلوحٍ خشبيٍّ مُصمَتٍ. القفصان نفسهما مصنوعان من قضبانٍ خشبيَّةٍ التَّباعد بينها بضعة إنشات. كلُّ قفصٍ يحتوي على فراشٍ واحدٍ وبطَّانيةٍ ودلوٍ لا غير. يُعرَف هذان القفصان بغرفتَي الموت، وصمِّمتا بالتَّحديد للمحكوم عليهم بالإعدام بحيث يُعلَّقون من رقابهم حتى تُزهَق أرواحهم فيهما، ويراقبهم الحرَّاس عن قربٍ خلال أيَّامهم الأخيرة التي يقضونها في هذين القفصين.

كقاعدةٍ عامَّةٍ يُوضَع من يواجه حكم الإعدام في أحد هذين القفصين يوم الثُّلاثاء إلى أن يحين يوم الجمعة وهو موعد الشَّنق. أيُّ شخصٍ يدخل هذا القفص من المستحيل أن يخرج منه. تُربَط يداه خلف ظهره، ولا يفصله عن المشنقة سوى خطواتٍ قليلةٍ، ويقاسي في تلك الأيَّام أعظم المآسي التي يمكن أن تمرَّ على وجه الكرة الأرضيَّة.

عاصرت حادثةً أو حادثتين في سان كوينتن أخذ فيهما الحرَّاس المحكوم عليهما إلى القفص قبل أسبوعٍ أو ما يقارب العشرة أيَّام من الإعدام. ومن دراسة سلوكهما قبل الحكم النِّهائيِّ بالإعدام، استنتج الضُّبَّاط أنَّهما سيحاولان الهرب من الإعدام بالانتحار إذا لم يُراقَبا عن كثبٍ في اللَّيل.

ليون سودر احتُجز أسبوعين في غرفة الموت قبل أن يُشنَق. وكان دومًا يكرِّر أنَّه لن يموت على حبل المشنقة.

غرفة انتظار الموت قريبةٌ من غرفة الإعدام، وهي المكان الذي يتحوَّل فيه البشر إلى جثثٍ قبل أن يلقوا حتفهم، المكان الذي يقبع فيه اثنان من الأحياء يتنفَّسان آخر ما بقي لهم من أنفاس، أحدهما صبيٌّ صغير. لقد دفع هذان السَّجينان الثَّمن الأكبر عند تطبيق قانونٍ وضعه سكَّان كاليفورنيا.

قبل عام 1893 كانت كلُّ بلدةٍ تطبِّق قانون الشَّنق الخاصَّ بها؛ ولكن في

ذلك الوقت صدر قانونٌ جديدٌ ينصُّ على أنَّ سجون الولاية هي المكان الوحيد الذي يتمُّ فيه الإعدام بشكلٍ قانونيٍّ. منذ ذلك الحين أُعدم أكثر من أربعين شخصًا في كاليفورنيا، بمعدَّل ثلاثة أشخاص في السَّنة.

فلنوقف أولئك المحكومين بطابورٍ خياليٍّ وننظر إليهم بتمعُّن، ماذا نرى؟ سنرى أوَّلًا عددًا من الوجوه الطُّفوليَّة، لأنَّنا غالبًا ننجذب إلى الوجوه البريئة، وحين نكمل الخطَّ الحزين نصل إلى الرِّجال المسنِّين ذوي الرُّؤوس الشَّائبة والعيون المتعبة. بينهم أفارقةٌ وصينيُّون وهنود، وكذلك علماء وأمِّيُّون. رجالٌ سِمانٌ وآخرون نحافٌ، طوالٌ وقصارٌ، وُسماء وقبيحون. كلُّهم توقَّفوا عن الحياة، توقَّفوا عن التَّنفُّس. كلُّهم ميِّتون، وحول أعناقهم علامةٌ أرجوانيَّة اللَّون.

وأنا أكتب هذه الكلمات أشعر بالخوف من ألَّا تصل الصُّورة كاملةً كما يجب. لديَّ رغبةٌ كبيرةٌ في قول كلِّ ما أعرفه وما رأيته وشعرت به، وكذلك ما رآه وشعر به غيري، لكي يستوعب كلُّ شخصٍ بوضوحٍ معنى إعدام إنسانٍ آخر. من لديه قلبٌ ضعيف، من لا يريد أن يتعرَّض لصدمةٍ، والذين يشعرون أنَّ عقاب الدَّولة غير مهمٍّ، لهم كامل الحقِّ في ألَّا يقرأوا السُّطور القادمة.

بمحض الصُّدفة المؤلمة، وظروفٍ بسببها اضطررت إلى معرفة المزيد عن تقنيَّة المشانق وعمليَّة الشَّنق التي تحدث بشكلٍ معتادٍ للسُّجناء، خرجت بمعرفةٍ كاملةٍ عمَّا يجري هناك. يُمنع السُّجناء عادةً من دخول غرفتَي الإعدام، ولا يُسمح لهم بالصُّعود إلى الطَّابق العلويِّ حيث مصنع الأثاث. لا يدخل إلى غرفتَي الإعدام إلَّا السُّجناء الذين يُنزلون الجثث ويضعونها في الصُّندوق الأسود.

ولكن بعد عدَّة سنواتٍ من دخولي سان كوينتن، تمَّ تعييني كموظَّف تاريخٍ وإحصاء في مكتب مسؤول المفتاح، وفي ذلك الوقت تمَّ انتخاب شريفٍ

جديدٍ في نيفادا، ووجد ذلك الشَّريف نفسه مسؤولًا عن تطبيق أحد أحكام الإعدام بنفسه، ولم يكن قد شنق شخصًا من قبل، ولأنَّه لا يعرف كيفيَّة تنفيذ العمليَّة، فكَّر في أن يكتب رسالةً لآمر سان كويتن كي يخبره هذا الأخير بخطواتٍ تساعده في مهمَّته. فحوى الرِّسالة أنَّ عليه أن يشنق أحد الرِّجال المحكوم عليهم بالإعدام، ويريد أن يعرف الإجراءات المتَّبعة. وقد بُعثت الرِّسالة إلى مكتب مسؤول المفتاح عن طريق الآمر، وكان عليَّ أن أكتب المعلومات المراد إرسالها.

ولأنَّني لم أشنق إنسانًا قطُّ، لم يكن لديَّ إلَّا خيارٌ واحدٌ لأعرف، وهو أن أذهب إلى غرفة الإعدام وأتعلَّم الطَّريقة. ذهبت إلى مسؤول الباحة وأخذت الإذن منه. وشرح المؤتمن المسؤول عن غرفة الإعدام العمليَّة كاملةً لي.

أعترف أنَّني شعرت بفضولٍ حيال الموت وأنا في ذلك المكان، وحين وصلت إلى هناك كان أوَّل ما وقعت عليه عيناي هو آلة القتل الرَّهيبة الماثلة أمامي. رأيت مجموعةً من المشانق مدهونةً باللَّون الأزرق الفاتح، وأرعبني المنظر. وكلَّما مررت بها كنت أفتح عينيَّ وأقف مشدوهًا من هول ما أرى. ولم أستطع بعد ذلك رؤية طريقي وأنا أمشي.

كانت المنصَّة مدعَّمةً بأربعة أعمدة، واحدٌ في كلِّ زاوية. في كلِّ جانبٍ من هذه المنصَّة كانت هناك دعاماتٌ إضافيَّةٌ، وفي الأعلى عند المنتصف انتصب عمودٌ كبير فيه دعامةٌ كبيرةٌ في المنتصف تمتدُّ إلى المنصَّة وتفصل البابين أحدهما عن الآخر. العمود الأفقيُّ فيه فتحةٌ للحبل عند كلِّ باب، وكان الحبل متدلِّيًا من الأعلى، وفي كلِّ حبلٍ أنشوطةٌ للشَّنق، وكانت تلك الأنشوطة كبيرةً ومُحكمة الانعقاد وقد بدت وكأنَّها أفعى ملتفَّةٌ على نفسها.

في نهاية المنصَّة يوجد عددٌ كبيرٌ من الأدراج، وخلف منصَّة المشانق كشكٌ صغيرٌ يمتدُّ على طولها بشكلٍ بارزٍ؛ ولكنَّه مغلقٌ بحيث أنَّ الشَّخص لا

يستطيع أن يرى من خلاله إلَّا من الأمام قليلًا ومن فوق باتِّجاه الأسفل قليلًا. ما أزال أتذكَّر ذلك الكشك أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، ودائمًا ما كنت أتساءل عن فائدته.

اصطحبني المؤتمن إلى الدَّرج وبدأنا بالصُّعود.

وفي أثناء صعودنا اقترح عليَّ عدَّ الدَّرجات. فعددتُها ووجدت أنَّها 13 درجة.

«هل وضعوا هذا العدد من الدَّرجات عن قصدٍ؟»، سألته من دون تفكير.

«كلَّا، إنَّها محض صدفة. احتاجوا إلى 13 درجةً، هذا كلُّ ما في الأمر؛ ولكن هل هناك فائدةٌ من إخبار الزُّوَّار بهذا؟ بالطَّبع لا. عندما يصعد الشَّخص لينفَّذ فيه الحكم لن يقوم بعدِّ الدَّرجات. أو بالأحرى لن يتمكَّن من عدِّها حتى لو حاول ذلك. سأشرح لك كلَّ شيءٍ يتعلَّق بالإعدام ونحن في طريقنا إلى المنصَّة.

«في البداية يؤخذ السَّجين إلى غرفة القياس، فيقيس العامل المسافةَ من تحت أذنه إلى فوق رأسه، ويُنقصون هذا الرَّقم من طوله الإجماليِّ، فمثلًا إذا كان طول الشَّخص خمسة أقدامٍ وعشرة إنشات، وكان المقاس سبعة إنشاتٍ من تحت أذنه إلى فوق رأسه، يصبح طول مسافة شنقه خمسة أقدامٍ وثلاثة إنشات. وكما تعرف، لا يُشنَق الرَّجل من رأسه، بل من أسفل الرَّقبة، ولكي نحدِّد موضع السَّقطة الملائم يجب أن نعرف المقاييس بدقَّةٍ ونجعلها تتناسب مع طول الجذع.

«حسنًا، لدينا شخصٌ طول مسافة شنقه 5 أقدامٍ و3 إنشات، ولكن يجب أن نعرف أمورًا إضافيَّةً عنه، كم عمره؟ هل عظامه طرِّيَّةٌ أو هشَّة؟ لأنَّ عظام الشَّخص الكبير في السِّنِّ قاسيةٌ تقريبًا، ورقبته تنكسر بسرعةٍ كعود الثِّقاب، وإذا أسقطوه من ارتفاعٍ كبيرٍ، سيطير رأسه على الفور. الفكرة تتلخَّص في أن

يقع الشَّخص من ارتفاعٍ كافٍ بحيث يتأكَّدون من أنَّ رقبته قد كُسرت؛ لا أن يُرفَع كثيرًا وينقطع رأسه من قوَّة الصَّدمة.

«على سبيل المثال؛ ماذا تتوقَّع أن يحصل إذا قفز شخصٌ من الطَّابق الثَّالث ورقبته ملفوفةٌ بحبل؟! أتعلم؟ حسنًا، سأخبرك. في الغالب سيقع على الأرض وجسده منقسمٌ إلى قطعتين تاركًا الحبل يتأرجح وراءه. قد لا يسقط رأسه بسرعة سقوط جسده نفسها؛ ولكن من المؤكَّد أنَّ رأسه سيقع بمفرده. هذا ما يحذره منفِّذو عقوبة الإعدام. ففي إحدى المرَّات قطعوا رأس شخصٍ بهذه الطَّريقة، وكان الأمر مريعًا. بدا المكان كالمسلخة، وعندئذٍ نزلنا لنأخذ الجثَّة، وشعر كلٌّ من في الغرفة بالتَّعب والإعياء».

وليزيد من حدَّة دراما القصَّة، حرَّك المؤتمن يده ومرَّرها من جهةٍ إلى أخرى عبر الغرفة وكأنَّه ينادي عينيَّ لترَيان الصُّورة الفظيعة التي وصفها، ثمَّ التزم الصَّمت لحظاتٍ ليترك خيالي يعمل.

«كما ترى، يجب أن يكون الضُّبَّاط حذرين جدًّا بشأن المسافة التي يُسقطون منها الشَّخص. أوَّلًا سأشرح لك كيف يجرون هذه العمليَّة. فلنفترض أنَّ لدينا رجلًا طوله 5 أقدامٍ و10 إنشات، وطول مسافة شنقه 5 أقدامٍ و3 إنشات، ووزنه 106 باوندات وعمره 30 سنة. من يقوم بعمليَّة الشَّنق يزور الضَّحيَّة قبل يوم الإعدام ويكلِّمه مطوَّلًا، ولكن بدلًا من أن يهتمَّ لآخر أمنيات الضَّحيَّة يقضي تلك المحادثة بمراقبة رقبته، ليرى إن كانت سمينةً أو رفيعةً، صلبةً أو طريَّةً، أو إن كان لديه تشوُّهٌ في عظام الرَّقبة. إن كان للشَّخص رقبةٌ عاديَّةٌ، فيجب أن تكون مسافة الإسقاط 5 أقدام و8 إنشاتٍ لشخصٍ بطوله وعمره وبنيته. ثمَّ يأتي المسؤول عن تنفيذ عمليَّة الشَّنق إلى هذه البقعة، ويختار أحد هذه الحبال المعروضة. هل ترى صفَّ الحبال مع البطاقات الصَّغيرة المعلَّقة عليها والأثقال الكبيرة في نهايتها؟».

نظرت إلى الجهة التي أشار إليها وأومأت برأسي.

«حسنًا، بعض الحبال المصفوفة هناك ظلَّت في مكانها لما يقارب السَّنة دون أن يمسَّها أحد. هذا النَّوع من الحبال مصنوعٌ بشكلٍ خاصٍّ، سمكه سبعة أثمان الإنش وهو قاسٍ كالحجر. ولا يعيدون استخدامه مرَّةً أخرى. يؤخذ هذا الحبل، وتُصنع أنشوطة الشَّنق في نهايته، ثمَّ يؤتَى بقطعةٍ دائريَّةٍ صلبةٍ صغيرةٍ وتوضع داخل الأنشوطة ويُشَدُّ عليها بكلِّ قوة. ستلاحظ أنَّ القطعة الدَّائريَّة قطرها إنشان. حسنًا، من المفترض أن يكون هذا هو قياس عنق الرَّجل وهو معلَّق. رقبته تصبح أطول حين تنكسر، والحبل يغوص فيها بحيث لا يبقى سوى إنشين من اللَّحم داخل الأنشوطة. بعد أن يضع القائم بعمليَّة الشَّنق القطعة الدَّائريَّة داخل الأنشوطة يرمي بالطَّرف الآخر من الحبل من فوق العارضة فأصعد أنا وأمسك به. هل وصفي واضحٌ لك؟ الحبل المربوط على العارضة هو طول الرَّجل، ويُربط بحيث يسقط الرَّجل مسافة 5 أقدامٍ وثلاثة إنشات تحت مستوى الشَّنق. هل اتَّضحت لك الصُّورة؟».

أجبت بأنَّني فهمت، ولكنَّني كنت مدهوشًا من وصفه الممتلئ بالبرود واللَّامبالاة. وكان يبدو فخورًا بامتلاك تلك المعلومات والحصول على فرصةٍ للتَّباهي بها.

«والآن، ادخل إلى هنا لأريك هذا الصُّندوق»، أكمل حديثه فاتحًا بابًا صغيرًا في الزَّاوية التي خلف المشانق، «داخل الصُّندوق يوجد رفٌّ مبنيٌّ أمام الحائط الأماميِّ، وعلى بعد قدمٍ من هذا الرَّفِّ توجد فتحة. يمتدُّ الرَّفُّ عبر هذه الفتحة، ويمكن من خلالها رؤية المنصَّة والغرفة المقابلة. أترى تلك الفتحات الثَّلاث الصَّغيرة هنا، حسنًا، هناك حبلٌ يمرُّ عبر كلِّ واحدةٍ منها. الأوَّل يمرُّ عبر اللَّوح ويربط في أوَّل عين. الثَّاني يذهب إلى العين الثَّانية في المنتصف، وجميع الحبال جاهزةٌ لإسقاط رجلٍ ما. يأتي ثلاثة حرَّاسٍ إلى ذلك الصُّندوق ويقفون أمام الحبال الثَّلاثة، ويمسك كلُّ واحدٍ منهم سكِّينًا

حادَّةَ بيده، وحافَّتها مواجهةٌ للحبل. وعندما تُعطَى الإشارة لهم يمرِّرون السِّكِّين على الحبال في اللَّحظة نفسها. انظر إلى العلامات التي تُركت على اللَّوح في المكان الذي قطعت عنده الحبال!».

نظرت ورأيت علاماتٍ تحوَّل لونها إلى الأسود من كثرة الأوساخ، وهي علاماتٌ تدلُّ على المكان الذي جُرَّت السِّكِّين فيه عبر اللَّوح الصَّنوبريِّ.

سألته بذهولٍ: «هل تقول إنَّ كلَّ هذه العلامات تدلُّ على عمليَّات شنقٍ مختلفة؟».

«أوه، لا. عادةً ما نجهِّز المشنقة ونعرض العمليَّة بأكملها أمام كبار الزُّوَّار. هذا ما تسبَّب بكلِّ هذه العلامات. عندما تُقطع الحبال، يقع الوزن الثَّقيل، وعندما يصل هذا الوزن إلى نهاية الحبل الموصول بأحزمةٍ تحت المشنقة، تتحرَّك تلك الأحزمة إلى الخلف كالومضة، ويعود الباب إلى مكانه بقوَّةٍ ويُحبَس بزنادٍ يمنعه من التَّأرجح على مفاصله. تشبه العمليَّة رأس الولَّاعة عندما تضغط عليها. إنَّه كما لو أنَّ الأرض قد سُحبت من تحت قدميك فجأة، ولكن عندما يكون الحبل ملتفًّا حول عنق الرَّجل فإنَّ هذا الحبل يسقط 5 أقدامٍ و8 إنشاتٍ ثمَّ يتوقَّف. وكلُّ شيءٍ يتوقَّف معه، ولا يوجد بعد ذلك فرصةٌ للرُّجوع. لقد انتهى الأمر. طبعًا لا يعرف الحرَّاس الثَّلاثة أيُّ الحبال تسبَّب بالسَّقطة. الرَّجل الوحيد الذي يعرف ذلك هو الرَّجل الذي قام بتركيبها، ولا يخبر أحدًا بالحبل القاتل. ولكن يجب أن تُقطَع كلُّ الحبال على حدٍّ سواء. إن فشل أحدهم بقطع حبله يتوقَّف المفتاح الأساسي عن العمل وتتوقَّف العمليَّة برمَّتها، لذا وعلى هذا الأساس فإنَّ الثَّلاثة يشاركون فعليًّا بعمليَّة الإعدام».

توقَّف هنيهةً لينفض الغبار بيده ثمَّ قال: «طالما أنَّك هنا، أستطيع أن أصف لك بدقَّةٍ كيف يُعدَم الرَّجل، طبعًا إن أردت سماع ذلك».

كنتُ نصف منهكٍ من طريقة وصفه لعمليَّة الشَّنق، ولكنَّني كنت مصرًّا على معرفة كلِّ ما يجب أن أعرفه، ولذلك قلت له أن يتابع الحديث.

«حسنًا، عندما يتمُّ تجهيز كلِّ شيء، يدخل الشُّهود قفص السَّجين في الغرفة الأخرى ويقيِّدون يديه خلف ظهره، ثمَّ يقودونه عبر هذه السَّلالم، مع القساوسة الذين يصلُّون على جانبيه، ويوقفونه على المنصَّة. إن انتفضت ركبتاه من الخوف ولم يستطع الوقوف يكون لديهم لوحٌ ليقيِّدوه إليه من كاحليه إلى كتفيه ولكنَّهم لم يضطرُّوا إلى استخدام ذلك إلى الآن. منذ لحظة وقوفه على المنصَّة يقوم رجلٌ بتقييد قدميه بحزامٍ تحت ركبتيه مباشرةً، وآخر يضع غطاءً أسود على رأسه. ثمَّ يُنزِل الشَّانق العقدة ويضعها في رقبة الرَّجل ويشدُّها حول عنقه. حالما ينتهي من هذا يرفع الشَّانق يده وتلك تكون الإشارة، وعندما يراها الرِّجال الواقفون عند الصُّندوق يقومون بقطع الحبال. عندئذٍ يقع الرَّجل على الفور، ويمكنك سماع صوت قرقعة عظامٍ تُكسَر وقد تشعر بمغصٍ في معدتك إن كنت ضعيف القلب. الكسر هو جوهر العمليَّة بأكملها، فعندما يُشنق يسقط رأسه على كتفه أو حتى صدره، وتأخذ العقدة مطرح رأسه. بالطَّبع لا يشعر الرَّجل بأيِّ شيءٍ بعد أن تضربه العقدة. إنَّه يتعلَّق هناك متأرجحًا حتى يتوقَّف قلبه عن النَّبض ويُعلن المعلنون وفاته، ولا يهدرون أيَّ وقتٍ في أثناء قيامهم بالمهمَّة. أحيانًا لا يتطلَّب الأمر سوى دقيقةٍ منذ لحظة ربط يدَي الرَّجل في الغرفة المجاورة حتى يصل إلى المنصَّة ويتعلَّق كالدُّمية وينتهي من عذابه.

سألته: «ولا يعاني، ألا يختنق؟».

«كلَّا، لا يشعر بأيِّ شيء، في لحظة انفتاح البُوَيب تحته ينتهي الأمر، يموت تمامًا، ويفقد إحساسه بكلِّ شيء».

قلت مصرًّا: «ولكن من المؤكَّد أنَّه يشعر بلحظةٍ قويَّةٍ واحدةٍ على الأقلِّ، لحظةٍ مريرةٍ قاسيةٍ لا تصفها الكلمات».

نظر المؤتمن إليَّ بتمعُّنٍ قبل أن يجيب.

«حسنًا، سأخبرك بما أظنُّه شخصيًّا. لو لا أنَّ هناك أيَّامًا من الانتظار ومراقبة السَّاعة وهي تقترب من موعد الإعدام، لما رغبتُ في طريقةٍ أخرى للموت أسرع من هذه. لأنَّ المشكلة أنَّ الإنسان يموت مليون مرَّةٍ قبل أن يضع رجله على هذه المنصَّة، ولكنَّني لا أؤمن بفكرة إعدام الإنسان على أيَّة حال».

«بماذا تؤمن إذن؟»، سألته.

«حسنًا، سأجعل الشَّخص يظنُّ أنَّه سيُعدَم، سأدعه يموت مليون مرَّةٍ في هذه الزِّنزانة، ثمَّ سألغي إعدامه في آخر لحظة، وبالتَّحديد وهم يضعون حبل المشنقة حول عنقه. هل سمعت قطُّ عن رجلٍ يعود للحياة في آخر لحظةٍ قبل تنفيذ حكم الإعدام فيه بثانية؟ السَّلبيَّة الوحيدة هي أنَّ منفِّذي الشَّنق لن ينالوا أجرهم، وهذا بالطَّبع أمرٌ مستحيل».

عندما هممت بالخروج كنت غارقًا في التَّفكير، وبالتَّحديد في الحرَّاس الثَّلاثة الذين يقطعون الحبال. لِمَ ثلاثة حرَّاسٍ بالتَّحديد؟ ولماذا يجب أن يكون الحبل الأساسيُّ مجهولًا لهم؟ لاحقًا وجدت الإجابات. كلُّ هذه التَّفاصيل كانت للتَّهرُّب من المسؤوليَّة، لأنَّهم يعرفون جيِّدًا أنَّهم يشاركون في عملٍ مريعٍ وغير إنسانيٍّ؛ ولكن لماذا يشعرون بهذه المشاعر؟ إذا كانت عملية الشَّنق مفيدةً للمجتمع، لماذا يحتاج الحارس إلى أن يشير إلى شخصٍ آخر ويقول: هو من فعلها؟

الفصل العشرون

أتذكَّر قصَّةً رويت لي عن رجلين تحطَّمت سفينتهما، وبعد قضاء أيَّام متعبةٍ في قاربٍ مفتوحٍ وصلا إلى ساحلٍ غير مأهول؛ ولكن عندما بلغا قمَّة أوَّل هضبةٍ وجدا نفسيهما أمام مشانق كثيرةٍ فتعانقا بامتنانٍ وقالا: «حمدًا للرَّبِّ، لقد رسونا في بلدٍ متحضِّر».

هناك مشانق كثيرةٌ في سان كوينتن كما ذكرت سابقًا. ولأنَّني أعمل في غرفة الملابس كنت أقابل الرِّجال الذين سيذهبون إلى المشانق قبل تنفيذ حكم الإعدام. وكان عليَّ أن أكون ممتنًّا للرَّبِّ؛ ولكن لم أشعر بهذا الإحساس. بالنِّسبة إليَّ كانت المشانق تمثِّل الدِّين، والسُّجون تمثِّل ألفي سنةٍ من العمى الدِّيني.

في هذه الأثناء ينشغل العمَّال ببناء وحدات زنزاناتٍ جديدةٍ في سان كوينتن، مخصَّصةٍ لتستوعب 1600 سجين. يسمُّونها نموذج السِّجن الحديث. ولاحقًا سأتحدَّث كثيرًا عن هذه المباني الجديدة؛ ولكنَّ فكرة أن تكون هناك مبانٍ كهذه قيد الإنشاء في سنة 1911 لهي فكرةٌ صادمةٌ بالنِّسبة إليَّ.

بالطَّبع، هناك الكثير ممَّن يقولون إنَّ السُّجون ضروريَّة، وإنَّ من يرتكبون الجرائم وتثبت إدانتهم يجب أن يعاقَبوا. هؤلاء لا يفكِّرون بالأمور التي أوصلت ذلك الإنسان إلى ارتكاب الجريمة، ولا يشعرون أنَّ الجاني يستحقُّ أدنى جهدٍ منهم ليجعلوه إنسانًا أفضل. إنَّه لا يستحقُّ سوى العقاب في نظرهم، ولذا ربَّما يملؤونه رعبًا من عقابٍ أشدَّ قسوةً إن اقترف جريمةً مرَّةً أخرى. هذه

الأفكار جميعها تميل إلى العنصريَّة، وهؤلاء الأشخاص هم أنفسهم من لم يشعروا بألم كبت الرَّغبات ولا بروح التَّسامح والرَّحمة التي لا تأتي إلَّا من وحي المعاناة أو رؤية أشخاصٍ يعانون.

لقد حدثت بضع عمليَّات إعدامٍ خلال عملي في المطحنة، ولكن إلى جانب الحزن والصَّمت العامِّ الملاحَظ على معظم السُّجناء الذين يعملون هناك، كنَّا نعرف القليل جدًّا عن الأمر. كلُّ ما كنَّا نعرفه هو أنَّ رجلًا قد أُرسل إلى مكانٍ ما في مصنع الأثاث القديم وتمَّ إنهاء حياته في تمام السَّاعة العاشرة والنِّصف.

في أيَّامٍ كتلك كنَّا نخرج من المطحنة إلى الباحة مساءً ونتحدَّث عن الحادثة بنبراتٍ منكسرة، وعندما كنَّا نَعبُر الفناء السُّفليَّ إلى صالة الطَّعام كنَّا جميعًا ننظر إلى الأعلى حيث النَّوافذ المطليَّة بالأبيض، نوافذ غرفة الإعدام، وكنَّا نتخيَّل ما حدث هناك في السَّاعة العاشرة والنِّصف التي مضت. ولكن بعد أن بدأت العمل في غرفة الملابس أصابني ذعرٌ هزَّ كلَّ جوانحي. شعرت بأنَّني كنت عضوًا من بين الأعضاء المشاركين في تلك العمليَّة، وأنَّني كنت أقربهم إلى المشانق، ولكنَّني أدركت الآن أنَّه كان عليَّ أن أقوم بدورٍ فعَّال، ولكنَّني تفاعلت مع الأمر بجدِّيَّةٍ كالآلة.

باستثناء يومَي السَّبت والأحد، وأيَّام العطل، كان يُسمح للرِّجال المدانين بالتَّمشِّي على الأسفلت أمام زنزاناتهم من السَّاعة الثَّانية عشرة إلى السَّاعة الثَّانية ظهرًا كلَّ يوم. في يوم الثُّلاثاء، وقبل نصف ساعةٍ من انتهاء وقت تمرينهم، يُؤخذون إلى الحلَّاق لحلق رؤوسهم. عودتهم من غرفة الحلاقة هي ما يشير إلى أنَّ هول المشنقة بات قريبًا. إذا كان موعد شنق رجلٍ يوم الجمعة فإنَّه يؤخذ من الطَّابور وهو عائدٌ من عند الحلَّاق مساءَ يوم الثُّلاثاء إلى غرفة الملابس.

لن أنسى أوَّل مرَّةٍ رأيت فيها هذه العمليَّة. كان هناك طابورٌ من الرِّجال المدانين يمشون باتِّجاهي عند عودتهم من عند الحلَّاق إلى زنزاناتهم، وفي اللَّحظة التي عبروا فيها من باب غرفة الملابس جاء حارسان وربَّتا على كتفَي رجلين منهم. لم ينطق أيٌّ منهما بحرف، ولكنَّهما عرفا معنى هذا. ما أزال قادرًا على رؤية وجهيهما عندما التفتا ودخلا الغرفة. كانت لديَّ بضع دقائق فحسب لأعدَّ نفسي. دخل أمين المفتاح إلى غرفة الملابس عندما كان الرَّجلان في غرفة الحلاقة وأعلمني أنَّهما سيُشنقان يوم الجمعة، وأنَّهما سيُساقان إلى هنا ليلبسا ثياب الإعدام بعد انتهائهما من الحلاقة. بقي أمين المفتاح معي في الغرفة، وما إن دخلا حتى تبعهما الحرَّاس على مسافةٍ قريبةٍ جدًّا. أمعنت النَّظر إلى وجهيهما. أحدهما كان مجرَّد صبيٍّ لا تتجاوز سنُّه التَّاسعة عشرة، وكان الرَّجل الآخر في الرَّابعة والعشرين تقريبًا. كانا مكسيكيّين وقد قتلا رجلًا مسنًّا وأحرقا جثَّته بعد أن سرقا ماله. كلاهما حاول أن يبدو شجاعًا. ذلك الأكبر سنًّا نجح في الحفاظ على مظهرٍ ثابتٍ، ولكنَّ وجه الصَّبيِّ كان يشي بالرُّعب والكبرياء، بالشَّجاعة والجبن، بالمقاومة والهلع، بالأمل واليأس. تسابقت تلك المشاعر المتناقضة من قلبه لتظهر على عينيه ثمَّ عادت إلى مكانها بتتابعٍ سريعٍ عندما أُمر بخلع ملابسه.

عندما قُيِّدَ الرَّجلان اقتيدا إلى الغرفة الخلفيَّة، حيث حوض الاستحمام، ودخلا الحوض معًا. وبينما كانا يستحمَّان اخترت ملابس جديدةً لهما تحت إشراف حامل المفتاح، وبدأ يقصُّ الأزرار والرَّبطات. كان هذا لمنع المدانَين من الحصول على أيِّ شيءٍ يمكن أن يؤذيا به نفسهما، وما هي إلَّا دقائق حتى عاد الرَّجلان وألبسا نفسيهما ملابس السِّجن الجديدة، وتحت حراسةٍ مشدَّدةٍ اقتيدا عبر الفناء ـ «حديقة الموت» ـ ثمَّ عبر درج مصنع الأثاث القديم ـ الدَّرج الذي يبدأ من خارج المبنى ـ إلى غرفة الموت.

لم أر أيًّا منهما حيًّا بعد ذلك.

مرَّت دقائق يومَي الأربعاء والخميس ببطء. لاحقًا في ليلة الخميس، عندما كان الجميع نيامًا، جاء أحد الحرَّاس إلى غرفة الملابس وأخذ بزَّتين سوداوين وقميصين، ولكن لم يكن لهما قبَّة، وفي صباح يوم الجمعة، عندما استيقظ المحكوم عليهما من نومهما المؤرَّق، وجدا لباس السِّجن الخاصَّ بهما قد اختفى، ووجدا بدلًا منه بزَّتين سوداوين وقميصين أبيضين، ولكن بلا قبَّة، ذلك أنَّ القبَّات تؤثِّر في حركة الحبل.

بعد أن رأيت هذين الرَّجلين، وتحدَّثت معهما، لم أستطع أن أبعد تفكيري عن فظاعة ما آل إليه حالهما. كيف كان شعورهما؟ كيف أمكنهما أن يقضيا كلَّ لحظةٍ من صباحهما المشؤوم؟

كانت الشَّمس ساطعةً، ولم يكن هناك أيُّ غيمةٍ في السَّماء. كانت الحياة حلوةً وجذَّابةً، وكان جسداهما مليئَين بالدَّم الأحمر. ولكن قبل أن تبلغ الشَّمس ذروتها سيصبحان صبَّتين من طينٍ بلا روح. أشعر أنَّني قاسيتُ كلَّ غصَّةٍ شعر بها ذلك الصَّبيُّ، لأنَّ أفكاري أبت إلَّا أن تدور حوله. رأيت وجهه الفتيَّ وعينيه المذعورتين مرارًا وتكرارًا.

في تمام السَّاعة العاشرة فُتحت البوَّابة الأماميَّة للسَّماح بإدخال الجموع. العديد منهم كان يدخِّن السِّيجار ومعظمهم كان يضحك وهم يحثُّون الخطى عبر الفناء خشية أن يتأخَّروا عن الموعد المنتظر. عددتهم في أثناء دخولهم واحدًا واحدًا، ومع أنَّني نسيت كم كانوا بالضَّبط، إلَّا أنَّني متأكِّدٌ من أنَّهم كانوا أكثر من أربعمائة شخص.

انطلقوا مثنىً وثُلاثًا نحو المساحة المفتوحة واختفوا داخل مكانٍ مخصَّصٍ لقتل البشر. هناك في مبنى الزِّنزانة كانت الأبواب مؤصدةً، ووجوهٌ بيضاء تختلس النَّظر من الفتحات. قبل ساعةٍ من تنفيذ عمليَّة الشَّنق يوضع جميع السُّجناء الذين يعملون في الباحة العلويَّة والمتاجر في زنزاناتهم ويُقفَل عليهم بإحكام. ولكن ليس هناك أيُّ طريقةٍ لإقفال الفتحات.

عمَّ صمتٌ مريعٌ أنحاء السِّجن. حتى الطُّيور على شجرة الصَّنوبر أمام غرفة الملابس سكتت عن التَّغريد. الهواء نفسه بدا وكأنَّه يرتجف. الرِّجال الذين يعملون في مبنى المكتب كانوا مستثنين من قانون الإقفال، فتجمَّعوا في غرفة الملابس، دون اتِّفاقٍ مسبقٍ، ولم ينطق أحدٌ بكلمة. كنا ننظر إلى السَّاعة لحظةً بلحظةٍ بطَرْفٍ خفيٍّ، ولكنَّ أعيننا لم تستطع رؤية الأيدي بسهولة، فرؤية السِّقالة والرَّجلين المحكوم عليهما بالموت منعنا من ذلك.

حاول «جاك السَّعيد» أن يصفِّر ولكنَّه انهار بشكلٍ مثيرٍ للشَّفقة، وغمغم بشيءٍ مكتوم الأنفاس. كان الصَّمت يرين أكثر فأكثر. بدا وكأنَّ كلَّ رجلٍ كان يصغي إلى صوت جلجلة الأصفاد. كان هذا إعدامًا مزدوجًا. رجلان سيُرمى بهما في الهاوية الأبديَّة في وقتٍ واحد. وقفا جنبًا إلى جنبٍ عندما سوِّيَت العقد. كان المشهد مريعًا، يستحيل وصفه بالكلمات.

لم يحدث إعدامٌ مزدوجٌ في سان كوينتن منذ سنواتٍ طويلةٍ، ولكن في إحدى المرَّات شُنق ثلاثة رجالٍ في يومٍ واحد. اثنان منهما شُنقا معًا، بينما كان الثَّالث في الغرفة المجاورة يسمع كلَّ شيءٍ باحتراق أعصاب. لطالما أحسست أنَّ هذا الرَّجل الثَّالث قد عانى عذابًا لا يُصدَّق.

حُدِّد الإعدام في تمام السَّاعة العاشرة والنِّصف، وعندما وصلت عقارب السَّاعة إلى العاشرة والدَّقيقة التَّاسعة والعشرين لم أستطع تحمُّل المزيد، وبدأت بحساب عمودٍ طويلٍ من الأرقام. ولكن عوضًا عن الأرقام رأيت حبالًا وتوابيت ترقص أمام عينيَّ. عندئذٍ جاء «جاك السَّعيد» لينقذني ممَّا كنت فيه. حكى لي قصَّةً مضحكةً عن رجلٍ أسود قُبض عليه من قِبَل الجماعات المتَّحدة خلال الحرب الأهليَّة، وعندما سئل عن عدم انضمامه لقوَّات الاتِّحاد ليساعد في النِّضال لأجل قضيَّته، قال:

«حسنًا يا كولونيل، رأيت كلبين يتقاتلان لأجل عظمة، ولكنَّني لم أر قطُّ عظمةً تقاتل!».

ضحك الجميع ضحكًا صاخبًا يكاد يكون هستيريًا. ولكنَّ تلك القصَّة كانت تحمل اقتراحًا مبطنًّا. وبينما كنَّا غارقين في الضَّحك بدأ الشُّهود بالرُّجوع. مشوا عبر الحديقة بخفَّة. توقَّعت أن أرى وجوهًا جادَّةً أو حتى بائسة. ولكنَّني رأيت بدلًا من ذلك ابتساماتٍ كبيرةً وسمعت تعليقاتٍ ساخرةً عديمة الشُّعور. لم أستطع فهمها، ولكن كنت أعرف أنَّهم كانوا يحاولون التَّغطية على ما كانوا يشعرون به حقًّا. أعتقد أنَّهم كانوا جميعًا كذلك، لأنَّه في كلِّ الإعدامات التي حصلت خلال السَّنوات التي تلت ذلك الحدث كان الشُّهود يعودون دومًا وهم يضحكون. أكثر من 400 شخصٍ شهد ذلك الإعدام، وعددٌ كبيرٌ منهم وصل متأخِّرًا جدًّا ولم يُسمح له بالدُّخول. تحوَّل الإعدام إلى نوعٍ من الاحتفال أو التَّجمُّع لمناسبة سعيدة.

في ظلِّ الإدارة الحاليَّة لسان كوينتن حُدِّد عدد الشُّهود باثني عشر شاهدًا فقط، وهو العدد المنصوص عليه في القانون. وما يزال الآمر يتلقَّى الكثير من الطَّلبات لرؤية كلِّ إعدام يحدث. يُمنح المحكوم عليه ميزةً تسمح بحضور خمسةٍ من أصدقائه أو أقاربه ليشهدوا إعدامه إن أراد. ورجلان فقط استفادا من هذا الامتياز على حدِّ علمي.

في السَّاعة العاشرة والخمسين دقيقةً يغادر جميع الشُّهود المكان، والصَّمت الذي خيَّم منذ دقائق قليلةٍ، بينما كانت الولاية تشارك بالقتل، كُسر بأصوات قرقعة المفاتيح وصرير الأبواب التي يُحدِثها الرِّجال عند خروجهم من الحُجَيرات الصَّغيرة ليعودوا إلى العمل غير المدفوع.

رأيت المؤتمَن يأتي من غرفة الإعدام عبر الفناء وبين ذراعيه ملابس مخطَّطة. دخل الغرفة وألقى الملابس على الطَّاولة وعلَّق بحزنٍ: «هذه ملابسهما». تركت تلك الملابس في مكانها، وابتعدت عنها حتى لا ألمسها. توجَّهت إلى الغرفة المجاورة وهي غرفة أمين المفتاح وسألته عمَّا يجب عليَّ فعله بالملابس. كان أمين المفتاح قد عاد لتوِّه من غرفة الإعدام، حيث قام

بتعديل أحد الأغطية السَّوداء مانعًا بذلك نور اللّٰه من الوصول إلى وجه القتيل إلى الأبد. نظرت إلى يديه باحثًا عن بقع دمٍ توقَّعت رؤيتها عليهما. كان يمضغ تبغًا طازجًا وبدا هادئًا للغاية.

أجابني: «ضع بعض الأزرار عليها وضعها في المخزن. ما تزال جديدةً ولم تُلبَس كثيرًا». لم يخطر ببالي أبدًا أنَّ تلك الملابس ستوضع مرَّةً أخرى على الرَّفِّ وأنَّ سجناء آخرين سيرتدونها لاحقًا. طلبت من العامل الصِّينيِّ الذي كان يساعدني في غرفة الملابس أن يأخذ الملابس إلى غرفة الخياطة، وفي ذلك المساء عادت الملابس بعد أن تمَّ تعديلها إلى الرَّفِّ، وكان عليَّ أن أخلطها بالملابس الأخرى حتى لا أتمكّن من تمييزها. أردت أن أتفادى معرفة لمن بالتَّحديد ستذهب تلك الملابس فيما بعد. ثمّ صعقتني حقيقةٌ مرعبة. خشيت أن تكون الملابس التي عليَّ تعود لشخصٍ أُعدم من قبل، فهرعت إلى السِّجلّات وبدأت أبحث عن أيِّ معلوماتٍ تخصُّ شخصًا بحجمي أُعدم في السَّنة نفسها التي دخلتُ فيها السِّجن، وشعرت بالارتياح وزال الهمُّ عن قلبي عندما عرفت أنَّه لا يوجد أحدٌ بتلك المواصفات. ولكن هذا لم يغيِّر من حقيقة أنَّ هناك رجلين سيرتديان الملابس التي وضعتها للتَّوِّ على الرَّف.

أحسست وكأنَّني قد اقترفت جريمة. ملابس كهذه يجب أن تُحرَق. لست بمجنون، ولكنَّ فكرة أن تُلبس رجلًا حيًّا ملابس رجلٍ توجَّه إلى المشنقة في آخر لحظات حياته فعلٌ شنيعٌ لا يقوم به إلَّا أبناء الشَّيطان. شيءٌ كهذا مريعٌ بشكلٍ لا يوصف. أتبتسم؟ إنَّه لأمرٌ مُبكٍ! حسنًا، ما رأيك في أن تُجبَر على ارتداء ملابس كهذه؟ ما رأيك في أن يُجبَر ابنك أو أخوك أو أبوك على ارتداء تلك الملابس؟ عندما يصيبك الألم في نفسك أو فيمن حولك ستفهم ما أتحدَّث عنه، وعندئذٍ لن تستطيع الابتسام.

بعد نصف ساعةٍ من الإعدام رأيت موكبًا مهيبًا يعبر الطَّريق المقابل للزِّنزانة. ثمانية سجناء يحملون صندوقين أسودين من خشب الصَّنوبر. بدا

أنَّ السُّجناء كانوا يتقدَّمون بسرعة، وجوههم مأساويَّة؛ كانوا خجلين حتى من ضوء النَّهار. عندما بلغوا زاوية السُّور التقوا بمن كان هناك، وتشكَّل جسرٌ من التَّنهُّدات الأليمة، وكان تابوتا المعدومَين يمرَّان أمام أنظار السُّجناء على الطَّريق المؤدِّي إلى المشرحة. ألقيت نظرةً على ذينك الصُّندوقين الأسودين البشعَين والرَّخيصَين بعينين تشتعلان بالغضب. تملَّكت عقلي فجأةً حقيقة أنَّ الرَّجلين اللَّذين رأيتهما مفعمَين بالحياة قبل ثلاثة أيَّامٍ يرقدان الآن داخل ذينك الصُّندوقين جثثًا هامدة.

لم يهمَّني ما الذي اقترفاه. لم يشكِّل هذا أيَّ فارق. لقد اقتُرفَت جريمةٌ مقابل جريمة. وطالما أنَّ هذا هو الوضع، لِمَ لا يُسمَّى قتلةُ القتلةِ مجرمين أيضًا؟ هذا هو الشُّعور الذي تملَّكني ولكان هو شعورك أنت أيضًا لو أنَّك نظرت إلى عينَي ذلك الصَّبيِّ المكسيكيِّ البنِّيَّتين اللَّتين استوطنهما اليأس، والرُّعب، واستجداء الشَّفقة. بالنِّسبة إليَّ كان الإعدام قتلًا ولا شيء آخر. كان مجرَّد انتقامٍ من المجتمع. لا يعلِّم هذا شيئًا ولا يحثُّ على أيِّ خيرٍ أو تغييرٍ نحو الأفضل.

خرج الزُّوَّار، «الشُّهود»، من المشهد المروِّع وهم يضحكون، ولكنَّني بقيت طوال اليوم أراقب سُدىً من سيبتسم من السُّجناء. ثمَّ بلغني أنَّ شاهدًا من بين الحشود قد استسلم للتَّقيُّؤ عندما رأى الفخاخ تُفتَح. وكان مضطرًّا بعد ذلك إلى أخذ مجموعةٍ من أصدقائه معه إلى الصَّالون في سان كوينتن وتقديم الضِّيافة لهم كرشوةٍ لإبقاء اسمه بعيدًا عن الصُّحف. وبعد هذا يتساءل كثيرون لماذا يعود السَّجين لارتكاب الجرائم مرَّةً أخرى.

في آخر جلسةٍ للسُّلطة التَّشريعيَّة صدر قانونٌ جديدٌ ينصُّ على إلغاء عقوبة الإعدام. نال هذا القانون تأييد مجلسٍ واحدٍ ولكنَّ المجالس الأخرى أبطلته، ولكنَّنا بقينا لعدَّة أسابيع لاحقةٍ عاقدين الأمل على أن يُعاد النَّظر في القانون، وقضى الرِّجال المحكوم عليهم بالإعدام عدَّة أيَّامٍ متعبةٍ يتلصَّصون من فتحات زنزاناتهم منتظرين قدوم المأمور.

كان المأمور يأتي كلَّ بضعة أيَّامٍ لزيارة السُّجناء وهم يقومون بالتَّمارين ويتحدَّث إليهم. لم يحدِّثهم بوصفه آمرًا وبوصفهم سجناء، بل كان يحدِّثهم حديث رجلٍ لرجلٍ، ولم يترك أيُّ سجينٍ هذه الحياة إلَّا وهو يحمل في قلبه مشاعر مليئةً بالحبِّ والامتنان تجاه المأمور هويلي، والحقيقة أنَّه لم يكن يتحدَّث معهم عند قيامهم بالتَّمارين فحسب، بل رأيته ذات مرَّةٍ يقف أمام إحدى غرفتَي المحكوم عليهم بالإعدام ويتحدَّث لعدَّة ساعاتٍ مع العينَين النَّاظرتين إليه من خلف باب الزِّنزانة، وكان يتعمَّد أن يتمَّ ذلك اللِّقاء في اللَّيل حين يعمُّ السُّكون ويجلس المحكومون مع أفكارهم وجهًا لوجهٍ منتظرين موتهم المحتوم.

راقبت المأمور هويلي عن كثبٍ خلال الأيَّام التي سبقت وتلت الإعدامات التي اضطرَّ إلى التَّوقيع عليها. ولا أعتقد أنَّني رأيت رجلًا عانى بالحرقة نفسها التي عانى بها. لا أقول إنَّه يُظهر شيئًا ممَّا يشعر به أمامنا، فلعينَي شخصٍ عاديٍّ لا يبدو أنَّ تغيُّرًا ملحوظًا طرأ على ملامحه في مواقف كتلك، ولكن بالنِّسبة إليَّ، كنت أشعر تمامًا بما كان يعتريه. حسنًا، لا أدَّعي امتلاك مفاتيح الغيب ولكنَّني أدرس أفعال المرء جيِّدًا قبل أن أحكم عليه، فعندما بدأ المجلس التَّشريعيُّ ببحث قانون إلغاء الإعدام، كان الآمر هويلي يُبقي المحكومين على علمٍ بجميع التَّطوُّرات مع كلِّ خطوةٍ تقترب من تشريع ذلك القانون. ولكن عندما فشل تشريعه أمام المجلس الأعلى، لم يذهب لإخبارهم. لم يستطع ذلك.

الغالبيَّة العظمى ممَّن يتعرَّضون لعقوبة الإعدام لا يتعرَّضون لها لأنَّهم ارتكبوا جرائم شنعاء، بل لأنَّهم فقراء، ولا يحظون بمحامي دفاعٍ لأنَّهم لا يملكون المال ليدفعوا له. ولإثبات هذا الادِّعاء فلنُجرِ تحقيقًا صغيرًا في جلسات القتل التي في الولاية. يبيِّن البحث في الأدلَّة أنَّ القتل المتعمَّد والمخطَّط له مسبقًا غالبًا ما يقابَل بعقوبة السَّجن المؤبَّد، بينما القتل الخطأ

غالبًا ما يقابَل بالإعدام. الأمر كلُّه يعتمد على كيفيَّة تقديم الدِّفاع المناسب وتطبيقه على أرض الواقع. لذا يصبح الأمر كالآتي؛ الرَّجل ذو المال والقوَّة ينجو، بينما الرَّجل الأفقر والأضعف يُشنَق.

فكرة أنَّ عقوبة الإعدام تشريعٌ عادلٌ فكرةٌ مغلوطةٌ ومليئةٌ بالثَّغرات وعلى هذه الأسس وحدها يصبح من الواجب إلغاؤها. مرَّةً أخرى، يُحَثُّ الرُّؤساء التَّنفيذيُّون على التَّساهل مع الحالات الأقلِّ استحقاقًا، بينما يُرسَل الرِّجال الذين اقترفوا الجرم عن غير قصدٍ إلى الموت على المشانق. حالتان من هذا القبيل بقيتا في بالي وقتًا طويلًا.

كنت على معرفةٍ جيِّدةٍ باثنين من المستفيدين من تساهل أحد القضاة السَّابقين، وكنت أستلطفهما، ولكن لن يجعلني هذا أحيد عن قول الحقائق، مع تغيير الأسماء والأماكن بالطَّبع. جون وسيزار سي، أخَوَان، استأجرا مزرعة. عملا بجدٍّ وزرعا محصولًا جيِّدًا ثمَّ دفعا الإيجار للرَّجل العجوز مالك المكان وأخذا إيصالًا يثبت ذلك. في تلك اللَّيلة عادا إلى كوخ الرَّجل وقتلاه وسرقا المال الذي دفعاه له. عندما اكتُشفت الجريمة أبرزا إيصال الدَّفع ليبيِّنا أنَّهما لا يدينان للمغدور بأيِّ شيء. ولم يبرزا الإيصال فحسب، بل ظلَّا يتفاخران به حتى وقع الشَّكُّ عليهما بسبب غرابة تصرُّفاتهما. تجمَّعت الأدلَّة وشهد مساعدٌ مكسيكيٌّ ضدَّهما وأُدينا بالقتل وحُكم عليهما بالإعدام شنقًا، ثمَّ بدأت محاولات التَّأثير على القاضي وبعد سماع القضيَّة وافق على الحكم بالسَّجن المؤبَّد على أحد الأخوين. يقال إنَّ ذلك الرَّجل رفض قبول المحكوميَّة المخفَّفة ما لم تمتدَّ لتشمل أخاه أيضًا. أخيرًا، قرَّر الحاكم تخفيف عقوبة كلا الأخوين إلى السَّجن المؤبَّد. أصيب أحدهما بالجنون ويقبع الآن في مصحَّة الأمراض العقليَّة الخاصَّة بسجن الولاية. أمَّا الأخ الآخر فقد قضى في السِّجن 14 سنةً ثمَّ حصل على العفو.

تذكَّرْ، كانت هذه جريمة قتلٍ مع سبق الإصرار والتَّرصُّد ونُفِّذت بغية

تسهيل السَّرقة. إليك القضيَّة الأخرى: فرانك دي كان مصرًّا على أن تعمل زوجته في أحد بيوت الهوى. عارضت الزَّوجة ذلك بشدَّة. حاولت مقاومته ولكنَّها لم تستطع التَّحمُّل فهربت من منزله إلى أن وصلت إلى إحدى المدن الدَّاخليَّة، وبدأت بالعمل في مصنعٍ كبير. نجح الزَّوج في العثور عليها، وذهب إلى المصنع، وطلب رؤيتها وأمرها بأن ترجع معه. رفضت الامتثال لطلبه، فسحب مسدَّسه وأطلق النَّار عليها. حاولت الهرب بجراحها النَّازفة، ولكنَّه أطلق النَّار عليها مجدَّدًا. ثمَّ، وهي تصرخ طلبًا للرَّحمة، وقف أمام جسدها البائس النَّازف وأطلق عليها ثلاث طلقاتٍ أخرى. وحتى وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة عند قدميه قال لها: «أنا سعيدٌ بقتلك».

حاول العمدة جاهدًا أن يُبعد فرانك عن حكم الإعدام، ولكن عندما حان موعد جلسة الاستماع حُكم عليه بالإعدام شنقًا. وفق تفاصيل القضيَّة، بدا أنَّ إعدامه أمرٌ محتَّمٌ ولا يمكن عمل شيءٍ لتخليصه منه. تمَّ التَّأثير والضَّغط على القاضي بكلِّ الوسائل الممكنة، ولكنَّه رفض فعل ذلك إلَّا إذا ادَّعى فرانك إصابته بالجنون.

عيَّن القاضي هيئةً لفحص الرَّجل وحالته العقليَّة، وقرَّروا أنَّه مصابٌ بالجنون، وعلى أساس تقريرهم خفَّف القاضي الحكم من الإعدام إلى المؤبَّد. رأيت دي في فناء المطحنة في اليوم نفسه الذي تقرَّر فيه عدم إعدامه. كان محاطًا بمجموعةٍ من السُّجناء، وكان يخبرهم بأنَّه ليس مجنونًا بل عاقلًا مثلهم وأنَّه ببساطةٍ لم يبذل الكثير من الجهد لادِّعاء الجنون. كلُّ ما فعله كان التَّلعثم والتَّصرُّف كأبله وفقًا لما أوصوه به. كنت أراه كلَّ يومٍ لمدَّة تسع سنوات، ولم أر شخصًا أعقل من هذا الرَّجل في حياتي، وفي اللَّحظة التي دخل فيها السِّجن، لم يره ضابطٌ إلَّا وشعر بأنَّه أكثر شخصٍ يستحقُّ الإعدام. فمع مرور الوقت وإظهاره لبعض صفاته الخبيثة أصبح لفرانك شعبيَّةٌ واسعة، وأصبح مشهورًا بوقاحته لدرجة أنَّ الرِّجال الذين كرهوه في البداية لم يتردَّدوا

في التَّعبير عن رغبتهم في موته. وبعد نهاية السَّنة الثَّامنة قدَّم فرانك طلبًا للحصول على عفو، والشَّخص نفسه الذي ساعد في إنقاذه من الإعدام جاء لمساعدته في الحصول على العفو، وقد حظي الطَّلب بالقبول فعلًا، وترك فرانك السِّجن بعد قضائه تسع سنواتٍ فقط. بعد تسع سنواتٍ تمامًا من دخول فرانك سجن سان كوينتن، مقترفًا جريمةً شنعاء مع سبق الإصرار والتَّرصُّد، أصبح حرًّا طليقًا بفضل قرارٍ قضائيٍّ. ومع هذا أعرف رجالًا كثيرين قضوا وقتًا أطول لسرقتهم بضعة دولاراتٍ فحسب.

لماذا ذكرت هاتين القصَّتين؟ بالتَّأكيد ليس لإلحاق الأذى بالرَّجلين. فكلاهما يقضي حياته على نحوٍ جيِّدٍ الآن، ومعرفتي الطَّويلة بهما أكسبتهما صداقتي وصداقة كثيرين غيري. لقد ذكرت قصَّتهما لأبيِّن ما يقع من ظلمٍ واضحٍ وعدم مساواةٍ تحت ظلِّ النِّظام الحاليِّ. أستطيع أن أكمل وأذكر الكثير من القضايا التي أُعدم أصحابها لجرائم غير مقصودة، ولكنَّني قلت ما يكفي لإثبات أنَّ العدالة المزعومة صفةٌ غير مؤكَّدةٍ لهذا النِّظام.

أحيانًا تحصل بعض الاقترافات التي تتطلَّب إعدام أصحابها. يبدو فيها أنَّ الإعدام هو العقاب الوحيد المناسب. أستطيع ذكر الكثير من الاقترافات التي لو تجرَّأت أنا نفسي على القيام بها، لتخلَّيت عن حقِّي في الحياة بكامل إرادتي. ولفعلتَ أنت أيضًا ذلك. ولكنَّ تطبيق الإعدام لا يحقِّق أيَّ منفعة؛ فهو لا ينسجم مع الطَّبيعة الرُّوحيَّة للإنسان؛ بل ينسجم مع أدنى وأحقر غرائزه.

إذن ماذا يجب أن نفعل مع الرِّجال الذين يقترفون جرائم مروِّعة؟ أقترح أن نترك تقرير ذلك لمجلس القضاة، فعندما يشعر المجلس بالرِّضا عن حكمٍ يتناسب مع ملابسات القضيَّة، يرسلون المحكوم بحكمٍ مؤبَّدٍ إلى سجنٍ منفصلٍ ومعزولٍ مصمَّمٍ خصِّيصًا لتلك الحالات، ودون أن يحدث أيُّ تراجعٍ عن ذلك الحكم. وعندما يشعر المجلس بوجود ملابساتٍ مشكوكٌ فيها وغير منسجمةٍ بعضها مع بعضٍ، يحكمون بعقوبةٍ مختلفةٍ تتناسب مع الاختلافات

المطروحة. ولكن في ظلّ هذا النّظام فإنَّ المظالم نفسها التي تحدث اليوم ستظلُّ تحدث تجاه الفقراء. ولكن أن يعاني الفقير حكمًا مؤبَّدًا أفضل من أن يُعدَم ويفقد حياته لمجرَّد أنَّه لا يمتلك مالًا أو أصدقاء.

الفصل الواحد والعشرون

قبل ستِّ سنواتٍ مضت، أسقطوا صبيًّا يُدعَى (هـ. ب) في الفتحة المربَّعية الصَّغيرة التي ليس لها قاعٌ والتي تبقى دائمًا جاهزةً في سان كوينتن. وقبل أن ينفتح البُوَيب، حطَّ عصفورٌ صغيرٌ على رفِّ النَّافذة وبدأ يغرِّد. ولكن عندما سقط جسد الصَّبيِّ واندقَّت عنقه مُصدرةً فرقعةً مريعةً طار العصفور الصَّغير مذعورًا.

نظرت مجموعةٌ من الرِّجال الشَّاحبي الوجوه إلى جسد الصَّبيِّ وقد تدلَّى رأسه إلى ناحية قلبه في كيسٍ أسود، وكأنَّه كان يصغي إلى دقَّات قلبه وهو يموت بينما جسده يتأرجح ببطءٍ للأمام والخلف. كان عمر الجسد 18 سنة، ولكن كم كان عمر الرُّوح التي أُزهقت فيه؟ لا أحد يعلم. وبينما كان جسد هذا الصَّبيِّ يتأرجح للأمام والخلف كرقَّاص السَّاعة، كان هناك صبيٌّ آخر يقفز في مطحنة الجوت، وقد شغل نفسه بالنَّسج وحياكة أكياس الطَّحين.

الصَّبيُّ الأحول كان صديقًا للصَّبيِّ المشنوق في غرفة الإعدام، وكلاهما كان مذنبًا بالجريمة نفسها، ولكنَّ واحدًا منهما فقط نال حكم الإعدام. استطاع الصَّبيُّ الأحول تقديم أدلَّةٍ مفيدةٍ أمام المحكمة وساعد الدِّفاع القويُّ في إنقاذ حياته؛ ولكنَّه ما يزال يقضي محكوميَّته المؤبَّدة بكلِّ ما فيها من أهوال.

كان الصَّبيَّان يدرسان معًا في المدرسة نفسها. ثمَّ قتلا رجلًا مسنًّا بغيةَ الحصول على ماله. كانت الجريمة بشعةً بشاعةَ إعدام الصَّبيِّ تقريبًا. وُصِفَ الصَّبيُّ الذي أُعدم بجميع الأوصاف السَّيِّئة من قِبَل الحرَّاس ومن قابله من

السُّجناء، وفي أثناء انتظار الإعدام قام بصنع خنجرٍ من مسكة دلو النِّفايات الموجود في زنزانته وحاول أن يطعن الحارس. هذا ما جعله سيِّئًا بالطَّبع، فعلى الرَّجل الذي ينتظر الإعدام أن يكون لطيفًا ووديعًا مثل الحمل عندما يُساق إلى المسلخ، ولا يجب على أحدٍ أن يعبأ بمشاعره، ولذلك كان من المنطقيِّ أن يرى الصَّبيُّ البشر الذين يحاولون قتله مجرمين مثله تمامًا.

لم يحظَ أيٌّ من الصَّبيَّين بتربيةٍ مناسبةٍ أو ببيتٍ حاضنٍ؛ ولم يكونا مسؤولَين عن الخروج عن القوانين في المجتمع الذي وجدا نفسيهما فيه. بالنِّسبة إليهما لا يوجد قانونٌ فوق الجوع، وقد قاما بالصَّيد والقتل للسَّبب نفسه. ولفعلهما هذا سلب العالم جسديهما ووضعهما في الأقفاص. أحدهما أُرسل ليعلَّق من رقبته حتى الموت، بينما تُرِكَ الآخر، كمكافأةٍ للفِّ الحبل حول رقبة شريكه، ليقضي حياته في السِّجن.

في أثناء عملي في سان كوينتن سنحت لي الفرصة لخدمة الرِّجال الذين يحصلون على أحكامٍ مخفَّفةٍ من قِبَل القضاة. طبعًا هؤلاء الرِّجال منبوذون ومكروهون من قبل جميع السُّجناء الآخرين، تمامًا كما ينبغي أن يكونوا. أعرف أنَّ هذا الأمر مخيفٌ لهم، ولكن لماذا يقوم السَّجين بتقديم أدلَّةٍ جديدةٍ لإدانة أشخاصٍ آخرين؟ هل هو مهتمٌّ بمصلحة المجتمع وتحرِّكه رغبةٌ في رؤية قوانين المجتمع تتغيَّر لأجله؟ بالطَّبع لا.

غالبًا من يُظهر أدلَّةً جديدةً أمام المحكمة، سواءٌ أرجلًا كان أم امرأةً، يقوم بذلك على أمل التَّخفيف من محكوميَّته. مَن يسلِّم أدلَّةً كهذه لا يختلف في شيءٍ عمَّن يمشي فوق النِّساء والأطفال ليكون أوَّل النَّاجين في القارب، أو عمَّن يلقي طفلًا إلى الذِّئاب لكي ينقذ نفسه. وهو أكثر المجرمين قذارةً في نظري. وأقصد بكلمة «مجرم» مَن يضحِّي بالجميع لأجل حماية نفسه، ويعتقد أنَّه أولى النَّاس بالنَّجاة، تسوقه غريزة البقاء فوق كلِّ غرائزه الأخرى.

في الحالات التي يأتي بها الأشخاص بأدلَّةٍ جديدةٍ للمحكمة لا يحصلون على أيِّ ضمانٍ بالحماية، ولذا من الطَّبيعيِّ أن تكون النَّتائج المتوقَّعة ثمنًا لإخفاء أمرهم عن بقيَّة السُّجناء، ومن أجل أن يثبتوا لأنفسهم أنَّ ما يقومون به أمرٌ صحيحٌ وغير أنانيٍّ، يعملون كمخبرين في السِّجن لصالح الحكومة، ثمَّ يبقون بالولاء نفسه للشُّرطة حتى بعد خروجهم. والجميع يكرههم، من كانوا معهم ومن كانوا ضدَّهم.

بشكلٍ عامٍّ يجب على القضاة أن يخفِّفوا عمَّن يأتي بأدلَّةٍ للمحكمة، ولكنَّ بعضهم لا يطبِّق هذا. أتذكَّر حادثةً ممتعةً عن رجلٍ سأطلق عليه اسم سميث (ما يزال في السِّجن وليس لديَّ الحقُّ في استخدام اسمه الحقيقيِّ). عاش سميث في فولسوم، وفي يومٍ من الأيَّام سمع أخبارًا عن مرور سيَّارةٍ تحمل مبلغًا قدره خمسة عشر ألف دولارٍ في منطقةٍ خاليةٍ من المدينة. كانت تلك السَّيَّارة تحمل رواتب الموظَّفين في شركةٍ كبيرةٍ، وقرَّر مع شخصٍ آخر أن يقوما بسرقة تلك الأموال. ولكن بينما كانا يُعدَّان خطَّتهما قام رجلٌ يعرفهما بسرقة السَّيَّارة وأُلقي القبض عليه. بعد عدَّة أيَّامٍ ذعر جميع أهالي المدينة من هجوم شخصين مقنَّعين على سائق السَّيَّارة مرَّةً أخرى وسرقة عشرة آلاف دولارٍ تقريبًا، ومع أنَّ التَّحقيقات كانت مكثَّفةً جدًّا إلَّا أنَّهم لم يجدوا أيَّ دليلٍ على اللِّصَّين.

عندما اقتيد السَّارق الأوَّل إلى السِّجن قال إنَّ الجريمة نُفِّذت من قِبَل سميث ومساعدٍ له، وقرَّر أن يستخدم هذه المعلومات أو بالأحرى المعلومات المفبركة ليُخرج نفسه من السِّجن. فكلَّم الضُّبَّاط وقال لهم إنَّه سيخبرهم بهويَّة منفِّذي عمليَّة السَّرقة إن ساعدوه في تخفيف حكمه. طبعًا تحمَّس الضُّبَّاط لخبرٍ كهذا، ووعدوه بتلبية طلبه، فأخبرهم أنَّ سميث هو الشَّخص المطلوب، وأنَّهم سيجدونه في مكانٍ معيَّن. ذهب الضُّبَّاط إلى المكان الذي أخبرهم عنه، وقبضوا على سميث في منزله. رفض أن يعترف سميث بأنَّه

مذنب. ولم يكن هناك أيّة أموالٍ معه، ولكن قُبض عليه وسيق إلى المدينة التي حدثت فيها الجريمة، ووُضعت قضيَّته قيد التَّحقيق والمحاكمة.

كان من المستحيل إدانته؛ لولا أنَّ فتاةً كانت تقطن على بعد ميلٍ من مسرح الجريمة قالت إنَّها كانت تنظر من منظارها في ذلك اليوم ورأت السَّارقَين قبل أن يضعا قناعيهما، وأنَّ سميث كان واحدًا منهما.

وشهد سائق السَّيَّارة بأنَّ أحد اللِّصَّين كان بنفس طول وبنية سميث. وتمَّت إدانته وحُكم عليه بالسَّجن لمدَّة خمسٍ وأربعين سنةً في سجن سان كوينتن. وحتى يومنا هذا يعارض سميث حكمه ويردِّد أنَّه بريء. قال إنَّه قد خطَّط للسَّرقة بالفعل؛ ولكنَّه انسحب بعد أن أُلقي القبض على شريكه في عمليَّة سرقةٍ أخرى، واعترض لأنَّهم لم يجدوا أيَّ مبلغٍ ماليٍّ بحوزته ولم يستطيعوا إثبات أنَّه صرف أيَّ مبلغٍ ضخمٍ خلال تلك الفترة، من تاريخ العمليَّة حتى يوم القبض عليه.

إنَّني مهتمٌّ بالشَّخص الذي ارتضى لنفسه أن يرسل سميث ليقضي خمسًا وأربعين سنةً في السِّجن ليهرب من نتائج فعلته ويبرِّىء نفسه بقدر اهتمامي ببراءة أو تورُّط سميث بقضيَّته. السُّجناء الذين يعرفون القضيَّة بكلِّ تفاصيلها فرحوا كثيرًا لأنَّ الشَّخص الذي وشى بسميث لم تعد عليه وشايته بأيِّ فائدة، ولأنَّ القاضي الذي حكم عليه تجاهل كلَّ الخدمات التي قدَّمها للمحكمة واستمرَّ الحكم عليه بعشرين سنةً في فولسوم.

كقاعدةٍ عامَّةٍ يحاول السُّجناء دائمًا مساعدة السَّجين الذي يعتقدون أنَّه بريءٌ من التُّهمة المنسوبة إليه. في الغالب تبوء جهودهم بالفشل؛ ولكن في بعض الأحيان يحصل بعض السُّجناء على البراءة، ولا أستطيع أن أتخيَّل عذابًا أسوأ من عذاب شخصٍ يُسجن لجريمةٍ لم يقترفها، وحتى زملاؤه السُّجناء الذين يتوقَّع منهم أكبر تعاطفٍ واستنكارٍ لما حدث له يشكِّكون بكلامه. شخصيًّا، أعرف عددًا من القضايا التي كنت فيها متأكِّدًا تمامًا من

براءة الأشخاص الذين اتُّهموا وحكم عليهم بأقسى أنواع الأحكام. إنَّه أمرٌ معتادٌ من قِبَلِ الشرطة أن يقبضوا على متَّهمٍ سابقٍ ككبش فداء، وبالتَّحديد خلال الفترات المعروفة بموجات أو مواسم الجرائم.

تشعر الشُّرطة خلال هذه الأوقات أنَّ من الواجب عليها إلقاء القبض أو إدانة شخصٍ ما لإرضاء العامَّة. قبل أيَّام سمعت عن شخصٍ بريءٍ تمامًا نجا من السِّجن بصعوبة. كان شابًّا صغيرًا وغريبًا في سان فرانسيسكو. قبل يومٍ من إلقاء القبض عليه، ألقى دفتر مذكِّراته الذي يضعه في جيبه في قبو مبنىً قيد الإنشاء، وفي تلك اللَّيلة دخل شخصٌ القبو، وكسر القفل، وسرق عددًا من الأدوات الثَّمينة. عندما تمَّ إبلاغ الشُّرطة في اليوم التَّالي، توجَّه المحقِّقون إلى مسرح الجريمة، وأوَّل دليلٍ وجدوه هو دفتر المذكِّرات الذي كان يحتوي على أسماء وعناوين مدوَّنة. وبشكلٍ طبيعيٍّ استنتجوا أنَّ الدَّفتر يعود للِّصِّ وأنَّه قد أضاعه هناك، وفي المساء نفسه قبضوا على صاحب الدَّفتر. لم يخبر المحقِّقون الرَّجل بطبيعة الجريمة ولا بالدَّليل الذي يمتلكونه ضدَّه؛ ولكن سألوه عن تحرُّكاته في اللَّيلة الماضية بالتَّحديد. وأسهب في الحديث عن نفسه، فابتسموا باستنكار، وفي ذلك المساء أتوا به إلى المكان على أمل أن يتعرَّف إليه أحد الذين يعملون في المبنى بأنَّه هو السَّارق الذي رأوه يمشي في المنطقة التي أغلقوا فيها على أدواتهم. عندما وصل المتَّهم إلى المكان شعر بقلقٍ وتذكَّر فجأةً أنَّه كان يتسكَّع هناك، وفي الحال أخبر المحقِّقين بما تذكَّر. في البداية ظنُّوا أنَّه كان يتذاكى وأنَّها خدعةٌ اختلقها ليعرف إن كانت المذكِّرات بحوزتهم، وليتوِّههم في مهمَّتهم أكثر، ولكنَّ عجلته الكبيرة في الحديث، وصدق كلامه الذي كان واضحًا بشكلٍ لافت، جعلهم يُخلون سبيله. ولكنَّني متأكِّدٌ تمامًا من أنَّه لو كان متَّهمًا سابقًا أو لديه سجلٌّ إجراميٌّ لأُدين وسيق إلى السِّجن بتهمة السَّرقة. يمتلك المحقِّقون دائمًا أدلَّةً كافيةً ليشنقوا متَّهمًا سابقًا.

هناك حادثةٌ أخرى وقعت لي كتجربةٍ شخصيَّة، ويمكن للضُّبَّاط الذين تولَّوا أمرها في ذلك الوقت أن يؤكِّدوا صحَّتها. حادثةٌ ستريك أنَّ من الممكن إدانة شخصٍ بريء. كنت في السِّجن وقتذاك، وكنت ممتنًّا لأنَّني مسجون. حدثت قضيَّة سرقةٍ لرجلٍ عمره 45 عامًا، ولابنة أخيه ذات العشرين ربيعًا، إذ قام رجلان بمحاصرتهما بالسِّلاح وسرقاهما وهما عائدان إلى المنزل ليلة أحدٍ، وفي يوم الأحد الذي تلاه، قبض الشَّريف على شخصين كان يشكُّ فيهما وأحضرهما إلى السِّجن، واتَّصل بالرَّجل والفتاة ليتعرَّفا على المتَّهمَين. وفي تلك الأثناء كان الشَّريف قد أحضر سبعة رجالٍ إلى مكتبه، وكنت أنا من بينهم، وعندما حضر الرَّجل بمفرده، أخبره الشَّريف بأنَّه قبض على رجلين من المحتمل أن يكونا هما من سرقاه.

قال الشَّريف: «خذ وقتك، وانظر إلى الرِّجال. إذا تعرَّفت على أحدٍ منهم أشر إليه».

أخذ الرَّجل الكثير من الوقت في التَّمعُّن في الوجوه مرارًا وتكرارًا، وبعد ذلك التفت إلى الشَّريف وأشار إلى الرَّجل الأخير.

سأل الشَّريف: «الرَّجل الأخير؟ أتظنُّ أنَّ الرُّجل الأخير هو أحد اللِّصَّين؟ انظر إليه مرَّةً أخرى. لا نريد أخطاءً في هذا الأمر. تمعَّن فيه جيِّدًا وتأكَّد مرَّةً أخرى».

عاد الرَّجل للنَّظر مرَّةً أخرى ثمَّ أومأ برأسه، وقال:

«نعم نعم أيُّها العمدة، أنا متأكِّدٌ من أنَّه واحدٌ منهما».

«حسنًا، أعد النَّظر الآن، وتأكَّد إن كنت تستطيع معرفة الرَّجل الآخر».

نظر إليهم مرَّةً أخرى، ثمَّ أومأ برأسه.

قال الشَّريف: «هذا سيِّئٌ، اخرج الآن وانتظرنا قليلًا في الغرفة الجانبيَّة وسنُدخل الآنسة بعدك».

حدَّقت الفتاة بنظرةٍ خائفةٍ وحذرةٍ، وبسرعةٍ خفضت طَرْفَها.

قال الشَّريف: «لا تخافي، خذي وقتك وانظري إليهم جيِّدًا، ولنر إن كنت ستتعرَّفين على أحدٍ منهم».

حدَّقت الفتاة فينا للمرَّة الثَّانية، وللأمانة أحرجني هذا الأمر كثيرًا. ثبَّتت نظرها على عمِّها، ثمَّ التفتت وحدَّثت العمدة بصوتٍ خافت.

«أنت متأكِّدة؟»، سألها العمدة، «هل ستحلفين على ذلك في المحكمة؟».

تردَّدت للحظةٍ، وحدَّقت فيَّ مرَّةً أخرى، ونظرت إليها بغضبٍ، بأقوى نظرةٍ حادَّةٍ أمتلكها، وقالت إنَّها مستعدَّةٌ لحلف اليمين. بعد ذلك استدعى العمدة عمَّها وقال:

«يا سيِّدي، هذا الرَّجل الذي تعرَّفت عليه وقلت إنَّه اللِّصُّ، هو رئيس حرَّاس السِّجن، وكان يوم الأحد الماضي على رأس عمله في الوقت الذي تعرَّضت فيه أنت للسَّرقة. والرَّجل الذي تعرَّفتي عليه يا آنسة»، أكمل حديثه مخاطبًا الفتاة، «كان على رأس عمله أيضًا ليلة الأحد، ولكنَّ قصَّته مختلفة، فهو سجينٌ منذ وقتٍ طويل».

ولكن فلنتخيَّل أنَّني كنت أحد الرَّجلين المشكوك فيهما وأنَّني كنت أحد اللذَين ألقي القبض عليهما؟ لديَّ احترامٌ كبيرٌ للعمدة لأنَّه يقوم باختبارٍ عادلٍ أمام الشُّهود بشكلٍ دائم. عندما تلقي الشُّرطة القبض على رجلٍ ما، يؤتَى به ليواجه الضَّحايا أو الشُّهود وحده، وبسبب تحجُّر عقليَّات الضُّبَّاط يكونون متأكِّدين من أنَّهم قد ألقوا القبض على الشَّخص الصَّحيح. يتأثَّر الشَّاهد بذلك الجوِّ المشحون ويقرُّ بأنَّه قد استطاع تحديد الشَّخص المتَّهم ويشير إلى الشَّخص الواقف أمامه. وبعد أن يحصل الضُّبَّاط على هذه الشَّهادة، سواءٌ أكانت صحيحةً أم خاطئةً، يخاف الشَّاهد أن يغيِّر أقواله. ومع أنَّ الشُّرطة اتَّبعت نظامًا جديدًا فأصبحت تضع المشتبه بهم بين أشخاصٍ آخرين،

إلَّا أنَّهم ما يزالون يوحون للشُّهود بطريقةٍ أو بأخرى بأن يختاروا أشخاصًا معيَّنين. على سبيل المثال؛ هناك مفتِّشٌ في الشُّرطة يقف دائمًا معطيًا ظهره لصفِّ الرِّجال المتَّهمين ويواجه المدَّعي ويشير بإبهامه مباشرةً إلى المشكوك فيه من فوق كتفه الأيمن، ويقول:

«هل تراه هناك، في هذه البقعة؟».

وليتجنَّبوا تآمره عليهم كان المتَّهمون يغيِّرون أماكنهم في الصفِّ ما إن يدير المفتِّش ظهره. وهناك خدعةٌ ثانيةٌ يقوم بها المفتِّشون عندما يسألون الشَّاهد أو المجنيَّ عليه عمَّا يرتديه المشتبه به ليتمَّ اختياره بسهولةٍ من بين جموع المشتبه بهم. طبعًا، هذه المعلومات لا تعطى بشكلٍ مباشر، بل تكون على شكل محادثةٍ بين الضُّبَّاط والشُّهود قبل إدخالهم ليعاينوا صفَّ المشتبه بهم، وليتغلَّب المشتبه بهم على خُدَع الشُّرطة لجأوا إلى أساليب تخفٍّ جديدة، وعندما يعلمون أنَّه سيتم تحديد المذنب وفقًا لملابسه، فإنَّهم يقومون بتغيير ملابسهم في آخر لحظةٍ قبل أن يُعرَضوا على الشُّهود.

قبل عدَّة سنواتٍ كان أحد المتَّهمين يرتدي قميصًا أزرق، ثمَّ قام بتبديله، والشَّخص الذي ارتدى هذا القميص أُشيرَ إليه على أنَّه الجاني. صحيحٌ أنَّهم تعرَّفوا على صاحب القميص الأزرق الحقيقيِّ فيما بعد؛ ولكن في جلسة المحاكمة ذكر الشَّاهد أنَّه كان يقصد شخصًا آخر، ممَّا جعل القاضي يطلق سراح المتَّهم.

القضيَّة التي تبيِّن موت الضَّمير تمامًا، وكنت شاهدًا عليها، كانت لرجلٍ لا أهمِّيَّة لذكر اسمه الآن، رجلٍ بريءٍ سيق إلى السِّجن وحُكم عليه بالسَّجن خمسين سنةً في سان كوينتن بتهمة السَّرقة. كان أحد الأطبَّاء عائدًا إلى شقَّته في ليلةٍ من اللَّيالي وتفاجأ برجلٍ يسرق منزله، وحدث بينهما عراك. استطاع السَّارق الهرب، ولكنَّ الطَّبيب استطاع أن يراه. وبعد فترةٍ قصيرةٍ قُبض على

رجلٍ لديه بعض ما سُرق منه. تمَّ استدعاء الطَّبيب، وتعرَّف على الرَّجل الذي تفاجأ به في شقَّته. اعترض الرَّجل بشدَّةٍ وقال إنَّه بريء؛ ولكن عندما علموا أنَّه متَّهمٌ سابقٌ سُجن بلا تردُّد، وعندما حضر جلسة المحاكمة حكم عليه القاضي بخمسين سنة. وحين صدر الحكم صرخ صرخةً مدوِّيةً كلُّها قهرٌ وحنقٌ وظلَّ يصرخ في وجه القاضي. دخل سان كوينتن وهو مصرٌّ على براءته؛ ولكن كالعادة لم يصدِّقه أحد. كان يزداد حزنًا يومًا بعد يومٍ إلى أن مرض وبدأ يفقد عقله وتمَّ نقله إلى مصحَّة الأمراض العقليَّة. وبعد عدَّة شهورٍ، قُبض على سيمسن ودابنر بتهمة القتل بدافع السَّرقة، وعندما علم سيمسن أنَّه لا أمل له في النَّجاة، اعترف بأنَّه هو الذي قام بالجريمة؛ وأنَّ شخصًا بريئًا قد حُكم عليه بالسَّجن خمسين سنةً بدلًا منه. في بداية الأمر كانت لدى الشُّرطة شكوكٌ حول هذا التَّصريح، وشعروا أنَّ سيمسن فعل ما فعله ليُخرج الرَّجل من السِّجن؛ ولكن عندما واجه سيمسن الطَّبيب بتفاصيل المواجهة التي كانا فيها، تفاصيل من المستحيل أن يعرفها لو لم يكن هو الجاني حقًّا، وأخبره أيضًا بمكان الأشياء التي سُرقت، أصبح من الواضح لهم أنَّه كان يقول الحقيقة. عندما اقتنعت الشُّرطة بأنَّ هذا ما حدث، بذلوا كلَّ جهدٍ ممكنٍ للعناية بالرَّجل البريء، وبعد عدَّة أيَّامٍ تمَّ الإفراج عنه. ولكن لسوء الحظِّ كانوا قد تأخَّروا كثيرًا. خرج الضَّحيَّة من سان كوينتن بثيابٍ قديمةٍ رثَّة، وبعد عدَّة أيَّامٍ قُبض عليه بتهمة التَّشرُّد وأصابه الخبل فأُدخل المصحَّة العقليَّة، وبعد ذلك لم أسمع عنه شيئًا.

قصَّةٌ أخرى لا تقلُّ سوءًا عن القصص السَّابقة تعود لرجلٍ سأسمِّيه تشارلي سباركس. كان تشارلي رجلًا آسيويًّا ذكيًّا ونظيفًا ومنظَّمًا، وكان يقطن في إحدى المدن الصَّغيرة غير البعيدة عن سان فرانسيسكو. كان يملك بضعة آلافٍ من الدُّولارات، وحين اعترف بحبِّه لفتاةٍ عمرها خمس عشرة سنةً تعيش في المدينة نفسها، قرَّرت أمُّها تزويجهما. ولكن بعد ذلك أُعجب

تشارلي بفتاةٍ أخرى، ولم يعد مهتمًّا بالأولى. وفي إحدى اللَّيالي وصلته دعوةٌ إلى بيت الفتاة الأولى، ولم يتخيَّل حجم المأساة التي كانت في انتظاره. عندما وصل إلى هناك أدخلته الأمُّ في ممرٍّ بلا إضاءة. اقتربت الفتاة من تشارلي، ولأنَّ تشارلي كان شابًّا قليل التَّجربة، احتضنها بقوَّةٍ وقبَّلها. فصرخت. وقبل أن يعي ما حدث، اقترب منه رجلان ضخمان وأبعداه عن الفتاة التي جرَّته إلى الأرض وظلَّت تضربه بلا رحمة. وبينما كان يعاني الكدمات وينزف الدِّماء، قامت أمُّ الفتاة باستدعاء الشُّرطة وزُجَّ بتشارلي في السِّجن، واتُّهم بالاغتصاب. وبعد أيَّامٍ أتاه المحامي واقترح عليه مساومة. إذا دفع لأمِّ الفتاة 5000 دولارٍ تسقط التُّهمة عنه وتتفادى الفتاة فضيحة الشَّهادة في المحكمة.

ومع أنَّ تشارلي كان بريئًا إلَّا أنَّه كان غاضبًا جدًّا وقال للمحامي إنَّه لن يوافق على هذا العرض حتى لو أصبح الإنش المكعَّب من الثَّلج يُباع بآلاف الدُّولارات. لم ييأس المحامي وعرض عليه العديد من العروض؛ ولكنَّ تشارلي لم يوافق على أيٍّ منها. كان يعرف أنَّه بريءٌ، وأراد أن يُثبت براءته في المحكمة. وظنَّ أنَّ من المستحيل أن يُتَّهم بجريمةٍ لم يقترفها.

عندما حان موعد الجلسة، أدلت الفتاة بواحدةٍ من أسوأ وأفظع الشَّهادات على الإطلاق، وشهد أحد الأطبَّاء أيضًا بأنَّه قد استُدعي مباشرةً بعد الحادثة وأكَّد أنَّ الجريمة قد حدثت بالفعل. احتاج القضاة إلى ستِّ دقائق ليقرِّروا أنَّ تشارلي مذنب، وتمَّت إدانته وسيق إلى سجن سان كوينتن ليقضي عشرين سنةً هناك. وبعد عدَّة شهورٍ قدَّمت إدارة السِّجن طلب استرحامٍ للمحكمة العليا، ولكنَّه خسر القضيَّة، واستولى المحامون على كلِّ ما يملك، وبدا أنَّ مصيره قد تقرَّر فعلًا.

ولكن بعد تسع سنواتٍ، ظهرت الحقيقة إلى النُّور. كبر تشارلي وأفلس تمامًا. كبرت الفتاة أيضًا، وتزوَّجت، وأصبح لديها أطفال. وفي يومٍ من الأيَّام قرَّرت أن تعترف بالحقيقة بمحض إرادتها الكاملة. قالت إنَّ ما حدث

في تلك اللَّيلة كان من تدبير أمِّها، وإنَّ الرَّجلين اللَّذين كانا ينتظران في الخارج كانا مستعدَّين لضرب تشارلي في اللَّحظة المناسبة، وكانا ينتظران الدُّخول عند سماعهما صراخ الفتاة. كانت الخطَّة إمَّا إجبار تشارلي على أن يتزوَّج الفتاة وإمَّا أن تأخذ عائلة الفتاة كلَّ ما يملك كتعويضٍ عن رفضه. عندما اعترفت المرأة، طلب أصدقاء تشارلي توثيق اعترافها على ورقةٍ في المحكمة، وعُرضت القضيَّة على القاضي مرَّةً أخرى، ومباشرةً أصدر عفوًا عنه. طبعًا السُّؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: لماذا لم يُحاسَب الشُّهود على التَّآمر والكذب في شهادتهم؟ لأنَّ القانون الموجود يحميهم من أن يحاسَبوا بعد مرور 3 سنوات، والحقيقة ظهرت بعد مرور 9 سنوات. إليك هذا السُّؤال أيضًا، ماذا عن شهادة الطَّبيب؟ ألم يقترف شهادة زورٍ هو الآخر؟ لم يوقِّع الطَّبيب على شهادته الجديدة بعد كشف الحقيقة، لأنَّ أحد المشرِّعين الكبار كان قد أوجد طريقةً تحمي الطَّبيب من مناقضة شهادته التي أدلى بها.

لا أستطيع نسيان وجه تشارلي سباركس. لم أر قطُّ عيونًا أكثر قهرًا وحزنًا من عينيه الرَّماديَّتين، ومع هذا كلِّه، بقيت متردِّدًا في أمره إلى أن تأكَّدت من براءته، فقد كنت أظنُّ أنَّه قد ارتكب تلك الجريمة بالفعل وأنَّه قد قُبض عليه متلبِّسًا بالجرم المشهود.

قصَّةٌ أخرى مهمَّةٌ تعود لـ «جون إتش» و«إد سي». كانا متَّهمَين سابقين قُبض عليهما لارتكاب جرائم القتل التي حدثت في المدن الجنوبيَّة. ومع أنَّهما كانا بريئَين، إلَّا أنَّ الأدلَّة كانت تدينهما بشدَّة، ولم يستطيعا إثبات مكان وجودهما في ليلة الجريمة. وبعد ذلك أصبح إفلاتهما من التُّهمة صعبًا، ولئلَّا يُدانا بالجريمة الأعظم اضطرَّا إلى الاعتراف بأنَّهما كانا يسرقان في مكانٍ آخر من المدينة التي تبعد عدَّة أميالٍ عن مسرح جريمة القتل ولكن في البلدة نفسها، وفي الوقت نفسه الذي وقعت فيه الجريمة. ولإثبات أنَّهما كانا يسرقان في ذلك الوقت اضطرَّا إلى كشف مخبأ ما سرقاه، وبعد وصول

الضُّبَّاط إلى مكان السَّرقة، وجدوا أدلَّةً إضافيَّةً تربط السَّارقَين بمجموعةٍ من السَّرقات الأخرى. وأُلصقت بهما جميع تلك التُّهم وأدينا بها. حُكم على سي بـ 39 سنة، وعلى إتش بـ 27 سنة.

كلا الرَّجلين أصبح مسنًّا قبل أن يذوق طعم الحرِّيَّة. خرج سي وهو يتَّكئ على عكَّازٍ ويعاني من الاختلال الحركيِّ ولا أمل له بالعلاج. كلَّما رأيت هذين الرَّجلين فكَّرت في ثمن الخطأ الذي ارتكباه.

قصَّةٌ أخرى تعود لجون وارد. حُكم عليه بالسَّجن ثلاثين سنةً في سان كوينتن بتهمة السَّرقة. قضى منها ثماني سنواتٍ وستَّة أشهر، وأنا مؤمنٌ بأنَّه بريء. عندما التقيته للمرَّة الأولى كنت أعمل في مطحنة الجوت، ولكن لم أكن أعرف اسمه. كان هادئًا ومجدًّا في عمله، ولكنَّه كان قليل الضَّحك. لم يعتد الضَّحك. وغالبًا لن يجيده حتى لو تظاهر به. ثلاثون سنةً يمكنها أن تنسيك حتى كيف تبتسم.

في ذلك اليوم سمعت صديقه يكلِّمه:

«يجب على كلِّ شخصٍ أن يحاول أن يكون بشوشًا ومبتسمًا معظم الوقت. إذا كان الجميع ظريفًا ولطيفًا ومرحًا، سيصبح العالم أفضل بكثيرٍ ولن نشعر بالاكتئاب والحزن، ولكنَّ المشكلة هي أنَّ النَّاس في هذه الأيَّام يمضون بوجوهٍ عابسةٍ وحزينةٍ ومأساويَّة».

كان المتحدِّث رجلًا ممتلئ البنية رَسْلَ الشَّعر ذا بشرةٍ ناعمةٍ وبرَّاقة، وبدا وكأنَّه لم يعرف الحزن في حياته، بينما كان وجه جون يحمل خطوطًا عميقة، وشعرت بأنَّه المعيل الوحيد لعائلةٍ كبيرة، فقد كانت تصرُّفاته تدلُّ على أنَّه شخصٌ مسؤول.

ردَّ عليه جون: «إذا كان الجميع مبتسمًا وفرحًا، كيف سنتبيَّن معاناة الآخرين؟».

ثمَّ سارا بعيدًا ولم أستطع سماعهما، وأشعر بالأسف لذلك، فقد كنت مهتمًّا بسماع ردِّ الرَّجل الأوَّل.

رأيت رجالًا بريئين قبعوا في السِّجن سنواتٍ طوال. ورأيت آخرين مذنبين اقتيدوا إلى حبل المشنقة ليلفظوا أنفاسهم الأخيرة. البارحة ذهبت إلى أحد المتاجر الكبرى لابتياع غرضٍ ما. وقفت فتاةٌ لمساعدتي وكانت تبدو شاحبة الوجه. ورأيت أخرياتٍ متلاشياتٍ خلف الحاسب الآلي، بعضهنَّ أقصر خصرًا من بعضهنَّ الآخر، وجميعهنَّ كنَّ واقفاتٍ كما تقف الأحصنة الواهنة. ورأيت كذلك نادلاتٍ، وجوههنَّ تفيض بالهموم، ورأيت صبيًّا على العكَّاز يبيع الجرائد، ورأيت رجلًا كهلًا يمسك بالمجرفة في أحد الخنادق.

ثمَّ يأتي رجلٌ سمينٌ ويقول إنَّ على الجميع أن يبتسموا ويرقصوا فرحًا. محتملٌ جدًّا أنَّه يحبُّ الوجوه المبتسمة؛ ولكنَّ الوجوه الحزينة ذات العيون الواهنة المهمومة هي الأقرب إلى الحقيقة. هي أمثلةٌ حيَّةٌ على آثار طمع ووحشيَّة الإنسان. لولاها لكان العالم موحشٌ لا يطاق، وليس فيه ما نقوم به سوى أن نأكل وننام. وإذا قبل أيُّ إنسانٍ بهذا الأمر فعليه أن يعيد التَّفكير بأحقيَّته في هذه الحياة، فمن يستحقُّها يجب أن يعاني، ويجب أن يملك فهمًا عميقًا وعطفًا عظيمًا على الفقراء والمرضى والبائسين.

بالأمس أمعنت النَّظر في وجه امرأةٍ كرَّست حياتها لخدمة الإنسانيَّة.

هل كان وجهها فرحًا ومنبسط الأسارير؟ كلَّا، ولكنَّها كانت جميلةً، عيناها مليئتان بالحبِّ والعطف، وحدَّثتني عن الأطفال الذين يضيِّعون حياتهم في العمل بالمصانع التي لا تهتمُّ إلَّا بجني الأموال.

حدث قبل شهورٍ مضت أن نظرتُ إلى وجه الآمر الذي تعلَّم أنَّ الحياة غير مضحكة. قبل أربع سنواتٍ كان وجهه بشوشًا ومنبسط الأسارير، ولكن من النَّادر أن يضحك الآن، لماذا؟ لأنَّه رأى معاناة النَّاس. وبالرَّغم من كلِّ

شيء، فهو أعقل وأفضل من أيِّ شخصٍ آخر ويفعل المزيد من الخير مع مرور الأيّام. لم أر قطُّ ما يسرُّ القلب أكثر من ارتسامة ابتسامته. إنَّها تشعُّ بالثِّقة والرِّضا، وتبدو حقيقيَّةً وعميقةً جدًّا.

أكرِّر أنَّ جون وارد، الذي قضى ثلاثين سنةً في السِّجن، لم يضحك إلَّا نادرًا. سيصبح كالوحش إذا ضحك. العالم أفضل لأنَّه لا يضحك.

قبل عامين كنت أعمل على إعداد طلبٍ للحصول على عفوٍ لجون. وعندما جاءني طلب منِّي أن أقوم بترتيب أوراقه. لم تكن لديَّ أدنى فكرةٍ عن أنَّه بريء. كنت أعلم أنَّه قد أدين قبل ذلك مرَّتين أو ثلاث مرَّات، وهؤلاء الأشخاص لا يكونون عادةً بريئين. عندما طلب منِّي كتابة طلب العفو بناءً على براءته حاولت إقناعه باختيار حجَّةٍ أخرى، فوفقًا لخبرتي في كتابة طلبات العفو اقتنعت أنَّ طلبًا كهذا سينقلب ضدَّه ولن يستفيد منه. ولكنَّه رفض.

سألني مستنكرًا كلامي: «أتقول ما الفائدة من قول إنَّني بريءٌ وأنا مذنب؟ أنا لست أحمق، أفهم اللُّعبة جيِّدًا. أعرف أنَّ من الأفضل لي أن أعترف بأنِّي مذنبٌ وألقي بنفسي تحت رحمتهم؛ ولكنَّني لا أستطيع فعل ذلك. أنا بريءٌ، وهذا كلُّ ما في الأمر. أدعو الرَّبَّ أن يقبض روحي هنا إذا لم أكن بريئًا».

رفعتُ الطَّلب على أساس البراءة. كان جون ممدَّدًا في السَّرير السَّاعة 7 صباحًا عندما ألقوا القبض عليه. اتُّهم بسرقة شخصٍ ثملٍ في رواقٍ يبعد خمس حاراتٍ عن منزله. السَّرقة حدثت تقريبًا في تمام السَّاعة 4:30 صباحًا.

يعرف الضُّبَّاط أنَّ جون متَّهمٌ سابقٌ، ورأوه في الشَّارع قرابة منتصف اللَّيل. قاموا بتفتيشه وتفتيش غرفته ولم يجدوا شيئًا يربطه بالجريمة. ساكنو البيت شهدوا بأنَّه عاد في السَّاعة 12:30 وذهب للنَّوم مباشرةً.

الرَّجل الذي سُرقت منه الدُّولارات العشرة وهو سكرانٌ شهد بأنَّ جون وارد هو من سرقه. ودافع جون عن نفسه، ولكن بعد المقارنات والأسئلة

والتَّحقيقات التي وجَّهها محامي الولاية إلى جون، كانت كلُّ الأصابع تشير إلى تهم جون السَّابقة، ولذلك أدين. إحدى التُّهم أنَّه أحضر الخمر لشخصٍ داخل السِّجن، وحُكم عليه بسنة. والتُّهمة الأخرى كانت سرقةً من الدَّرجة الثَّانية، وحُكم عليه بثلاث سنوات. حارس المناوبة اللَّيليَّة شهد بأنَّه رأى المشتبه به يشرب مع أربعة أو خمسة رجالٍ في السَّاعة 3:40 صباحًا؛ ولكنَّ المدان لم يكن سارقًا. عيَّنت المحكمة محامين لتمثيل جون، ولكنَّهم لم يأتوا إلى المحكمة ليروه إلَّا في اليوم الذي يسبق الموعد المحدَّد لجلسته. تأخَّروا عن الحضور ولم يعطهم هذا فرصةً لإحضار الشُّهود الذين يجب أن يقفوا بجانب جون. طالب جون بأن تظلَّ القضيَّة مفتوحةً إلى أن يتمكَّن من إحضار الشُّهود الذين أدلوا بشهادتهم في التَّحقيق الأوَّل والتي كانت لصالحه. ولكنَّ هذا التَّحقيق لم يوثَّق في السِّجلَّات، وكان من المهمِّ أن يأتي بالشُّهود إلى جلسته في المحكمة العليا. ولكنَّ طلب التَّأجيل باء بالرَّفض، والجلسة أخذت مجراها. أثبتت المحكمة أنَّه مذنبٌ بالسَّرقة، وحُكم عليه بالسَّجن 30 سنة. الطَّلب الذي يوثِّق هذه الحقائق أُرسل إلى القاضي ومحامي الولاية في البلدة التي يقيم فيها، وكان هذا منسجمًا مع القوانين التي تخصُّ العفو. القاضي ومحامي الولاية وقَّعا على الحكم، ولكنَّهما أضافا: نحن لا نقرُّ بصحَّة الوقائع المضافة.

خلال تحضير طلبه حاول الآمر كلَّ جهده وبشكلٍ متكرِّرٍ أن يوثِّق الدَّلائل الموجودة في ملف مستندات المدينة. وكان من الصَّعب عليه أن يثبت أنَّ هذه الوثيقة هي نفسها التي طلبها. أراد بعد إدانته أن يتظلَّم لدى المحكمة العليا؛ ولكنَّه لم يكن يملك المال الكافي وكان ميؤوسًا من حالته. لديَّ نسخةٌ من طلبه وأنا أكتب الآن. وهذه الوثيقة مقنعةٌ جدًّا. ولكنَّها لم تصل إلى الحاكم. بعد أن أعددتها، وبعد أن استوفيت جميع المتطلَّبات التي تتوافق مع القوانين، سُلِّمت للآمر مع طلب توجيهها إلى مكتب مشرفي سجن الولاية ليحصل

على توصياتهم. حصل هذا قبل سنتين تقريبًا، ولم يُتَّخذ أيُّ إجراءٍ حتى الآن. وفي تلك الأثناء كان جون وارد يعمل عمله اليوميَّ في المطحنة، ويطيع قوانين السِّجن، ولم يفقد الأمل أبدًا. من المعروف أنَّ السُّجناء هم أفضل من يحكم على السُّجناء. وكلَّما تكلَّمت مع سجينٍ عن قضيَّة جون وارد أكَّد لي براءته وأنَّه سيصبح شخصًا صالحًا إذا تمكَّن من الخروج. هذه القضيَّة تستحقُّ أن تخضع لتحقيقٍ جدِّيٍّ، ويستحقُّ جون أن يحصل على فرصة.

أمَّا قصَّة توم فهي الأكثر إثارةً وتأثيرًا من بين آلاف القصص الأخرى التي عرفتها عن رجالٍ التقيتهم وتقرَّبت منهم في السِّجن. لم يتحدَّث توم أبدًا عن براءته. قُبض عليه متلبِّسًا بجرم السَّرقة. ولكنَّ ما حدث خلال انتظاره حُكم المحكمة يجب أن يقال، ويجب أن يعلم الجميع كيف يمكن لسجينٍ أن يتعرَّض لأفظع أنواع الظُّلم والإجحاف.

كنت أتحدَّث مع توم ذات مساءٍ في الباحة السُّفليَّة، وسألته كيف وصل به الحال إلى أن يُحكَم عليه بأربع عشرة سنةً لجريمةٍ من الدَّرجة الأولى، سأروي ما قاله لي من وحي ذاكرتي:

«قُبِض عليَّ بتهمة السَّطو على محلٍّ وسرقته. قبضوا عليَّ متلبِّسًا في المساء، وقرَّرت أن أعترف بذنبي لأنال جزائي وتبدأ محاكمتي بأسرع وقتٍ ممكن. ولكن في هذه الولاية يقومون بإجراء المحاكمات كلَّ 3 شهور، وبعد المحاكمة اضطررت إلى أن أنتظر في السِّجن حتى الجلسة الثَّانية للمحكمة العليا. بعد أسبوعين من إلقاء القبض عليَّ أتى إليَّ نائب العمدة في السِّجن وجلس يحدِّثني. تكلَّم معي مطوَّلًا عن أشياء كثيرةٍ، وأخبرني عن سرقةٍ حصلت على بعد خمسين ميلًا من المكان الذي وجدوني فيه قبل ليلتين أو ثلاث ليالٍ من إلقاء القبض عليَّ. كانت في ولاية أخرى، وبالقرب من مكتب البريد تحت محكمة الولايات المتَّحدة، وتساءلت بيني وبين نفسي ما الذي كان يرمي إليه؟ ثمَّ قال لي إنَّهم قبضوا على الفاعل كما قبضوا عليَّ، وقال

أيضًا: من المؤكَّد أنَّك تعرف أنَّ الحدَّ الأقصى لعقوبة سرقة مكتب البريد هي 10 سنوات، والتُّهمة التي قبضنا عليك بها ستُدخلك السِّجن 15 سنة. لو كنت مكانك لاعترفت بأنَّني اقتحمت مكتب البريد وأخذت فرصتي مع الأمريكيِّين. نحن مستعدُّون لمساعدتهم في القضيَّة، وسنحاول إخراجك بسرعةٍ في غضون 5 سنوات.

أجبته: «ولكنَّني لم أسرق مكتب البريد. لا أعرف أيَّ شيءٍ عنه. يكفيني ما حدث».

قال لي: «أوه، حسنًا، 15 سنةً إذن، كما تريد. أردت إخبارك بطريقةٍ تخفِّف عنك الحكم عشر سنوات. أردت مساعدتك. أنصحك بالتَّفكير جيِّدًا فيما قلته لك».

وبعد ذلك ذهب وتركني بمفردي. جعلني ذلك أعيد التَّفكير بعرضه بشكلٍ تلقائيٍّ. حاولت أن أفكِّر بكلِّ ما حدث، ولكن لم أستطع أن أفهم لعبته. الشَّيء الوحيد الذي فهمته هو أنَّه أراد أن ألبس تهمة اقتحام مكتب البريد ليصعد على أكتافي ويصبح اسمه لامعًا. في بادىء الأمر اعترضت بشدَّةٍ وكلَّما تذكَّرت كلامه شعرت بالضِّيق أكثر فأكثر. إن كنت أستطيع التَّأكُّد من أنَّ الأمريكيِّين سيخرجونني بعد 5 سنوات، وأنَّ من ألقوا القبض عليَّ سيسامحونني وينسون ما حدث، فبالتَّأكيد سأكون غبيًّا إذا لم أغتنم هذه الفرصة. ولكن كما تعلم، من المحتمل أن تكون هذه لعبةٌ لتوريطي، وأنَّهم يساعدونني لمصالحهم الشَّخصيَّة ويفكِّرون بتوريطي في قضيَّتين بدلًا من واحدة. قرَّرت في تلك اللَّيلة قبل أن أخلد إلى النَّوم أنَّني لن أجازف بحياتي أبدًا.

في اليوم التَّالي زارني النَّائب في زنزانتي مرَّةً أخرى، وسألني إن كنت قد فكَّرت بالأمر. أجبته بأنِّي فكَّرت؛ ولكن ليس لديَّ أيُّ ضمانٍ يضمن لي أنَّ نيَّته صافية، وسألته بصراحةٍ عن الفائدة التي سيجنيها من وراء كلِّ هذا.

نظر حوله ليتأكَّد من عدمِ وجود أحد، وتكلَّم بصوتٍ خافت.

«من المؤكَّد أنَّني لم أقدِّم لك هذا العرض حبًّا بك. سأخبرك بالحقيقة بشكلٍ واضحٍ وصريح. تصل عقوبة الحدِّ الأقصى لسرقة مكتب البريد إلى 10 سنوات، ونستطيع تخفيف الحكم عنك لتحصل على 5 سنواتٍ فقط».

سكت لحظاتٍ وتفحَّصني بنظراته من الأعلى إلى الأسفل، ثمَّ قالها لي صراحةً.

«سأخبرك بالأمر، هناك جائزةٌ بقيمة 600 دولار لمن يقبض على السَّارق الذي اقتحم مكتب البريد، ومن مصلحتنا أن تقول إنَّك الفاعل، أفهمت؟ وبالمقابل، سنُخرجك من السِّجن بعد خمس سنوات، وسأقوم بنفسي بالتَّأكُّد من ذلك، ما رأيك؟».

قضيت تلك اللَّيلة أذرع زنزانتي حافي القدمين جيئةً وذهابًا. بدا العرض مغريًا جدًّا، ولكن لو كان العرض قد جاءني من شخصٍ غير هذا لقبلت به على الفور؛ لم أكن مرتاحًا لنبرة صوته، فقد كانت تبدو مريبةً بعض الشَّيء وهو يتحدَّث، وهذا الأمر شغل بالي، وبدا لي أنَّه لم يكن يعرف شيئًا عن القانون. ولم تكن لديَّ طريقةٌ للتَّأكُّد من مدَّة حكم سرقة مكتب البريد وما إذا كانت 10 سنواتٍ حقًّا. وكلَّما فكَّرت بقضيَّتي أكثر شعرت بأنَّ القاضي سيخذلني بكلِّ سهولة.

لم يكن هناك أيُّ شخصٍ نائمًا في المكان الذي اقتحمته، وكانت هذه أوَّل مرَّةٍ يُقبض فيها عليَّ. لا أقول إنَّني ملاك. عدا عن ذلك، كنت سأعترف بما اقترفته لأوفِّر تكاليف الجلسة. أطول مدَّةٍ يمكن أن يُحكَم عليَّ بها هي 5 سنوات. يستطيع القاضي مساعدتي وتخفيفها لتصل إلى سنةٍ إذا أراد. ولكن يجب عليَّ أن أتحدَّث معه بوقار، ويجب أن تكون الأمور لصالحي. في النِّهاية قرَّرت أن أرفض العرض، وفي اليوم التَّالي جاء النَّائب وأعطاني سيجارًا وقلت له إنَّني غير موافقٍ على طلبه.

ظننته سيغضب؛ ولكنَّه تصرَّف على نحوٍ عاديٍّ.

قال: «أوه، حسنًا، إذا أردت أن تكون غبيًّا فالأمر يعود لك، ولكن دعني أخبرك شيئًا مهمًّا وهو أنَّ قاضي الولاية رجلٌ سريع الغضب، ويكره اللُّصوص. ليس هذا فحسب، بل إنَّنا إذا تحدَّثنا إليه سيحكم عليك بأبشع الأحكام وأقساها. لا أقول لك إنَّنا سنذهب إليه؛ ولكن من الأفضل لك أن تعيد التَّفكير مرَّةً أخرى».

الطَّريقة التي تحدَّث بها أغضبتني، فقلت له أن يغرب عن وجهي، فكلامه أوحى إليَّ بأنَّه يحتال عليَّ وجعلني أظنُّ أنَّ القاضي مرتشٍ وسريع الغضب حتى لا أتردَّد في الموافقة على عرضهم. خرج النَّائب من زنزانتي غاضبًا، ولكنَّه عاد في اليوم التَّالي، وظلَّ يزورني كلَّ يومٍ طوال أسبوعين، وكان يجلب لي في كلِّ مرَّةٍ سيجارًا. حاولت مرارًا أن أرفض تَقْدِمَتَه؛ ولكنَّه لم يقبل رفضي، وظلَّ يتصنَّع الطِّيبة واللُّطف معي. وأحيانًا كان يقول:

«أعلم أنَّك لا تريد أن تكون غبيًّا. سأساعدك فور خروجك من السِّجن، وسأمنحك مئة دولارٍ كهديَّةٍ على تعاونك معنا».

ولكنَّني كنت قد اتَّخذت قراري بالفعل، وفي يومٍ من الأيَّام استفزَّني لدرجة أنَّني طلبت منه أن يغادر ولا يفكِّر بالعودة مرَّةً أخرى وإلَّا سأضربه وأقتلع رأسه.

حسنًا، ظلَّ يلحُّ عليَّ إلى أن جاء يوم المحاكمة. تكلَّمت في المحكمة واعترفت بكلِّ ما لديَّ، وطلبت الرَّحمة. ثمَّ جاء دورهم ليتحدَّثوا. عندما نطق القاضي بالحكم تحوَّل كلُّ شيءٍ أمامي إلى اللَّون الأحمر، وبدأت بالعراك والصُّراخ. صدر الحكم عليَّ بالسَّجن أربع عشرة سنةً لأنَّني لم أساعد النَّائب في الحصول على جائزة السِّتِّمائة دولار. ولولاه لحكم عليَّ القاضي بخمس أو ستِّ سنوات».

وقف توم وكلَّمني بجدِّيَّة:

«ما الذي ستفعله لو كنت مكاني؟ ما الذي ستختاره لو عاد بك الزَّمن إلى الوراء مرَّةً أخرى؟».

أجبته: «كنت سأقبل الفرصة».

أجاب مباشرةً: «ألن تفعل كما فعلت؟».

«كلَّا، كنت سأقبل عرضه، لأنَّني إذا تحدَّيته فسيرغب في حماية نفسه والتَّنكيل بي».

قال توم: «أرجو ألَّا ألتقيه بعد خروجي».

في يوم الأحد، بعد شهورٍ من تعييني في غرفة الملابس، التقيتُ سموكي في ساحة الفناء. كنت أراه كلَّ يومٍ وهو يجتاز الممرَّ في طريقه إلى المطحنة؛ ولكنَّه لم يلتفت إليَّ البتَّة. كنت أفرح كلَّما ذهبت إلى الباحة يوم الأحد لألتقيه؛ ولكن في كلِّ مرَّةٍ كان يحدث شيءٌ يمنعني من قضاء الوقت معه.

بشكلٍ ما شعرت بأنَّه لم يعد يعدُّني صديقًا له، وهذا الأمر أحزنني جدًّا، فعاقبة الحصول على وظيفةٍ جيِّدةٍ في سان كوينتن هي أن يتخلَّى السُّجناء عن صداقتك. يعتقد كثيرٌ من السُّجناء أنَّه لا يمكن لأيِّ سجينٍ أن يحصل على وظيفةٍ جديدةٍ إلَّا إذا خان غيره، ومن المستحيل أن يبقى في هذه الوظيفة إذا لم يكن جاسوسًا. هذه الفكرة لا يتبنَّاها الجميع، وكنت أظنُّ سموكي منهم، ولكنَّني شعرت ببروده، مع أنَّنا لم نكن قد تحدَّثنا منذ شهورٍ طويلة.

وهذا واحدٌ من الأشياء الغريبة المتعلِّقة بحياة السِّجن.

يقبع الشَّخص بين جدران السِّجن شهورًا، أو سنين، وفجأةً يرى صديقه غريبًا عنه تمامًا مع أنَّهما سُجنا لوقتٍ طويلٍ معًا.

زاحمتُ الجموع، واستطعت أن أراه فأومأت له برأسي. فهم ما أقصد وذهب بعيدًا عمَّن كانوا حوله. مشينا إلى الكوخ واقتربنا من الفرقة التي

كانت قد بدأت حفلتها الموسيقيَّة. كان الرِّجال يرقصون فرحين، وكنت أعلم جيِّدًا أنَّ الرقص يجعل سموكي متحمِّسًا جدًّا؛ ولكنَّه لم يندمج معهم هذه المرَّة. بل أخذني معه إلى مقعدٍ فارغ، وجلسنا عليه. لم يتفوَّه بحرفٍ واحدٍ في طريقنا نحو الكوخ، وكنت أتساءل كيف يمكنني أن أكسر الجليد وأدفعه إلى الحديث، لأنَّه كان باردًا جدًّا، باردًا وجامدًا. بقينا صامتَين لعدَّة دقائق، وجلسنا نتفرَّج على الرَّاقصين، ولكنَّنا في الحقيقة كنَّا نتعاتب في عقولنا. كنت أعلم أنَّ هناك ما يزعجه دون أن يخبرني، فجعلني ذلك متوتِّرًا ومنزعجًا. كنت مستعدًّا للتَّضحية بمعرفتي بأيِّ أحدٍ إلَّا بسموكي. بدأت ذاكرتي تعيد شريط ما قاله لي عن حياته. التفتُّ إليه وألقيت نظرةً سريعةً إلى وجهه المنمَّش. أتذكَّر أنَّني عندما رأيته أوَّل مرَّةٍ فكَّرت بأنَّه قبيحٌ بل بشع؛ ولكنَّني أراه الآن وسيمًا جدًّا. الوجه العاديُّ يتحوَّل في أعيننا إلى وجهٍ مميَّزٍ وجميلٍ عندما نعرف خبايا روح صاحبه، وعندما تلتقي العيون بالعيون ترى مقدار القوَّة والحقيقة في كلِّ جوانب الوجه الذي أمامك. مجموعةٌ من تلك الظُّروف جعلتني أرى سموكي ككائنٍ جديد.

وأخيرًا جازفت بالمبادرة: «ألم تتحدَّث مع روز يا سموكي؟».

هزَّ رأسه نافيًا. ولاحظت أنَّني هززت رأسي أنا أيضًا.

قلت: «ماذا حدث يا سموكي؟ تظهر عليك علامات الحيطة والحذر وكأنَّك تخفي شيئًا عنِّي، ماذا جرى؟ هل فعلت شيئًا سيِّئًا لك؟ أو هل هناك شيءٌ يقلقك وتخفيه عنِّي؟».

التفت إليَّ وحدجني بنظرةٍ حادَّةٍ ثمَّ قال: «حسنًا، لم يعجبني ما حصل، ظننتك خائنًا، لا أقول إنَّك شخصٌ سيِّءٌ، أعرف أنَّك شخصٌ مميَّزٌ؛ ولكن منذ أن استلمت وظيفةً في المكتب وأنت لا تلقي إليَّ أو إلى البقيَّة أيَّ اهتمام. من الممكن أنَّكم لا تجدون الوقت الكافي لتزوروا الباحة وتلتقوا بأصدقائكم

القدامى، ولكن يجب أن تدرك أنَّ المشوار طويلٌ أمامكم، وإذا لم تكن حذرًا فستأتيك مصيبةٌ من حيث لا تدري، كما حدث مع البقيَّة. إنَّكم تحصلون على وظائف جيِّدة، وتنسون أنَّكم لا تملكون شيئًا سوى عضلاتكم المفتولة. كم تبقَّى على محكوميَّتك؟ أكره أن تصبح مغرورًا وتقطع علاقتك بأصدقائك. لم يتبقَّ لي سوى أشهرٍ قليلة، وتؤلمني فكرة أنِّي سأترك هؤلاء المساكين مثل الخرفان الضَّائعة. أتمنَّى أن أخرج من هنا، وأعلم جيِّدًا أنَّني سأخرج من هنا، ويجب عليك أن تكمل معهم وتصبح صديقًا لهم. لا أقول لك أن تلازمهم طوال الوقت، ولكن يجب أن تكمل مسيرة الدِّفاع عنهم. إذا قام كلُّ شخصٍ هنا بواجبه تجاه الآخر على أتمِّ وجه، وإذا لم يكن هناك أيُّ خائنٍ أو جاسوسٍ يعمل على حساب الآخرين، فسيكون هذا المكان أفضل بكثير».

قاطعني عندما هممت بالحديث دفاعًا عن نفسي وقال: «كلَّا كلَّا، أنا لا أقول إنَّك تقوم بهذه الأشياء. أعلم أنَّك شخصٌ جيِّدٌ، ولكن أسدِ لي معروفًا وتذكَّر هذا الكلام دائمًا، وعندما تسنح لك أيُّ فرصةٍ لمساعدة شخصٍ لا تتوانَ في ذلك. شخصٌ في مكانك يستطيع مساعدة الآخرين في أيِّ وقتٍ يشاء. أتمنَّى في المستقبل أن أتذكَّر رجلًا عادلًا عمل في ذلك المكتب. في الأيَّام السَّابقة كنت أفكِّر كثيرًا في حالي، وقرَّرت أن أحاول فعل ما هو صحيح. هذا النَّوع من الحياة لا يفيد بشيء. كنت أكرِّر هذا الكلام كثيرًا، وحاولت أن أحفره في رؤوس جميع الشَّباب من أمثال تشارلي ثورن وباك إنقلش وكيلسي الكبير ومن يقومون بافتعال المشاكل من الكبار. أتعلم أنَّ أغلب الشَّباب أصبحوا يعرفون أكثر بكثيرٍ ممَّا كنت أعرفه وأنا شابٌّ؟ إنَّ المدارس هي التي تحرِّضهم على ذلك. أحضر مجموعةً من الأطفال واتركهم في المدرسة أسبوعًا، تجد أنَّهم قد تعلَّموا كلَّ أنواع الحيل والأساليب الإجراميَّة، وسيُسجنون هنا عشر سنواتٍ على الأقل. يظنُّ اليافعون أنَّ ذلك شيءٌ ذكيٌّ، وأنَّهم يعرفون باطن الأمر وظاهره، ولكن ما الفائدة من أن أقول لك هذا؟

هل فهمت ما أقصد؟ لقد رأيت كلَّ شيءٍ بنفسك. ولكنَّني ما أزال أنصحهم بأنَّه لا توجد فائدةٌ من الخروج عن القانون، وأنَّها لعبةٌ لا تُناسب إلَّا الأغبياء. وقفت مرَّةً أتفكَّر في هذه اللُّعبة وكم هي لعبةٌ خاسرة. خذ قصَّة سينت بلاكيس على سبيل المثال. قُبض عليه وهو يسرق كوخًا في منتصف اللَّيل. لم يقبضوا عليه متلبِّسًا؛ ولكن ما الذي حدث؟ أوَّلًا خسر المالك سبعة عشر دولارًا، وبعد ذلك بدأوا بمحاكمة بلاكي، واضطرَّ الرَّجل الذي خسر 17 دولارًا إلى المجيء إلى المحكمة ليدلي بشهادته، فخسر راتب ثلاثة أيَّام عمل، وكان هناك تقريبًا أربعة أو خمسة شهودٍ آخرين، وأهدرت المحاكمة من وقت الجميع. تبلغ تكلفة فتح القضيَّة 500 دولار، وحُكم على بلاكي بالسِّجن لمدَّة عشر سنوات وخسر حرِّيَّته. جاء إلى سان كوينتين وعمل في مطحنة الجوت سنين طويلةً، وخلال ذلك الوقت كان يخسر راتبه الذي كان يجب أن يستلمه من عمله الحقيقي. وفي هذا الوقت أنفقت الولاية عليه مبلغ 30 إلى 40 سينتًا كلَّ يوم، ليصبح المبلغ الإجماليُّ 100 دولارٍ في السَّنة للشَّخص الواحد، وهناك ما يقرب من ألفي سجينٍ في السِّجن الواحد. ليس هذا فحسب؛ ولكنَّ بلاكي كان يكبر مع مرور الوقت، وكان يخسر قوَّة شخصيَّته كلَّ يوم. وعندما حان موعد إطلاق سراحه خرج من السِّجن وهو يشعر بالمرارة، وقرَّر أن ينتقم. أتعرف كيف انتقم؟ خرج لمدَّة ثلاثة أسابيع، ثمَّ حُكم عليه بالسَّجن لمدَّة خمس عشرة سنة في سجن فولسوم لأنَّه أوقف رجلًا وأخذ منه عشرة دولارات. وبينما كان بلاكي يقضي محكوميَّته، ذهبت أمُّه إلى دار العجزة، وماتت هناك. أرأيت كيف يسير كلُّ هذا وإلى أين يصل الإنسان؟ كانت خسارةً تامَّةً منذ البداية. المستفيدون الوحيدون هم فقط من تأتيهم الأموال على حساب تعاسة هؤلاء الفقراء، كالشُّرطة، وموظَّفي المحكمة، وحرَّاس السُّجون. طبعًا يظنُّ الكثير من النَّاس أنَّ المجتمع يستفيد من إدخال الرِّجال إلى السِّجن وتحويل حياتهم إلى جحيم. يظنُّون أنَّ المجرم سيكون

نموذجًا لترهيب الآخرين فلا يرغب هؤلاء في تقليده؛ ولكنَّني أشكُّ في أنَّه نموذجٌ نافع. هل تظنُّه نافعًا؟ ما لا أستطيع استيعابه هو لماذا تتكلَّف الولاية مبلغ مائة دولارٍ للآلاف من السُّجناء في السَّنة؟ إن توفَّرت لنا مدينةٌ خاصَّةٌ في الخارج فسنعيش مع عائلاتنا وأطفالنا، ويكون لدينا أكلٌ جيِّدٌ وملابس جيِّدةٌ، ومسارح ودوريَّات إطفاء وكلُّ شيء. سنعيش في راحةٍ وهناء، وبعضنا سيكون لديه مالٌ في البنك وسنرسل أطفالنا إلى المدرسة، وستمكَّن من فعل كلِّ شيء. إن عملنا كلَّ يوم فسنستطيع دعم 5 أو 6 آلاف شخصٍ غيرنا؛ ولكنَّنا نعيش هنا كالكلاب الضَّالَّة، ونأكل أرخص أنواع الطَّعام. تتكلَّف الولاية ربع مليون دولارٍ سنويًّا لنعيش كالحيوانات في السُّجون. هناك شيءٌ خبيثٌ يحدث في مكانٍ ما. إن شغَّلونا لقاء مقابلٍ ماديٍّ، وحثُّونا بجدٍّ لكي نتقدَّم، فستلاحظ اختلافًا كبيرًا، ولن يعود النَّاس إلى هنا مرَّةً أخرى، وسيجدون مكانهم الملائم في هذه الحياة. وبعد ذلك يصبحون مستعدِّين للعمل والجدِّ والاجتهاد لأنَّ هذا هو ما يجعل الرَّجل يحقِّق ما يصبو إليه في حياته.

أنا متأكِّدٌ من أنَّ السُّجون ستتطوَّر مع مرور الوقت. هذا ليس أملًا مبالغًا فيه بل نتيجةً منطقيَّة. حياتي انتهت في السَّجن. لقد تقدَّمت بي السِّنُّ، وهربت جميع الفرص من يدي، وما كان الأمر ليكون بهذا السُّوء لو كان نظام السُّجون ملائمًا للسُّجناء. أعرف أنَّ المحاكم والسُّجون والزِّنزانات ضروريَّة، وأنَّ للنَّاس الحقَّ في أن تحمي ممتلكاتها، وأنَّه عندما يقوم رجلٌ بقتل رجلٍ آخر أو بسرقته يجب أن يوقَف ويُعزَل عن البقيَّة، ولكن عند تنفيذ هذا العقاب لماذا يعاملون السَّجين كالوحش بدلًا من أن يحاولوا تغييره إلى الأفضل؟ يشعرني بالملل كلُّ أولئك الأشخاص الذين يكتبون عن كيفيَّة إدارة السُّجون، وكيفيَّة التَّعامل مع السُّجناء. أعرف كلَّ هذا، وعشته سابقًا، ولكنَّنا عندما نحاول أن نقول شيئًا ما يخيفوننا بنظراتهم. يظنُّوننا أغبياء ومختلفين عن البقيَّة ولا نفكِّر مثلهم.

ولكن يا سيِّدي، لم أكن أريد أن أحدِّثك عن كلِّ هذا، ولكنَّني أزحت عبئًا ثقيلًا عن كاهلي. حاول أن تُبقي يديك مفتوحتين وتفهم كلَّ ما يحدث. من الممكن أن تفعل شيئًا عظيمًا عندما تخرج من هنا. ينبغي لشخصٍ مثلك أن يحقِّق شيئًا، شخصٍ يستطيع كتابة الرَّسائل كما كنت تكتبها لذلك الصَّبي. سأخرج قريبًا، وسأحاول أن أستقيم من الآن فصاعدًا، ولكن دعني أخبرك شيئًا واحدًا، لن أصبح صالحًا لأنَّني خائف، ولا لأنَّهم أسهموا في إصلاحي. بل فقط لأنَّني عملت على نفسي وفهمت كلَّ شيءٍ بنفسي. أستطيع اختصار كلِّ شيءٍ ببضع كلمات: سأقوم بعمل الشَّيء الصَّحيح لأنَّه صحيحٌ وليس لأيِّ شيءٍ آخر.

والآن من الأفضل لك أن تذهب إلى عملك، وسأرقص مع الآخرين».

جلست هناك ونظرت إلى سموكي وهو يختفي في الزِّحام، ثمَّ مشيت ببطءٍ عائدًا إلى غرفة الملابس. لا أستطيع نسيان ذلك اليوم ولن أنساه ما حييت.



الفصل الثَّاني والعشرون

لمَّا كنت أعمل في غرفة الملابس فقد كان لديَّ الكثير من الفرص الجيِّدة لرؤية السُّجناء القادمين ومعرفة الأساليب المختلفة التي يُدخلهم بها العمدة والنَّائب إلى داخل الزِّنزانة. طبعًا كان يُستقبَل السَّجين المحكوم عليه بسنين طويلةٍ أو بالسَّجن المؤبَّد أو بالإعدام بأسلوبٍ لطيفٍ ومشفقٍ، على الأقلِّ الغالبيَّة العظمى منهم. أقول هذا لأنَّني رأيت بعض المحكوم عليهم يذهبون إلى السِّجن من دون مُرافق، فهناك رجلٌ كان في طريقه إلى سان كوينتن من إحدى الولايات الجنوبيَّة، ولكنَّه انفصل عن الضَّابط المسؤول عن إيصاله بسبب الزِّحام، وبدلًا من أن يهرب سأل عن عنوان السِّجن وذهب إليه بقدميه. لم يكن الضَّابط برفقته، ولذلك رفض الآمر استقباله في السِّجن؛ ولكنَّه سمح له بأن يبقى في فناء السِّجن إلى أن يتواصل مع الضَّابط الذي أضاعه في الزِّحام والذي وصل أخيرًا مع الأوراق المطلوبة. فكَّرت كثيرًا في هذه الحادثة. بدا من غير الضَّروريِّ وغير الإنسانيِّ أن يرتدي شخصٌ كهذا اللِّباس المخطَّط ويقصَّ شعره، وطبعًا كان سجنه من البداية أمرًا غير إنسانيٍّ وشائنًا بحقِّه؛ ولكنَّني لم أستطع أن أعرف حتى الآن لماذا لم يحاول الهرب عندما سنحت له الفرصة؟

وكذلك أعرف شخصًا حُكم عليه بالمؤبَّد في سان كوينتن، وكانت لديه التَّجربة نفسها. لم يقم الضَّابط الذي اقتاده إلى السِّجن بتكبيله، بل تركه لضميره. وعندما وصلا إلى سان فرانسيسكو شربا قليلًا معًا ثمَّ افترقا. بحث السَّجين بجدٍّ عن الضَّابط، فوجده مخمورًا، فأخذه إلى فندقٍ قريبٍ ليستعيد

وعيه، وبعد أن أفاق أكملا الرِّحلة معًا. وبعد فترةٍ طويلةٍ من إخباري بقصَّته وبما مرَّ به، سألت هذا الرَّجل الذي حُكم عليه بالمؤبَّد إن كان سيعيد ما فعله مرَّةً أخرى؟ تردَّد للحظةٍ، وظهر الانفعال واضحًا على ملامحه، ثمَّ قال:

«بصراحةٍ لا أريد أن أعيدها»، وأظنُّه لن يعيدها، «في العديد من اللَّيالي لم أستطع النَّوم. بقيت جالسًا أركل جسدي لأنَّني لم أهرب عندما سنحت لي الفرصة. ولكنَّ ذلك الضَّابط وثق بي، فكان من المستحيل أن أخذله».

وقف هذا السَّجين لاحقًا أمام مكتب مشرف سجن الولاية، وسُمح له بأن يرفع طلب عفوٍ بعد أن يتمَّ إحدى عشرة سنةً في السِّجن. لم يكن ليبقى وينتظر الضَّابط لولا إحساسه العالي بالضَّمير والشَّرف. رأيته وهو يتحوَّل من شابٍّ وسيمٍ وذكيٍّ إلى رجلٍ ذي وجهٍ شاحبٍ وهرم. عانى عشرين سنةً خلال السَّنوات العشر التي قضاها خلف جدران السِّجن في البزَّة المخطَّطة. جريمته لم تكن متعمَّدة، ومن الصَّعب ملاحظة أيِّ خيرٍ أضافه السِّجن إلى حالته. من المؤكَّد أنَّ إحساسه بالشَّرف والضَّمير لم يعد كالسَّابق، وهو الآن عاجزٌ من كلِّ النَّواحي، ولكنَّه ظلَّ يحمل لقب السَّجين المثاليِّ حتى آخر يومٍ له في السِّجن. السَّجين المثاليُّ هو السَّجين الذي يتخلَّى عن كامل إرادته ويصبح كالدُّمية في متجر الملابس. في النِّظام الحاليِّ هذا هو مفهوم السَّجين المثاليِّ أو النَّموذجيِّ.

ولكن لا يمكن لجميع الرِّجال أن يسلِّموا أنفسهم بسهولةٍ للسِّجن. في مرَّةٍ من المرَّات رأيت الحرَّاس يأخذون فلفلًا من سترة السَّجين وهم يفتِّشونه عند وصوله. احتفظ ذلك السَّجين بالفلفل على أمل أن يرميه في عينَي الضَّابط المسؤول عنه عندما تسنح له الفرصة للهروب. هؤلاء الرِّجال خطرون، وبسببهم يضطرُّ الضُّبَّاط إلى اتِّخاذ كامل احتياطاتهم وهم ينقلون السُّجناء إلى السِّجن. هذه الاحتياطات تسبَّبت في الكثير من الأفعال الهمجيَّة؛ ولكنَّها كانت نتيجةً طبيعيَّةً، فأغلب السُّجناء يعامَلون وكأنَّهم وحوشٌ بريَّة. هناك سجونٌ في الشَّمال لا يُنقَل السُّجناء إليها إلا بعد تكبيل أقدامهم بالأغلال.

تلك الأغلال تتكوَّن من حلقةٍ من الرَّصاص توضع في رسغ القدم. وهي ثقيلة الوزن، أظنُّ أنَّ وزنها يصل إلى 20 أو 30 باوندًا، وتكون إمَّا مسلسلةً أو مقفولةً حول الرُّسغ ومن المستحيل أن يهرب أحدٌ منها. في الواقع يكاد السَّجين يعجز عن السَّير بها وهو يجرُّ الكرة الثَّقيلة خلفه. حتى هذا الشَّيء البربريُّ والدَّنيء لا يكفي بعض الضُّبَّاط. رأيت صبيًّا صغيرًا ذات مرَّةٍ يعبر من بوَّابة سان كوينتن ليس مع تلك الأغلال في قدميه فحسب، بل مع أصفادٍ في يديه أيضًا. أتذكَّر جيِّدًا أوَّل مرَّةٍ أرى فيها هذا المنظر المريع. عندما أتى به الضَّابط إلى المكتب ظننَّا أنَّ الصَّبيَّ سيُساق إلى الزِّنزانة ليُشنق. تخيَّل فزعنا وصدمتنا عندما علمنا أنَّ مدة حكمه سنةٌ واحدةٌ فقط.

قبل بضع سنواتٍ مضت، نُقل ضابطٌ من إحدى الولايات الشَّماليَّة إلى سان فرانسيسكو لأنَّه ترك سجينًا مكبَّلًا ومثقلًا بهذا الشَّكل، وعندما نزل من الباخرة أخذ يجرُّ ضحيَّته عبر المياه، وتجمَّعت مجموعةٌ من الأشخاص حولهما وأجبروه على فكِّ قيد الصَّبيِّ.

وكثيرًا ما رأيت سجناء معاقين أو برجلٍ واحدةٍ يقادون بالأصفاد. تخيَّل ضابطًا كبيرًا وقويَّ البنية، طليق اليدين، ولديه مسدَّسٌ محشوٌّ في جيبه، يمشي خلف رجلٍ برجلٍ واحدةٍ ويداه مكبَّلتان.

في كثيرٍ من الأحيان يضيِّع الضُّبَّاط مفتاح الأصفاد والسَّلاسل ويتركون الضَّحيَّة بلا أمل. هناك مجموعةٌ من المفاتيح وُضعت في السِّجن كي يتمكَّنوا من فتح السَّلاسل والأصفاد في مثل هذه الحالات، ولكن لا توجد مفاتيح لجميع أنواع الأصفاد، فيستلزم الأمر قصَّ الأصفاد أو نشرها بالمنشار.

قبل عدَّة سنواتٍ أُلقي القبض على أحد المجرمين في ممفيس، وذهب ضابطٌ من السِّجن ليأتي به. لا أستطيع أن أنسى تلك اللَّيلة التي وصل فيها إلى سان كوينتن. قبل أن يغادر الجاني ممفيس وضع الضَّابط الأغلال في قدمه،

وتركها في قدمه طوال الرِّحلة إلى ويستوارد. بقيا في الطَّريق عدَّة أيَّام. وبدلًا من أن يناما في القطار، كانا ينزلان كلَّ ليلةٍ في مدينة، فينام السَّجين في أحد السُّجون أو في قسم شرطةٍ، بينما يذهب الضَّابط للنَّوم في فندق، وعند قدومهما إلى سان كوينتين نزع الضَّابط الأغلال من قدم السَّجين في حضوري، ومشى هذا الأخير إلى غرفة الملابس ليستحمَّ ويرتدي ثيابه المخطَّطة. عندما فعل هذا انفجر الجميع ضحكًا، فقد كان يمشي كالحصان المعوَّق لأنَّ القدم التي وُضعت فيها الأغلال كانت متورِّمةً جدًّا من ثقل الوزن الذي كانت تجرجره، ومع كلِّ خطوةٍ كان يخطوها إلى الأمام كانت قدمه ترتفع إلى الأعلى وكأنَّها مربوطةٌ بخيط. طبعًا لم يكن ذلك الأمر مضحكًا؛ ولكن من الصَّعب حقًّا أن نرى الجانب المأساويَّ في تلك اللَّحظة، لا سيَّما وأنَّ الضَّحيَّة نفسه ضحك، وراح يضع يديه الاثنتين على الرُّكبة النَّطَّاطة ويقول لها: «ابقي في مكانك أيَّتها الحمقاء».

هذا العقاب يجب أن يُلغَى بسبب الخزي والعار الذي يُلحِقُه بالسَّجين. لم أر قطُّ شخصًا يجرجر الأغلال خلفه دون أن أشعر بالرَّعب والخزي اللَّذين تفيض بهما روحه. بالتَّأكيد لا يوجد سجينٌ وُضِعَت في قدميه الأغلال وبقي يحترم القانون الذي عرَّضه لأمرٍ كهذا.

لا يُسمَح للسُّجناء في سان كوينتن بفعل أيِّ شيءٍ في الزِّنزانة لئلَّا يعبثوا بالأثاث. الأثاث يتكوَّن من أسرَّةٍ بطابقين وطاولةٍ صغيرةٍ وكرسيٍّ وقنِّينة ماءٍ ومصباحٍ على الفحم ودلوٍ متكلِّسٍ وملابس ملطَّخةٍ تجعل السَّجين يطمح إلى المزيد ويشعر بأنَّ الحبس لمصلحته.

ولكن بالرَّغم من كلِّ هذه القوانين يبذل السُّجناء محاولاتٍ دائمةً لإدخال أدواتهم الخاصَّة، ككراسٍ يدويَّة الصُّنع وصناديق وصورٍ وأرفُف وأدوات الخلاء وسجَّادٍ ومستلزمات الطَّبخ وعاكسات الضَّوء وكتبٍ وأشياء أخرى يمكن إدخالها إلى السِّجن دون أن يصادرها الضُّبَّاط. هناك حربٌ داخليَّةٌ

دائمةٌ ومستمرَّةٌ بين السُّجناء والضُّبَّاط المسؤولين عن عنابر السِّجن، والحرب تحمل الكثير من الحنق والعداوة والبغضاء.

وعندما يكتشف حارس السِّجن بعض القطع القليلة الممنوعة فإنَّه يقتلعها عن الحائط بكلِّ قسوةٍ ويكسرها إلى قطعٍ صغيرةٍ، ثمَّ يعود السَّجين إلى زنزانته وهو يفكِّر بالحصول على بعض الرَّاحة بعد ساعاتٍ طويلةٍ من العمل، ولكنَّه يدخل ليجد أنَّ كلَّ شيءٍ قد اختفى. من المحتمل أنَّ أحدًا قد وشى به إلى المكتب وخسر أفضليَّته.

هذه الطَّريقة التي تُطبَّق في ظلِّ الإدارة الحاليَّة للسِّجن الدَّاخليِّ طريقةٌ ظالمة. من الممكن أن يتمَّ الإبلاغ عن السَّجين ويُحرم من هذه الأشياء دون أن يحصل على فرصةٍ ليبرِّر أو يدافع عن نفسه. ويطبِّق الضَّابط هذا العقاب بناءً على قراره الخاصِّ ولا يستطيع أحدٌ أن يعترض عليه.

الأفضليَّات تعني أن يحصل السَّجين على كمِّيَّةٍ من التَّبغ كلَّ أسبوع، وأن يحصل على رسائله التي تُفتَح وتُقرأ في المكتب، وأن يكتب رسالةً واحدةً كلَّ أسبوع، وأن يحصل على زيارةٍ مرَّةً كلَّ شهر، ولكن عندما تنقطع الزِّيارات والرَّسائل الموجَّهة إلى السَّجين فإنَّه يقع فجأةً في الحيرة وكأنَّه ارتطم بجدارٍ حجريٍّ في الظَّلام، ويصبح عاجزًا عن فعل أيِّ شيء. لا يستطيع حتى كتابة رسالةٍ واحدةٍ ليعرف أقاربه آخر أخباره.

الرَّسائل المرسلة إليه توضع في ملفٍّ في المكتب، وتبقى هناك إلى أن يقرِّر الضَّابط إعادة الميزات للسَّجين، أو إلى أن يأتي العيد ويمنح الآمر الأفضليَّات للجميع.

عندما تتوقَّف الرَّسائل بين السَّجين وزوجته أو حبيبته أو أمِّه أو أيِّ شخصٍ تربطه علاقةٌ به، فهذا بالنِّسبة إليه من أصعب المآسي. خاصَّةً إذا كانوا يسكنون بعيدًا ولا يستطيعون زيارته ليطمئنُّوا عليه ويعرفوا ما الذي حدث له وما سبب

صمته المفاجئ. يكتبون 3 أو 4 مرَّات، وكلُّ رسالةٍ مستعجلةٌ أكثر من سابقتها، ولكنَّهم لا يحصلون على جواب، فالسَّجين لا تصله الرَّسائل. وفي النِّهاية يكتبون للآمر ليطمئنُّوا على فقيدهم من خلاله.

بعد الكثير من المخاطرة والصَّبر، يستطيع السَّجين إدخال رفٍّ حمَّامٍ صغيرٍ إلى زنزانته، ويضع عليه قطعةً من صابونته الصَّغيرة وفرشاة أسنانه (إن كان لديه المال لشراء واحدة) وبضع صور. يحتاج السَّجين إلى الكثير من العلاقات ليُدخل هذه الأدوات، ولكنَّه ينام مرتاح البال، راضيًا عن نفسه ومكانه، وأكثر تحمُّلًا للحرَّاس وعمله الشَّاق.

وأحيانًا بعد شهرين أو ثلاثة أشهرٍ من القلق القاتل، يعرف الأهالي أنَّ ابنهم خسر حظوته، وفي بعض الأحيان تُسحب الحظوة منه في الوقت الذي يكون فيه في أمسِّ الحاجة إلى التَّواصل مع أبنائه وزوجته لأنَّهم مرضى جدًّا، ولكنَّه لا يعلم إن كانوا على قيد الحياة أو لا. يستطيع أن يرسل إليهم عن طريق سجينٍ خارجٍ من السِّجن، ولكن من المستحيل أن يحصل على جواب، وسيبقى جاهلًا بأحوالهم حتى تعود له حظوته. طبعًا هذا ليس بالجهل الجميل الذي يتحدَّث عنه الشَّاعر.

يجب على السَّجين أن يظلَّ حذرًا في سلوكيَّاته وتصرُّفاته حتى لا يُحرَمَ الامتيازات؛ ولكن من الخطأ أن يتعرَّض السَّجين لهذا النَّوع من العقاب دون أن يحصل على جلسة استماع، خاصَّةً وأنَّ سحب الامتيازات يعني أن يفقد السَّجين الحقَّ في تقديم طلب عفوٍ إلَّا بعد مرور ستَّة أشهر.

في الآونة الأخيرة، خسر أحد السُّجناء امتيازاته دون أن يعلم بذلك. فقد عثر أحد الضُّبَّاط على زوجٍ من الأحذية أمام سريره في أحد الزَّنازين التي تحتوي على أكثر من مائة رجل. من المخالف للقوانين أن يصنع شخصٌ حذاءً خاصًّا به حتى لو كان من القماش القديم؛ ولكنَّ ذلك الحذاء لم يكن

لصاحب السَّرير، بل كان لسجينٍ آخر يجلس على السَّرير المقابل له. لم يُجرِ الضَّابط تحقيقًا في الأمر، ولم يحقِّق مع الرَّجل الذي وجد الحذاء أمام سريره؛ ولكنَّه أمر بسحب امتيازاته بشكلٍ تعسُّفيٍّ.

وعندما اجتمع مكتب المشرفين ليجمعوا طلبات العفو تمَّ شطب اسمه من سجلِّ المستحقِّين، لأنَّه معاقبٌ، حتى يُتِمَّ ستَّة شهورٍ كاملة. ولم يفهم لماذا لم ينادِ عليه المشرفون عندما أعلنوا أسماء المعفوِّ عنهم. ذهب في اليوم التَّالي إلى المكتب ليستفسر عن ذلك. وحينذاك فقط علم أنَّه معاقبٌ لأنَّهم عثروا على زوج من الأحذية أمام سريره. ظلَّ يجادلهم ويخبرهم بأنَّه لا يعرف عن الحذاء شيئًا ولم يره من قبل، ولكن بلا فائدة. ولم تأت العدالة إلَّا بعد أن تولَّى الآمر الموضوع بنفسه حين رفع السَّجين شكوى تظلُّمٍ إليه، وهكذا خسر السَّجين شهرين من التَّبغ الإضافيِّ والرَّسائل وفرصته في طلب عفوٍ.

وفقاً للنُّصوص الأدبيَّة، تطلع الشَّمس وتهطل الأمطار بالتَّساوي على العادل والظَّالم، ولكن وفقًا لدكتاتوريَّة الضُّبَّاط لا توجد هناك أيُّ مساواة.

كجهودٍ ساعيةٍ إلى منع الأشياء الممنوعة من دخول الزِّنزانات، يقتحم الحرَّاس المكان وعندما يفرغون من التَّفتيش، تصبح الزِّنزانات مثل البيض المخفوق. لن أنسى أوَّل مرَّةٍ حدث لي فيها هذا الموقف. قبل أن أذهب إلى العمل في الصَّباح تركت زنزانتي نظيفةً ومرتَّبة، وعندما عدت وجدت كلَّ شيءٍ ملقًى على الأرض. الفراش، البطَّانيَّات، الرَّسائل، الكتب، الطَّاولة، الكرسيَّ، والمصباح، كلّها كانت مكدَّسةً بعضها فوق بعضٍ ككومةٍ من الأنقاض.

في البداية لم أفهم الفائدة من ذلك، وكنت ما أزال أنظر إلى الفوضى التي حولي حتى مرَّ بجانبي الضَّابط المسؤول عن عدِّ السُّجناء وأغلق الباب بقوَّة وسمعت رجلًا في الزِّنزانة القريبة منِّي يشتم بأعلى صوته، ومن طريقة غضبه وشتمه علمت أنَّ الخراب وقع في زنزانته مثلما في زنزانتي.

كنت أعمل بشكلٍ متواصلٍ طوال اليوم وكنت تعبًا، وبدأت بترتيب الفوضى بكلِّ ما تبقّى لي من همَّةٍ وأنا ممتلئٌ حزنًا وضيقًا وحقدًا. وبدلًا من أن أدرس أو أقرأ في تلك اللَّيلة رحت أسير ذهابًا وإيابًا وأنا أشتعل غضبًا. صحيحٌ أنّني لم أفقد شيئًا من أغراضي، ولكن في اليوم التَّالي عرفت أنَّ كلَّ من كانوا حولي قد خسروا أشياء عزيزةً عليهم كثيرًا. لا توجد قوانين تمنع حصول أمرٍ كهذا، وسألت نفسي كثيرًا لماذا؟ ومع مرور الوقت علمت أنَّه يجب وضع قوانين على السُّجناء لمنعهم من ملء زنزاناتهم بالخردة. الخردة هي الأشياء الصَّغيرة المريحة التي لا تضرُّ أحدًا، ولكن يجب أن يكون هناك انضباط. لا يُسمَح للسُّجناء بأن تكون زنزاناتهم مريحة. الزِّنزانة التَّعيسة الفارغة جزءٌ من التأديب.

يخرج السُّجناء من سان كوينتن في الصَّباح الباكر. لن أنسى ذلك اليوم الذي خرج فيه سموكي. رأيته قادمًا من الباحة إلى غرفة الملابس بعدما توقَّف الجرس عن الرَّنين. كان ممسكًا بفراشه وبطَّانيَّاته وقد ربطهم معًا، وكان يحملهم على ظهره. أحد قوانين السِّجن يتمثَّل في أن يُحضِر السَّجين فراشه وبطَّانياته إلى غرفة الملابس قبل أن يخرج من السِّجن في الصَّباح.

فكَّ أمين المفتاح الصُّرَّة في حضوره، ورأى أنَّ في داخلها بطَّانيَّتَين ونصف. ولأنَّ أغطية السَّرير غير كافيةٍ لتدفئة السُّجناء خلال فصل الشِّتاء، يُحاسَب الرِّجال الخارجين إذا نقص عدد البطَّانيَّات. وإذا أعطى أحدهم بطَّانيَّاته لرجلٍ آخر فيجب عليه أن يصرِّح بذلك عندما يصل إلى المكتب، ولا يُسمَح له بتغيير ملابسه إلَّا عندما يعود إلى الزِّنزانة ويعثر على البطَّانيَّة التي تبرَّع بها.

أحيانًا تكون بطَّانيَّات بعض السُّجناء جديدةً نوعًا ما فيبدِّلونها مع سجينٍ محكومٍ عليه بالمؤبَّد، لأنَّ البطَّانيَّات تصبح أنحف مع مرور السِّنين. والشَّخص المسجون لفترةٍ قصيرةٍ غالبًا ما تكون بطَّانيَّته في حالٍ جيِّدةٍ عندما يحين وقت خروجه.

ولكن كنت أعرف بعض السُّجناء الذين أُجبروا على البقاء في السِّجن إلى

ما بعد الظُّهر في يوم خروجهم وقد مرَّ الوقت وهم يبحثون عن البطَّانيَّات التي تبرَّعوا بها. في يوم تسليم البطَّانيَّات يؤخَذ السَّجين إلى غرفة الملابس ويُجبَر على نزع ملابسه أمام الضَّابط. ولا يُعطَى فرصةً ليغتسل في بداية الصَّباح قبل أن يخرج، وعندما ينتهي الضَّابط من تفتيش السَّجين، ويتأكَّد من أنَّه لم يخبِّىء شيئًا في جسده، يسلِّمه ملابس الخروج. وإذا أراد أن يأخذ معه أيَّ شيءٍ فعليه أن يحضره إلى المكتب في يوم خروجه ويتركه للفحص والتَّفتيش.

قبل أن يخرج السُّجناء من السِّجن يقدِّمون وعودًا كثيرةً لزملائهم، منها أنَّهم سيبحثون عن أقاربهم وأصدقائهم أو أنَّهم سيهتمُّون بأمورٍ أخرى تخصُّهم. ولكيلا يجازف السَّجين بحفظ العناوين بسبب ضعف ذاكرته يضطرُّ إلى أن يجد طريقةً ليحصل فيها على تلك المعلومات من الخارج. بعض هذه الطُّرق ذكيٌّ جدًّا. أعرف رجلًا كان سيخضع للتَّفتيش ليتأكَّدوا من عدم وجود رسائل للعالم الخارجيِّ معه. ولم يجدوا شيئًا، ولكن كان معه الكثير من العناوين والأسماء في ذلك الوقت، واستخدم السَّجين آنذاك طريقةً ذكيَّةً جدًّا لدرجة أنَّني سأمتنع عن ذكرها، حتى لا يؤثِّر ذلك في سير العمليَّة مع بقيَّة السُّجناء إذا اكتشف السِّجن أمرها.

رأيت الكثير من المحاولات الفاشلة لتهريب مبالغ ماليَّةٍ أو رسائل إلى خارج السِّجن. أتذكَّر رجلًا عجوزًا كان يضع خمسة دولاراتٍ ذهبيَّةٍ تحت لسانه. لم يتوقَّع أنَّه سيضطرُّ إلى فتح فمه عند خروجه مثلما كان مضطرًّا إلى فتحه وهو داخلٌ إلى السِّجن. صودرت تلك الدُّولارات الذَّهبيَّة وأضيفت إلى مخصَّصات المكتبة. رأيت كذلك كرةً من المناديل الورقيَّة كُتب عليها بخطٍّ صغيرٍ جدًّا يُخرِجونها من أذن سجينٍ قُبيلَ إطلاق سراحه.

جاء سموكي، ووضع معدَّات السَّرير عند باب غرفة الثِّياب مطلقًا تنهيدة فرح. كان المتبقِّي من الوقت نصف ساعةٍ حتى يحين موعد ارتداء الملابس، وسألته إن كان سيذهب لتناول الإفطار أم لا.

أجابني: «ليس في هذه الحياة. لن يتناول هذا العجوز طعام السُّجناء مجدَّدًا. سأبدأ منذ اليوم حياةً نظيفةً، وسيكون الطَّريق النَّظيف عنواني من الآن فصاعدًا».

ثمَّ جلسنا نتجاذب أطراف الحديث، ووصل الحديث بنا إلى الرَّجلين اللَّذَين شُنقا قبل أيَّامٍ قليلة.

«رأيت كثيرًا من الرِّجال يُشنقون أمامي»، قال سموكي، «وحاولت أن أرى الجانبين في القصَّة، ولكن مهما حاولت لم أستطع يومًا فهم المنفعة من الإعدام. في غابر الزَّمان قام ملك إنجلترا بشنق فتىً يُدعَى جيفريز لأنَّه سرق رغيفًا من الخبز، ولكنَّ سرقة الخبز استمرَّت، والآن يشنقون مرتكبي جرائم القتل، وما يزال القتل مستمرًّا.

«هذا العقاب لا يخيف أحدًا، فما الفائدة من تطبيقه إذن؟! لو كان شنق شخصٍ سيمنع شخصًا آخر من القتل، لكانت هناك فائدةٌ من هذا العقاب، ولكنَّني أقول لك إنَّهم يفعلون ذلك بسبب غريزتهم الهمجيَّة التي تحرِّضهم على الانتقام، ولأنَّ الإنسان سيبقى دائمًا متعطِّشًا إلى المزيد من الدِّماء. يحبُّ الرِّجال رؤية الدَّم، ولا تستطيع الهرب من ذلك. في يومٍ من الأيَّام سينظر النَّاس إلى الخلف وسينعتوننا بالمتوحِّشين، وهذا فعلًا ما نحن عليه الآن.

«وفي يومٍ ما سيكون للنِّساء كلمةٌ في وضع القوانين، ويومئذٍ سترى تغييرًا كبيرًا في كلِّ هذه الأشياء. الأيَّام الوحيدة التي شعرت فيها بأنَّني على قيد الحياة هي الأيَّام التي التقيت فيها نساءً. الأمور التي فعلتها من أجل تطوير نفسي كانت من خلال النِّساء. لولاهنَّ ماذا كنَّا سنفعل نحن الرِّجال؟ سنمشي ويقتل بعضنا بعضًا كالوحوش بلمح البصر، وأنت تعلم هذا جيِّدًا. أنا أؤمن بالنِّساء بشكلٍ كبير، ولا يهمُّني أن يعرف النَّاس بذلك، فهو ليس ضربًا من الجنون، ولا هو مشاعر مرهفة، ولا فلسفةٌ وليدة الأمس، هذا ما أعرفه. من الذي يقف متنكِّبًا

سلاحه طوال الوقت؟ من الذي يساعد الرَّجل على الوقوف عندما يحاول الوقوف؟ ومن الذي يربِّت على كتفه عندما يحقِّق النَّجاح، ويخفِّف عنه عناء المشقَّات والفشل؟ النِّساء بالطَّبع. أعطني مجموعةً من التَّنانير، وأنا متأكِّدٌ من أنَّني سأجعل الحكماء حمقى والحمقى حكماء. المرأة تعاني كلَّ الوقت، تربِّي الأطفال، وبعد ذلك ماذا يحدث؟ يكبر الطِّفل وتكبر الأنا في داخله وينحرف في المدينة. أوَّل ما يكتشفه هو أنَّ القانون الذي سُنَّ من قبل الرِّجال الحكماء هو الذي يعطيه الفرصة لشرب الخمر، فيشارك في العراك، ويقوم بفعل أمورٍ أخرى لا يستطيع القيام بها أمام أمِّه، وأمورٍ ما كان ليتعلَّمها لو تدخَّلت أمُّه في إدارتها. فكَّرت في هذا الأمر كثيرًا. تخيَّل لو أنَّ الآية تنقلب، فيجلس الرِّجال في البيت يقومون بأمور التَّربية، بينما تخرج الفتيات في اللَّيل يحتفلن ويعربدن ويفعلن ما نفعله، ونحن جالسون في مطابخنا نتساءل لماذا يفعلن هذا؟ دعنا نتخيَّل أنَّ السَّبب الحقيقيَّ هو أنَّنا لا نستطيع التَّحدُّث معهنَّ، ألن يشعرك هذا بالسُّوء؟ ألا تريد أن تفعل شيئًا ما لتغيِّر من سوء الوضع؟

«لقد التقيت جميعَ أنواع النِّساء، الحسنة منهنَّ والسَّيِّئة؛ ولكنَّ أغلبهنَّ كنَّ بعرف الرِّجال سيِّئات، وتحدَّثت مع كثيراتٍ منهنَّ، وهنَّ يعرفن جيِّدًا أنَّ للرِّجال اليد العليا في تقرير الأمور وفي وضع القوانين وشقِّ الطَّريق المؤدِّية إلى الجحيم الذي نصنعه والذي يجعل أغلبهنَّ يهربن منَّا. ولكنَّ كلَّ هذا سيصبح ذكرياتٍ قديمةً في المستقبل. الأيَّام القادمة أفضل، ونحن سنعيش لنرى هذه الأيَّام. كلُّ الذي يجب أن نتذكَّره أنَّ الرِّجال هم أبناء النِّساء كما هنَّ من ضلع الرَّجل».

جاء الضَّابط ليُلبس سموكي ملابس الخروج، وخلال دقائق قليلةٍ تصافحنا وخرج من البوَّابة الأماميَّة ومن حياتي. ومنذ ذلك اليوم انقطعت أخباره عنِّي، وما عدت أعرف شيئًا عنه. ونحن نودِّع بعضنا بعضًا من خلال البوَّابة ابتسم الضَّابط له وقال:

«أتساءل كم من الوقت سيحتاج هذا السَّارق الغبيُّ كي يعود إلى هنا».

نزلت هذه الكلمات عليَّ كالصَّاعقة. هذا الكائن الطُّفيليُّ، غير المتعلِّم والعديم الكفاءة وغير المستحقِّ للرَّاتب الذي يتقاضاه، يتفوَّه بعبارةٍ سيِّئةٍ في حقِّ رجل أكمل محكوميَّته بقضاء عشرين سنةً في السِّجن، رجلٍ دخل السِّجن قبل أن يخرج إلى الحياة أصلًا، وتحمَّل كلَّ الأهوال والظُّلم الذي أنزله به أمثال هذا الضَّابط وهذا النِّظام العبثيِّ الذي يدير السِّجن بأكمله.

بالنَّظر إلى آخر محادثةٍ أجريتها مع سموكي، صدمني وضوح رؤيته. كان اللِّقاء الأخير قد حدث قبل سنواتٍ طويلةٍ، ولكنَّه، هو الرَّجل العامِّيُّ والعاديُّ والجاهل كما يقولون، رأى أنَّ نجاته ونجاة العالم بأسره كامنةٌ في أيدي القوى النَّاعمة. في ذلك الوقت لم أكن مؤمنًا بما يسمَّى حقوق النِّساء، ولكنَّني أؤمن الآن، وآمل أن تقرأ جميع النِّساء شهادة سموكي المتواضعة وتحاول فهمها جيِّدًا. لقد أضاف سموكي إلى حياتي الكثير من الفضائل دون أن أشعر بذلك. وربَّما ألهم كلامه كثيرين غيري. في النِّهاية، الحياة جميلةٌ جدًّا، وما كنَّا لندرك قيمتها لولا وجود من يذكِّرنا بنقائها. يمكننا دائمًا أن نعثر على شيءٍ لامعٍ في الوحل والطِّين.

الفصل الثَّالث والعشرون

عندما تغيَّرت القوَّة المحرِّكة لمطحنة الجوت من البخار إلى الكهرباء، بقي المهندس الذي صنعها بلا عملٍ لفترةٍ طويلة، ولكنَّه نجح في الحصول على عملٍ كمشرفٍ على ساحة الفناء. أن تصنع محرِّكًا بخاريًّا لا يُعَدُّ في نظري خبرةً عمليَّةً تؤهِّل صاحبها ليكون في موقع من يحكم زملاءه، ولكن اتَّضح أنَّه شيءٌ مبهج. يكون المهندسون عادةً حكماء وأذكياء، وغالبًا ما يكونون رحماء أيضًا، ومن بين الجميع كان السَّيِّد هاريسون الأحبَّ إلى قلوب الضُّبَّاط والسُّجناء على حدٍّ سواء.

اعتاد أمين المفتاح السَّابق مَضْغَ التَّبغ. أتى من بعده رجلٌ رحيمٌ وطيِّب القلب عمل بكلِّ جهدٍ في حملة الانتخابات، وحصل على هذه الوظيفة كتعويضٍ لخدماته، وحظيتُ بفرصة التَّعرُّف عليه عن قرب، ومع أنَّه كان يرتكب أخطاءً فادحةً، إلَّا أنَّه كان عادلًا في الحكم على الأشخاص.

بعد فترةٍ قصيرةٍ من حصوله على وظيفته طلب تغيير مكاني من غرفة الملابس إلى مكتب أمين المفتاح، وأصبحت المسؤول عن سجلَّات المساجين، وبدأت مع أوَّل شخصٍ دخل السِّجن عام 1859، عندما كان سجن سان كوينتن يحتوي على سفينةٍ قديمةٍ جنحت على الشَّاطئ، وصولًا إلى آخر رجلٍ دخل السِّجن.

تضمَّنت هذه السِّجلَّات بيانات السُّجناء، وتمَّ تبويبها بطرقٍ مختلفةٍ، وصُنِّفت على أساس الأسماء. في كثيرٍ من الحالات تكون المعلومات

الموجودة في هذه السِّجلّات دقيقةً جدًّا، وتكون السِّجلّات المفصَّلة قيِّمةً جدًّا بالنِّسبة إلى إدارة السِّجن. في ذلك الوقت كان هناك قانونٌ يقتضي تسجيل كلِّ المعلومات التي تخصُّ السُّجناء ويُحتفَظ بها في مكتب الآمر، وكان مساعد الآمر يوثِّق المعلومات دائمًا ويحفظها في السِّجلّات، ويستطيع الضُّبَّاط طلب قراءة هذه السِّجلّات كلَّما احتاجوا إليها.

كانت المعلومات التي تخصُّ الرِّجال الذين عانوا تجربة السَّجن في سان كوينتن تُعطى لمن يطلبها، وقد تسبَّب هذا الأمر في أن يجد الكثير من الرِّجال الذين حاولوا تحسين ماضيهم أنفسهم ملاحَقين من قِبَل تاريخهم الأسود مرَّةً أخرى، وقد يتعرَّضون للتَّهديد بسبب تلك المعلومات. ولكن كان ذلك قبل تولِّي السَّيِّد إفْ دبليو رينولدس منصب أمين رئاسة السِّجن. فعند تولِّيه المنصب أخذ قرارًا بحماية المعلومات السِّرِّيَّة التي تخصُّ السُّجناء المحرَّرين، لأنَّ هناك الكثير من الفضوليِّين الذي يرغبون في معرفة كلِّ شيءٍ عنهم. أذكر ذلك الرَّجل جيِّدًا لأنَّه كان أحد الرِّجال الذين يستحقُّون المكانة والرَّاتب الممنوح لهم، ولأنَّه كان ودودًا وعطوفًا مع جميع السُّجناء.

يقع مكتب أمين المفتاح المتواضع بين مكتب مسؤول الفناء وغرفة الملابس، والمدخل الوحيد لقسم النِّساء يمرُّ عبر هذه الغرفة. وبسبب هذا رأيت عددًا كبيرًا من الحارسات والسَّجينات.

إحدى واجباتي كانت أن أستجوب جميع السُّجناء في حضور أمين المفتاح وأجعلهم يوقِّعون على مضمون المعلومات التي أُخذت منهم عند وصولهم إلى السِّجن.

ويُسمَح لسلطات السِّجن بفتح البريد الخاصِّ بالسُّجناء. وحتى السَّجينات لسن مستثنَياتٍ من هذه القاعدة، ولذا كنت أقابلهنَّ أيضًا. وكذلك عندما يكون لدى السَّجينة زيارةٌ تكون مضطرَّةً إلى المرور من مكتب أمين المفتاح ذهابًا وإيابًا.

بعد فترةٍ قصيرةٍ من استلامي مهامّي الوظيفيَّة، رأيت امرأةً تدخل السِّجن بحُكم 14 سنة. ملابسات قضيَّتها ليست حاضرةً في ذهني الآن؛ ولكنَّها اتُّهمت وأُدينت بإطلاق النَّار على رجلٍ كان يعمل في الإسطبل في إحدى الولايات الشَّماليَّة. منذ اللَّحظة التي قبضوا فيها عليها وهي تنادي ببراءتها. ولكن ثبتَ أنَّها كانت تكنُّ ضغينةً للرَّجل المصاب، وكانت كلُّ الأدلَّة تقف ضدَّها. عندما علمتْ أنَّها ستحاكَم رفضت الخروج من زنزانتها في السِّجن. ورفضت تبديل ثيابها. لم تقابل العدالة حالةً كهذه من قبل؛ ولكنَّها أثبتت تفوُّقها في التَّعامل معها.

غُطِّيَت المرأة برداءٍ أسود، وحُملت إلى المحكمة على نقَّالة. عُقدت الجلسة وهي مستلقيةٌ على النَّقَّالة، وأُدينت بالكذب وهي على تلك النَّقَّالة، وحُكم عليها بالسَّجن أربع عشرة سنة وهي ما تزال مستلقيةً عليها، وعندما حان وقت نقلها إلى السِّجن أتى اثنان من نائبي العمدة وحملاها إلى القطار.

وصلت إلى سان فرانسيسكو، وحملاها إلى السَّفينة. وفي سواساليتو نقلاها إلى القطار الثَّاني، وفي غرين براي حُملت إلى المنصَّة. ولمَّا كانت المنصَّة أعلى من باب السِّجن فقد حملا المرأة جانبيًّا.

رفضها المشيَ جعل قضيَّتها أكثر افتضاحًا، ووصولها إلى السِّجن كان متوقَّعًا. وعندما فتح أمين البوَّابة بوَّابة السِّجن وجد النَّائب الأوَّل يحمل على كتفيه رِجْلَي المرأة، كنَّا نعلم القادم، بينما كان الرَّجل الآخر يسند كتفيها. وبينما هما سائران بها نحو المكتب كنَّا متجمِّعين لمشاهدتهم كبقيَّة البشر. أردنا جميعًا أن نرى شكلها، ولكنَّني لم أتمكَّن من ذلك إلى أن وصلت إلى مكتب أمين المفتاح، ووضعاها على الأرض، وعندئذٍ استطعت رؤية وجهها بوضوح. نسيت ملامحها، ولكن أتذكَّر أنَّني رأيت كلَّ المعاناة التي من الممكن أن تُعاش مجتمعةً على وجهٍ واحد. قبل وصولها انقسمت الآراء حولها. بعض الرِّجال قالوا إنَّها بلهاء، وآخرون شعروا بأنَّها بريئةٌ وتحتاج إلى

نيل العدالة بالقوّة لدرجة أنَّ الطَّريقة الوحيدة التي وجدتها لفعل ذلك كانت المعارضة والمقاومة.

ولكن عندما نظرت إلى وجهها نالت تلك المرأة كلَّ شفقتي. كانت قريبةً من منتصف العمر وكان لديها وجهٌ أنثويٌّ مقبول. قام السَّيِّد سوليفان، الملازم الجديد في الباحة، وهو رجلٌ لديه تأثيرٌ حقيقيٌّ على السُّجناء أكثر من أيِّ شخصٍ آخر في السِّجن، بسحب كرسيٍّ ووضعه بالقرب من المرأة المعارضة، وحاول أن يتفاهم معها. قال لها بلطفٍ إنَّ السِّجن ليس مسؤولًا عن إدانتها، وأنَّ ما حدث لها ليس من اختصاصهم، وأنَّهم يريدون الاهتمام بها ومعاملتها بأحسن صورةٍ ممكنة، وطلب منها أن تقف. التمعت عيناها وهي تنظر إلى الجموع وظننَّا أنَّها ستستجيب لطلبه، ولكن في اللَّحظة نفسها اقتحم المسؤول الأعلى الغرفة وأفسد كلَّ شيء.

قال صارخًا: «تعالي أيَّتها السَّيِّدة. كفِّي عن هذا الهراء أنت الآن في سجن الولاية، ونحن لا نحمل أحدًا هنا. قفي».

الإنجاز الذي حقَّقه الملازم تلاشى خلال بضع دقائق. كنت متأكِّدًا من أنَّه نجح في كسر تشاؤم هذه المرأة، وأنَّها ستقف وتسير إلى قسم النِّساء بلا مساعدة، ولكن مع تلك النَّبرة الحادَّة والخالية من الإحساس تغيَّر كلُّ شيء. نظر المسؤول نظرةً حادَّةً في عيون المرأة، ولم تجب عليه. أيقن الضَّابط أنَّه ارتكب خطأً، فتدارك موقفه وغيَّر نبرته وحاول أن يجعلها تقف. ولكنَّها ظلَّت مستلقيةً وأخذت تحدِّق في السَّقف. وفي النِّهاية فقد صبره، وقال آمرًا:

«افتحوا الباب وخذوها إلى الدَّاخل».

وصلت الحارسة في ذلك الوقت، وفتحت بسرعةٍ الباب المؤدِّي إلى قسم النِّساء، وحُملت المرأة إلى الدَّاخل. وبعد أن وصلوا إلى ساحة الفناء أنزلوها هناك، وبقيت المرأة مستلقيةً على الأسفلت أمام الباب مباشرةً.

مشى الضَّابط ووقف فوقها.

«والآن أنتِ في قسم النِّساء. ستقضين أربع عشرة سنةً في السِّجن، ولن نحملك أبدًا. يمكنك أن تظلِّي مستلقيةً هنا، ولكنَّك ستتحرَّكين. وإذا لم تذهبي من هنا وبقيت مستلقيةً فسيتفسَّخ جسدك ويتحلَّل».

التفت إلى المشرفة وقال لها أن تتأكَّد من تنفيذ الأوامر، ثمَّ خرجنا جميعًا وأُغلق الباب. بقيت المرأة مستلقيةً على الأسفلت طوال اليوم. وعندما حلَّ اللَّيل قامت السَّجينات الأخريات بحملها وصعدن بها الدَّرج حتى وصلن إلى داخل الزِّنزانة. ولعدَّة شهورٍ لم تخرج تلك المرأة من زنزانتها، ولم تنهض من سريرها مطلقًا. علم الجميع بقصَّتها، وجميع وجبات الطَّعام كانت تصلها إلى سريرها، بينما كانت السَّجينات الأخريات يساعدنها في جلب الاحتياجات الأخرى. لا أحد يعلم متى نهضت من فراشها أوّل مرّة وبدأت تخدم نفسها بنفسها، ولكن بعد مرور سنةٍ من مجيئها بدأت تخرج من زنزانتها بالتَّدريج، وفي النِّهاية تابعت حياتها على نحوٍ طبيعيٍّ. وقعت هذه الحادثة قبل سنواتٍ، وما تزال تلك السَّجينة في سان كوينتن إلى الآن، ولكنَّها أصبحت منسيَّةً تقريبًا.

قسم «النِّساء»! مكانٌ إنسانيٌّ لطيفٌ ومريحٌ، ولكن هل هذا صحيحٌ حقًّا؟ سمعت هذا الادِّعاء من بعض الرِّجال. قالوا إنَّ النِّساء يشعرن بالرَّاحة في السِّجن لأنَّ الحياة في المنزل وملازمته أمرٌ معتادٌ لهنَّ. ولكن من تجربتي ومعرفتي بكثيراتٍ منهنَّ يمكنني القول إنَّ النِّساء كنَّ يشعرن بالضِّيق والاختناق وهنَّ محتجزاتٌ في الأقفاص الضَّيِّقة وراء القضبان المرصوصة بإحكام، وإنَّ عيونهنَّ كانت ملأى بتعابير مؤلمةٍ كعيون الذُّكور المحتجزين تمامًا.

طبعًا لم أحظَ بفرصة دخول قسم النِّساء التَّابع لسجن الولاية طوال فترة عملي، ولكن رأيت أكثر من سجينةٍ في مكتبي، وتأكَّدت بشكلٍ قاطعٍ من أنَّ حياة «العزلة الطَّبيعيَّة» وملازمة المنزل لم تجعلهنَّ سعداء، بل كنَّ تعيساتٍ

دائمًا وبَرِمات، فضلًا عن أنَّ بعضهنَّ قد تضرَّرن لإدراكهنَّ حجم الخزي الذي لحق بهنَّ من دخولهنَّ السِّجن. النِّساء خليطٌ لطيفٌ ورقيقٌ، وفكرة سَجن المرأة تُشعر أقسى الرِّجال بالغضب. وحتى الرِّجال الذين اعتادوا السِّجن، والذين يرون أهواله يومًا بعد يوم، يدركون فظاعة القضبان الحديديَّة الثَّخينة والنَّوافذ المتراصَّة حين تكون النِّساء خلفها.

في سجون كاليفورنيا ثلاثون «امرأةً مُدانة». ولا يوجد قسمٌ للنِّساء في سجن فولسوم. جميعهنَّ مسجوناتٌ في سجن سان كوينتن. إحدى أكثر الذِّكريات التي لازمت ذاكرتي عن قسم النِّساء كانت لفتاةٍ هنديَّةٍ شابَّةٍ حُكم عليها بالسَّجن لمدَّة سنةٍ واحدةٍ وهي من ولاية مودوك. كانت تعمل خادمةً وسرقت مخدومها. أظنُّني أعرف لماذا أقدمت على السَّرقة. ويمكنك أن تعرف ذلك أنت أيضًا بعد أن تسمع القصَّة.

القاضي الذي حكم عليها كان يجهل حقيقة عدم وجود قسمٍ للنِّساء في سجن فولسوم، فأرسل الفتاة إلى ذلك المكان، وكان العمدة جاهلًا بذلك أيضًا، فأخذها إلى هناك. طلب مكتب مشرفي السِّجن نقلها إلى سان كوينتن. وكنت أعمل على طاولتي في اللَّيلة التي وصلتْ فيها. كانت في سنِّ المراهقة، وكانت عيناها البنِّيَّتان ممتلئتَين بالخوف، ولكنَّ الأسوأ من هذا أنَّها كانت ستُسجَن. كان من الواضح لنا جميعًا أنَّ سَجنها أمرٌ ظالم. وكذلك كان الأمر بالنِّسبة إلى القاضي، ولكنَّه أرسلها بخجلٍ وندمٍ إلى هذا المكان. ولكن يجب ألَّا ننسى أنَّها سرقت بضعة دولارات. وكان القاضي متساهلًا معها، وحكم عليها بسنةٍ واحدةٍ فقط مع صغيرها الذي لم يولد بعد.

أشفق عليها الشُّرطيُّ اللَّيليُّ وأخذها إلى غرفةٍ جانبيَّةٍ قبل أن يتَّصل بالمشرفة على السَّجينات. عندما تغلق الحارسة بوَّابةَ قسم النِّساء فإنَّها تحصي عدد المُدانات في أثناء دخولهنَّ زنزاناتهنَّ، ثمَّ تذهب إلى بيتها في المساء، ولكن عندما تصل سجينةٌ جديدةٌ بعد الإغلاق، أو تمرض سجينةٌ في

اللَّيل، يقوم الأمين أو الأمينة بقرع جرس النِّداء اللَّيليِّ لاستدعاء الحارسة. وفي أثناء انتظارها في ذلك المساء، تحدَّث الحارس اللَّيليُّ مع الفتاة بلطف، وأجابت بإنجليزيَّةٍ ركيكةٍ وهي تتلعثم قليلًا. لا عجب أنَّ القاضي أرسلها إلى السِّجن فهي لم تكن تجيد التَّحدُّث بالإنجليزيَّة وكان نطقها ثقيلًا. عندما وصلت الحارسة أخذت الفتاة من يدها وذهبت بها إلى حيث ستُسجن. كان واضحًا أنَّ الفتاة ستصبح أمًّا عمَّا قريبٍ وكانت على شفا حفرةٍ من الانهيار؛ ولكنَّها تماسكت وعبرت الظَّلام بصمت.

بدأت إدارة السِّجن بتقديم طلب عفوٍ لها، ولكنَّ دراسة طلبات العفو كانت تستغرق وقتًا طويلًا، وولد الطِّفل قبل أن يتّخذ الحاكم إجراءً مناسبًا لها. رتَّبت المشرفة مع الآمر أن تتمَّ الولادة خارج السّجن عند أكواخ القابلات؛ ولكن بعد أيَّامٍ قليلةٍ لاحقةٍ عادت الأمُّ ووليدها إلى سجن النّساء، وكان الطِّفل أوَّل ذكرٍ يُسجَن هناك.

وبعد أسابيع قليلةٍ حصلت الأمُّ على العفو، وقامت بعض النِّساء اللَّواتي سمعن بقصَّتها بإعالتها ومدِّ يد العون لها. قد تظنُّ أنَّها حالةٌ استثنائيَّةٌ، ولكنَّها ليست كذلك. بعد شهورٍ قليلةٍ دخلت شابَّةٌ قادمةٌ من سان فرانسيسكو السِّجن وأصبحت أمًّا هناك. وُلد طفلها بين جدران السِّجن، ولكنَّ السُّلطات لم تتقصَّد ذلك، فهذه المرأة لم تكن تتحدَّث مطلقًا، ولم تتحدَّث عن حملها إلَّا عندما اقترب موعد ولادتها. نائب العمدة الذي أخذ هذه المرأة إلى المحكمة كان مسؤولًا عن حالتها، ومن المؤكَّد أنَّها كانت في السِّجن في سان فرانسيسكو عندما وضعت وليدها. يقال إنَّها أنجبت في اللَّيل قبل أن يحين موعد ولادتها. ولم يتَّخذ نائب العمدة أيَّ إجراءٍ لأجلها. كبر الطِّفل وهو يتنفَّس هواء السِّجن، وخرجت الأمُّ بعد أن قضت سنةً كاملةً في السِّجن بتهمة سرقة بضعة دولارات. ومرَّةً أخرى قامت النِّساء الخيِّرات بإعالة الأمِّ ووليدها؛ ولكنَّ الصَّغير توفِّي في غضون سنة.

يُساق الرِّجال إلى السِّجن لتنتهي حياتهم، بينما تُساق النِّساء إلى المكان نفسه ليُخرِجنَ حياةً جديدةً إلى داخله. سجن الولاية هو الشَّانق والعرَّاب معًا.

قسم النِّساء في سان كوينتن مكانٌ سيِّئٌ للنِّساء المتحدِّرات من بيوتٍ زاهرةٍ بالثَّقافة والأدب. عددٌ كبيرٌ من المحتَجَزات انهرن عقليًّا ونفسيًّا وفقدن كلَّ مشاعرهنَّ الرَّقيقة بسبب هذا العالم الرَّديء وتغيَّرت أخلاقهنَّ وكلامهنَّ إلى أسوأ ما يكون.

عندما تضطرُّ امرأةٌ كالآنسة بوتكين إلى العيش في بيئةٍ كهذه، يكون العقاب أمرًا قاسيًا جدًّا عليها ومريرًا. وأيًّا كانت جريمتها، من غير المنصف أن تعيش وتأكل بين نساءٍ تخافهنَّ وتختبئ منهنَّ. نساءٌ صغيراتٌ مريضاتٌ بهوس السَّرقة احتُجزن في سان كوينتن وأُرغمن على العيش في هذا المكان شهرًا بعد شهر، وسنةً بعد سنة. أعرف كثيراتٍ فضَّلن الموت على أن يُرسَلن إلى سان كوينتن بسبب جرائم صغيرة. حتى الفتيات الصَّغيرات اللَّواتي كنَّ في سنِّ المراهقة عانين هذه التَّجربة. من الواضح أنَّه لا توجد شابَّةٌ تستطيع أن تمرَّ بهذه التَّجربة القاسية وتخرج بالمستوى نفسه الذي كانت عليه أخلاقها وتعاليمها التي جاءت بها.

لباحة سجن النِّساء أسوارٌ عاليةٌ من كلِّ الجهات. وأرضها مغطَّاةٌ بالأسفلت، ولا تدخلها الشَّمس إلَّا في منتصف النَّهار. وسجنهنَّ أسوأ بكثيرٍ من سجن الرِّجال. تُجبَر السَّجينات على العمل في صنع الملابس للرِّجال القابعين في السِّجن، ولا يُسمَح لهنَّ بالخروج أبعد من باحة السِّجن، ولكن تحت إدارة الآمر هويلي والمشرفة الجديدة تغيَّر هذا الأمر وأصبح من المسموح أخذ السَّجينات للتَّجوُّل خارج جدران السِّجن وعلى تلال «مارِين» في الهواء الطَّلق وضوء الشَّمس. وكثيرًا ما كنَّ يعدن محمَّلاتٍ بالأزهار البرِّيَّة وبعض الخضروات. لسنواتٍ وسنواتٍ لم يعبأ مكتب العفو بأمر السَّجينات. ولكن تحت إدارة المشرفة الجديدة حصل عددٌ منهنَّ على العفو، وطبعًا خرجن وحاولن أن يكنَّ نسوةً صالحات.

قبل فترةٍ قريبةٍ جاءتني امرأةٌ حُكم عليها بالسَّجن سنتين في سان كوينتن. وفي ضوء هذه القصَّة يجب أن أقول إنَّ هناك أكثر من ثلاثين سجينةً في كاليفورنيا، يعتنى بهنَّ جيِّدًا وتتمُّ إعالتهنَّ بشكلٍ جيِّدٍ خارج جدران السِّجن، ولكنَّ تجربة هذه المرأة بتفاصيلها وملابساتها عمَّقت تجربتي وأغنتها. ويجب أن أذكر أيضًا أنَّ الحارسة التي تتحدَّث عنها والظُّروف التي تصفها هي عندما كانت سجينةً في ذلك الوقت، أمَّا الآن فقد تغيَّرت ظروف سجن النِّساء كثيرًا، ولأنَّها طلبت أن تظلَّ هويَّتها مجهولةً فمن الواجب عليَّ ألَّا أصف شكلها. يستطيع القارئ أن يتخيَّل امرأةً رصينةً ولن يكون مخطئًا أبدًا. سألتني في البداية إن كنت قد سمعت «بالمرأة التي رفضت أن تمشي وبقيت ممدَّدةً في زنزانتها ثلاثةً وثمانين يوما. فكِّرْ فيما قلت! بقيت في الظُّلمة ثلاثةً وثمانين يومًا على الخبز والماء فقط!».

سألتها: «هل أنت متأكِّدةٌ ممَّا تقولين؟».

أجابتني بثقةٍ: «متأكِّدة؟ كنَّا نحصي أيَّامها يومًا بيومٍ، وكنَّا نتراهن إن كانت ستخرج حيَّةً أو لا».

استعجلتُها بالسُّؤال: «ما رأيك في سان كوينتن؟ أخبريني بكلِّ شيءٍ كما حصل فعلًا. لا تبالغي في وصفك، لن يأتي هذا الأمر بنتيجةٍ، تحدَّثي عن حياتك هناك كما عشتها حقًّا».

أجابت: «سأصف لك كلَّ شيءٍ بالتَّفصيل كما هو دون زيادةٍ أو نقصان. سأخبرك بماذا شعرت بالضَّبط.

«عندما دخلتُ من البوَّابة الأماميَّة انشرح صدري لمرأى الحديقة المزدانة بالأزهار الجميلة والنَّافورة الرَّاقصة. غمرت السَّعادة قلبي عندما رأيت هذا المنظر. عندئذٍ فكَّرت: «ليس مكانًا سيِّئًا كما يقولون»، ولكن للأسف! عندما عبرت الحديقة ودخلت إلى قسم النِّساء أيقنت أنَّ أزهار الحديقة لم تكن لي.

ذكَّرني المكان بالزَّوايا الفارغة التي تقبع فيها الدِّببة المسكينة عندما تُسجَن وتقف بصمتٍ راجيةً حرِّيَّتها، وقبل أن أخرج تعلَّمت أنَّ الدِّببة كانت تعامل على نحوٍ أفضل منَّا بكثير، فهي تُمنَح الفستق الذي تحبُّه ولا يعنِّفها أحد.

«طول باحة السِّجن تسعون قدمًا تقريبًا وعرضها ستُّون قدمًا، ولكن في هذه المساحة تقع المباني. الأسوار التي يبلغ ارتفاعها نحو عشرين قدمًا لها لون المباني الباهت نفسه، ولا يمكننا أن نرى أيَّ منظرٍ طبيعيٍّ سوى قطعةٍ صغيرةٍ من السَّماء، وداخل السِّجن تقبع ثلاثون امرأة، بعضهنَّ حُكم عليه بالسَّجن مدى الحياة، ويا لها من حياة!

«يقع بيت الحارس على الهضبة، ويُبقي الحارس سلاحه معه طوال الوقت، وفي أيَّام الضَّباب والأجواء الماطرة يتجوَّل الحارس المسلَّح في الأرجاء طوال الوقت. على جانبَي الباحة مبانٍ تابعةٌ للسِّجن، وتوجد سلالم خارجيَّةٌ تؤدِّي إلى الزِّنزانات. هناك شجرة إجاصٍ متقزِّمةٌ بالقرب من وسط الباحة. النَّوافذ المسوَّرة تطلُّ على القاعة، وتضع الكائنات المسكينة المسجونة في هذا المكان نباتاتهنَّ المريضة على النَّوافذ، وتنمو النَّباتات في علبٍ حديديَّةٍ قديمةٍ وصدئةٍ يلفُفْنَها بالورق ليخفين صفات المزهريَّات الوحيدة التي يمكنهنَّ الحصول عليها. في هذه المباني الصَّغيرة توجد المغسلة وغرفة الطَّعام والمطبخ والمخازن والممرَّات والزِّنزانات، وأخيرًا وليس آخرًا الزِّنزانة السُّفليَّة. في الباحة ستجد حبال الغسيل الممدودة لتجفيف الملابس وتهوية البطَّانيَّات الخفيفة ذات الاستخدام اللَّيليِّ، وحاويات القمامة والخزَّان. أترك لك أن تتخيَّل المساحة التي بقيت للتَّرفيه والتَّمرين. يستطيع السُّجناء الرِّجال رؤية مياه النَّافورة والأزهار، ولكن لا تستطيع السَّجينات ذلك. لا تحتوي الباحة إلَّا على مقعدٍ واحدٍ للجلوس، ولا تسمح لنا المشرفة بأخذ الكراسي إلى الخارج لأنَّها تخاف أن نخدش الإسمنت. يوجد خزَّانٌ في غرفة الملابس أيضًا، قطره 18 إنشًا من الأعلى ويضيق نحو الأسفل حتى يبلغ قطر قاعدته

6 إنشات. في هذه الفتحة تُصَبُّ قاذورات الصَّباح، ولأنَّه لا يتَّسع لأكثر من ثلاث حاويات، كنَّا نضع القاذورات في فتحةٍ كبيرةٍ محفورةٍ في الإسمنت، لذلك كانت رائحة هذه الحفرة والغرف القريبة منها كريهةً جدًّا.

«كلَّ ليلةٍ تصبح الحفرة ملعبًا لمئات الجرذان الكبيرة. كانت تراكض وتصرصر طوال الوقت، وتسمن بسبب امتلاء القمامة، وتترك مخلَّفاتها على الدَّرج والأرض والسَّقف. رائحة الجرذان، والغازات السَّامَّة المنبعثة من الحفرة، ورائحة القمامة والقاذورات والحيوانات الميِّتة كانت أفظع رائحةٍ يمكن أن يشمَّها المرء في حياته. لا عجب أنَّنا كنَّا نعاني أمراضًا تنفُّسيَّةً دائمًا، وأستغرب أنَّنا استطعنا النَّجاة من كلِّ هذا.

«في الأعلى، هناك صفٌّ من الزِّنزانات، يبلغ طولها من سبع إلى عشر أقدام، وهي مزوَّدةٌ بنوافذ مغلقة. قد تكون هناك امرأتان وأحيانًا ثلاث نساء في الزِّنزانة نفسها. هياكل الأسرَّة كانت من خشبٍ مهترئٍ، وكنَّا نعاني عثَّ الفراش. الرجال لديهم هياكل أسرَّةٍ حديديَّةٌ، ويستطيعون مقاومة عثَّ الفراش بأن يغمروا هياكل أسرَّتهم بالزَّيت ويشعلون النَّار فيها. لم يكن لدينا طريقةٌ لمحاربة هذه الحشرات، وكنت أتعذَّب كلَّ ليلةٍ منها.

«كانت الخزائن والطَّاولات الموجودة في الزِّنزانات مصنوعةً من صناديق البقالة. ويوجد تقريبًا كرسيَّين في كلِّ زنزانة. يلتصق قُراد القشِّ بألواح هيكل السَّرير. الأغطية كانت بطَّانيَّات. ولم يكن هناك مخدَّات. كانت النِّساء يجمعن بقايا غرفة الخياطة ويخطن منها المخدَّات. لا توجد أيُّ مدفأةٍ في الزِّنزانات، فكُنَّا في الشِّتاء نذهب لننام قبل أن تغرب الشَّمس لنبقى دافئات.

«كانت هناك ثلاث زنزاناتٍ في نهاية الباحة أكبر بقليلٍ من التي تحدَّثتُ عنها، ولكن لم يكن يدخلها أيُّ شعاعٍ من أشعَّة الشَّمس، ولذلك كانت رطبةً وباردةً وتفوح منها رائحة العفن. فتحات النَّوافذ كانت مطلَّةً على الممرَّات أو

الباحة الخارجيَّة، ولكنَّ زجاج هذه النَّوافذ كان مطليًّا باللَّون الأبيض ولم نكن نستطيع فتحها، ولذلك كانت عديمة الفائدة لنا.

«قامت بعض النِّساء بإزالة الطِّلاء عن زجاج إحدى النَّوافذ باستخدام دبُّوس شعرٍ قمن بتمريره من الأُسْكُفَّة الخارجيَّة واستطعن عمل بقعةٍ خاليةٍ من الطِّلاء بحجم الفلس تقريبًا. كنت أرى النِّساء واقفاتٍ ينظرن بعينٍ واحدةٍ من هذه البقعة الصَّغيرة، يتأمَّلن طويلًا الأزهار التي في الأسفل. وكنت أشاركهنَّ النَّظر كلَّما تأتَّت لي الفرصة. الغاية من طلاء هذه النَّوافذ وإغلاقها هو منع النِّساء من رؤية السُّجناء الرِّجال؛ ولكنَّ هذا لم يمنعهنَّ من رؤية الرِّجال فحسب بل حرمهنَّ أيضًا ضوء الشَّمس والهواء.

«توجد غرفة جلوسٍ مفروشةٌ وفيها طاولةٌ قديمةٌ وموقدٌ معطَّلٌ بقائمةٍ مكسورةٍ وُضِعَتْ مكانها علبةٌ قديمة. كان موقدًا غريبًا جدًّا، لن أنساه ما حييت. بدلًا من أن يدفِّىء الغرفة في الشِّتاء كان ينفث فيها الدُّخان، كالمحرِّك البخاريِّ، وفي أيَّام الشِّتاء الحزينة، كان المكان يمتلئ بالدُّخان، ومن شدَّة الدُّخان كان الحلُّ الأمثل هو إطفاء الموقد والخروج. ولكنَّ غرفة الجلوس كانت المكان الوحيد الذي نستطيع التَّدفُّؤ فيه. يوجد في الغرفة نوافذ تطلُّ على باحة السِّجن الرَّئيس، وكانت كبقيَّة النَّوافذ مغلقةً ومطليَّةً من الخارج، فلم تكن هناك فرصةٌ ممكنةٌ للتَّهوية.

«تنفتح هذه الغرفة على غرفةٍ أخرى تضمُّ ماكينتَي خياطةٍ قديمتين. كانت هاتان الآلتان تتعطَّلان دائمًا؛ ولكن ما الذي يعنيه هذا؟ لقد وُضعنا هناك لنعاقَب، وطريقة عمل ماكينتَي الخياطة السَّيِّئتين كان جزءًا صغيرًا من العقاب. كانت الحارسة تتصرَّف وكأنَّها مفوَّضة الإله القدير شخصيًّا، وكانت تعرِّض النِّساء خلال مناوبتها لكلِّ ألوان الإذلال والإهانة. والحقيقة، كان هذا هو سلوك جميع المعيَّنات للإشراف على السَّجينات. كنَّا نعمل على هاتين

الماكينتين القديمتين لنصنع ملابس داخليَّةً للسُّجناء الرِّجال، وملابس أخرى كانت تأمرنا الحارسة بصنعها.

«كانت نوافذ غرفة الخياطة مطليَّةً ومغلقةً أيضًا، وكانت تُفضي إلى ممرٍّ طوله سبعون قدمًا تقريبًا وفي نهايته حمَّامٌ مغلقٌ دائمًا، بحيث لا يستطيع أن يدخله أحد. من النَّادر وجود مياهٍ دافئةٍ للاستحمام، لذا تقوم السَّجينات بتسخين الماء على الموقد الدُّخانيِّ الذي وصفته، وكنَّ يحملن الدِّلاء إلى زنزاناتهنَّ. لا توجد قوانين تحدِّد كيفيَّة استخدام أحواض الاستحمام، وعلمت أنَّ هناك سجينتَين لم تغتسلا أبدًا منذ سنتين. النَّوافذ في هذا الممرِّ كانت مطليَّةً ومغلقةً أيضًا، بحيث لا تصل نسمة هواءٍ واحدةٌ إلى الحمَّام أو حوض الاستحمام.

«في أوقات الزِّيارات كان يصلنا تحذيرٌ بأن تكون جميع الزَّنازين مرتَّبة. فكنَّا نخبِّئ جميع البطاقات بعيدًا عن الأنظار، وكذلك السَّجائر وأعواد الثِّقاب. يزورنا عددٌ من أعضاء المكتب، ويتجوَّلون في الممرَّات، يتأمَّلون أفضل الزِّنزانات، ولا يتكشفون أيَّ خطأ. كانت الحارسة تتبعهم كظلِّهم، وكنَّا لا نستطيع الكلام أو الشَّكوى أمام الزُّوَّار، فعاقبة ذلك كانت دائمًا العقاب.

«كانت غرفة الطَّعام بمساحة 2030 قدمًا تقريبًا، وفيها بابٌ يؤدِّي إلى غرفة الغسيل. هناك طاولتان مغطَّاتان بقماشٍ أخضر، بينما كانت أواني تناول الطَّعام ثقيلةً وقديمة. وكانت خزانة حفظ اللَّحم في أقصى الزَّاوية الشَّماليَّة من الغرفة، وهي منفصلةٌ بضعَ إنشاتٍ عن الجدار القديم المشبَّع بالتَّسرُّبات. بالقرب من النَّافذة الشَّرقيَّة كانت هناك سلَّةٌ للنُّفايات، وعلى بعد بضع أقدامٍ من جدار السِّجن كنَّا نعلِّق ثلاثين أو أربعين دلوًا لقضاء الحاجة.

«جميع السَّجينات يكنَّ موجوداتٍ في غرفة الطَّعام عند وجبة الإفطار، ويُسمَح لنا بالكلام، ولكن في وجبة الغداء يعمُّ الصَّمت ولا نسمع سوى قرقعة السَّكاكين والشُّوَك وصوت دوران مطحنة الجوت البعيدة. في وقت

العشاء يحدث تزاحمٌ كبيرٌ أمام أواني الطَّعام، وبعض السَّجينات يأخذن وجبتهنَّ للأعلى ويأكلنها في الزِّنزانة. وفي تمام السَّاعة الرَّابعة والنِّصف عصرًا تُغلَق أبواب الزَّنازين علينا، وتجلس النِّساء التَّعيسات منتظراتٍ وحشة اللَّيل الطَّويل.

«المطبخ مكانٌ مظلمٌ، ورائحته كريهة، وفيه الكثير من الفتحات الأرضيَّة، حيث تجد الجرذان مدخلًا جاهزًا لها، وفي الطَّابق السُّفليِّ تزجُّ الحارسة بالنِّسوة المعاقبات في الوقت الذي تختاره، دون أن تمنحهنَّ أيَّ فرصةٍ للدِّفاع عن أنفسهنَّ. إحدى المعاقَبات لم تقف على قدميها لسنواتٍ بعد أن احتُجزت هناك ثلاثةً وثمانين يومًا لأنَّها أصرَّت على الحصول على ورقةٍ تثبت ممتلكاتها التي أُخذت منها عندما أتت إلى السِّجن. لوقتٍ قصيرٍ وُضعت السَّجينة في السُّترة. نعم، يستخدمونها على النِّساء أيضًا كما يستخدمونها على الرِّجال. بلا نورٍ ولا ماءٍ ولا فوطٍ. هذه المرأة لم تستطع الحراك حتى زحفًا، ولكنَّها نجت. هي مثالٌ حيٌّ على قدرة الإنسان الكبيرة على التُّحمُّل. أخرجوها إلى النُّور أخيرًا، وأعطوها زوجًا من العكَّازات، وطلبوا منها أن تقوم بعمل عرواتٍ لأزرار قمصان الرِّجال التي صنعتها السَّجينات. وبعد أن اعترضت بكلماتٍ بسيطةٍ طرحتها الحارسة أرضًا وأعادتها إلى السِّجن الانفراديِّ لثلاثة أشهرٍ أخرى. كان طعامها الخبز والماء فقط.

«عندما خرجت مرَّةً أخرى لم يُسمَح لها باستخدام عكَّازتيها. كانت طريقتها الوحيدة للحركة هي الزَّحف على الأرض، وفي الأيَّام الممطرة لم تكن تخرج أبدًا. كانت تعتمد على طيبة السَّجينات الأخريات اللَّاتي كنَّ يخاطرن بالعقاب لأجلها لأنَّهنَّ ممنوعاتٌ من تقديم الطَّعام لها.

«لم تكن تلك السَّجينة الوحيدة التي عوقبت بالسُّترة، فقد كانت هناك أيضًا امرأةٌ كبيرةٌ بالسِّنِّ وفتاةٌ لا يتجاوز عمرها السَّادسة عشرة، وقد وُضعت هذه الأخيرة في الزِّنزانة السُّفليَّة لأنَّها كانت عصبيَّةً جدًّا ولكنَّها مرضت بشدَّةٍ

خلال اللَّيل. كان بكاؤها مسموعًا للحرس اللَّيليِّ، فدخل أحدهم وأخرجها ووضعها في زنزانتها. غضبت الحارسة عندما علمت بذلك في الصَّباح، ولكنَّها لم تُعِد الفتاة إلى الزِّنزانة السُّفليَّة مرَّةً أخرى. وهناك سجينةٌ عوقبت بالسُّترة لمدَّة يومين لأنَّها لم تُجِد حياكة تنُّورةٍ ملائمةٍ للحارسة، وفي شباط من سنة 1909، أُدخلت امرأةٌ عجوزٌ الزِّنزانة السُّفليَّة وعوقبت بالسُّترة لأنَّها ادَّعت العثور على رسالةٍ مطبوعةٍ على الآلة الكاتبة هرَّبتها المشرفة من أحد السُّجناء الرِّجال لتسلِّمها لإحدى الفتيات السَّجينات.

«الكثير من النِّساء الأخريات وُضعن في الزِّنزانة السُّفليَّة لأسبابٍ تافهة، مع أنَّ هناك بعض السَّجينات اللَّواتي يتشاجرن دائمًا مع النِّساء المظلومات ويشوِّهن صورتهنَّ وسمعتهنَّ ولم يعاقَبن قطُّ على تلك التَّصرُّفات. لماذا لا تصل هذه الأمور إلى الآمر؟ أتعلم؟ عندما يُغلَق باب السِّجن على السَّجينة فإنَّها تصبح منسيَّةً كالموتى، وتُمنَع من التَّواصل مع الضُّبَّاط. وإذا طلبت أن ترى الآمر تقف لها الحارسة وتقول: أنا الآمر هنا؛ لن أهينه بإبلاغه أنَّ شخصًا مثلك يريد محادثته.

«أحد اسوأ الأمور التي كانت تقوم بها الحارسة هي أنَّها كانت تقرأ مضمون الرَّسائل أمام جميع السَّجينات. بعض تلك الرَّسائل كان خاصًّا جدًّا، ورأيت بعض النِّساء يبكين بمرارةٍ بعد تعرُّضهنَّ لذلك الإحراج. كنَّا ممنوعاتٍ من قراءة الصُّحف التي تصدر في ولاية كاليفورنيا، ولكنَّ الحارسة كانت تجلب لنا قصاصات الأجزاء المفضَّلة لديها من وقتٍ لآخر، وكانت تقتطعها من صفحة الحوادث وتتعمَّد أن تُطلعنا على أسوأ القصص لنأخذ العبرة منها.

«سأذكر لك حادثةً حزينةً وقعت لسجينةٍ اسمها كورديليا بوتكين. ماتت كورديليا في زنزانتها إثر سكتةٍ دماغيَّةٍ، وكان ذلك متوقَّعًا لشدَّة العذاب الذي كابدته. سواءٌ أكانت كورديليا مذنبةً أم لا، فهي في النِّهاية بشرٌ، وأنا أؤمن بأنَّ الرَّبَّ غفورٌ رحيم. لقد عاشت تلك السَّجينة أهوال الجحيم قبل أن تموت.

«العمل لم يكن أكبر المصائب، فالحياكة وفرك الارض وتنظيف النَّوافذ وواجبات التَّدبير العاديَّة أمورٌ اعتدنا تقبُّلها وتحمُّلها. ولكن كان على كلِّ سجينةٍ أن تغسل ملابسها بنفسها، والماء الحارُّ كان نادرًا، فكنَّا نحتاج دائمًا إلى ملابس جديدةٍ بعد أن تهترئ ملابسنا من رداءة الغسيل. تُمنَح كلُّ سجينةٍ قميصًا وسروالًا وزوجين من الملابس الدَّاخليَّة الرَّخيصة كلَّ ستَّة شهور؛ والويل للمرأة التي تجرؤ على طلب حصَّةٍ إضافيَّة.

«أتذكَّر سجينةً كانت تنتظر وصول حصَّتها في نيسان، ولكنَّها لم تصل في الموعد المحدَّد، وظلَّت تلك السَّجينة عشرة أشهر تستخدم غيارين فقط. لم نكن نطلب أكثر من حاجتنا، حتى ونحن نعمل طوال الوقت على خياطة التَّنانير وقمصان النَّوم لنساءٍ خارج السِّجن.

«عندما تدخل امرأةٌ السِّجن، تقول لها المشرفة إنَّ إدارة السِّجن ستتلف ملابسها التي قدمت بها، فتضطرُّ السَّجينة إلى التَّخلِّي عن كلِّ شيءٍ تحمله في جعبتها، ويقدَّم لها في غرفة الملابس غياراتٌ مستعملةٌ وقديمةٌ وحذاءٌ ثقيلٌ وقاسٍ على الأقدام، وحتى هذه الأحذية كان من الصَّعب الحصول عليها. رأيت نساءً يمشين حافياتٍ وهنَّ ينتظرن قدوم الحارسة، وإن صادف وكانت الحارسة غاضبةً فإنَّها توبِّخ السَّجينة لأنَّها دخلت دون حذاءٍ إلى غرفتها، وفي تلك الحالة لا تحصل السَّجينة على حذاءٍ حتى لو توسَّلت وبكت.

«تزوِّد الولاية قسم النِّساء بتشكيلةٍ كافيةٍ من مستلزمات الطَّعام، ولكنَّ الطَّبخ كان سيِّئًا جدًّا، لدرجة أنَّنا كنَّا نعاني من مشاكل واضحةٍ في المعدة. لم يكن للطَّبَّاخة مزاجٌ جيِّدٌ في إعداد الطَّعام ولكنَّ المشرفة كانت تحبُّها، وبسببها كان تناول الطَّعام مهينًا لنا، فلم تكن تزوِّدنا إلَّا بأقلِّ الكمِّيَّات وأردئها، وغير ذلك من الأمور التي لا يمكن كتابتها على الورق، وكانت المشرفة تعرف ذلك، ولكنَّها بدلًا من أن تمنعها كانت تردِّد عليها أفعالها وتضحك كما لو أنَّها تلقي دعابةً ما. لم أكن أتذوَّق الحساء قبل أن أرى الطَّبَّاخة تجرِّبه أوَّلًا.

«عندما تمرض إحدى السَّجينات كنَّا نشفق عليها، فالمشرفة ترى أنَّ السَّجينات يدَّعين المرض ليتهرَّبن من الأعمال الموكلة إليهنَّ، وكانت المريضات يعانين بصمتٍ ولمدَّةٍ طويلةٍ قبل أن تتيقَّن المشرفة من حقيقة مرضهنَّ وتطلب المساعدة الطِّبِّيَّة. كان الطَّبيب قاسيًا جدًّا، لدرجة أنَّ أغلب المريضات كنَّ يتجرَّعن ألمهنَّ حتى يتمكَّن المرض منهنَّ تمامًا ولا يضطررن إلى مقابلته. عندما يُستدعَى الطَّبيب إلى قسم النِّساء يؤخذ أوَّلًا إلى مكتب المشرفة وتُطلعه على حالة المريضة. في إحدى المرَّات قال لامرأةٍ عجوزٍ تعاني الرُّوماتيزم إنَّ علاجها هو شرب الخلِّ، وفي مرَّةٍ أخرى استُدعيَ ليعالج فتاةً صينيَّةً في السَّاعة الثَّامنة مساءً ولكنَّ المشرفة طردته بعد أن صبَّ عليها غضبه وشتمها بأقذع الشَّتائم. كان يأتينا مخمورًا، وكان يبصق في كلِّ اتِّجاه. وفي حادثةٍ مؤلمةٍ تسبَّب في موت فتاةٍ هنديَّةٍ مسكينةٍ اسمها جونيتا. كانت هذه المخلوقة اللَّطيفة تعمل كالآلة في المطبخ، وكانت الطَّاهية النِّيجيريَّة تأمرها بفعل كلِّ شيء. كانت تحمل ركام الفحم الثَّقيل، وتشعل النَّار، وتفرك الأرضيَّة، وتحمل الطَّناجر الثَّقيلة من على الفرن، وتجرف الرَّماد، وتنظِّف المقالي المتَّسخة. وفي شباط من سنة 1909، اشتكت جونيتا من آلامٍ حادَّةٍ في خاصرتها، فاستُدعي الطَّبيب لفحصها وبعد مقابلةٍ قصيرةٍ قال إنَّها تدَّعي المرض وتحاول التَّهرُّب من العمل. بعد أسبوعين أغمي عليها وهي تعمل، ولم تستطع النُّهوض من الفراش، وحُملت على سريرٍ نقَّالٍ في شهر نيسان. عندما رأوها تلفظ أنفاسها، حاولوا كلَّ جهدهم أن يعالجوها، ولكن بلا فائدة. قبل أن تموت قالت لإحدى النِّساء الهنديَّات إنَّ الطَّاهية هي التي قتلتها.

«قيل لي إنَّ الولاية تخصِّص مبلغًا يتروح بين خمسين ومِائة دولارٍ للعناية بالمرأة التي تضع وليدًا في السِّجن. وفي عام 1907 دخلت شابَّةٌ ألمانيَّةٌ اسمها ليزي السِّجن. كانت ليزي تنتظر مولودها الأوَّل، وقضت عدَّة شهورٍ في مخفر كاليفورنيا محفوفةً برعايةٍ لطيفةٍ ومريحة، وعندما وصلت إلى سان كوينتين

كانت حالتها جيِّدةً جدًّا، ولكنَّ حالتها أخذت تتدهور بسبب قلَّة الرِّعاية التي حصلت عليها في السِّجن، وعندما اقترب موعد ولادتها أخبرت الممرِّضة المشرفة بضرورة إرسالها إلى المستشفى، ولكنَّ المشرفة رفضت ذلك وتعاملت مع الموضوع على أنَّه نكتةٌ سخيفة، وسمعتُها تقول للممرِّضة: «أوه، دعكِ منها، إنَّها لصَّة، ولن تنجب إلَّا لصًّا»، وبسبب رفضها اضطرَّت الممرَّضة إلى توليد السَّجينة بنفسها، وخرج الطِّفل بحالةٍ سيِّئةٍ انتهت بموته.

«أمَّا عن الخدمة الدِّينيَّة، فقد كان هناك قسٌّ كاثوليكيٌّ يزور سجننا مرَّةً كلَّ ثلاثة أشهر، وكنَّا ننتظر قدومه بفارغ الصَّبر، فقد كانت مواعظه ملهمةً جدًّا، ولكن في يومٍ من الأيَّام قرَّرت المشرفة أنَّ سان كوينتين ليس مكانًا دينيًّا وأنَّ عمل النِّساء أفضل لهنَّ من قراءة الإنجيل، ومنذ ذلك اليوم لم نعد نرى القسَّ أبدًا. بعض السَّجينات اللَّاتي شهدن هذه الواقعة ما يزلن في السِّجن، وبإمكانهنَّ أن يشهدن عليها إن تجرَّأن على ذلك.

«كانت المشرفة تمتلك حسًّا فكاهيًّا قويًّا. وأذكر أنَّها كانت تسخر دائمًا من امرأةٍ عجوزٍ محكومٌ عليها بالمؤبَّد، وفي يومٍ من الأيَّام رفعت هذه العجوز طلب عفوٍ وكانت قلقةً من سماع نتيجة الطَّلب التي قد تخيِّب أملها. استغلَّت المشرفة هذا الأمر ودبَّرت خدعةً لتوهم السَّجينة بأنَّها قد حصلت على العفو، وطلبت من موظَّف المكتب أن ينادي بصوتٍ عالٍ أنَّ هناك 18 رجلًا وامرأةً واحدةً قد حصلوا على الموافقة، وعندما سمعت السَّجينة العجوز نداءه فرحت كثيرًا لدرجة أنَّها ركضت خلف المنادي وأخذت تصرخ: «من هي تلك المرأة؟ من هي تلك المرأة؟»، ولكنَّها اكتشفت في الصَّباح أنَّ الأمر كلَّه مجرَّد خدعة، وأصيبت بخيبة أملٍ كبيرةٍ لم تتعافَ منها أبدًا.

«لا توجد امرأةٌ تركت سان كوينتن كما دخلت إليه. لا توجد أيُّ فرصةٍ هنا للتَّحسُّن. الرُّعب الدَّائم الذي عشنا فيه، الشَّتائم واللُّغة البذيئة التي أُجبرنا على سماعها، الإهانة والعنف اللَّذان اضطررنا إلى تحمُّلهما بصمت، الموت

الذي كنّا نراه يوميًّا، كلُّ هذه الأمور جعلت منّا نساءً قاسيات القلوب، بلا أملٍ أو رغبةٍ في الحياة. من المؤكَّد أنّه لو عرف القاضي أنّه يرسل النِّساء إلى مكانٍ مُهلكٍ كهذا لبقي نادمًا على حكمه طوال حياته. إنَّ ذنب القاضي أعظم من ذنب الضَّحيَّة التي حكم عليها.

«قد يقول شخصٌ إنَّ المجرمات يجب أن يعاقَبن، وقد يكون هذا صحيحًا، ولكن ألا يكفيهنَّ أن يُحرَمن منازلهنَّ، وعائلاتهنَّ، وشرفهنَّ؟ هل يجب فوق ذلك أن يقاسين العذاب؟ ألا يمكن أن تكون لهنَّ على الأقلِّ الامتيازات نفسها التي يتمتَّع بها الرِّجال؟ لماذا ليس في سجن النِّساء أرضيَّةٌ بدلًا من الأسفلت والخشب؟ لماذا لا يُعطَين ملابس كافيةً حتى يشعرن بالدِّفء؟ لماذا لا يعامَلن كمخلوقاتٍ بشريَّة؟

«وفضلًا عن عادة كشف مضمون الرَّسائل المرسَلة إلى السَّجينات أمام الملأ، كانت المشرفة تتجسَّس على أبواب الزَّنازين لتعرف ما الذي يُقال عنها. وفي بعض الأوقات كانت تشعل الفتنة بين السَّجينات، وتحصل على جاسوسةٍ جديدةٍ كلَّ أسبوعٍ لتخبرها بكلِّ ما يحدث. وإن رأت الجاسوسة أنَّها غير نافعةٍ لها، وليس لديها أخبارٌ جديدةٌ، فإنَّها تشعر بالخوف من عقابها، وتقوم بافتعال مشكلةٍ بين السَّجينات حتى تبقى الجاسوسة المفضَّلة لدى المشرفة لأطول مدَّةٍ ممكنة. هذا النِّظام المريض كان يدفع السَّجينات إلى التَّفكير بالانتحار.

«أحيانًا عندما تغضب المشرفة من واحدةٍ منّا كانت لا تكلِّمنا ولا تعيرنا انتباهها لأسابيع. ولا تتجرَّأ أيٌّ منّا على أن تسألها عن السَّبب، لأنَّها تعرف أنَّ سؤالًا كهذا سيجلب عليها ألوانًا عديدةً من العذاب والأذى، وحتى لو التزمت السَّجينة الصَّمت حيال غضب المشرفة فإنَّها لا تكفُّ عن إيذائها بل تزداد ضراوةً وعنجهيَّة، وإن ارتكبت أيَّ هفوةٍ صغيرةٍ فستطلق عليها المشرفة عاصفةً من الشَّتائم والألفاظ البذيئة.

«كما تعلم، تكون الشَّابَّات اليافعات بريئاتٍ عندما يدخلن السِّجن، ولكنَّهن شيئًا فشيئًا يتعلَّمن التَّدخين والمقامرة وغيرهما من القبائح التي لا يمكنني ذكرها، تدفعهنَّ إلى ذلك السَّجينات الأشدُّ قسوةً والأكثر شرًّا وخطورة، وهكذا تخرج السَّجينات بأقبح الأخلاق، وكانت المشرفة تفرح برؤية هذا التَّحوُّل السَّيِّئ وتخبر الشَّابَّات بأنَّهنَّ لن يخرجن من دوَّامة العار أبدًا. المستضعفات منهنَّ يتأثَّرن بهذا الحديث وطبعًا يفقدن الأمل ويشعرن بأنَّهنَّ سيبقين منبوذاتٍ إلى الأبد، وعاجزاتٍ ككثيراتٍ غيرهنَّ، ويحاولن بطرقٍ شتَّى أن يعشن هذه الحياة بأقلِّ ما يمكنهنَّ فعله.

«تستخدم بعض السَّجينات بقايا الأقمشة لحياكة الملابس لأنفسهنَّ. عددتُ الخرق المحبوكة في الثَّوب الواحد ووجدتها 247 قطعة. وبالطَّبع تكون خطوط الغرز في هذا النَّوع من الملابس واضحةً للغاية، وفي يومٍ من الأيَّام منعتنا المشرفة من وضع هذا النَّوع من الملابس في الغسيل لأنَّه يعطِّل غسَّالات السِّجن.

«في الأيَّام العاديَّة كان الحجز اللَّيليُّ يبدأ في الرَّابعة والنِّصف عصرًا، ولكن في يوم الأحد وأيَّام العطل كنَّا نعود إلى زنازينا في الثَّامنة والنِّصف مساءً، وتُفتح الأبواب دائمًا في السَّابعة صباحًا، وقبل أن يحين موعد فتح الزَّنازين كانت النِّساء يتحادثن في ساحة الفناء ويتداولن بعض القصص التي يسمعنها، وتلك القصص كانت تجعل الدَّم يتجمد في العروق، وكانت الفتيات التَّعِسات مضطرَّاتٍ إلى سماع تلك الأحاديث، ومن معرفتي نفسي يمكنني القول إنَّني أفضِّل أن أقتل ابنتي على أن أتركها تقضي أسبوعًا واحدًا في بيئةٍ كهذه.

«متى ما سُجنت امرأةٌ جديدةٌ تمتلك مهارةً في أعمال الحياكة فإنَّهم يعيِّنونها مباشرةً في العمل بحياكة ملابس المشرفة. على حدِّ علمي وصلت المئات من الياردات المحاكة إلى كوخها فوق الهضبة التي تطلُّ على السِّجن.

انكبَّت السَّجينة (روز بِيْ) لمدَّة سنتين على حياكة فساتينها المطرَّزة، بينما تخصَّصت السَّيِّدة بوتكين في حياكة شالات الصُّوف، مستخدمةً لذلك أدوات تناول الطَّعام وما توفَّر لها من الأدوات المناسبة. وفي مرَّةٍ من المرَّات قضت إحدى السَّجينات ثلاثة أشهرٍ في حياكة قطعةٍ واحدةٍ وقدَّمتها هديَّةً للمشرفة لتحصل على رضاها، ولكن لم يُجدِ ذلك نفعًا. أمَّا من ناحيتي، فقد تبرَّعت لها مرَّةً بمترٍ كاملٍ من الحرير المخمل الذي كنت أرتديه عندما دخلت السِّجن، وما هي إلَّا أشهرٌ معدودةٌ حتى أخذت نصيبي من عقاب الزِّنزانة السُّفليَّة، وهذا ما كنت أستحقُّه لأنَّني كنت سهلةً جدًّا. (روبي سِيْ) كان تمتلك عدَّة أمتارٍ من الكتَّان الأصليِّ الذي أرسلته لها إحدى صديقاتها، وأقنعتها المشرفة بأن تتخلَّى لها عنه مع قميصٍ جميلٍ حاكته بنفسها. (غرايس جِيْ) كانت دائمًا مشغولةً بصناعة أجود أنواع الحرير المحاك، وقامت بعمل ما لا يقلُّ عن ستِّ قطعٍ لها. بالمقابل لم تحصل أولئك النِّسوة إلَّا على القليل من الامتيازات. وفي بعض الحالات كنَّ يتعرَّضن للعقاب دون مساءلة.

«في إحدى المرَّات رتَّبت المشرفة عمليَّة وصول بعض الكتب من مكتبة الرِّجال. ومباشرةً أعطت مهمَّة الإشراف على مكتب أمينة المكتبة لإحدى أسوأ النِّساء المعتقلات في سجننا. استحوذت السَّجينة على مجموعة الكتب الجديدة، وتركت لنا ما لا يسرُّ من العناوين والكتب الرَّديئة.

«هناك سجينةٌ نيجيريَّةٌ تعاني الخرف، سُجنت في زنزانتها أربع سنوات. قبل شهرٍ من انتهاء محكوميَّتها التي قضت منها عشر سنوات، سيقت من زنزانتها ونُقلت إلى مصحَّة الأمراض العقليَّة، وبعد فترةٍ قصيرةٍ من وصولها إلى هناك تهجَّمت على إحدى الممرِّضات بالمقصِّ، وبعد أسبوعين من إطلاق سراحها فارقت الحياة. من المؤكَّد أنَّها كانت مجرمةً، ولكن لماذا بقيت محبوسةً في زنزانتها أربع سنواتٍ قبل أن تُنقَل إلى المصحَّة؟

«تُمنع السَّجينات من تلقِّي الطَّعام من الخارج. هذا القرار بدا لي دائمًا

غير منطقيٍّ. سيفرح الكثير من أقرباء السَّجينات إن سُمح لهم بإدخال الطَّعام لقريباتهم، وأنا أؤمن بأنَّنا إن سمحنا للسَّجينات بعمل الأمور التي يحببنها فسوف يشعرن بالأمان وسيلتزمن بطريق الاستقامة والفضيلة. قد تتساءل لماذا لم تتحدَّث السَّجينات عن هذه الأمور من قبل؟ أحد أهمِّ الأسباب هو أنَّهنَّ كنَّ خائفاتٍ من العقاب، ومعظمهنَّ كنَّ غير متعلِّمات، ولكن هناك دائمًا شخصٌ ما عليه أن يكون أوَّل مَن يُدخل النُّور إلى الأماكن المظلمة.

«في التَّاسع من حزيران من سنة 1909 أخبرتُ الآمر بكلِّ هذه الحقائق ووعدني بأن يباشر التَّحقيق فيها. وفي الأوَّل من شهر كانون من السَّنة نفسها طُردت المشرفة من وظيفتها. وعرفت أنَّ ظروف السِّجن قد تحسَّنت كثيرًا منذ ذلك الوقت؛ ولكنَّني متأكِّدةٌ من أنَّ من الممكن أن تتحسَّن أكثر. كامرأةٍ عانت، وكشخصٍ يعرف أنَّ مكانًا كهذا لا يخلِّف إلَّا الكره والرَّغبة في الانتقام، أتمنَّى من نساء كاليفورنيا أن يسعين جاهداتٍ إلى التَّغيير ويطالبن بتهيئة ظروفٍ أفضل للسَّجينات.

«أودُّ أن أؤكِّد لك يا سيِّد لوري أنَّني لا أتحدَّث من حقدٍ أو شرٍّ أو انتقامٍ تجاه أيِّ شخص. أشعر بأنَّني سدَّدت ديني للولاية بشكلٍ تامٍّ، وأعرف أنَّني عانيت جدًّا من رؤية آثار معاناة الآخرين بالقدر نفسه الذي عانيت به، ولكنَّني آمل أن تكون هناك نتيجةٌ مثمرةٌ ممَّا أخبرتك به، وأن تحصل النِّساء اللَّاتي أدخلهنَّ حظّهنَّ السَّيِّئ السِّجن على جميع الفرص والامتيازات التي تستحقُّ كلُّ امرأةٍ الحصول عليها».

الفصل الرَّابع والعشرون

خلال الأسابيع التي تلت الهزَّة الأرضيَّة، تدهور نظام السِّجن المعتاد إلى أن بلغ أسوأ حالاته، وكانت تلك التَّجربة مريعةً بالنِّسبة إلى المساجين؛ مريعةً لدرجة أنَّ تجارب الآخرين لا تستحقُّ أن تُروَى إن هي قورنت بها.

لأيَّام بعدها ظلَّت أفران السِّجن حارَّةً والخبز يُخبَز من الصَّباح إلى اللَّيل ليقدَّم للَّاجئين الذين نزحوا إلى سان فرانسيسكو، وقامت إدارة السِّجن بتقديم البطَّانيَّات الفائضة للمحتاجين.

في ذلك الصَّيف أصدرت الولاية قرارًا بأن تُزال الهضبة الموجودة خلف السِّجن ليُخصَّص موقعها لتشييد مبانٍ جديدة. كان عملًا كبيرًا وتطلَّب توظيف الكثير من الرِّجال.

انحدر تعداد سكَّان سان كوينتن بعد الهزَّة الأرضيَّة ولم يكن هناك سجناء بالعدد الكافي لتلبية متطلَّبات العمل الجديد، وكان الجميع يعمل في مطحنة الجوت أو في غرف السِّجن المختلفة، لذا طلب مكتب مشرفي سجناء الولاية نقل خمسين سجينًا من سجن فولسوم إلى سجننا، ووصل أولئك السُّجناء في 8 حزيران 1906 على متن باخرةٍ أبحرت في نهر ساكرامينتو، مكبَّلين بالسَّلاسل بعضهم مع بعضٍ، وتحت حراسة ضبَّاطٍ مسلَّحين. كان السُّجناء يرتدون زيًّا مخطَّطًا. وطبعًا في ظلِّ نظامٍ سيِّئٍ كهذا، كان يجب حراستهم عن كثبٍ؛ ولكن إن حدث شيءٌ للسَّفينة فسيغرق جميع السُّجناء المكبَّلين بتلك السَّلاسل.

طبعًا لم يكن جميع السُّجناء الذين تمَّ اختيارهم سيِّئي السُّمعة؛ ولكنَّ المسؤولين في فولسوم حكموا بأنَّهم كذلك. وفي الواقع، اتَّضح فيما بعد أنَّ بعضهم كانوا رجالًا رائعين وقد تعرَّفت على الكثير منهم شخصيًّا وأعدُّهم من أفضل الرِّجال الذين قابلتهم.

وصل السُّجناء إلى سان كوينتن بالثِّياب المخطَّطة الشَّنيعة التي يرتديها سجناء فولسوم. في سان كوينتن كانت خطوط ثياب السُّجناء بعرض إنشٍ وربع الإنش تقريبًا وتمتدُّ عموديًّا. أمَّا في فولسوم فكانت الخطوط بعرض ثلاثة إنشاتٍ وتمتدُّ أفقيًّا. الخطوط العموديَّة تُظهر الرِّجال أطول قامةً ممَّا هم عليه، بينما الخطوط الأفقيَّة، وخاصَّةً العريضة منها، فتُظهرهم أقصر قامةً ممَّا هم عليه.

عندما وصل السُّجناء بدوا قصار القامة، ممتلئين ومقزِّزين. كلُّ أوصاف المتَّهمين التي تذكرها المجلَّات وغيرها من الصَّفحات الإعلاميَّة تركِّز على الخطوط الأفقيَّة لأنَّها تُزري من منظر المتَّهمين وتجعلهم أكثر قبحًا وإثارةً للاشمئزاز. هؤلاء السُّجناء لم يستلموا ثياب سان كوينتن؛ بل أُرسلوا مباشرةً إلى العمل، وانضمُّوا إلى بقيَّة السُّجناء بثيابهم القديمة. وكان هذا بغيةَ توفير الثِّياب الموجودة في المخزن، لأنَّ إدارة السِّجن كانت ستتكلَّف خمسين بدلةً جديدةً لو منحتهم إذنًا بتغيير ثيابهم القديمة، فارتأوا أن يتركوهم بملابسهم السَّابقة حتى تهترئ تمامًا.

كان من الممكن أن ترسَل ثياب فولسوم إلى فولسوم وتُستخدم ثياب سان كوينتين بدلًا منها، وما كانت الولاية لتخسر شيئًا لو حصل ذلك، ولكنَّ أحدًا لم يفكِّر بهذا الأمر. تلك الخطوط المرسومة كالحلقات جعلت رجالَ فولسوم يبدون أشرارًا جدًّا، وبعد بضع أيَّامٍ اتَّضح لنا كم كانوا يشعرون بالخزي والعار بسببها. استخدم بعضهم الطِّين لتغيير ملامح ملابسه، ولكنَّ الأكثر حنكةً والأشدَّ حذرًا منهم لم يُقدِموا على فعل ذلك واستغلُّوا سمعة

فولسوم لشهور، وظلُّوا يهتمُّون بثيابهم المخطَّطة لما تمَّ تداوله عن رجال فولسوم بأنَّهم أقوياء وصِعابُ المراس، وأرادوا أن يستمتعوا بهيبة انضوائهم تحت لواء هذه الفئة أطول وقتٍ ممكن.

من بين هؤلاء الخمسين كان هناك مجموعةٌ من السُّجناء الخطرين، ولم تذكر إدارة فولسوم شيئًا عنهم. أحد هؤلاء الرِّجال كان محكومًا عليه بالسَّجن سنتين وكان يعاني هوس القتل، وبلا سببٍ واضحٍ حطَّم جمجمة رجلٍ كان يعمل معه بعد أسابيع قليلة من وصوله إلى سان كوينتين. الضَّحيَّة مات. وتمَّت محاكمة المعتدي في سان رافييل بتهمة القتل، وحُكم عليه بالمؤبَّد في سجن فولسوم، وبعد عودته إلى السِّجن بأيَّامٍ قليلةٍ انتحر في الزِّنزانة السُّفليَّة.

وهناك سجينٌ آخر يدعى إدْ سِيْ، تُظهر قصَّته مدى قسوة الأنظمة المطبَّقة في السُّجون. اتُّهم إدْ بالسَّرقة. كان عمره آنذاك خمسًا وثلاثين سنةً تقريبًا. طوله يفوق ستَّ أقدامٍ ويبلغ وزنه مِائة باوند. كان أشبه بعامودٍ طويلٍ، ولم أر له مثيلًا في حياتي. لم نكتشف أنَّه مجنونٌ إلَّا بعد يومين من قدومه إلى السِّجن. ما دعانا إلى الشَّكِّ في قواه العقليَّة هو أنَّه كان يردُّ على الأسئلة الموجَّهة إليه بتعابير غريبةٍ على وجهه، وبردودٍ مختصرةٍ لا تتعلَّق بموضوع السُّؤال. وفي المساء كان يعاني نوباتٍ قويَّةً، وكان صوت صراخه قويًّا جدًّا لدرجة أنَّنا لم نتمكَّن من النَّوم لعدَّة ليالٍ.

عندما حان وقت محاكمته اعترف بأنَّه مذنب؛ ولكنَّه كان يتصرَّف بشكلٍ غريبٍ جدًّا، وعندما لاحظ القاضي ذلك قرَّر استدعاء هيئة المحلَّفين ليبتُّوا في أمره. ولم يُستدعَى أيُّ سجينٍ ليشهد على جنونه، بينما استدعى المحامي اثني عشر رجلًا ليشهدوا بأنَّهم لم يلاحظوا عليه أيَّ أعراضٍ تدلُّ على الجنون، وطلب الشُّهود من لجنة المحلَّفين ألَّا يصدِّقوه لأنَّه يحاول التَّلاعب بهم وخداعهم، وأنَّهم يجب أن يعيدوا المتَّهم إلى السِّجن ليقضي محكوميَّته مثل بقيَّة المجرمين.

في الحال أخذت هيئة المحلَّفين قرارها بنفي إصابة إدْسِيْ بالجنون، وعلى إثر ذلك عاد السَّجين إلى فولسوم، وطوال طريق عودته كان يبتسم ويضحك على نحوٍ هستيريٍّ، وعندما وصل إلى السِّجن قاموا، وفقًا لإفادة شهود عيانٍ، بضربه وركله من البوَّابة إلى الزِّنزانة السُّفليَّة، ومن الزِّنزانة السُّفليَّة إلى العنبر، ومن العنبر إلى المشفى، ومن المشفى إلى الزِّنزانة السُّفليَّة.

وفي النِّهاية تخلَّصوا منه ونقلوه إلى سان كوينتين مع السُّجناء المختارين، وعمل على الهضبة هو وزملاؤه القادمون من فولسوم. صحيحٌ أنَّه كان يعمل، ولكنَّه كان يحتاج إلى الكثير من الوقت لإتمام عمله، وبسبب هذا أرسلته إدارة سان كوينتين إلى الزِّنزانة السُّفليَّة، ووُضع في السُّترة وتعذَّب كثيرًا، وفي النِّهاية التقى أشباهه في عنبر المجانين، ومع مرور الأيَّام أصبح في حالةٍ يُرثى لها. صار يتكلَّم بلا توقُّف. وإذا عرض عليه أحدٌ كيسًا من التَّبغ رفضه، ولكن إذا رمى أحد الحرَّاس سيجارةً على الأرض قفز إليها بسرعةٍ ثمَّ مضى في طريقه وهو يضحك كالقرد. تحوَّل إدْ إلى مخلوقٍ هزيلٍ جدًّا، حتى أصبح من المؤلم النَّظر إليه. ثمَّ تدهورت حالته هو ورجلٌ آخر يعاني مرضًا دماغيًّا في إحدى المصحَّات، فكُبِّلا معًا ونُقلا إلى المصحَّة العقليَّة في نابا.

لم يكن لدى إدْ أدنى فكرةٍ عن المكان الذي كان ذاهبًا إليه، ولكنَّه أبدى إصرارًا شديدًا على العودة. وبعد أسابيع قليلةٍ من نقله، مررت بجانب المصحَّة، وبذلت جهدًا كبيرًا في البحث عنه، ولكنَّني لم أتمكَّن من رؤيته. كانت زيارتي لتلك المصحَّة أمرًا مثيرًا للاهتمام بالنِّسبة إليَّ، وطوال وجودي هناك لم أستطع منع نفسي من مقارنة الرِّجال الموجودين هناك بالسُّجناء المحتجَزين في عنبر المجانين في سان كوينتن.

في نابا كان المرضى يقضون معظم يومهم في الأراضي الخضراء حيث الأشجار والأزهار والبساتين، وكان المكان واسعًا جدًّا لدرجة أنَّ الرِّجال يقضون وقتهم متباعدين. وكان هناك بعض الرِّجال يعملون في البستنة وفي

أعمالٍ بسيطةٍ أخرى، بينما كان هناك مجموعةٌ من المرضى الذين يعانون أمراضًا عقليَّةً خطيرةً ولم يحالفهم الحظُّ للخروج من غرفهم ورؤية الطَّبيعة عن قرب.

أمَّا في عنبر مجانين سان كوينتن فكان المكان رطبًا دائمًا ومظلمًا. وفي أشهر الشِّتاء لم تكن أشعَّة الشَّمس تلامس الأرض سوى بضع دقائق فحسب. وفي تلك الدَّقائق القليلة كان المجانين يعانقون تلك الأشعَّة الرَّفيعة، وتتورَّد وجوههم بالفرح. وبعد ذلك يقضون يومًا طويلًا باهتًا بلا دفءٍ أو ضوءٍ، وفي اللَّيل يُساقون إلى زنزاناتهم الكئيبة الضَّيِّقة. لا يخرجون من ذلك العنبر مطلقًا إلَّا للذَّهاب إلى الحمَّام أوالحلاقة مرَّةً كلَّ الأسبوع. طعامهم يصل إلى غرفهم ويُعطى لهم بصورةٍ فرديَّةٍ. وبسبب بعد المسافة وتأخُّر الحرَّاس في أثناء التَّوزيع، يصل إليهم طعامهم باردًا.

أغلب سجناء فولسوم الذين جاؤوا إلى سان كوينتن تمَّ تعيينهم للعمل في الهضبة. قام ممثِّل السُّلطة التَّشريعيَّة بتخصيص مئات الآلاف من الدُّولارات لتشييد مبانٍ جديدةٍ للزِّنزانات في سان كوينتن، واقتطع جزءًا كبيرًا من المال لإزالة الهضبة الكبيرة الموجودة شمالي السِّجن. أحد المهندسين الذين كانوا يعملون في مكتب مشرفي سجن الولاية، والذي كان عاطلًا عن العمل آنذاك، عُيِّن كمراقبٍ براتب ثلاثمائة دولارٍ في الشَّهر، مع أنَّ عمله لم يتطلَّب منه الكثير من «المراقبة»، فليس هناك أسهل من جعل مائتي سجينٍ يذهبون للعمل يوميًّا بأدوات الحفر، ولم أره أبدًا يفعل شيئًا سوى الجلوس بجانب الموقد في غرفة المشرفين ليدخِّن السَّجائر.

استمرَّ عمله عدَّة شهورٍ قبل أن يحصل على عملٍ آخر ويخرج من السِّجن. ثمَّ عُيِّن رجلٌ خبيرٌ في الأعمال الهندسيَّة، وبأقلَّ من نصف راتب الموظَّف السَّابق. أن يُعيَّن مراقبٌ براتب 300 دولارٍ في الشَّهر لهو من أخطر أشكال النَّصب التي عرفتها في حياتي. وبعد مرور شهرٍ من تعيين الموظَّف الجديد،

خطَّط بعض رجال فولسوم للتَّجمُّع عند النَّهر والهرب عبر مياهه. وأعدُّوا لهذا الغرض بزَّاتٍ مطَّاطيَّةً، ولكن كشف أحدُ الجواسيس أمرهم وحبطت خطَّتُهم.

بعد أيَّام قليلةٍ حاول أحدهم التَّسلُّل إلى خارج المحميَّة وأمسكوا به. كان يلبس بزَّةً مصنوعةً يدويًّا أسفل بدلته المخطَّطة. قام ذلك السَّجين بصناعة قميصٍ من قماش الملابس الدَّاخلية وصبغه بالحبر، وظنَّ أنَّه سيتمكَّن من الإفلات من أعين الحرَّاس المرابطين في أبراج المراقبة الطَّويلة.

من الحقائق الصَّادمة عن الرِّجال المحبوسين في سان كوينتن أنَّ عددًا كبيرًا منهم كانوا جنودًا سابقين. وبعضهم من المحاربين القدامى الذين شاركوا في الحرب العالميَّة الثَّانية؛ ولكنَّ عددهم يقلُّ بشكلٍ متسارعٍ، لذا فالغالبيَّة منهم هم الرِّجال الذين خدموا في حرب الفلبِّين. من المتعارف عليه أنَّ الخدمة في الفلبِّين قد تسبَّبت في ضعف صحَّة المجنَّد البدنيَّة، وبالحكم على أولئك الذين دخلوا سجنَي سان كوينتن وفولسوم، يبدو أنَّ الحرب قد أودت بأخلاقهم أيضًا.

بشكلٍ ما تعدُّ الحكومة نفسها مسؤولةً عن الجرائم التي تفشَّت من قِبَل الجنود المسرَّحين. في بداية الحرب وُضع الشُّبَّان اليافعون على رأس قائمة المجنَّدين وسيقوا من جميع أنحاء أمريكا ثمَّ أُرسِلوا إلى مواقعهم الحربيَّة، وبعد عامين من الخدمة في مناخ الفلبِّين القاسي، وتحت تأثير الظُّروف التي تجرِّد الجنديَّ من الأخلاقيَّات والرَّغبات وتدرِّبه على الطَّاعة العمياء، أُعيد هؤلاء الرِّجال إلى أمريكا، وأصبحوا عاطلين عن العمل في سان فرانسيسكو. أغلبهم كانوا متحمِّسين للحصول على الحرِّيَّة ولفعل كلِّ شيءٍ يرغبون فيه، وقضوا أيَّامًا ممتعةً إلى أن لم يبق معهم شيءٌ من المال الذي حصلوا عليها. ذهبت السَّكرة وجاءت الفكرة، وأدركوا أنَّهم أصبحوا محتجَزين في مدينةٍ غريبةٍ، بعيدين عن عائلاتهم، وليس لهم أيُّ هدفٍ يعيشون لأجله.

كثيرون منهم اتَّجهوا إلى الجريمة كوسيلةٍ وحيدةٍ لسدِّ رمقهم، وكثيرون قُبض عليهم وسُجنوا. في الحقيقة، استشرت الجرائم التي ارتكبها الجنود السَّابقون لدرجة أنَّه كان يُحكم عليهم بأقسى العقوبات عندما يُقبَض عليهم. ومع هذا كلِّه ظلَّت الحكومة تنقل جنود الفلبِّين السَّابقين إلى سان فرانسيسكو، وما يزال هذا الإجراء مستمرًّا إلى يومنا هذا. إنَّه لأمرٌ صعبٌ أن يترك الشَّابُّ مكان نشأته ليذهب إلى مكانٍ لا يعرفه فيه أحد. تحدَّثت مع مجموعةٍ من المحكومين الشَّباب الذين مرُّوا بهذه التَّجربة، وقال لي أحدهم:

«لم يكن هذا ليحدث لي لو أنَّهم أرسلوني إلى المكان الذي طلبته، بالقرب من بيتي وعائلتي».

أن يقوم الجنديُّ الشَّابُّ بهفوةٍ واحدةٍ في مدينةٍ غريبةٍ ومجهولةٍ يبدو أكبر بكثيرٍ من قدرتهم على التَّحمُّل. أجرؤ على القول إنَّه كان من الممكن ألَّا يدخل أولئك المجنَّدون السِّجن لو أنَّ الحكومة نقلتهم إلى المناطق التي اختاروها قبل أن يصرفوهم من الخدمة.

كثيرون من هؤلاء الجنود السَّابقين تُصرف لهم رواتب تقاعدٍ، خاصَّةً المحاربون القدامى الذين شاركوا في الحرب الأهليَّة. وعندما كنت في السِّجن، كان أحد المسؤولين يطلب من كلِّ مجنَّدٍ سابقٍ أن يدفع خمسةً وعشرين سنتًا عن كلِّ دولارٍ يقبضه خلال فترة محكوميَّته في السِّجن ويجب أن يضع 25 دولارًا بين يدي مأمور السِّجن كتأمينٍ إن حصل على العفو بغرض تغطية التَّكاليف التي من الممكن تكبُّدها إن أعادوه إلى السِّجن لإخلاله بأيِّ شرطٍ من شروط العفو. ويجب أن يصوِّت له أربعة أعضاء من المكتب ليصبح العفو قانونيًّا. يتكوَّن المكتب من خمسة أعضاء، ثلاثةٌ منهم ممثِّلون أو نوَّابٌ للمسؤولين عن الشُّؤون الماليَّة أو ما شابه ذلك. ثلاثة أعضاء من المجلس يستطيعون رفض العفو ويعيدون المبلغ للسَّجين، وإذا وافق الأعضاء الأربعة يحصل السَّجين على العفو.

وفيما يتعلَّق بهذه القوانين والتَّشريعات، فسأقوم بذكرها بالتَّرتيب. أوَّلًا: لا يمكن العفو عن السَّجين إلَّا بعد أن يقضي نصف محكوميَّته الكاملة. هذا القانون تعسُّفيٌّ وينطوي على الكثير من الظُّلم، فأحد أهداف العفو هو إلغاء أو تخفيض المحكوميَّات الطَّويلة، والحقيقة المتعارف عليها هي أنَّ الكثير من القضاة يضعون الحكم ويقرِّرونه ليس بناءً على الجريمة، بل بناءً على الشَّخص الذي اقترفها، وغالبًا ما يُحكم على اللِّصِّ المحترف بمدَّةٍ تتراوح بين ثلاث إلى أربع سنوات، بينما يُحكم على سجينٍ صغيرٍ في السِّنِّ ولم يرتكب إلَّا جريمةً واحدةً بالسَّجن عشر أو خمس عشرة أو حتى عشرين سنة. وعندما يقول المجلس إنَّ على السُّجناء أن يقضوا نصف فترة الحكم قبل أن يُعفى عنهم، فإنَّه بذلك يفتح الباب أمام أعداء السَّجين، حين يعلن نيَّته الحصول على عفوٍ، ليحولوا دون حصوله عليه. أعرف عددًا من الحالات التي لعب فيها المال والإرث دورًا في إبقاء السُّجناء في السِّجن، فهذا الإعلان يعطي الأعداء فرصةً للانتقام على طبقٍ من ذهب. أُلغي هذا القانون من قبل المجلس التَّشريعيِّ في نهاية عام 1911.

ثانيًا: على السَّجين الذي يقدِّم طلبًا للعفو أن يُثبت أنَّ لديه وظيفةً خارجيَّةً ليكون مؤهَّلًا للعفو، وهذا القانون يجعل السَّجين مضطرًّا إلى التَّوظُّف مسبقًا، أي أن يحصل على وظيفةٍ قبل شهرين أو ثلاثة أشهرٍ من خروجه من السِّجن. كم عدد رجال الأعمال في كاليفورنا؟ ومن منهم سيعطي وظيفةً لشخصٍ قبل البدء بها بشهرين أو ثلاثة أشهر؟ وحتى لو افترضنا حصول ذلك، فبعد أن يضمن السَّجين هذه الوظيفة، يتوجَّب عليه المثول أمام مجلس المدراء لجلسته الثَّانية وسيؤجِّل البتُّ في طلبه لستَّة شهورٍ أو سنة، ولن يسمح ربُّ العمل بإبقاء الوظيفة شاغرةً حتى ذلك الوقت، وهذا يعني أنَّه يتوجَّب على السَّجين أن يبحث من جديدٍ عن وظيفةٍ أخرى قبل موعد جلسة الاستماع القادمة.

حاولت جاهدًا أن أفهم كيف من الممكن لقانونٍ كهذا أن يكون عادلًا أو منطقيًّا، ولكن إلى الآن لم أستطع فهم ذلك. المنطق بالنِّسبة إليَّ هو أن يُعفى عن السُّجناء بناءً على مزاياهم وصفاتهم الحسنة وسجلِّهم الجيِّد في السِّجن، ومع ضمان وظيفةٍ مستقرَّةٍ لهم قبل أن يتركوا السِّجن. هذا النِّظام سيجعل الرَّجل يذهب إلى وظيفته دون تأخير. تحت النِّظام الحاليِّ من المستحيل لكثيرٍ من الرِّجال أن يحصلوا على الوظيفة المناسبة، وبسبب هذا الشَّرط، ولكي يخرجوا من السِّجن، يوقِّع المدراء على عقود عملٍ وهميَّةٍ، وفي هذا ظلمٌ للسَّجين وللمدراء على حدٍّ سواء.

إضافةً إلى كلِّ هذا هناك صعوباتٌ أكبر وأعظم توضع في طريق السَّجين المعفوِّ عنه، منها أنَّ السُّجناء الذين يُتِمُّون محكوميَّتهم يزوَّدون بثيابٍ من قبل الحكومة، بينما يجب على السَّجين المعفوِّ عنه أن يتدبَّر أمره بمفرده. هذه العثرة وُضعت عمدًا في طريقهم.

إن كان القصد من العفو إرشادَ الشَّخص إلى الحياة القويمة، فإذن يتوجَّب على الولاية أن تكون مستعدَّةً للإفراج عنه وأن تخصِّص بضعة دولاراتٍ لتحقيق ذلك. تؤكِّد الإحصاءت أنَّ العفو عن السُّجناء إجراءٌ اقتصاديٌّ، مثلما هو أخلاقيٌّ وسياسيٌّ. فنصف سجناء سان كوينتين على الأقلِّ تعلَّموا أن يكونوا مواطنين صالحين، ويمكنهم أن يكسبوا رزقهم بعرق جبينهم، وبقاؤهم محتجَزين في السِّجن يكلِّف الولاية آلاف الدُّولارات سنويًّا. في كثيرٍ من الأحيان تأخذ الحكومة ملابس الرِّجال الثَّمينة عند دخولهم السِّجن، ثمَّ تمنحها للرِّجال المسرَّحين لتوفِّر ثمن الملابس. غالبًا لا يجد السُّجناء أنفسهم قادرين على شراء ثيابٍ جديدةٍ ليخرجوا بها في يوم العفو، ونتيجةً لذلك يبقون في السِّجن، وإذا أصبحوا حانقين وحاقدين وشعروا بأنَّ المجتمع قد ظلمهم، فمن يستطيع أن يواجههم ويقول لهم إنَّه ليس لديهم الحقُّ في ذلك؟

أمَّا الدُّولارات الخمسة والعشرون التي يدفعها السَّجين المعفوُّ عنه قبل أن يخرج كوديعةٍ للولاية فإنَّها تُسحب مباشرةً إذا حُكم عليه بارتكاب أيِّ مخالفة، وتطلب منه الحكومة غرامةً قدرها خمسين دولارًا إذا لم يلتزم بالوظيفة التي تعاقد عليها، وبالنِّسبة إلى سجينٍ قضى عدَّة سنواتٍ في السِّجن وهو يعمل كلَّ يومٍ بلا أجر، ليس جمعُ خمسين دولارًا بهذه السُّهولة، ومن المستحيل أن يحصل على فرصةٍ ليصبح رجلًا غنيًّا، أو رجلًا لديه أصدقاء يمدُّونه بذلك المبلغ. ولكن حتى أولئك المحظوظون بأصدقاءٍ أغنياء سيبدؤون حياتهم مثقلين بالدُّيون.

وفقًا لمزاعم السُّلطة التَّشريعيَّة، وُضع هذا الشَّرط لمنع أولئك الذين لا يستحقُّون العفو من الحصول على الفوائد النَّاتجة عن إطلاق سراحهم. يظهر هذا السَّبب جليًّا في الشِّعارات اللَّامكتوبة التي لا يصرَّح عنها مطلقًا، والتي تمثل معظم شعارات عصرنا الماديِّ البحت.

الجريمة هي أن تكون فقيرًا. الرَّجل الفقير لا فائدة منه. الكثير من الأشخاص الصَّالحين عندما عرفوا بهذه العقبات التي تواجه السُّجناء العاجزين، اهتمُّوا بأمرهم وتبرَّعوا بالمبالغ المطلوبة ليساعدوهم، ومن الجميل أنَّ أغلب المستفيدين قد أصبحوا أشخاصًا أفضل بالفعل ونجحوا في تسديد ديونهم. وفي الوقت نفسه كان هناك أشخاصٌ جاحدون لم يقدِّروا المعروف الذي أُسديَ لهم.

بالنَّظر إلى المسألة من وجهة نظري كسجينٍ، أرى أنَّ هذه القوانين والتَّشريعات غير عادلةٍ على الإطلاق. هذا هو شعوري تجاهها. فإذا كان القانون ينصُّ على أنَّني أمتلك الحقَّ في إنقاذ نفسي وتحسينها، فإنَّني لا أظنُّ أنَّ عليَّ دفع المال كي تتسنَّى لي هذه الفرصة، ولا يجب أن يساعدني شخصٌ آخر وتتراكم عليَّ الدُّيون تبعًا لذلك.

ولكن لكي أكون عادلًا، أنا مقتنعٌ بشكلٍ تامٍّ بأنَّه يوجد ما لا يقلُّ عن ثلاثة أعضاء في مجلس مدراء السِّجن يعترضون على هذه القوانين. من النَّادر جدًّا أن يجتمع الأعضاء الخمسة في اجتماعٍ واحد، قد يحضر أربعةٌ أو ثلاثةٌ منهم، وإحدى القواعد التي تحكم العفو هي أنَّه يحتاج إلى تصويت أربعة أعضاء لإيقاف أو تغيير تلك القواعد، وبشكلٍ أو بآخر تُقَرُّ هذه القواعد تحت إمرة شخصٍ يمتلك السُّلطة الكافية، ويشعر السُّجناء بالظُّلم الواقع عليهم بسبب هذا الأمر. إنَّ الإدارة الحاليَّة لقانون العفو تعمل على التَّغلُّب على هذه الثَّغرات، ومن المأمول أن تحقِّق إنجازًا عادلًا في فترة عملها الحاليَّة.

الفصل الخامس والعشرون

مع أنَّ مجلس إدارة السُّجون يمتلك قوانين ناظمةً لطلبات العفو، إلَّا أنَّه يوقف العمل بهذه القوانين متى ما تطلَّبت السِّياسة ذلك، ومن يعاني من ذلك هم السُّجناء المساكين الذين ليس لديهم معارف نافذون في الخارج، والحقيقة أنَّ قانون العفو الحاليَّ قانونٌ ظالمٌ ومتحيِّز، بحيث يُمنح للسُّجناء كافَّةً إلَّا للمحكوم عليهم بالمؤبَّد، وهناك بندٌ ينصُّ على جواز منح العفو لمن يتمُّ سنةً واحدةً في السِّجن إن كان سجلُّه نظيفًا.

ولكنَّ المجلس كان يجد دائمًا طريقةً للتَّلاعب بروح ومقاصد هذا القانون. ولم يبذل المدراء جهدًا في البحث عن السُّجناء المؤهَّلين للعفو قبل أن يقضوا نصف محكوميَّتهم، لذلك يكون التَّقدُّم لطلب العفو دائمًا جهدًا شخصيًّا يتكبَّده السَّجين لإنقاذ نفسه. يجب أن أوضِّح أنَّ قانون نصف المدَّة وغيره من الشُّروط التي لا تمثِّل رغبات أو موافقات جميع الأعضاء الحاليِّين في المجلس تمَّ عرضها وتوضيحها من قبل المجلس قبل عدَّة سنواتٍ مضت. العقبة الوحيدة في وجه التَّغيير أو التَّعديل هي أنَّ اثنين من الأعضاء يكونان دائمًا معارضَين للقوانين الجديدة.

أحد أعضاء المجلس غير موافقٍ على قانون نصف المحكوميَّة، وكان معارضًا له منذ بداية إطلاقه ويطالب بإيقاف العمل به في كلِّ اجتماع، ليس لشعوره بأنَّ السَّجين يجب أن يبقى محبوسًا ليُتِمَّ نصف مدَّة حكمه قبل أن يحصل على العفو، ولكن لأنَّه يأمل تغيير القانون من خلال جعل أعضاء

المجلس المسؤولين يطبّقونه ويعملون به. ولكنَّ قانون نصف الحكم ما يزال قائمًا، والاستثناءات ما تزال تحدث. شخصيًا أعرف الكثير من السُّجناء الذين حصلوا على العفو قبل أن يقضوا نصف محكوميَّتهم، وكذلك أعرف الكثير ممَّن قضوا أكثر من نصف المحكوميَّة لأنَّهم لم يحقِّقوا شروط الحصول على العفو حسب ادِّعاء المجلس.

وحتى بعد أن يقضي السُّجناء نصف المحكوميَّة بسجلٍّ مثاليٍّ، فإنَّ طلبات الكثير منهم تُرفَض بشكلٍ تعسُّفيٍّ، ومع أنَّهم كانوا يقفون أمام المجلس، ويجيبون على جميع الأسئلة، حتى تلك التي تتعمَّد إهانتهم، إلَّا أنَّهم كانوا يُحرَمون العفو بلا سببٍ واضح. إنَّ رجلًا التزم بجميع قوانين السِّجن وعمل بذمَّةٍ وضميرٍ لسنواتٍ، وظلَّ ينتظر اليوم الذي سيُتِمُّ فيه نصف محكوميَّته، وهو التَّاريخ الذي سيحصل فيه على فرصةٍ ليثبت صدقه ويساعد نفسه، أقول، إنَّ رجلًا كهذا لن يحترم بالطَّبع الرِّجال الذين قابلوه لبضع دقائق ثمَّ رفضوا طلبه بكلِّ عنجهيَّةٍ وظلم.

في رأيي أنَّ الضُّبَّاط المقيمين في السِّجن هم من يقرِّر أهليَّة أو عدم أهليَّة السَّجين للذَّهاب إلى جلسة استماع العفو، وهذا يعني استبعاد السُّجناء الذين لا يُحابون أصحاب النُّفوذ القويِّ من الضُّبَّاط، ولهذا السَّبب بالذَّات أؤكِّد على ضرورة وجود إدارةٍ داخليَّةٍ مختلفةٍ للسِّجن. أعضاء مجلس المصحَّة لا يقرِّر وقت خروج المرضى. هم لا يعرفون شيئًا عن مرضاهم بشكلٍ فرديٍّ، وحتى لو افترضنا أنَّهم أحضروهم واحدًا تلو الآخر، فلن يكون لهم الحقُّ في أن يقرِّروا من المؤهَّل للعلاج ومن بصحَّةٍ جيِّدة. ولكنَّ الضُّبَّاط والأطبَّاء المقيمين يعرفون كلَّ شيءٍ عنهم. وعندما يمثُل السَّجين أمام مجلس مدراء سجن الولاية ويُرفض طلب العفو عنه، بعد أن يكون قد قضى نصف المحكوميَّة، وبسجلِّ سجنٍ مثاليٍّ، ويُعرَض سجينٌ آخر لم يُنهِ نصف محكوميَّته، ولديه سجلٌّ سيِّئٌ في السِّجن، ولكنَّه يملك التَّأثير الخارجيَّ

المطلوب، ويحصل على العفو أمام نظر السَّجين المثاليّ، فمن سيلومه عندما يصبح حاقدًا على القانون كارهًا له؟ بماذا ستشعر تحت وطأة ظروفٍ مماثلة؟ كيف سيشعر أيُّ عضوٍ من أعضاء مجلس المدراء إن مرَّ بالتَّجربة نفسها؟

هناك حوادث كثيرةٌ لكلتا الحالتين يمكنني ذكرها كما حصلت تمامًا، ولكنَّني سأكتفي بحالةٍ واحدةٍ، وهي لرجلٍ كان محكومًا عليه بخمسٍ وعشرين سنةً، وقف أمام المجلس أوَّل مرَّةٍ وتأجَّل النَّظر في طلبه سنتين، مع أنَّه قضى نصف محكوميَّته بالفعل، وهذا يوضِّح مدى الظُّلم وعدم المساواة في كلِّ القصص المذكورة سابقًا. يُعرَف هذا الرَّجل باسم جي، وكان المسؤول عن عمليَّة تنظيف السِّجن لمدَّة خمس أو ستِّ سنوات، وعندما وصل إلى سان كوينتن أوَّل مرَّةٍ كان صبيًّا، وقضى محكوميَّةً قصيرةً، ثمَّ خرج مع خمسة دولاراتٍ وملابس رخيصة. طبعًا يحتاج الرَّجل الخارج من السِّجن إلى غيارين من الثِّياب الدَّاخليَّة، وإن كان لديه تقديرٌ لنفسه فسيحتاج إلى ثوبٍ إضافيٍّ غير الذي يرتديه، وسيظلُّ يشتمُّ رائحة السِّجن في ثيابه الرثَّة عندما يطلق سراحه. ولكن يجب أن يأكل وينام أيضًا، وهذا يحتاج إلى مال، وخمسُ دولاراتٍ ليس لها قيمةٌ إذا لم يمتلك السَّجين سواها وسوى الثِّياب التي يرتديها.

هكذا وجدها جي، وعندما أراد مبلغًا أكبر تعاون مع رجلٍ آخر في عمليَّة سرقة، فقُبض عليه وحُكم عليه بالسَّجن خمسًا وعشرين سنةً في سان كوينتن. وتحت شروط مرسوم العفو فإنَّ خمسًا وعشرين سنةً تعني خمس عشرة سنةً وثلاثة شهورٍ إذا كانت تصرُّفات السَّجين جيِّدة. لذا في حالة جي تصل نصف المحكوميَّة إلى سبع سنواتٍ وثمانية شهور. يمتلك جي موهبة تكوين الصَّداقات، ولأنَّه كان متحمِّسًا ومتوقِّدًا بالحياة أصبح محبوبًا وقريبًا من النَّاس وعندما اقترب موعد انتهاء نصف محكوميَّته استعجل في تقديم طلب العفو. سمع المجلس قضيَّته، وأقاموا له جلسة استماعٍ مرَّةً أخرى في تهمة السَّرقة،

وبعد الجلسة تأجّل النَّظر في طلبه سنتين. عاد جي مرّةً أخرى للتَّنظيف وأكمل واجباته في المغسلة، وهو متمرِّسٌ في هذا العمل. عندما انقضت السَّنتان أرسل أصدقاؤه في خارج السِّجن توصياتهم إلى المجلس، وبعد جهدٍ جهيدٍ نجح جي في الحصول على وظيفةٍ في المغسلة. أحد المدراء اهتمَّ بالقضيَّة؛ ولكنَّه لم يستطع حضور جلسة الاستماع فكتب خطابًا للأعضاء الآخرين في المجلس يلحُّ فيه عليهم بأن يمنحوا جي فرصة الحصول على العفو. ولكن وقتذاك كان هذا العضو على شقاقٍ مع أحد الأعضاء الآخرين، ورفض هذا الأخير الموافقة على العفو. والشَّيء الذي شكَّل صدمةً لكثيرين هو أنَّ عضوًا واحدًا من المجلس يستطيع من خلال سلطته أن يمنع السَّجين من الحصول على العفو.

هكذا تجري الأمور في ظلِّ هذا النِّظام. الأمر كلُّه وقفٌ على شخصٍ واحدٍ، وهذا ما رأيته يجري أمامي مرَّةً بعد مرَّة. لذا عاد جي خاليَ الوفاض مرَّةً أخرى وعمل في المغسلة، وما يزال يعمل هناك حتى هذه اللَّحظة. واليوم سيُتِمُّ عشر سنواتٍ زيادةً على محكوميَّته. لو كان جي شخصًا سيِّئًا لكان من حقِّ أعضاء المجلس حرمانه من العفو، ولكنَّه كان سجينًا صالحًا، مخلصًا في تأدية عمله وواجباته. إن كانت النَّتيجة المرجوَّة من العفو هي إنقاذ الرِّجال وإطلاق سراحهم فإذن من واجب الولاية أن تجعل المستفيد يبدأ حياته بأفضل الظُّروف، وأن تُشعره بأنَّ إنقاذه وتوبته يعنيان شيئًا لها.

خمسةٌ وثمانون بالمائة من الرِّجال المعفوِّ عنهم في هذه الولاية كانوا صالحين. من بين الخمسة عشر بالمائة من الذين خالفوا قانون العفو، أقلُّ من اثنين بالمائة منهم ارتكبوا جرائم أخرى. أمَّا الرِّجال الذين خرجوا من السِّجن بعد إتمام محكوميَّتهم فيعود أربعون بالمائة منهم تقريبًا إلى السِّجن في هذه الولاية أو في ولايةٍ أخرى بعد ارتكابهم جرائم جديدة. كثيرٌ من هؤلاء كان من الممكن إنقاذهم لولا أحكام وشروط العفو المبالغ فيها، والتي تستنزف

السَّجين حتى آخر دقيقةٍ من انقضاء محكوميَّته. وكي أكون عادلًا مع الجميع، ألا يجب أن تُلغى مثل هذه التَّشريعات الغبيَّة؟

عددٌ من الرِّجال عاد إلى سان كوينتن لأنَّه نقض شروط العفو بتصرُّفٍ تافهٍ جدًّا. إمَّا أنَّهم أصبحوا سكارى، وإمَّا تركوا عملهم، وإمَّا ارتكبوا جريمةً صغيرةً جديدة. وفي كلِّ مرَّةٍ تُسحَب أرصدة أولئك السُّجناء سواءٌ كانوا محكومين بسنتين أو بعشرين سنة. وإذا صدَّقنا فرضيَّة أنَّ العفو وُضع لحثِّ السُّجناء على التَّراجع عن أخطائهم، فلماذا لا يُعطى بعض الرِّجال فرصًا أخرى؟

يقول الواقع إنَّ العفو وُضع لاختبار الرَّجل وليس لإثبات أهليَّته، وهناك رجالٌ يفشلون في الحصول على مبرِّراتٍ يقدِّمونها لنظام العفو. أعرف عددًا من الرِّجال عاهدوا أنفسهم على أن يصبحوا صالحين، وأنا أؤمن بأنَّ المستقبل سيكون عادلًا، وعندما يخلُّ شخصٌ بشروط العفو فإنَّه لن يُعامَل كهدفٍ للعقاب، بل سيكون نموذجًا واضحًا لشخصٍ يحتاج إلى المساعدة والتَّشجيع. بالتَّأكيد، إن كان الهدف من السُّجون هو حماية المجتمع، فإنَّ إصلاح المذنبين يجب أن يكون من أهمِّ الاعتبارات. أمَّا إن لم يكن الهدف كذلك فيجب على الجاني أن يبقى في السِّجن مدى الحياة. وبالطَّبع، بقدر ما يكون السَّجين منعزلًا عن المجتمع بعد خروجه بقدر ما يكون النَّجاح في تأهيله أكبر قيمةً ويجلب رضًا لجميع الأطراف ويدلُّ على جدارةٍ عالية.

كان هناك سجينٌ صينيٌّ اسمه «سبوت»، وكان معروفًا بالصِّينيِّ الوحيد الذي كسر قانون العفو. ولكن، ووفقًا لروايته، كان كلُّ الذي فعله هو لإنقاذ نفسه. ترك عمله غير المجزي في كاليفورنيا، وذهب إلى ألاسكا لموسم الصَّيد دون أن يستأذن إدارة السِّجن. وعندما عاد قُبض عليه وأعادوه إلى سان كوينتن.

«عملت بجهدٍ، وعندما وجدت مستقبلًا أفضل، قبضوا عليَّ بسرعة البرق».

كقاعدةٍ عامَّةٍ، يُعَدُّ الصِّينيُّون سجناء جيِّدين ويصبحون مؤهَّلين للعفو، ومن وقتٍ ليس ببعيدٍ عفا مجلس المدراء عن سجينين كانا مقيمَين في بارفور قبل سجنهما وأُعيدا إلى السِّجن بسبب إخلالهما بشروط العفو. عندما يخلُّ سجينٌ بشروط العفو يُحرَم من كلِّ أرصدته، وهذان الرَّجلان أحدهما حُكم عليه بعشرين سنةً والآخر بخمسٍ وعشرين سنة، وما يزالان في السِّجن إلى اليوم. إنَّ نظريَّة العفو كما أفهمها هي أن نعيد المذنب إلى رشده، ونجعله مواطنًا صالحًا. ولمَّا كانت هذه هي النَّظريَّة فإنَّ من المنطق إذن أن تستمرَّ جهود الإصلاح حتى آخر لحظة. أنا أؤمن بأنَّ سبوت كان يجب أن يحصل على فرصةٍ أخرى، فهو لم يفعل شيئًا يحمل في طيَّاته شرًّا أو خبثًا، ولم يخالف القوانين. كلُّ ما فعله هو أنَّه خرج للعمل خارج سجنه (ولاية كاليفورنيا) بدون إذنٍ مسبق.

هناك حادثةٌ تُظهر سطحيَّة تفكير بعض المسؤولين. في أحد الأيَّام استدعى الضَّابطُ القسِّيسَ دراهمز إلى المكتب ليريه دفتر قُصاصاتٍ. كنت في الغرفة المجاورة ولم أستطع منع نفسي من الاستماع إلى حديثهما. يحتوي ذلك الدَّفتر على صور الأشخاص الذين حصلوا على العفو من الولايات الأخرى، وفي ذلك الوقت كان يحتوي على قرابة ألف صورة ـ تشكيلةٌ مهيبةٌ معمولةٌ لتعطي المتفرِّج السَّطحيَّ انطباعًا مضلِّلًا عن نظام العفو. رؤية ألف صورةٍ لمنتهكي قانون العفو مجتمعةً في دفترٍ واحدٍ، صفحةً بعد صفحةٍ، لا بدَّ وأن توحي بفشل هذا النِّظام، خاصَّةً إذا كان هذا الدَّفتر هو الوحيد المأخوذ بعين الاعتبار. ولكنَّه في الحقيقة، كان يمثِّل الذين أخلُّوا بشروط العفو من عشرين ولايةً أو أكثر خلال السَّنوات العشر الماضية. تحمَّس القسِّيس جدًّا وقال:

«أنا سعيدٌ جدًّا لأنَّك أريتني دفتر القُصاصات هذا. إنَّه دليلٌ على فشل

قانون العفو. إنَّه لأمرٌ مشين. لقد حان الوقت لتتوقَّف هذه الحماقة العاطفيَّة. ولكنَّ غريبي الأطوار والأغبياء هم الذين يدافعون عن هذا الهراء».

كان الضَّابط يؤكِّد على كلماته بين الحين والآخر قائلًا: «أجل، صحيح».

قال السَّيِّد دراهمز: «ويجب أن نفعل شيئًا لإيقافه. أنا مسرورٌ جدًّا لأنك أريتني هذا الدَّفتر! يا إلهي!».

وفي هذه اللَّحظة بدأت بالصَّفير والدَّندنة ودخلت الغرفة. كنت أريد أن أرى النَّدم والخزي يغطِّيان وجهيهما. أردت أن أرى المسألة من وجهة نظرهما. استطعت تفهُّم الملازم. كان خائفًا من أن يقلِّل قانون العفو من عدد المساجين والذي بدوره سيقلِّل من الحاجة إلى ضبَّاطٍ في السُّجون.

لكلِّ سجين في سان كوينتن رقمٌ مطبوعٌ على ملابسه بحبرٍ لا يمَّحي وهو يظهر أيضًا في الصُّور الفوتوغرافيَّة. هذه الأرقام تُعطَى على التَّوالي، والرَّقم الواحد لا يُستخدَم أكثر من مرَّة. في الوقت الحاضر وصلت الأرقام إلى خمسةٍ وعشرين ألفًا، وهذا يعني أنَّ أكثر من خمسةٍ وعشرين ألف سجينٍ قد حُبسوا في سان كوينتن. الأرقام في فولسوم وصلت إلى تسعة آلاف، على ما أظنُّ.

بدأت السُّجون بأخذ صور المساجين سنة 1888، ومنذ ذلك الوقت صارت هناك سجلَّاتٌ لجمع تلك الصُّور. وفيما عدا سجينٍ أو اثنين من الذين زُجَّ بهم منذ بداية سجلِّ الصُّور تمَّ التقاط صورٍ لجميع السُّجناء من الجانب ومن الأمام، بقبَّعةٍ ومن دون قبَّعة، بملابس السِّجن وبملابس مدنيَّة. كلُّ صور السُّجناء موجودةٌ في هذا الألبوم، وكلُّ صورةٍ مرفقةٌ برقم السَّجين الخاصِّ في الأسفل.

قلت إنَّ هذا السِّجلَّ يحتوي على صور الجميع باستثناء واحدٍ أو اثنين من السُّجناء. أمَّا السَّبب وراء ذلك فله قصَّةٌ مثيرة. وصل السَّجين إلى سان كوينتن وهو يتشاجر، واسمه ظاهرٌ في السِّجلِّ، ولكن لم تؤخذ له أيُّ صورة.

كانت محكوميَّته عشر سنوات، وأتمَّها في عشر دقائق. عندما دخل وأصبح بين جدران السِّجن وضع يده في جيبه ثمَّ وضعها في فمه. وفارق الحياة بعد عشر دقائق. أصرَّ نائب العمدة المسؤول على أن يحصل على تقريرٍ أو توثيقٍ يبيِّن أنَّ السَّجين وصل حيًّا إلى السِّجن. لذلك تمَّ تدوين اسمه في السِّجلَّات، ومات كمجرمٍ في سان كوينتن مع أنَّه لم يرتدِ رداء السِّجن ولم يحلق شعره.

يرغب الكثيرون في رؤية السَّجين يعاني الحبس والعذاب الحقيقيَّ لسنين طويلةٍ حتى يشعر بالذُّلِّ والمهانة اللَّذَين يتعطَّشون إلى جعله يشعر بهما. طبعًا هناك الكثير من السُّجناء ممَّن لا يبالون بمهانة التَّجريم أو بفقد مكانتهم الاجتماعيَّة، وكلُّ ما يهمُّهم هو الحبس الفعليُّ لأجسادهم. ولكنَّ بعضهم الآخر يعاني بعمقٍ بسبب العار أكثر من معاناته بسبب العقاب الجسديِّ. الحديد يبدأ بحرق روح هذا الرَّجل قبل أن يرتدي لباس السِّجن ويُسجَّلَ كرقمٍ يعيش في زنزانة. عرفت عددًا من الرِّجال ممَّن يفكِّرون بهذه الطَّريقة. ومع هذا يعتقد أغلب النَّاس أنَّ الرَّجل يجب أن ينزل إلى الحياة العمليَّة ويتعب ويعاني بعد خروجه من السِّجن. اللَّيلة الماضية سمعت القاضي فريك لاوكلاند وهو يتحدَّث في أحد الاجتماعات. صرَّح بأنَّه متضامنٌ بقوَّةٍ مع فكرة أن يوضَع المذنبون لأوَّل مرَّةٍ تحت فترة اختبارٍ متى ما سنحت الظُّروف.

قال بعض الأشخاص إنَّ فترة الاختبار فكرةٌ سيِّئةٌ لأنَّها ستشجِّع شخصًا آخر على ارتكاب الجرائم بسهولة. قال القاضي: «ولكنَّ هذه الحجَّة ليست منطقيَّةً. فلنفترض أنَّه قد تمَّ القبض على جارك بتهمة السَّرقة أو الاحتيال أو أيِّ جريمةٍ أخرى. سوف يشعر بالخزي والعار بعد أن يرى بيته محاطًا بالشُّرطة، وستُنشَر صورته وتفاصيل جريمته في الجريدة، وستكون الأضواء مسلَّطةً على عائلته، وسيتخلَّى الكثير من أصدقائه عنه، وقبل أن يوضع تحت الاختبار يجب أن يُدان أو أن يعترف بجريمته. حسنًا، هل ستتشجَّع بعد ذلك على ارتكاب جريمةٍ مماثلةٍ وتعرِّض نفسك للمرور بكلِّ هذا؟ بالتَّأكيد لا».

صوَّر القاضي المشهد تصويرًا حقيقيًّا أكثر ممَّا استطعت أنا أن أفعل. كلُّ الذين سمعوا كلامه أُعجبوا به بعمق. في الصَّباح التَّالي جلست في مكتب رجلٍ يحاول بكلِّ ما أوتي من قوَّةٍ أن يعيش وفق مبدأ: أحببْ لأخيك ما تحبُّه لنفسك. وبسبب محاولاته العيش وفق هذا القانون الدِّينيِّ عانى وما يزال يعاني كلَّ يوم. في الماضي كان ذلك الرَّجل صيَّادَ أرانب، وكان مليئًا بالأحقاد، مثل نمرٍ متعطِّشٍ إلى الدِّماء. خلال السَّنوات التي كان يمارس فيها تلك الهواية كان محبوبًا من قبل العامَّة، وتلقَّى رضا الجموع، وبعد صيدٍ مثيرٍ في مسابقةٍ كبيرةٍ، عثر على أرنبٍ متعبٍ وحاصره في الزَّاوية. زاد التَّشجيع أكثر من أيِّ وقتٍ آخر. فرح الجميع وصرخوا: الموت للأرنب! كان الأرنب خائفًا. اجتاز الحديقة العامَّة، وعندما لحق به الصَّيَّاد قام برفعه من أذنيه، بينما ظلَّت الكلاب تنبح وتعضُّ الأرنب بأنيابها لتأخذ حياته. وبعد انتهاء كلِّ شيءٍ، أُلقي بالأرنب في القفص.

هذا الرَّجل الذي أدهش الجميع، شعرَ بالاشمئزاز. فجأةً لمع في ذهنه أنَّ الأرنب مات مليون ميتةٍ وهو يحاول الهرب وعانى مخافةَ الموت أكثر ممَّا قد يعاني لو أنَّه كان يموت فعلًا. لذا بدأ الصَّيَّاد يشعر بالعطف على الأرنب. وضع نفسه مكانه، ورأى نفسه وحيدًا ومغطًّى بالدِّماء والطِّين ومكروهًا من قبل الجميع. كان مثقلًا بخطيئةٍ لم يرتكبها. هذا الاكتشاف هزَّه تمامًا. واكتشف أنَّه إنسانٌ وليس إلهًا. وفي الحال اجتاحته رغبةٌ عارمةٌ في جعل النَّاس يعرفون معنى أن يكونوا بشرًا. لذلك سامح الأرنب وأطلق سراحه، وقرَّر أن يحاول إقناع الآلهة الآخرين بأن يسامحوه أيضًا. ولكن عندما سمع الصَّيَّادون الآخرون بذلك اعتراهم الغضب! ماذا؟! لِمَ علينا أن نترك الأرنب يذهب قبل أن يعاني أكثر وأكثر؟ مستحيل! ألم ينتهك هذا الأرنب حرمة الحديقة؟ أليس هناك أرانب أخرى لديها الحقُّ نفسه بأن تُحرَّر كهذا الأرنب؟ أجل، قال الصَّيَّاد السَّابق: «أجل، الأرانب الأخرى يجب أن تتحرَّر أيضًا، طالما أنَّها

ستنتقم؛ ولكنَّني لم أساعد في اصطيادها. أريد أن أساعد أرنبي الذي قمت بتعذيبه ومحاصرته لأنَّني أرنبٌ أيضًا، وأنتم كذلك أرانب. والأرانب لا يحقُّ لها إصدار الأحكام على الأرانب».

ولكنَّ هذا الكلام وقع على آذانٍ لا تصغي.

وفي يومٍ آخر جلست في مكتب ذلك الرَّجل وسمعته يقرأ بعض الشَّتائم والإهانات التي يستخدمها الأشخاص الذين يشعرون بأنَّها دليلٌ على تديُّنهم. قرأ هذه الشَّتائم على صديقٍ يقف ضدَّ الرَّأفة بالأرانب بشكلٍ تامٍّ. هذا الصَّديق وصف الأرنب بأنَّه أقبح مخلوقٍ على وجه الأرض. ظلَّ يعيد اللَّعنات مرَّةً تلو الأخرى، بينما جلس صاحب المكتب بصبرٍ وتعابيره مليئةٌ بالحزن والتَّعب.

قارنت بين الرَّجلين. كلاهما ناجحان. أحدهما يمارس دوره في المجتمع كما هو مطلوبٌ منه، والآخر أيضًا له مكانته الكبيرة في المجتمع. كم من الوقت يجب على البشريَّة أن تنتظر؟

عندما يصل سجينٌ ضخمٌ بشكلٍ استثنائيٍّ إلى سجن سان كوينتن، لا يكون هناك من الملابس ما يناسبه، ويكون من الضَّروريِّ صناعة ملابس له. يأتي إلى السِّجن عددٌ كبيرٌ من الرِّجال الضِّخام، وبشكلٍ اعتياديٍّ تُصنع ملابس خاصَّةٌ بهم دون أيِّ تعليقات. ولكن في أحد الأيَّام وصل سجينٌ بمقاساتٍ غريبةٍ جدًّا لدرجة أنَّ الغالبيَّة لاحظوا ذلك. وصل عند الظَّهيرة، وعندما نزل معه العمدة المسؤول عن قضيَّته لم يتخيَّل أحدٌ أنَّه سجين. كان عمره أربع عشرة سنة، يرتدي سروالًا قصيرًا، وكان صوته أنثويًّا، وكانت إحدى فردتَي جوربه مثقوبةً.

كنَّا واقفين في رواق المكتب عندما فتح الحارس البوَّابة وأدخلهما. كان العمدة رجلًا فارع الطُّول وضخم البنية، وبسبب ضخامته بدا الصَّبيُّ أمامه قزمًا ضئيل الحجم. عندما وصل حارس الفناء والآمر هاريسون إلى المكتب

رحَّبا بالصَّبيِّ بحرارة. ولكن عندما أدخل العمدة يده في جيبه وأخرج الوثيقة تفاجأ الآمر كثيرًا. نظر إلى الوثيقة لبرهةٍ ثمَّ أعاد قبَّعته للخلف، وقال:

«من الواضح أنَّ هذه الوثيقة صحيحةٌ أيُّها العمدة، ولكن أين هو السَّجين؟».

ضحك العمدة وأشار إلى الصَّبيِّ الواقف بجانبه. نظر الصَّبيُّ إلى الآمر باندهاشٍ وابتسم. ضحك الآمر وقال: «أوه، كنت سأصدِّق هذا المقلب، أخبرني هيَّا، أين هو السَّجين؟».

قلَّب الآمر الوثيقة بأصابعه. الأمر الذي زاد من إحراج العمدة، فقال له:

«أكره أن أقول هذا أيُّها الآمر؛ ولكنَّني لا أمزح. هذا هو السَّجين». ووضع يده على رأس الصَّبيِّ الأشعث. وتردَّد الآمر في البداية. ثمَّ بدأ يستوعب أنَّ الولد كان سجينًا بالفعل. كان الآمر والدًا لعددٍ من الأطفال، ووقف ينظر إلى الصَّبيِّ الذي بدا غير مهتمٍّ بما يحصل، ولكن سرعان ما انفجر الآمر غاضبًا وقال:

«بحقِّ السَّماء يا رجل، هذه ليست بحضانة، هذا سجنٌ حكوميٌّ. نحن لا نستقبل الأطفال هنا. سأكون خجلًا من نفسي إن كنت مكانك ووضعته هنا».

أشعل ذلك الكلام غضب العمدة، ثمَّ فقد صبره وقال:

«استمع إليَّ أيُّها الآمر. لقد تحمَّلت الكثير من هذا الكلام. هذا ليس ذنبي. هذا الولد حُكم عليه من قبل المحكمة بالسَّجن ستَّ عشرة سنةً في سان كوينتن، وكان عليَّ أن أوصله فحسب، سواءٌ أأعجبني ذلك أم لم يعجبني. أتظنُّ أنَّني مستمتعٌ بهذا العمل، أخبرني، أتظنُّني كذلك؟».

أخرج الآمر يده من جيبه وقال:

«عفوًا، أيُّها العمدة، ولكنَّ هذا يجعل أيَّ رجلٍ يثور غضبًا. كيف يرسلون طفلًا كهذا إلى مكانٍ كهذا. لا أعرف ماذا سنفعل به. لن أستقبله، هذا كلُّ

شيء. سأتَّصل بإدارة السِّجن وأطلب منهم أن يحلُّوا الموضوع. اذهب واجلس هناك يا بنيَّ، ولكن لن أقول لك أن تَعُدَّ نفسك في منزلك».

بعد عدَّة دقائق دخل مدير السِّجن تومكنس، وعندما شُرِحَ له الوضع غضب غضبًا أكبر من غضب الآمر وقال: «لماذا لم يرسلوه إلى الإصلاحيَّة؟ سننقله حالًا».

«لا تستطيع»، ردَّ العمدة، «لقد أُدين بالقتل، ومن غير الممكن إرسال شخصٍ مدانٍ بهذه الجريمة إلى الإصلاحيَّة. لم يكن القاضي ليرسله إلى هنا لو كان الأمر بسيطًا، ولذلك ليس لدينا أيُّ خيارٍ آخر».

بعد أن أنهى العمدة حديثه وخرج من المكتب بدأ سجالٌ طويلٌ بين آمر السِّجن والمدير. آمر السِّجن كان يفكِّر بأن يضع الصَّبيَّ في قسم النِّساء، ولكنَّ المدير عارض الفكرة بقوَّة.

قال: «هذا ليس مجديًا. علينا أن نتَّخذ إجراءً خاصًّا. ومن غير المجدي أيضًا أن نرسل طفلًا كهذا إلى قسم الرِّجال. هل تفهمني؟ يجب أن نضعه في المستشفى تحت رعاية الطَّبيب. يستطيع النَّوم هناك ليلًا ويبقى مع القسِّيس في المكتبة خلال النَّهار».

بدت هذه الخطَّة منطقيَّةً، وتمَّ توضيح آليَّة العمل بها. ولكن عندما أُخذ الصَّبيُّ إلى غرفة الملابس ظهرت مشكلةٌ أخرى وهي عدم توفُّر ملابس بمقاساتٍ صغيرة. حتى إنَّ أصغر مقاسٍ هناك كان أكبر منه بكثير. وبهذا الاكتشاف عرف الآمر الوجه المضحك من القصَّة، وذهب إلى العمدة الذي كان يقف في الممرِّ وقال له:

«أتوقَّع منك أن ترسل مرضعته وعربة الأطفال بالشَّحن السَّريع».

ابتسم العمدة، وضحك الصَّبيُّ. وتمَّ الاتِّفاق على إرسال الوافد الجديد إلى المستشفى بالثِّياب التي عليه؛ ولكن قبل أن يذهب أُخذت مقاساته

وأُرسلت إلى محلِّ الخياطة لكي يصنعوا له بزَّةً كاملة. في المساء الذي تلاه كانت البزَّة جاهزةً واستُدعي الصَّبيُّ. ارتداها بصمتٍ، وغيَّرت من شكله تمامًا خاصَّةً عندما ارتدى السِّروال الطَّويل. كان أوَّل سروالٍ طويلٍ يرتديه هو سروال السِّجن.

الجميع طبعًا متشوِّقٌ إلى معرفة قصَّة الصَّبيِّ. وفقًا للادِّعاء العامِّ، قتل الصَّبيُّ صاحبَ المزرعة متعمِّدًا وفرَّ بفعلته ليُقبَض عليه على بعد أميالٍ بعيدة، وصرف النُّقود التي سرقها من صاحب المزرعة في شراء المكسَّرات وحلوى الزَّنجبيل؛ ولكن وفقًا لأقوال الصَّبيِّ فقد أُرسل للعمل في المزرعة خلال شهور الصَّيف، وتمَّ تعنيفه والإساءة إليه من قبل الرَّجل الذي قتله. لم ينكر أبدًا عمليَّة القتل، ولكنَّه قال إنَّه كان متحاملًا جدًّا عليه بسبب ما فعله به، لدرجة أنَّه لم يقاوم فكرة قتله، وسرق النُّقود كجزءٍ من الانتقام.

رأيت هذا الصَّبيَّ وهو يكبر حتى أصبح شابًّا. كبر بسرعةٍ كبيرةٍ، قَدَمًا أو أكثر خلال السَّنوات الخمس التي بقي فيها في السِّجن قبل أن يحصل على العفو. كان صاحب خلقٍ طيِّبٍ، وطبَّق كلَّ القوانين والقواعد بشكلٍ تامٍّ، وأصبح محبوبًا من قِبَل الجميع. بُذل جهدٌ كبيرٌ لمنحه العفو في نهاية سنته الأولى، ووفقًا للقانون قوبل هذا الجهد بمعارضاتٍ كثيرةٍ من طرف أقارب الرَّجل المقتول وأيضًا من قبل بعض المسؤولين في الولاية حيث حدثت الجريمة.

بعد الاستماع إلى القضيَّة عدَّة مرَّاتٍ قرَّر مجلس مدراء سجن الولاية أنَّ عليه أن يقضي نصف مدَّة حكمه وفقًا للقوانين. ستَّ عشرة سنةً تعني فعليًّا عشر سنوات: أي أنَّها تعطيه ستَّ سنواتٍ كرصيدٍ بسبب حسن السُّلوك. وبهذا تصبح نصف مدَّة الحكم خمس سنوات. خرج الصَّبيُّ بعفوٍ بعد خمس سنواتٍ تمامًا في اليوم نفسه الذي صادف يوم دخوله.

ولكن، ومن باب الإنصاف، عليَّ أن أذكر أنَّ اثنين من المدراء، وهما «وارين آر. بورتر» و«تايري فورد»، كانا يؤيِّدان بقوَّةٍ منحه عفوًا مبكِّرًا. ولكنَّ الأمر يحتاج إلى أربعة أصواتٍ مؤيِّدةٍ من الأعضاء الخمسة في المجلس لمنح العفو.

بعد سنةٍ من وصول كلاود ـ وهو اسم الصَّبيِّ بالمعموديَّة ـ أخرجوه من المستشفى ووضعوه في زنزانة. وُظِّف أيضًا كمندوبٍ للمكتب الخارجيِّ، ومنحته هذه الوظيفة إقامةً مريحةً في العنبر الثَّاني.

في ليلةٍ من اللَّيالي رأيته واقفًا أمام زنزانته ينتظر قدوم حامل المفتاح ليفتح له الباب. وقف هناك محدِّقًا إلى ما وراء الجدار. كانت الشَّمس تغرب خلف الهضاب، وبدت الأراضي في سفح الجبل جميلةً وساحرةً، ولكنَّ الصَّبيَّ بدا حزينًا، ورأيت شيئًا من المأساويَّة في وقفته وهو يضع كعب رجلٍ على كاحل الرِّجل الأخرى.

لقد سُلبَ طفولتَه. لم يلعب ويجرِ مع الأطفال الذين في عمره. لم يذهب قطُّ للسِّباحة، ولا لصيد الأسماك، ولا للقنص إلَّا حينما كبر وأصبح رجلًا. دفع غرامة جريمته عندما كان طفلًا. جريمةٍ مخيفةٍ وقعت فعلًا ولا يمكن إنكارها. كنت أفكِّر في أمره كثيرًا، وأشعر بالشَّفقة عليه.

في أثناء وقوفه، بصق فجأةً على الدَّرج، واكتشفت أنَّه كان يمضغ التَّبغ. لم يعد صبيًّا صغيرًا. لقد أصبح فجأةً رجلًا عمره 15 سنة.

الفصل السَّادس والعشرون

في بداية تمُّوز من سنة 1907 كان المأمور جون سي. إدغار طريح الفراش وتوشك يده أن تصافح يدَ الموت. تخلَّى جون بعد مرضه عن العمل في سجن سان كوينتن. في الفصول السَّابقة من هذا الكتاب رويت حقائق ليست في صالحه كرجلٍ وكآمرٍ للسِّجن معًا. أولئك الأشخاص الذين لا يعجبهم النَّقد، ويتحدَّثون عمَّا يجب أن أتحلَّى به من احترامٍ للموتى وعدم التَّحدُّث عنهم بالسُّوء، عليهم ألَّا يتغاضوا عن حقيقة أنَّني أحترم الموتى، الموتى الرَّاقدين في تلك النَّدبة البشعة من الأرض، النَّدبة التي تؤذي العين وتعتصر القلب عند الاقتراب من سان كوينتن.

بالتَّأكيد ليس لديَّ أيُّ رغبةٍ في قول أو كتابة أيِّ شيءٍ استمتاعًا بالقسوة. ولكنَّ الحقائق هي الحقائق، وأنا لا أستطيع أن أمتنع عن ذكر حقائق الموتى كما لا أستطيع الامتناع عن ذكر حقائق الأحياء. وإن بدوت لك كمن يلقي بالأحكام، فلتعلم أنَّ ما أحمله في قلبي وعقلي هو ذاته الذي يحمله آلاف السُّجناء وذووهم. كلُّنا نلقي بالأحكام، عن قصدٍ أو من غير قصد. وهذا ببساطةٍ دليلٌ على أنَّ شعوبنا لم تلتزم بدينها حقًّا.

كشخصٍ كان لجون الكثير من الصِّفات الحسنة. وكمسؤول سجنٍ من المدرسة القديمة حقَّق نجاحًا باهرًا. ولكن كآمر سجنٍ من المدرسة الجديدة فشل فشلًا ذريعًا.

قبل عدَّة أسابيع من استقالته انتشرت شائعةٌ مفادها أنَّ جون إي. هويلي،

سكرتير مجلس مدراء سجن الولاية في ذلك الوقت، سيصبح آمر السِّجن الجديد. واتَّضح أنَّ الشَّائعة كانت صحيحة. أصبح معروفًا كسكرتيرٍ لمجلس المدراء ونال مكانةً شعبيَّةً بين السُّجناء، وعندما نُشر أنَّه عُيِّن كآمرٍ للسِّجن غمر السُّجناءَ شعورٌ بالرَّاحة والطمئنان. بشكلٍ ما شعر الجميع بأنَّه الشَّخص المناسب في المكان المناسب.

خلال السَّنوات الأربع التي تلت ذلك والتي تعرَّفت خلالها على الآمر هويلي بشكلٍ جيِّد، تكوَّن لديَّ تجاهه حبٌّ كبيرٌ واحترامٌ عظيم، وهذا يجعل الحديث عنه بحياديَّةٍ أمرًا صعبًا بالنِّسبة إليَّ. لقد قدَّم الكثير وكانت فترة إدارته أفضل ما حدث لهذا السِّجن إذ كشفت كلَّ الأخطاء والعلل في جميع الإدارات الأخرى السَّابقة. وعندما نذكر أنَّه كان آمرًا للسِّجن يجب أن نعرف أنَّه ليس بمقدوره تغيير النِّظام وأنَّ وظيفته هي تطبيق المسؤوليَّات الموكلة إليه بقدر استطاعته ووفق النُّصوص والقوانين التي وُضعت من قِبَل مدراء السِّجن، ومن هنا نفهم أنَّه لا يستطيع استحداث أو تحسين الأوضاع بمفرده، ولا يمكن لومه على ذلك.

يقينًا لو كان الأمر بيد الآمر هويلي وتحت سلطته لقلبَ سجن سان كوينتن رأسًا على عقبٍ وجعله بعيدًا كلَّ البعد عن البربريَّة المعهودة، ومع هذا، وفي مقابل هذه العبارة، عليَّ الإقرار بأنَّه لم يقم ببعض الأشياء التي كان بإمكانه القيام بها، ولو أنَّه قام بها لأمدَّنا بخطوةٍ كبيرةٍ نحو الاتِّجاه السَّديد.

بعد بضعة أيَّامٍ من تولِّي الآمر هويلي مسؤوليَّته هرب سجينان منقولان إلى سان كوينتن من فولسوم من بين الخمسين الذين قدموا للعمل في المبنى الجديد. قبل هروبهما كان هذان الرَّجلان يعملان في قسم الصُّخور، ويقع عملهما في الهضبة الواقعة شمال السِّجن، وكانا يقومان بإشعال الفتائل والقنابل عند الصُّخور طوال ساعات النَّهار. لاحظ الرَّجلان أنَّه كلَّما تفجَّرت الصُّخور وذهب الجميع للاحتماء وراء الهضبة كان الحرَّاس ينسون تمامًا أنَّ

عليهم مراقبة السُّجناء فيتركون أماكنهم ليذهبوا ويتفرَّجوا على الانفجارات وهي تشتعل. ولكي يغتنما فرصةً كهذه، ذهب هذان الرَّجلان إلى وراء الهضبة في ظهر أحد الأيَّام للابتعاد عن الانفجار. لم يستطيعا مقاومة صوت الحرِّيَّة الذي كان يغنِّي لهما، فتابعا التَّقدُّم. عندما حدث الانفجار كانا خلف قمة الهضبة، ولم يرهما أحدٌ وهما يهربان.

بعد عدَّة دقائق من عودة رجال الصُّخور للعمل اكتشف الحارس أنَّ العدد قد نقص شخصين. بدأ بالبحث بين الصُّخور وباءت محاولته بالفشل، فأرسل إنذارًا إلى الآمر هويلي. بعد أن تمَّ حصر عدد السُّجناء الآخرين وحبسهم، أُرسل الحرَّاس المسلَّحون بالبندقيَّات لتمشيط الهضاب. ولأنَّ عمليَّة الهرب اكتُشفت في فترةٍ قصيرةٍ جدًّا، كان من المتوقَّع أنَّهم سيلقون القبض على الهاربَين.

كنت واقفًا على شرفة المكتب عندما جيء بالرَّجلين. أحدهما قد التوى كاحله وهو يجري في أوَّل ميل، ومشى إلى المكتب وهو يعرج ويسنده صديقه المدان. خلفهما وبالقرب منهما وقف اثنا عشر حارسًا، كثيرٌ منهم بدا راضيًا عن نفسه بشكلٍ مفرط. لم يكن هناك معنىً لدخول هذا الكمِّ الكبير من الحرَّاس إلى الدَّاخل، ولكنَّهم أرادوا أن يكونوا حاضرين حتى النِّهاية. كانوا يعلمون أنَّ الآمر في الدَّاخل، وأرادوا أن يعرف أنَّهم ممَّن شارك في المطاردة.

حالما وصل الهاربان إلى المكتب بدأت صفَّارة المطحنة بالصَّفير لإعلام الحرَّاس الذين كانوا ما يزالون في الخارج بأنَّه قد تمَّ إلقاء القبض على الهاربَين. لم ألحظ من قبل كم كان صفير المطحنة جنائزيًّا. الصَّفَّارات الطَّويلة تزعق في اللَّيل وكأنَّها صياح أرواحٍ ضائعة. وكان وجها الرَّجلين اللَّذَين فُتنا بالحرِّيَّة مليئين بالأسى والحزن في ذلك الوقت. أدركا أنَّهما سينالان العقاب حتمًا، وأنَّهما بمحاولتهما تقصير مدَّة حجزهما قاما بمضاعفتها. كلاهما محكومان بحكمٍ طويلٍ، ولمَّا كانت محاولة الهرب تعني فقد الرَّصيد، فإنَّه سيتحتَّم

عليهما قضاء محكوميَّتهما الطَّويلة حتى آخر لحظةٍ منها. ما إن اقتربا من شرفة المكتب حتى قام الآمر هويلي بصرف الحرَّاس وقال للسَّجينين بلطفٍ: «اذهبا مع حارس الفناء». ثمَّ التفت إلى حارس الفناء قائلًا: «لا أظنُّ أنَّنا سنعاقبهما يا صديقي، أعطهما بعض العشاء ودعهما يذهبان إلى زنزانتهما. لقد عانيا بما فيه الكفاية من عقابٍ مسبق، وبالطَّبع سيُزال رصيدهما من قِبَل المدراء».

بدا حارس الفناء مذهولًا، وأخذ ينظر إلى الهاربَين بشراسةٍ، ثمَّ أجاب الآمر:

«لماذا أيُّها الآمر، ما الذي تفكِّر به؟ بالطَّبع يجب معاقبتهما. إن لم تعاقبهما، وتعاقبهما بشدَّةٍ، فسيكون لديك هاربون جُدُدٌ كلَّ أسبوع. عليك أن تجعلهما عبرةً لغيرهم من السُّجناء».

مشى آمر السِّجن إلى نهاية الشُّرفة، وتحدَّث مع حارس الفناء طويلًا. سمعت الحارس يقول شيئًا من قبيل: «دائمًا ما يستغلُّ الأوغاد عاطفة آمر السِّجن الجديد. لا يجب أن تريهم ضعفك». بدا آمر السِّجن قلقًا، وبعد كثيرٍ من الإقناع وافق على حكم حارس الفناء وأرسل الهاربَين إلى السِّجن الانفراديِّ وأخذا نصيبهما من السُّترة، وفي أثناء ذلك كان الآمر موجودًا بالقرب من مكان تعذيبهما وشهد عمليَّة الرَّبط. عندما عاد من هناك بدا شاحبًا جدًّا وفقد وعيه خارج البوَّابة الأماميَّة ثمَّ أخذ يمشي ببطءٍ مطأطئًا رأسه.

بالنِّسبة إليَّ كان لهذه الحادثة أهمِّيَّةٌ كبيرة. عندما كان الحارس يجادل الآمر حول معاقبة الهاربَين تمنَّيت بعمقٍ لو أنَّ الآمر يبقى متمسِّكًا برأيه ويتبع تعاليمه المنطلقة من حكمه الخاص. ولكن عندما نجح الحارس في استفزازه، وهو من بقايا إدارةٍ رجعيَّةٍ، شعرت حينئذٍ بأنَّ المستقبل لن يكون مشعًّا كما بدا لنا في البداية.

ظلَّ الرَّجلان في السُّترة قرابة خمسة أيَّام، ستَّ ساعاتٍ فيها، وستَّ ساعاتٍ خارجها، قوتهما الخبز والماء. كلاهما عانى تورُّمًا في الكاحل

خلال العذاب. وعندما اجتمع مجلس المدراء قرَّر حرمان السَّجينين من رصيدهما. كلاهما ما يزال قابعًا في السِّجن. أحدهما كان سجينًا مثاليًّا بكلِّ معنى الكلمة، ولكنَّ وجهه أصبح عابسًا وشاحبًا، ولم يعد إلى الابتسام أبدًا طوال فترة محكوميَّته.

ما الذي فعلاه؟ لقد استغلَّا إهمال الحارس، حارسٍ يتلقَّى أجرًا على مراقبتهما، وهربا من غير ارتكاب أيِّ عنفٍ أو المخاطرة بأيِّ حياةٍ عدا حياتهما. الحارس المسؤول عن نجاحهما بالهرب طُرد، وهذه الحقيقة تبيِّن أنَّ السَّجينين كان لديهما الحقُّ في الهرب. ومع هذا تعرَّضا لعقابٍ شديد، ولو أنَّهما اختارا أن يشقَّا طريقهما من زنزانتهما ليلًا، وقاتلا لنيل حرِّيَّتهما، لكان أجزى لهما. عند هروبهما كانا محاصرَين بالحرَّاس المسلَّحين وكان بإمكان الحرَّاس إطلاق النَّار عليهما وطرحهما قتيلين لو رآهما أحدهم وهما يركضان عبر التِّلال. إن كان على الرَّجلين أن يتمَّا محكوميَّتهما، ولم يعطيا حقَّ العفو، وسُحب رصيدهما، فلن أعجب أبدًا إن عادا لحياة الإجرام. هل ستعجب إن فعلا ذلك؟

منذ بداية إدارته أثبت الآمر هويلي اهتمامه بالسُّجناء كأفراد. كان هذا شيئًا جديدًا. الآمرون الآخرون حافظوا على طباعٍ متماثلةٍ تبقيهم في موقفٍ سلطويٍّ مع السُّجناء، وعادةً ما كانوا ينظرون إليهم بشكلٍ جماعيٍّ ويصفونهم بـ «الأوغاد». ولكنَّ الآمر الجديد كان مختلفًا. بالنِّسبة إليه كان كلُّ سجينٍ مختلفًا عن الآخرين بطباعه ويستحقُّ أن يُنظَر إليه كإنسان.

خلال الشُّهور الثَّلاثة أو الأربعة الأولى بعد قدومه إلى المكتب قضى الآمر هويلي معظم وقته بين الجدران، طوال الصَّباح والمساء. وكان يقوم بزياراتٍ دوريَّةٍ إلى المطحنة والمستشفى ومرافق السِّجن المختلفة، وهذا أمرٌ لم يفعله أيُّ آمرٍ من قبل. فهو لم يقم بتلك الزِّيارات للتَّفتيش في تلك الأماكن، بل كان يتحدَّث مع الرِّجال العاملين هناك أيضًا.

قبل شهورٍ قام صحفيٌّ بزيارة السِّجن وشاهد الآمر وهو يقضي وقته برفقة السُّجناء. رأى الكاتب أنَّ ذلك كان أمرًا رائعًا، وقدَّر شجاعة الآمر، ولكن عندما نُشر مقاله في الصَّحيفة كتب أنَّ السُّجناء ليسوا سوى مجرمين شرسين ينتظرونِ اللَّحظة المناسبة لكي يغرزوا سكِّينًا في ظهر أيِّ رجلٍ حرٍّ يمشي بينهم. تلك الكلمات أشعرتني بالتَّقزُّز. وأظنُّها ستُشعر أيَّ سجينٍ يقرؤها بالتَّقزُّز. وكتب أيضًا: «لقد أثنيت على الآمر لتحلِّيه بالشَّجاعة ووضعه حياته تحت رحمة الرِّجال الذين يشرف عليهم». بمعنىً آخر، أثنى عليه لإيقانه بحقيقة أنَّ السُّجناء ليسوا مخلوقاتٍ بشريَّة. صحيحٌ، الآمرون الآخرون لا يختلطون بالسُّجناء أبدًا، ولكن أن تثني على آمرٍ لتجوُّله بلا حمايةٍ في المطحنة فذلك شيءٌ سخيف.

لم يستطع ذلك الكاتب فهم المعنى الحقيقيِّ والعميق وراء فعلٍ كهذا. أنا لا أعطي الآمر هويلي أيَّ تفضيلٍ لاختلاطه بمن يشرف عليهم، ولكنَّني أقدِّر استيعابه الفطريَّ للطَّبيعة البشريَّة والذي حثَّه على فعل هذا، لأنَّ هذا النَّوع من الاستيعاب هو أحد المؤهِّلات الضَّروريَّة التي يجب على الآمر أن يتحلَّى بها.

في كلِّ مساءٍ كان الآمر يذهب إلى المكتب ويقلِّب ألبوم الصُّور والسِّجلَّات. كان أمرًا عجيبًا أن يحفظ جميع الأسماء والقضايا لآلاف السُّجناء بتلك السُّرعة. وبعد معرفته بقضيَّةٍ ما، كان دومًا يطرح الأسئلة، مبيِّنًا رغبته في معرفة الدَّوافع. فالدَّافع طبعًا هو العامل الأهمُّ الذي يوضع في الحسبان في كلِّ جريمة. الآمر هويلي لديه المؤهِّلات والصِّفات التي تمكِّنه من إدراك ذلك. ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى أصبح قادرًا على مناقشة الحقائق التي تخصُّ كلَّ سجينٍ تحت إشرافه، واتَّضح لاحقًا أنَّه كان يؤيِّد العفو عن كلِّ سجينٍ يستحقُّ ذلك. وطبعًا، عرف الرِّجال هذا الأمر وأصبح الآمر الجديد محبوبًا بينهم، خاصَّةً مع حدوث انخفاضٍ ملحوظٍ في نسبة العقاب، وتفشِّي روح المراعاة والتَّفهُّم تجاه أولئك الذين يخلُّون بالقوانين.

في ليلةٍ من اللَّيالي وخلال مراجعته ألبوم الصُّور مرَّ الآمر على صورة سجينٍ حُكم عليه بالمؤبَّد. كان قد قضى في سان كوينتن أربع عشرة سنة. كانت الصُّورة لشخصٍ نحيل الوجه، ولديه ندبةٌ كبيرةٌ فوق عينه، وتحت الصُّورة كانت الكلمات: «سرقة. مؤبَّد. سان فرانسيسكو».

«من هذا الرَّجل؟»، سأل الآمر ملتفتًا بوجهه ومشيرًا بإصبعه إلى الصُّورة. «لم أره قطُّ. أين يعمل؟». كان موظَّف الأقفال محكومًا بالمؤبَّد أيضًا، وكانت لديه قدرةٌ مدهشةٌ على تذكُّر أسماءٍ ووقائع تخصُّ كلَّ سجينٍ في هذا السِّجن. اقترب ونظر إلى الصُّورة. «حسنًا، هذا إلْ. يعمل في المطحنة. عمل هناك منذ وصوله إلى السِّجن. إنَّه شخصٌ هادئٌ جدًّا وقلَّما يلحظه أحد، ولا يطلب أيَّ شيءٍ أبدًا. عندما عملت في المطحنة حاولت أن أجعله يتكلَّم مع المسؤول من أجل وظيفةٍ أخرى؛ ولكنَّه لم يقبل. لطالما كان سجينًا مثاليًّا ويستحقُّ عملًا جيِّدًا».

«ماذا فعل؟ لِمَ هو هنا؟»، سأله الآمر بفضول.

«يُقال إنَّه هنا بسبب السَّرقة».

«من أيِّ نوعٍ كانت هذه القضيَّة؟».

«أوه، لم تكن قضيَّةً خطيرة. هو مجرَّد ضحيَّةٍ لأحد القضاة الظَّالمين. في يوم المحاكمة حكم القاضي على مجموعةٍ من الشُّبَّان بالمؤبَّد، وكان إلْ مجرَّد صبيٍّ، ولكنَّه وثلاثة شبَّانٍ آخرين، جميعهم أكبر منه، أقنعوا رجلًا مغفَّلًا بدخول منزلهم ليلعب الورق معهم، وقاموا بسرقته. أخذوا ساعته وبضعة دولارات، وكانوا جميعًا سكارى في ذلك الوقت. كان المغفَّل مخمورًا أيضًا، ولكنَّه تذكَّر موقع المنزل، وجاء في اليوم التَّالي برفقة كلبٍ وقبض على إلْ وعلى شخصٍ آخر. في ذلك الوقت كان هناك الكثير من السَّرقات وكانت الكلاب مدرَّبةً على الإمساك بالمجرمين. السَّارق الآخر تعرفه. أتذكر المدعوَّ

(بي)؟ حصل على عفوٍ الشَّهر الماضي. إنَّه أكبر من إلْ بكثير؛ ولكن كان لديه بعض المعارف وخرج بمحكوميَّة عشرين سنة. حُكم على إلْ بالمؤبَّد ومنحه القاضي أقسى عقوبة».

قال الآمر: «لو أنَّه هدَّد رجلًا بالمسدَّس لما وصل حكمه إلى المؤبَّد. سأنظر في قضيَّته بنفسي».

في اليوم التَّالي تمَّ استدعاء إلْ، وحكى للآمر قصَّته، وطلب منه الآمر أن يقدِّم طلب عفوٍ. قدَّم إلْ الطَّلب وبعد بضعة شهورٍ وافق مجلس مدراء سجن الولاية على منحه العفو. ولكنَّه كان بلا أصحابٍ وبلا مال، فتبرَّع الآمر له بخمسةٍ وعشرين دولارًا، وأحضر له ملابس جديدةً، وأعطاه مالًا كافيًا ليبدأ حياته، وبفضل جهود مدير السِّجن حصل على عملٍ في أحد قوارب الصَّيد. بعد ستَّة شهورٍ من خروجه أرسل إلْ إلى الآمر هويلي كلَّ المال الذي أعطاه إيَّاه، وبعد سنتين من العفو المشروط تمَّ العفو عنه بالكامل. التقيتُ إلْ في شارع ساتر مساء يوم أحدٍ وتحدَّثت معه. أخرج دفتر بنكٍ من جيبه وعيناه ممتلئتان بالفرح والفخر. كان يمتلك رصيدًا يبلغ 1000 دولار.

سألته: «هل عانيت كثيرًا كي تستقيم؟».

«أجل، في البداية لم يكن أفراد الطَّاقم الذي عملت معه يعلمون أنَّني كنت متَّهمًا سابقًا، وعندما حلَّ عيد الميلاد المجيد أقاموا مأدبةً كبيرة. شرب الجميع، وطلبوا منِّي أن أشرب معهم، وأحدهم هدَّد بأن يلقيني من على سطح القارب إن لم أشرب، وفي بضع دقائق تطوَّر الأمر ليصبح مشكلةً حقيقيَّة. ولكنَّني تماسكت واستطعت الوصول إلى الشَّاطئ. لم أعد إلى القارب في تلك اللَّيلة. وفي أحد الأيَّام رآني متَّهمٌ سابقٌ على متن القارب وحاول إيذائي. أعطيته القليل من المال مرَّةً أو مرَّتين ثمَّ توقَّفت عن ذلك، فأغضبه الأمر وذهب إلى القارب وأخبر الجميع بحقيقتي. طبعًا كان القبطان يعرف

منذ البداية، ولذلك لم يشكّل هذا فارقًا على المستوى الوظيفيّ، ولكن بعض أفراد الطّاقم لم يعجبهم ذلك، فحصلت على وظيفةٍ أخرى حالما استطعت. كان من مصلحتي أنّني كنت سجينًا سابقًا وأنّ القبطان كان على درايةٍ بالأمر».

متى ما خرق سجينٌ معفوٌّ عنه قوانين العفو وأُعيد إلى السّجن، يعلم العامّة بالخبر. والقرّاء غير الفقهين يستنتجون مباشرةً أنّ هذا يدلّ على أنّ العفو قانونٌ غبيٌّ. ولكنّ العامّة لا يجيدون سماع قصص من يجيدون صنعًا. الكثير منهم واجه عقباتٍ وإحباطاتٍ أسوأ بكثيرٍ من تلك التي تخطّاها إلْ. من المهمّ أن نتذكّر دومًا أنّ 85٪ من السُّجناء المعفوّ عنهم ينقذون أنفسهم ويصبحون مواطنين جيّدين. ولكنّ هناك عاملًا مهمًّا جدًّا في قضيّة إلْ. لقد كان مطمورًا تحت منظومة السّجن. كان تائهًا، ولم يعرف أحدٌ أنّه سجينٌ سابق. خلال السّنوات الأربع عشرة عمل بجدٍّ وصدقٍ، يومًا بعد يوم. جاء الآمرون وذهبوا، وبقي يعمل. ثمّ وبمحض الصُّدفة، أكثر من كونه تدبيرًا، إذا برجلٍ ذي بصيرة، ذي إيمانٍ بالفرد كفردٍ، يُعَيَّن آمرًا. ومن خلال الاطّلاع على السِّجلّات وطرح التّساؤلات عرف أنّ إلْ كان يقضي حكمًا بالمؤبّد لسرقة بضعة دولارت. وبعرض القضيّة على مجلس مدراء السّجن حصل إلْ على العفو. ثمّ وبإعطائه خمسين أو ستّين دولارًا من ماله الخاصّ ساعد الرّجل على أن يبدأ مشواره نحو إنقاذ نفسه. لِمَ كان كلُّ هذا مربوطًا بالصُّدفة؟ فلنفترض أنّ الآمر هويلي لم يكن مهتمًّا بالأفراد، كيف كان لإلْ أن يحصل على رصيد بـ 1000 دولار؟

قبل بضعة شهورٍ اقتبست الصُّحف في كلّ أنحاء الولايات المتّحدة مقولة الآمر هويلي التي مفادها أنّ مدّة ولاء الزّوجة لزوجها المسجون هي ثلاث سنوات. أنا متأكّدٌ تمامًا من أنّ الآمر هويلي لم يقل شيئًا كهذا. ربّما قال شيئًا قريبًا من هذا وهو أنّ بعض الزّوجات يتخلّين عن أزواجهنّ السُّجناء، خصوصًا في حال كان محكومًا على الزّوج بمدّةٍ طويلةٍ، أو في حال وجدن

الرَّاحة عند حبيبٍ آخر بعدما سُلبن حبَّهنّ الأوّل وزُجّ به خلف القضبان، ولكن من المستحيل أن يقول الآمر إنَّ ولاء النِّساء لا يتعدَّى ثلاث سنوات، لأنَّه كان يهتمُّ بشكلٍ شخصيٍّ بتلك الحالات ويعرفها عن قربٍ وعن تجربة.

إنَّ غالبيَّة الزَّوجات يبقين مخلصاتٍ سواءٌ أكانت النِّهاية سعيدةً أم مريرة. أوفى صورةٍ لولاء الزَّوجة وجدتها هنا في سجن الولاية. غالبًا ما تكون الملابسات التي تتمحور حول قصصٍ كهذه مدعاةً للشَّفقة. في اللَّيلة الماضية وفي أثناء مخاطبة جمعٍ عامٍّ تذكَّرت حالةً من هذا النَّوع حين رأيت الزَّوج بين الجمع. آخر مرَّةٍ رأيته فيها كان في زيِّ السِّجن وكان أمامه عددٌ من السِّنين ينتظره هناك. والأرجح لو أنَّني لم أره بين الجمع لما كنت فكَّرت بهذه الحالة أو بارتباطها بهذه القصَّة.

المئات من القصص الإنسانيَّة ستطوى بالتَّأكيد ولن تدوَّن لأنَّه من المستحيل على العقل استرجاعها بحذافيرها. ولكنَّ وجهًا وسط الحشود أو كلمةً عابرةً أو محادثةً لحظيَّةً غالبًا ما تنجح باسترجاع تلك الأمور التي قد يُخيَّل إلينا أنَّها ضاعت إلى الأبد.

هذا الرَّجل الشَّابُّ الذي رأيته كان قد تزوَّج قبل فترةٍ قصيرةٍ من وقوع المأساة التي تسبَّبت في دخوله سجن سان كوينتن لسبع عشرة سنة. كان ما يزال صبيًّا آنذاك، ولكنَّه كان فارع القامة بجسمٍ ذكوريٍّ بديعٍ طوله 6 أقدام. وكانت زوجته صغيرةً وجميلة.

في ليلةٍ من اللَّيالي عندما عاد إلى المنزل بعد يوم عملٍ شاقٍّ كان هناك طبقٌ واحدٌ ينقص سفرة العشاء، فجرت لإحضاره من البقالة المجاورة. عندما عادت بعد بضع دقائق كانت تحمل مشترياتها؛ ولكنَّها كانت تلهث وتبكي. قلق زوجها للغاية، وسألها ما الذي حصل. في البداية امتنعت عن إخباره؛ ولكن في النِّهاية أذعنت لإصراره. أهانها رجلٌ كان يقف عند ناصية الشَّارع وهي تمشي في طريقها، ثمَّ راح يتعقَّبها إلى المنزل.

فورَ سماعه ذلك التقط الزَّوج الشَّابُّ سترته وقبَّعته وجرى خارجًا. لا أحد يعلم ما حدث إلَّا هو؛ ولكن كان هناك إطلاقٌ للنَّار ورجلٌ ميِّتٌ ملقىً في الشَّارع. قُبض على الزَّوج الشَّابِّ وأُدين بالقتل.

خلال الأسابيع التي تلت شارفت الزَّوجة الصَّغيرة على فقدان عقلها بينما كان زوجها في السِّجن ينتظر محاكمته. أصرَّ على ألَّا تكون من الشُّهود. لم يشأ أن تقف على المنصَّة وتذكر أمام الملأ ما الذي قاله لها القتيل.

أيَّده في ذلك محاميه، إذ كان رأيه أنَّ ذكر الإهانة التي تعرَّضت لها الزَّوجة من قِبَل الرَّجل سيُعَدُّ سببًا للقتل، وعندئذٍ سيتمسَّك بها محامي المقاطعة كدافعٍ وغالبًا سيؤدِّي ذلك إلى القول بأنَّ الجريمة كانت مدبَّرة، على الأقلِّ بدرجةٍ ما. لا القانون ولا المجلس يبرِّران قتل الزَّوج رجلًا أهان زوجته بالكلمات، خاصَّةً أنَّه لم يكن موجودًا وقت الحادثة وقد مرَّ بعض الوقت بين الإهانة والقتل.

لذلك قرَّر الزَّوج أن يدَّعي أنَّ الرَّجل الذي قتله كان يحاول سرقته. ذهب إلى جلسة المحاكمة بتلك القصَّة، وتمَّت إدانته بجريمة قتلٍ من الدَّرجة الثَّانية وحُكِمَ عليه بالسَّجن سبع عشرة سنة.

منذ يوم وصوله، وطوال كلِّ السَّنوات الكئيبة التي تلت ذلك اليوم، كانت الزَّوجة الصَّغيرة تأتي دائمًا لرؤيته. كانت تبدو منهوكةً ورثَّة الهيئة، ولكنَّها دائمًا ما كانت تبتسم عندما تراه يدخل غرفة الاستقبال، ومع مرور الوقت حصلت على عملٍ في أحد المحلَّات وكانت تُعيل نفسها بهذه الطَّريقة.

في السَّنة الأولى كان الزَّوج يحاول التَّظاهر بعدم المبالاة وبالتَّماسك؛ ولكنَّ جهوده بالتَّغطية على مشاعره الحقيقيَّة كانت واضحةً بشكلٍ يثير الشَّفقة. ومع مرور الوقت صار وجهه يصبح شيئًا فشيئًا مرآةً لما في روحه، إلى أن تحوَّلت تعابير وجهه إلى لوحةٍ تحكي عن ألمٍ وشقاءٍ ملازمَين له.

بدت عيناه وكأنَّهما غارقتان في الأسى. لقد رأيت الكثير من العيون البشريَّة الحزينة؛ ولكن لم أر عينين تعكسان الموت الدَّاخليَّ أكثر من عينيه.

كانت الزَّوجة الصَّغيرة تأتي كلَّ شهرٍ لرؤيته، وكانت أيضًا تلتقي بالآمر وترجوه، وبعد أن أقنعها أخيرًا بعدم قدرته على مساعدة زوجها في الحصول على العفو قبل أن يتمَّ شرطَ نصف المحكوميَّة الذي أقرَّه مجلس المدراء، كتبت رسالة. ومصادفةً رأيت تلك الرِّسالة. الكاتب في مكتب الآمر، بسبب إعجابه بمضمونها، أراني إيَّاها. كانت مكتوبةً بخطٍّ تلميذةٍ وكانت غارقةً بالدُّموع. جملةٌ واحدةٌ بزَّت كلَّ الجمل الأخرى. لم أستطع نسيانها أبدًا. وما تزال تخطر ببالي في أوقاتٍ غريبة. كانت الجملة:

«أرجوك، يا سيِّدي الآمر، ساعده ليخرج حتى نتمكَّن من إنجاب طفلٍ كغيرنا من المتزوِّجين».

عندما أتمَّ الزَّوج الشَّابُّ نصف محكوميَّته قدَّم طلب عفو. بذلت الزَّوجة الصَّغيرة الغالي والنَّفيس وأذلَّت نفسها إلى أقصى الحدود في سبيل زوجها. كانت تحتاج إلى وجوده بجانبها. لقد أرهقها العمل لسنواتٍ في المتجر واستنفد صحَّتها. كان سجلُّه في السِّجن مثاليًّا. ولكن بعد عرض الطَّلب أمام المجلس عرَّضوه للذِّلِّ المعتاد ورفضوا طلبه. نسيت الإجراء الذي اتَّخذوه على وجه التَّحديد. ولكن ربَّما كان تأجيلًا لسنةٍ كاملة. حاول المتقدِّم أن يتفهَّم سبب حرمانه من العفو، ولكن بلا فائدة. عندما يرفض المجلس العفو عن سجينٍ ما لا يذكرون أيَّ سبب.

لقد استوفى هذا الرَّجل كلَّ الشُّروط المطلوبة، وكانت أخلاقه في السِّجن مثاليَّة. كانت لديه زوجةٌ معذَّبةٌ ونصف مريضةٍ وتحتاج إليه بجانبها، وقانون الولاية ينصُّ على أنَّ من يستوفي هذه الشُّروط يمكن منحه العفو، ومع ذلك حُرمَ منه، ومن غير سبب. لطالما بدا لي أنَّ قانون العفو قد وُضع

لأجل حالاتٍ كهذه، إن لم يكن لأجل أيِّ قضيَّةٍ تستحقُّ، ولكنَّه لا يطبَّق بهذا الشَّكل. إذا شعر عضوٌ واحدٌ من مجلس المدراء بالكره والعداء تجاه مقدِّم الطَّلب يستطيع هذا العضو حرمانه من العفو.

يذكِّرني هذا بأحد المحلَّفين في أوكلاند والذي صوَّت ضدَّ مدانٍ بالقتل من الدَّرجة الأولى في حين أنَّ الأحد عشر رجلًا الذين معه صوَّتوا بتبرئته. ظلَّ المحلَّف معارضًا لكلِّ المناقشات والطُّروحات المنطقيَّة، وبسبب تمسُّكه بصوته تمكن من التَّغلُّب على صوت المجلس. بعد انفضاض الاجتماع وخروجهم من المحكمة مشى رئيس المحلَّفين إلى الرَّجل الذي تسبَّب في شنق المتَّهم وسأله لماذا صوَّت ضدَّه. فالدَّلائل كلُّها تشير إلى براءته. فردَّ الشَّانق بإنجليزيَّةٍ ضعيفة: «حسنًا، لم تعجبني طريقته في تصفيف شعره». لم يستطع رئيس المحلَّفين تمالك أعصابه ولَكَمَ الرَّجل على وجهه.

في جلسةٍ تبعت تلك تمَّت تبرئة المتَّهم. ولكن بالعودة إلى الزَّوج الشَّابِّ، فبعد أن حُرِمَ حقَّ العفو بدأ أخوه «بالعمل». كان هذا الأخ يعيش في ولايةٍ بعيدة، وكان قد حاول التَّدخُّل والتَّأثير في مجريات القضيَّة قبل سنواتٍ مضت. ولكن حينذاك، وبعدما عرف أنَّ القوانين تنصُّ على أنَّ عليه قضاء نصف المدَّة، تراجع. وعند معرفته بما حصل بعد إتمام نصف المدَّة، رفض الخنوع لمثل هذا الإقصاء التَّعسُّفيِّ، وباذلًا كلَّ ما في وسعه، نجح في إعادة النَّظر في طلب أخيه، وحصل أخوه أخيرًا على العفو.

الزَّوج والزَّوجة معًا الآن، ويعيشان حياةً سعيدة. ولكن، فلنفترض أنَّ أخاه بقي ساكنًا ولم يتحرَّك وسمح بحصول هذا لأخيه، من كان سيستفيد من ذلك؟ من الذي أو ما الذي يحاولون حمايته؟

الفصل السَّابع والعشرون

في كانون الأوَّل من سنة 1907، أُطلق سراح سجينٍ يُدعى إفْ. ديْ. من سجن سان كوينتن. كانت له ذراعٌ واحدة؛ ولكنَّه كان قد حصل على بديلٍ صناعيٍّ للطَّرف النَّاقص وهو في السِّجن. عندما ذهب إلى غرفة الملابس ليرتدي ملابس الخروج أُخذت الذِّراع الاصطناعيَّة منه، ولم يُسمَح له بأخذها عندما غادر السِّجن. فعلوا هذا بحجَّة أنَّ الذِّراع قد تحتوي على رسائل أو نقود. الذِّراع صُنعت داخل جدران السِّجن، وكان القصد من صناعتها مساعدته على العمل بكفاءةٍ أكبر في السِّجن. ولكن بعدم سماحهم له بأخذها معه إلى الخارج، حرموه من القدرة على كسب رزقه بالاعتماد على مصادره الخاصَّة المحدودة.

أتذكَّر حادثةً أخرى لرجلٍ مسنٍّ صنع عكَّازًا لنفسه في السِّجن. كان شيئًا رائعًا بذل في العمل عليه الكثير من الجهد وكان منقوشًا بشكلٍ جميل. عندما أنهى محكوميَّته طلب الإذن بالسَّماح له بأخذ العكَّاز ولكن رُفض طلبه.

بالتَّأكيد، ما دمنا تحت النِّظام الحاليّ، فيجب سنُّ قانونٍ يسمح للسُّجناء بصنع أشياء كهذه في زنزاناتهم، وبحيث يستطيع كلُّ سجينٍ أن يأخذ معه ما صنعه عند خروجه.

تقول النَّظريَّة الحاليَّة إنَّ السَّجين يرسَل إلى السِّجن كي يعاقَب. الكثير من الأشخاص متمسِّكون بهذا الرَّأي. وطالما هذا هو الهدف، فسيبقى سجناء السِّجن ممنوعين من الحياة كبشرٍ وسيبقون مضطهَدين بكلِّ شكلٍ وطريقة.

ولكن بعد هذا الاضطهاد، وبعد تلك الفترة غير الطَّبيعيَّة، يُنتظر منهم أن يتقدَّموا إلى الأمام نحو العالم الطَّبيعيِّ للبشر، حيث المبادرة والاعتماد على النَّفس والمسؤوليَّة هي من أهمِّ الأمور للنَّجاح في هذا الصِّراع الرَّأسماليِّ، ويُطلب منهم أن يتحلَّوا بالصِّفات نفسها التي حُطِّمت فيهم ومُحقت عندما كانوا في السِّجن.

أنا لا أحثُّ هنا على العفو عن خارقي القوانين. كلُّ ما هنالك أنَّني أحاول تسليط الضَّوء على أنَّ الأمور الخارجة عن الطَّبيعة في حياة السِّجن تتوافق مع سلبيَّات المجتمع لكي أوضِّح كيف أنَّ الفكرة الأساسيَّة لهذا العقاب خاطئة. كان من المفترض أن تكون هذه الأمَّة أمَّةً متديِّنة. لم يحرِّض ديننا قطُّ على معاقبة أحدٍ وبالأخصِّ معاقبة الأعمى. الرِّجال الذين يرتكبون الجرم يجب أن يوضعوا تحت الحجز؛ ولكن لا يجوز أن يتضمَّن السِّجن أيَّ عنصرٍ من عناصر الانتقام أو ردِّ الإساءة، وعلى الاحتجاز أن يستمرَّ بقدر ما يحتاج المذنب إلى ذلك، وليس لأكثر من ذلك.

في ظلِّ ذلك الاحتجاز يجب تدريب مقترف الذَّنب، وليس ضربه وإهانته. ليس في العنف شيءٌ من المنطق ولا من الإحسان ولا هو بمُجدٍ اقتصاديًّا. افهمْ هذا الكلام كما تريد. لا يمكن إنكار هذا إن كانت هذه الأمَّة تتَّبع الدِّين حقًّا.

أتذكَّر سجينين جاءا من الولاية نفسها معًا. كلاهما كان سجينًا سابقًا. أحدهما قام بسرقةٍ من الدَّرجة الأولى (ليلًا)، وتلقَّى حكمًا بالسَّجن لمدَّة سنتين. والآخر قام بسرقةٍ من الدَّرجة الثَّانية (صباحًا، ونظريًّا تُعَدُّ جريمةً أدنى درجةً من سابقتها)، وتلقَّى حكمًا بالسَّجن أربع سنوات.

في كلتا الحالتين كان القاضي على درايةٍ بحقيقة الإدانات السَّابقة.

أيُعَدُّ هذا حمايةً للمجتمع؟ لا أعني أنَّه كان عليه أن يحكم عليهما بمدَّةٍ

أطول. وتحت نظام السِّجن الحاليِّ هذا حتمًا لن يجدي أيَّ نفع، بل سيكون بقصد الانتقام لا أكثر: ولكن لِمَ حصل هذان الرَّجلان على حكمين غير متساويين بهذا الشَّكل؟ وعندما يُسجنان لماذا لا يُدرَّبان على أن يصبحا مواطنَين نافعَين بدلًا من سجنهما غير الطَّبيعيِّ وغير الإنسانيِّ والتَّعسُّفيِّ لمدَّةٍ زمنيَّةٍ ثابتة؟

الكثيرون يتغاضون عن حقيقة أنَّني أهاجم النِّظام، لا الأفراد. ما دمت أحصل على لقمة العيش وأخضع لقوانين المجتمع فأنا أريد الحماية كغيري من البشر. هي من حقِّي كما هي من حقِّ أيِّ شخصٍ آخر. ولكنَّني لا أريد أن أحمي نفسي عن طريق الانتقام من رجلٍ أعمى. لقد كنت أعمًى أنا أيضًا.

العقوبة المخفَّفة في الحالتين اللَّتين ذكرتهما لم تكن إلَّا لأنَّ المدانَين قد اعترفا.

يمكن بالمنطق نفسه أن يُعطى مريض الجدريِّ علاجًا مخفَّفًا لأنَّه اعترف بإصابته بالجدريِّ. طبعًا من الممكن ألَّا يكون على علمٍ بإصابته بالجدريِّ وظنَّ ذلك ببساطةٍ لأنَّه كان يشعر بأنَّه يعاني خطبًا ما، ولكن طالما أنَّه يوافق على أنَّه مصابٌ بالجدريِّ، فلتدعوه يذهب بسلام. لا تبذلوا أيَّ جهدٍ في معالجته، أرسلوه إلى الكاهن كعقابٍ على إصابته بالجدريِّ، واجعلوا الحكم مخفَّفًا لأنَّه اعترف.

لا تشغل فكرك أبدًا فيما إذا كان الجرَّاح الذي يعمل في الكنيسة، والمسيَّر من قِبَل جماعةٍ من السِّياسيِّين، قد عالجه. أخرجه إلى المجتمع نصف معافىً. لا بأس في ذلك فقد تعرَّض للعقاب.

هل سيُحكَم على الرَّجل الذي يعارض ذلك بأنَّه عاطفيٌّ؟ ألا يمكن الإقرار بأنَّه كان يفكِّر بمصلحة المجتمع كما يفكِّر بمصلحة الجاني؟ وإذا طالب بأن يكون الرِّجال المسؤولون عن الكنيسة رجالًا أكفاءً وأن يكون المكان نظيفًا، هل ستنتشر شائعةٌ بأنَّه مثليُّ الجنس؟ وهل حقيقة أنَّه مصابٌ بالجدريِّ تسلبه الأهليَّة بأن يتحدَّث عمَّا يعرف؟

أتذكَّر صبيًّا زُجَّ به في السِّجن. كان أحد أربعة صبيةٍ سرقوا قاطرةً في إيريكا قبل خمسة سنوات. ساقوا القاطرة نحو البحر. وبسبب عدم علمهم بكيفيَّة التَّعامل مع القارب، تسبَّبوا في نشوب حريقٍ هائلٍ أتى على القاطرة بأكملها. تمَّ إنقاذهم في الوقت المناسب، وزُجَّ بهم في سجن سان كوينتن.

لاحقًا، وبناءً على أعمارهم، نُقلوا إلى الإصلاحيَّة. كلُّ هذا كانتقامٍ، كعقاب. أحدهم عاد إلى سان كوينتن بعد إخراجه من الإصلاحيَّة، ومات في المستشفى القديم من آثار تسمُّمٍ بالطَّعام. آخر، بعد إخراجه من الإصلاحيَّة، أدخلوه سجن ولاية نيفادا تحت حكمٍ بأربع عشرة سنةً لإقدامه على السَّرقة.

فلنفترض أنَّ هؤلاء الصِّبية قد مُنحوا فرصةً بعد جريمتهم الأولى، أو فلنفترض أنَّهم أُدخلوا مركزًا للرِّعاية بدلًا من العقاب. هل كانوا سيضطرُّون إلى إدخالهم السِّجن للمرَّة الثَّانية؟ كان من شأن تدريبهم، تحت نظامٍ صحيحٍ، أن يعالج سلوكهم. وكان من الممكن أن يبقى الصَّبيَّان تحت وصايةٍ الولاية إلى حين شفائهما. أمَّا الوضع الحاليُّ فهو أنَّه يُنظر إليهما كمجرمَين، والأرجح أنَّهما سيظلَّان مع تلك الفئة إلى الأبد.

كنت أكتب لصالح النِّظام الحاليِّ ليرضى عنِّي الكثير من النَّاس؛ ولكن عليَّ ألَّا أحيد عن الحقيقة لأجلهم ولأجل نفسي ولأجل هؤلاء الذين بدأوا يرون شعاع النُّور في أفق هذه الحضارة.

في كلِّ مرَّةٍ يجتمع فيها مجلس المدراء يوضع صندوق بريدٍ في الباحة ويُكتب عليه: «رسائل إلى مجلس مدراء سجن الولاية». وأيُّ سجينٍ يرغب في التَّواصل مع المدراء، لديه الحقُّ في وضع رسالته في هذا الصُّندوق الذي يُفتَح في أثناء اجتماع المجلس. ولكن من النَّادر أن تلقى هذه الرَّسائل أيَّ اهتمام، وقد رأيت الصُّندوق وهو يبقى شهورًا دون أن يلمسه أحد.

أتذكَّر بوضوحٍ مرَّةً فُتح فيها هذا الصُّندوق في أثناء اجتماع المجلس. كان

العمل المعتاد قد انتهى وبقيت ساعةٌ قبل موعد القطار. اقترح أحد الأعضاء أن يفتحوا صندوق البريد، وتمَّ فتحه. أوَّل رسالةٍ استلمها الحاكم كانت شكوى من أحد السُّجناء. قرأ الرَّئيس الرِّسالة جهرًا، واستُدعي السَّجين. دخل الغرفة ووجهه مليءٌ بعلامات الاستفهام، وطلب منه الرَّئيس أن يُفصح عن شكواه.

«أيّة شكوى؟»، سأل السَّجين. «ليس لديَّ أيُّ شكوى».

«أليس اسمك جي، أليس هذا رقمك؟»، سأل الرَّئيس مشيرًا إلى الرِّسالة التي أمامه.

«نعم، هذا اسمي ورقمي»، أجاب الرَّجل.

«ألم تكتب هذه الرِّسالة تشتكي من هذا وذاك؟».

بدا السَّجين حائرًا للحظةٍ، ثمَّ أضاء وجهه.

«أوه، بالتَّأكيد أنا من كتبها، أتذكَّر الآن. ولكنَّني نسيت. لقد مرَّت سنةٌ كاملةٌ على كتابتي تلك الرِّسالة، ولكنَّني بخيرٍ الآن، يا سادة».

وبالرُّجوع إلى تاريخ الرِّسالة تبيَّن أنَّ السَّجين كان يقول الحقيقة.

يُسمح للسُّجناء بكتابة الرَّسائل إلى الآمر أيضًا. إنَّه يتلقَّى ما بين عشر رسائل إلى عشرين رسالةً في اليوم. وكلَّما سنح له الوقت استدعى كاتب الرِّسالة وقابله. ولكن، بالطَّبع، هذا لا يحدث كثيرًا، وتكون النَّتيجة أنَّ الرِّجال الذين كتبوا إلى الآمر لا تتسنَّى لهم فرصة لقائه لشهورٍ بعد ذلك. الكثير من الرَّسائل ليست مهمَّةً جدًّا، ومن المتعب استدعاء رجلٍ يكتب أنَّ لديه موضوعًا مهمًّا وضروريًّا ليناقشه لتجد أنَّها مجرَّد خدعةٍ لمقابلة الآمر بغية حلِّ قضيَّته الخاصَّة.

وفي المقابل، وبشكلٍ متكرِّرٍ، يحدث أن يُظلم رجلٌ ما، إمَّا بسحب امتيازاته وإمَّا بعقابه، فيكتب إلى الآمر طالبًا مقابلته. ثمَّ يمرُّ شهران أو ثلاثة أشهر قبل أن يحصل عليها، وعندئذٍ يكون قد فات الأوان على التَّحقيق

وتصحيح الخطأ. أعرف حالاتٍ كثيرةٍ من مثل هذه. وسيظلُّ الحال هكذا حتى يصبح الضَّابط الذي تقع تحت إمرته العقوبات رجلًا عادلًا وذا مروءة. الرَّسائل التي تُرسَل إلى المجلس، أو إلى الآمر، لا تحقِّق الكثير.

بالتَّحدُّث مع سجينٍ خرج في الفترة الأخيرة، قال لي إنَّه كتب عدَّة رسائل إلى الآمر بأنَّه لم يتلقَّ العلاج الطِّبِّيَّ المناسب؛ ولكنَّه لم يحظ بمقابلته. طلب الرَّجل منِّي أن أتأكَّد من ذكر أنَّ السُّجناء لا يحصلون على أيَّة حمَّالاتٍ أو مناشف ولا حتى على معجون أسنان. «بالطَّبع، يحصلون على الصَّابون، ولكن أتعلم؟ دائمًا ما يكون صلبًا كالصَّخر ومليئًا بمحلولٍ كريه الرَّائحة».

عند وصول سجينٍ ما، حتى لو كان لديه المال، لا يمكنه شراء منشفةٍ قبل نهاية الشَّهر. تُعاد حمَّالات السِّروال التي كان يرتديها عند وصوله. ولكن إن لم يكن لديه مالٌ لا يمكنه الحصول على زوجٍ آخر منها خلال فترة سجنه. تنصُّ اللَّوائح على أنَّ المتاجرة أمرٌ يعاقب عليه القانون. ولكن، بالتَّأكيد، يمارس السُّجناء التِّجارة فيما بينهم. ماذا في وسع المحكوم بالمؤبَّد أن يفعل إن أراد إبقاء سرواله مرفوعاً؟

سأذكر قصَّة سجينٍ حُكم عليه بالمؤبَّد، وعندما جاء إلى السِّجن في كانون الأوَّل من سنة 1907، حصل على منشفةٍ من قِبَل سجينٍ كان يعرفه من الخارج. حدث ذلك قبل أن يخبر أحدٌ هذا الرَّجل المستجدَّ عن القانون الذي يمنع أيَّ سجينٍ من إعطاء شيءٍ لسجينٍ آخر.

رأى حارس الفناء الرَّجل المستجدَّ مع المنشفة وسأله من أين حصل عليها. عرف الرَّجل من أسلوب الملازم أنَّه خرقَ قانونًا ما، ولكي يحمي صديقه، قال إنَّ المنشفة قد أُعطيت له من قِبَل سجينٍ لا يعرفه، رجلٍ غريبٍ اقترب منه وسأله إن كان لديه منشفة، وعندما أجابه بالنَّفي أعطاه واحدة.

استمع الحارس إلى هذه القصَّة وطلب منه مرافقته إلى العنبر «ليريه أين

هو ذلك الرَّجل»، ولأنَّ هذا السَّجين لم يشي بصديقه، زُجَّ به في السِّجن الانفراديِّ.

طبعًا من الضَّروريِّ وضعُ قوانين تحدِّد تلك الأمور، ولكن بالنِّسبة إلى رجلٍ جديدٍ وصل للتَّوِّ إلى السِّجن، لا يجوز أن يتعرَّض للعقاب. كان من شأن التَّوبيخ والتَّأنيب أن يكونا أكثر تأثيرًا في حالته.

أحيانًا يصل السَّجين وهو مخمورٌ ويكون فظًّا أو صاخبًا. الكثير من الضُّبَّاط الذين يُحضرون الرِّجال إلى السِّجن يظنُّون أن شرب بضع كؤوسٍ سيجعلهم غير مدركين لمصيرهم بشكلٍ مؤقَّت. ولكن بعد أن يدخل الرَّجل السِّجن يقلُّ مفعول المشروبات التي تؤثِّر في عقله.

أحيانًا يسمح نائب العمدة للسُّجناء بشراء بعض التَّبغ في أثناء الرِّحلة، فيظنُّون أنَّه سيُسمح لهم بإدخاله معهم إلى سان كوينتن. ولكنَّ القاعدة تنصُّ على أنَّ السُّجناء الجدد لا يمكنهم إدخال أيِّ شيءٍ ما عدا ملابسهم الدَّاخليَّة وأمشاطهم، وإن كان معهم مناديل أو مناشف فإنَّها تُرسَل إلى المغسلة، وتُعاد إليهم بعد يومين أو ثلاثة أيَّام.

في إحدى المرَّات جاء رجلٌ بساقٍ اصطناعيَّةٍ وكان معه رسائل حبٍّ مخبَّأةٌ في تلك السَّاق. كان هناك رسالتان وخصلة شعر، وبالطَّبع، اكتُشفت عند تفتيش الرَّجل. كان سيقضي خمس عشرة سنةً بتهمة إشعال الحرائق، وكانت الرِّسالتان من حبيبته. عندما اكتُشفتا وقُرئتا استاء بشدَّة.

«لِمَ خبَّأتهما في ساقك؟»، سأله حامل المفتاح، «ألا تعلم أنَّنا كنَّا سنعطيك إيَّاهما لو وضعتهما في جيبك؟».

«نعم، كنت أعرف ذلك. قالوا لي في السِّجن. ولكنَّني لم أرد أن يراهما أحدٌ غيري. إنَّهما ملكي، واسمها مقدَّسٌ بالنِّسبة إليَّ».

أعطوه الرِّسالتين وخصلة الشَّعر البنيَّة، وأخذوا ساقه. مشى إلى الفناء على عكَّازيه. وبعد عدَّة أيَّام، بعد أن تمَّ تفتيش السَّاق بشكلٍ مكثَّفٍ، أُعيدت إليه.

في أحد الصَّباحات توقَّف حارسٌ كان يعمل في سان فرانسيسكو عند مكتب حامل المفتاح وأخبره بمعلومةٍ عن «بلاكي بي». قال له إنَّه رآه يعمل في تصليح السَّيَّارات في المدينة. كان «بلاكي» في سان كوينتن وكان شخصيَّةً معروفة. وعندما عرف السَّيِّد موراي، حارس الفناء، أنَّ بلاكي كان موظَّفًا قال سريعًا: «يا إلهي، شركة (ستير) للسَّيَّارات يجب أن تعرف بهذا. يا لها من فرصةٍ رائعةٍ بالنِّسبة إليه! يمكنه أن يسرق الجيوب وينشل المجوهرات وهو يمرُّ بين الحشود. في المرَّة القادمة عندما أذهب إلى المدينة سأخبرهم بذلك!».

وما أزال أسمع الضَّابط نفسه يشتم السُّجناء الذين عادوا إلى السِّجن بسبب جريمةٍ أخرى. «حسنًا، حسنًا: عدتَ مجدَّدًا؟ لا بدَّ أنَّك قد تعلَّقت بالمكان. لقد وصلت في الوقت المناسب لعشاء العيد». هذا هو السَّطر الذي كان يستقبل به هؤلاء الذين يعودون بعد محاولاتٍ مضنيةٍ للعودة إلى جادَّة الصَّواب ولكنَّهم فشلوا.

في مناسبةٍ أخرى سمعت السَّيِّد موراي يسأل حامل المفتاح إن كان قد لاحظ وثيقة زواجٍ في أيٍّ من سجلَّات سان فرانسيسكو.

«ذلك الرَّجل، إيْ جيْ، سيتزوَّج، والمهر بضعة دولاراتٍ وفطائر. هي وأهلها لا يعرفون أنَّه محتالٌ سابق. يجب أن يعرفوا».

في هذه الحالة كان موراي على صوابٍ بفكرة أنَّ الفتاة يجب أن تعرف حقيقة هذا الرَّجل؛ ولكنَّه لم يكن على صوابٍ من منظوره، لأنَّ نظرته كان منطلقةً من رغبته في تكذيب الرَّجل والانتقام منه لا من رغبته في حماية الفتاة. قضى جي خمس عشرة سنة في السِّجن. وكان سجينًا هادئًا، محافظًا على واجباته، ورجلًا بحقٍّ.

وهذا الأسلوب والعقليَّة التي يفكِّر بها بعض ضبَّاط السِّجن القساة تجاه

الرِّجال الذين قضوا محكوميَّتهم وتمَّ الإفراج عنهم لم يحقِّق شيئًا لهم، وأرى أنَّه من الأفضل للسَّجين المفرَج عنه أن يعترف من تلقاء نفسه بكلِّ ما هو عليه منذ البداية، وأن يحاول أن يخلِّص نفسه بهذه الطَّريقة. من الصَّعب طبعًا القيام بهذا الأمر؛ ولكنَّني واثقٌ من أنَّه يساعد السَّجين في معظم الحالات.

ليس للسُّجناء المفرَج عنهم أيَّة حقوقٍ ما داموا يشعرون بأنَّ أسرارهم ستُفضح. أتذكَّر قصَّةً مثيرةً جدًّا عن سجينٍ مُفرَجٍ عنه خرق شروط العفو وهرب. وبالطَّبع تمَّ اتِّخاذ الإجراء المعتاد وانتشرت صور مرتكب المخالفة على أمل الإمساك به.

في أثناء تجهيز الصُّور تذكَّر السَّيِّد موراي فجأةً أنَّ مرتكب المخالفة كان ودودًا جدًّا مع سجينٍ آخر، يُدعى جي، عندما كان كلاهما في الحبس. كان قد أُفرج عن جي قبل مدَّةٍ قريبة، بعد قضائه محكوميَّته، وقد خطر في باله أنَّ مرتكب المخالفة ربَّما يكون قد اجتمع بصديقه الحميم، وربَّما كانا معًا في تلك اللَّحظة. اقترح هذا الاحتمال على حارس الفناء، فما كان من هذا الضَّابط إلَّا أن أمر المصوِّر بصنع صورٍ لجي ليتمَّ نشرها مع صور من خالف شروط العفو، وأنهى المنشور بذكره أنَّ الرَّجُلَين مسافران معًا.

كان هذا بالتَّأكيد ظلمًا حقيرًا لجي الذي أتمَّ محكوميَّته وخرج دون أن يحصل على عفوٍ، وذلك فقط لأنَّ ضابطًا في السِّجن تخيَّل أنَّه قد يكون برفقة رجلٍ منتهكٍ لشروط العفو. نُشرت صوره وأُهينت سمعته بين النَّاس.

في حادثةٍ أخرى سمعت الآمر (ليس الحاليَّ) يقول إنَّ كلَّ السُّجناء الذي خرجوا من السِّجن عليهم العمل بالمعول والمجرفة لكي يشعروا بانحدارهم. بمعنًى آخر، بعد دفعهم الغرامة المحدَّدة بالقانون، وبعد أن يكونوا قد أدَّوا دينهم للمجتمع وفق أسس النِّظام الحاليِّ في التَّعامل مع مخالفي القانون، على الجناة أن يشعروا بأنَّهم منبوذون وليس لهم الحقُّ في فرصةٍ أخرى كأيِّ شخصٍ آخر، مهما كانت رغبتهم في تقويم أنفسهم.

وكمقارنةٍ مباشرةٍ مع هذا التَّعامل والرَّأي تجاه السَّجين الخارج من السِّجن من قِبَل بعض المسؤولين، سمعت مرَّةً أنَّ ضابطًا رفيع الرُّتبة في سان فرانسيسكو يقول إنَّه لطالما نصح السُّجناء المخلى سبيلهم بأن يبدأوا بدايةً نظيفة:

«دائمًا ما كنت أقول لهم أن يخبروا الجهة التي سيعملون لديها عن أنفسهم. سيفيدهم ذلك، وأنا أعلم ما الذي أتكلَّم عنه».

«وهل تظنُّ أنَّ محتالًا سابقًا يمكن أن يصبح شيئًا ما؟»، سأل السَّيِّد موراي بترقُّبٍ باهت. «هل سيصبحون جيِّدين جميعهم؟».

«هذا بالطَّبع ممكن»، كانت الإجابة، «طبعًا قلَّةٌ منهم لن يكونوا كذلك ولكنَّ أغلبهم يفعل أكثر ممَّا يتخيَّله معظم النَّاس».

هناك سجينٌ معتقلٌ اليوم في سان كوينتن بعد الإفراج عنه من سجن فولسوم حيث قضى خمسًا وعشرين سنة. كان عجوزًا ومريضًا وقت خروجه وأوَّل عملٍ له كان في إسطبل الحيوانات. ولكنَّه عمل ليومٍ واحدٍ فقط وطُردَ لأنَّه لم يعرف كيف يروِّض الحصان. ثم مضى ليعمل بالمجرفة. بعد ثلاثة أيَّامٍ طُرد ثانيةً لأنَّه كان مسنًّا جدًّا وضعيفًا لا يقوى على إسناد قامته.

لعدَّة أسابيع عاش وهو لا يكاد يملك قوت يومه، وفي النِّهاية، وبسبب اليأس، اقترف جريمةً أخرى وأُعيد إلى السِّجن. لطالما كنت أعتقد أنَّ الجريمة الثَّانية ليست جريمةً أبدًا، على الأقلِّ جريمته هو.

أحد أسمى الأفعال التي عرفتها عن الآمر هويلي هو دعم السَّجين الذي أُعيد إلى سان كوينتن لخرقه شروط العفو. عندما أتمَّ هذا الرَّجل محكوميَّته بذل الآمر كلَّ ما في وسعه لضمان عملٍ له. بشكلٍ عامٍّ يحصل منتهك شروط العفو على أسوأ الفرص. يبدو وكأنَّ الجميع يشعر أنَّه قد حصل على فرصته، وأنَّه ليس هناك المزيد منها. ولكن في هذه الحالة أيقن الآمر أنَّ هذا الرَّجل

بالتَّحديد كان يستحقُّ تشجيعًا أكبر ومساعدة، وأنَّه كان يواجه صعوبةً جديدة. لذلك حصل على عملٍ له. وهذا الرَّجل قدَّر ما فعله الآمر لأجله، وصار رجلًا صالحًا.



الفصل الثَّامن والعشرون

عند منتصف اللَّيل، وباستثناء الضَّوء الخافت المتذبذب في البرج الكهربائيِّ كان كلُّ شيءٍ ساكنًا كالمقبرة. مباني السِّجن القاتمة تقسَّمت كقالب كعكة الجبن مع الأبواب الحديديَّة العديدة التي ظهرت وكأنَّها أربعة أضرحةٍ كبيرة. الأمواج من السَّاحل المجاور لا تستطيع اختراق الجدران التي تعلو في كلِّ جانبٍ وزاويةٍ من جوانب وزوايا هذه المملكة، مملكة الجريمة المولودة من عالمٍ مهووسٍ بالطَّهارة العمياء، والمبنيَّة بسواعد القانون القويَّة.

«انقضت السَّاعة الثَّانية عشرة وكلُّ شيءٍ على ما يرام!»، صاح صوت الحارس في النُّقطة رقم واحد كاسرًا فجأةً صمت اللَّيل. تُسمع صيحة الحارس في النُّقطة اثنان، ثمَّ بنبراتٍ مختلفةٍ، وبأصواتٍ غليظةٍ ورنَّانةٍ، بأصواتٍ قاسيةٍ ومتقطِّعةٍ، بأصواتٍ ناعمةٍ أو شديدةٍ أو مهزوزةٍ، يتكرَّر النِّداء من نقطةٍ إلى أخرى حتى ترنَّ كلُّ زاويةٍ وجانبٍ من زوايا وجوانب السِّجن العظيم.

مئاتٌ من النَّائمين يتقلَّبون في أسرَّتهم الضَّيِّقة في زنزاناتهم سيِّئة التَّهوية. يتعرَّفون نداءات القانون التي يطلقها أعداؤهم اللَّيليُّون حتى في أثناء نومهم ليذكِّروهم بأنَّهم مدانون، مسجونون، مذنبون ومنبوذون ومكروهون.

كان هذا في منتصف ليلة الحادي والثَّلاثين من كانون الأوَّل، وهو النِّداء الذي يُدعى بنداء السَّنة الجديدة. لبعض السُّجناء لا يعني هذا شيئًا، فالوقت عندهم فقدَ صلته بالحياة. أمَّا بالنِّسبة إلى القاطنين في ذلك الصَّفِّ من الزِّنزانات حيث الأضواء تُضاء كلَّ اللَّيل حتى لا يجد انتحارٌ في الظَّلام مهربه

من المشانق التي تعني فجر الأبديَّة، آخرَ بداية سنةٍ جديدةٍ، يومًا أقرب إلى المشنقة. لقلَّةٍ قليلةٍ يمثِّل ذلك النِّداء وعدًا بالاقتراب من الحرِّيَّة، بداية سنةٍ طال انتظارها، ربَّما لخمس أو عشر سنواتٍ أو خمس عشرة سنة. ولبعضهم الآخر تعني استعادة ذكريات الطُّفولة، ذكريات أيَّامٍ خوالٍ احتفلوا فيها بفجر سنةٍ جديدة.

«السَّاعة الثَّانية عشرة، وكلُّ شيءٍ رائع!».

تموت الأصداء أخيرًا، ويعود كلُّ شيءٍ ساكنًا مرَّةً أخرى. ومرَّةً أخرى يعود الرِّجال والصِّبية في الزِّنزانات الخاوية إلى النَّوم العميق. لا صوت يُسمع إلَّا أصوات الخطوات المتسارعة لأقدام دوريَّة الحرس الثَّانية، وبضع همهماتٍ تقول: «ليلةً هانئةً»، وتمنِّياتٌ بعودة الرِّجال إلى عائلاتهم، وتنهيداتٌ تكسر السُّكون.

ولكن ثمَّة صوت! ما هذه الضَّوضاء المنخفضة والبعيدة؟ في البداية يبدو الصَّوت وكأنَّه صفير ريح؛ ولكنَّه سرعان ما يتغيَّر ليبدو كدويِّ صفَّاراتٍ بعيدةٍ، بعيدةٍ لدرجة أنَّك لا تستطيع تمييزها، ويُخيَّل إليك أنَّها تصيح: هيهاتَ هيهاتَ أن يعود الفرح. تبدأ قطرات المطر بالانهمار بينما يخرج الحارس الأخير من البوَّابة الأماميَّة ذاهبًا إلى النَّوم. جاء هذا المطر ليعمِّد هذه السَّنة المولودة للتَّوِّ.

«إنَّهم يقضون وقتًا ممتعًا في مدينة فريسكو اللَّيلة»، قال حارس البوَّابة وهو يوصد الباب الحديديَّ خلفه. هناك في شرفة المكتب يقف جسمٌ ما وحيدًا. إنَّه تمثال رجلٍ طويلٍ وعريض المنكبين بملابس داكنةٍ وقبَّعة سباق الخيل. إنَّه آمر سجن سان كوينتن. لقد مضى على كونه الآمر ستَّة أشهر. ماذا يفعل داخل السِّجن في تلك السَّاعة من اللَّيل؟ أليس هذا وقت نومه في منزله؟ جميع الحرَّاس في مواقعهم، والسُّجناء جميعهم مأمَّنون في زنازينهم السَّوداء.

التَّفسير سيتَّضح ممَّا سيقوله وهو يمرُّ بالحارس الواقف في نقطة الحراسة رقم 1 في طريقه إلى خارج السِّجن:

«حسنًا، ولكنَّ ذلك عاد بالنَّفع عليهم. لقد استجابوا للنِّداء طواعيةً. تصبح على خير».

ماذا قصد الآمر بهذا الكلام، ومن كان يقصد بـ «هُم؟».

لسنواتٍ وسنواتٍ كان سجناء سان كوينتن يرون ليلة السَّنة الجديدة على أنَّه الوقت الذي يتولَّون فيه زمام الأمور بأيديهم. لسنواتٍ وسنواتٍ كانوا يظلُّون مستيقظين في ليلة الحادي والثَّلاثين من كانون الأوَّل، ينتظرون نداء منتصف اللَّيل في كلِّ مكانٍ والدِّلاء والكراسي وهياكل الأسرَّة في أيديهم. وما إن يبدأ الحارس في النُّقطة رقم 1 نداءَ منتصف اللَّيل حتى يعمَّ الضَّجيج. أبوابٌ حديديَّة تُضرب بالكراسي والعلب والأحذية. والشَّتائم تلعلع حتى تخترق ظلام اللَّيل. وآلاتٌ موسيقيَّةٌ تعزف ألحانًا سيِّئة. والطَّبلة الأساسيَّة في الحمَّام عادةً ما كانت تُدقُّ حتى تتمزَّق.

كلُّ الاضطهاد، كلُّ الكراهية، كلُّ أسى تلك السَّنة كان يُطلَق فجأةً ويُصَبُّ كفيضانٍ يجعل الخوف يعتصر القلب. كانت تلك الحالة الجنونيَّة تنتشر كالعدوى. رجالٌ هادئو الطِّباع، معارضون لخرق القانون، يجدون أنفسهم يصرخون ويطرقون مع الآخرين. لثلاث ساعاتٍ يستمرُّ الهيجان. أحيانًا يخفت ويشارف على التَّوقُّف، وحينئذٍ يقوم رجلٌ أو رجلان من ذوي الطَّبع الهائج بالصُّراخ من جديد، فيتبع ذلك انفجارٌ بقوَّةٍ مضاعفة. كان الكثير من الرِّجال يستغلُّون الفرصة لينعتوا الحرَّاس والضُّبَّاط الذين لم يكونوا يحبُّونهم بأقذع الألفاظ. كان سكَّان قرية سان كوينتن يجتمعون على الهضبة الصَّغيرة خلف جدار السِّجن الشَّماليِّ ليستمعوا إلى عجيج ذلك الهياج. في اليوم التَّالي تظهر الباحة مليئةً بالكراسي المحطَّمة والدِّلاء المكسَّرة.

حاول كثيرون من آمري السِّجن أن يوقفوا عرض رأس السَّنة هذا. بعضهم وضع حرَّاسًا في الطَّبقات المختلفة وأعطاهم أوامر بأخذ أرقام الزِّنزانات التي يخرج منها أيُّ صوت. بعضهم الآخر عمَّم في الفناء أنَّ أيَّ صوتٍ في منتصف اللَّيل سيعقبه حرمانٌ من جميع الامتيازات خلال رأس السَّنة. وآخرون أيضًا جلبوا خراطيم الإطفاء مع إعطاء أوامر للحرَّاس بقذف المياه داخل أيِّ زنزانةٍ أو أيِّ عنبرٍ يصدر منه الضَّجيج. كان الأمر كالتَّلويح بعلمٍ أحمر أمام ثورٍ هائج.

في إحدى المرَّات عندما أصيب الآمر بالمرض أرسل الحرَّاس بطلبٍ إلى السُّجناء بأن يبقوا هادئين. معظهم فعل ذلك، ولكنَّ القليل منهم لم يلتزموا بذلك. ذلك الآمر بالتَّحديد لم يكن محبوبًا.

ولكن في مساء رأس سنة 1907 جاء منتصف اللَّيل ومضى بلا صوتٍ ما عدا نداء السَّاعة الثَّانية عشرة. لم يكن هناك حرَّاسٌ موزَّعون في الطَّبقات: ولم يكن هناك خطوطٌ من خراطيم المياه ممدودةٌ من الأنابيب العموديَّة: ولم يكن هناك تهديدٌ بخسارة أيِّ امتياز. مسؤولو السِّجن السَّابقون عبَّروا مرارًا عن رأيهم باستحالة القدرة على إيقاف عرض ليلة رأس السَّنة. قادةٌ بخبرة ثماني سنواتٍ لم يستطيعوا إيقافه. وبالطَّبع رجلٌ شابٌّ في هذا المنصب وفي غضون ستَّة أشهرٍ فحسب ما كان ليحلم بإمكانيَّة تحقيق ذلك. ولكنَّ هذا الشَّابَّ تمكَّن بالفعل من تحقيق ذلك، وبنجاحه هذا وضع نقطة نهايةٍ لعقودٍ من سوء الفهم بين السُّجناء ومحتجزيهم.

ما الذي فعله لينال نظرة الاحترام هذه؟ هل هدَّد الرِّجال بالعقاب؟ هل دسَّ المهدِّئات والمنوِّمات في عشائهم اللَّيلة الماضية؟ كلَّا، لم يفعل أيَّ شيءٍ من هذه الأشياء. كلُّ ما فعله هو توزيع إشعاراتٍ على الزِّنزانات والمهاجع طالبًا من كلِّ سجينٍ أن يمتنع عن التَّسبُّب في أيِّ جلبةٍ عند انتصاف اللَّيل، وقال إنَّه يرجو أن يعلموا أنَّه طلب هذا الأمر منهم بيقينٍ تامٍّ بأنَّهم لن يخذلوه وسينصتون إليه.

لماذا استجاب الرِّجال؟ حسنًا، قبل أسبوعٍ، في عشيَّة عيد الميلاد، جال الآمر في السِّجن وتعجَّب كثيرًا من وجود جوارب معلَّقةٍ في كلِّ زاويةٍ تقريبًا. كان من الممتع لضبَّاط السِّجن السَّابقين أن يروا الجوارب معلَّقةً في الخارج عشيَّة العيد، ولكن للآمر هويلي كان ذلك أكثر من ممتع. أرسل على وجه السُّرعة ضابطًا إلى نقطة سان كوينتن واشترى كلَّ زينة وفواكه المدينة، وعندما عاد الضَّابط بالحمولة تمَّ توزيعها في الجوارب في منتصف اللَّيل. في الصَّباح التَّالي عندما استيقظ السُّجناء ووجدوا الهدايا شعروا أخيرًا بأنَّ أحدًا قد تذكَّرهم بشيء، وقد ترك ذلك أثرًا عميقًا في نفوسهم.

لم تكن تلك أوَّل وقفةٍ إنسانيَّةٍ للآمر، ولكنَّ أثرها كان أعمق من أثر أيِّ شيءٍ آخر فعله. قد يصف بعضهم ذلك بالعاطفيِّ، ولكن تبيَّن لاحقًا أنَّه لم يكن كذلك. في أسبوع رأس السَّنة الميلاديَّة، وطوال ليلة رأس السَّنة، كانت الصَّفَّارات والأجراس في سان فرانسيسكو وسان رافييل ومن ساحل كونترا كوستا تدوِّي لأجل سجناء سان كوينتن وحدهم تحت طلب الآمر الجديد.

ربَّما لن يعرف بعض القرَّاء ما يعنيه عيد الميلاد وما يحمله بالنِّسبة إلى السُّجناء في سان كوينتن، وقد يظنُّون أنَّه لا يعني شيئًا لرجالٍ بزيِّ السِّجن. صحيحٌ أنَّهم يحصلون على عشاءٍ دسمٍ يتكَّون من اللَّحم؛ ولكنَّ تبشيرات الكنائس لا تصل إلى جدران السِّجن غير القابلة للاختراق.

يبدأ العيد في ساعةٍ محدَّدةٍ، السَّاعة السَّابعة صباحًا. وهذا ضروريٌّ لأنَّ الحرَّاس والضُّبَّاط يجب أن يحظوا ببعض الحرِّيَّة في العيد، وبعد ثماني ساعاتٍ في الفناء يكون السُّجناء قد شعروا بالتَّعب، وسيرغبون في العودة إلى زنزاناتهم من تلقاء أنفسهم. في ذلك الوقت من السَّنة عادةً ما يكون الطَّقس باردًا وممطرًا، ورغم التَّهوية السَّيِّئة، تصبح الزِّنزانات أفضل من مرتع الثِّيران بأبخرته النَّتنة المتصاعدة من الأسفلت الملطَّخ بالتَّبغ.

يتكوَّن الإفطار في يوم العيد من النَّقانق والبطاطا المهروسة والخبز والزُّبدة والقهوة. العشاء في السَّاعة الثَّانية بعد منتصف الظَّهيرة، ويتكوَّن من لحمٍ مشويٍّ وبطاطا وخبزٍ وزبدةٍ وقهوةٍ وفطيرةٍ وكعكةٍ وبودينق وفواكه. لا تقدَّم الزُّبدة أبدًا إلَّا في المناسبات. وبسبب الأعداد الهائلة التي يجب تزويدها بالطَّعام ومحدوديَّة عدد الأفران، يُشوَى اللَّحم بكمِّيَّاتٍ كبيرةٍ في اليوم السَّابق ويقدَّم باردًا في عشاء يوم العيد.

كمِّيَّة الطَّعام التي تُقدَّم لكلِّ رجلٍ وفيرةٌ لدرجة أنَّه لا يمكن أن يأكل أكثر من ثلثها. في المناسبات والإجازات يُسمح للسُّجناء بأخذ طعامهم معهم إلى زنزاناتهم، وعندما يمشي الرِّجال خارجين من صالة الطَّعام بعد عشاء العيد تتذكَّر مشهد طابور المهاجرين في كاسل جاردن. كلُّ رجلٍ معه جريدةٌ كبيرةٌ وابتسامة.

بعض السُّجناء الذين لا يدخِّنون التَّبغ ينتظرون أعلى الدَّرج ويقايضونه بالفطائر والكعك. يحصل كلُّ سجينٍ على نصف فطيرةٍ مقابل حصَّتين من التَّبغ. الكعك واللَّحم كلٌّ منهما يساوي حصَّةً واحدة.

في ذلك الوقت كنت أعمل في المطحنة وكان فاتي رئيسًا للمقايضات وأكبر مُرابٍ في السِّجن. في العيد والمناسبات الأخرى كان يوظِّف عملاء، بالعمولة، لينتظروا أعلى الدَّرج ويشتروا الفطائر والأطعمة الأخرى. وبهذه الطَّريقة كان يجمع ثلاثين أو أربعين فطيرة. وبعد العيد بثلاثة أو أربعة أيَّامٍ تصبح نصف الفطيرة تساوي 4 أو 5 أكياسٍ من التَّبغ، ودائمًا ما كان فاتي يخرج من تلك الصَّفقة ببضع مئاتٍ من حصص التَّبغ الجيِّدة. السُّجناء الذين يملكون المال كانوا يشترون مخزونهم بالسِّعر المرتفع، ويكونون مسرورين بالحصول عليه.

خلال الأسبوع الذي يلي يوم العيد يبقى طبيب السِّجن مشغولًا. عددٌ

كبيرٌ من الرِّجال الذين استطاعوا شراء الحصص الإضافيَّة يحتفظون بالطَّعام لفتراتٍ طويلةٍ، فيتسمَّمون عندما يأكلونه. ويحدث هذا خصوصًا مع اللَّحم. عندما يمرض سجينٌ ليلًا فإنَّه يقرقع على باب الزِّنزانة بكأسٍ قصديريَّةٍ لينبِّه الحارس اللَّيليَّ.

لا يكون الطَّبيب موجودًا في السِّجن ليلًا؛ ولكنَّه يترك بعض العلاجات مع الحارس اللَّيليِّ، كدواء التَّشنُّجات، والأملاح وقطرات مسكِّنٍ لآلام الأسنان وما شابه ذلك. إن كان الرَّجل مريضًا جدًّا يُحضر الملازم ممرِّضتين من المستشفى مع حمَّالةٍ، ويُحمل إلى أحد العنابر حيث يقوم الممرِّضون (السُّجناء) بمعالجته. وإن كانت حالته خطيرةً يتَّصلون بالطَّبيب.

قبل عدَّة سنواتٍ كان يُسمح للسُّجناء في سان كوينتن بإدخال الطَّعام والهدايا من الأقارب والأصحاب في العيد. ولكن عندما حُظرت المخدِّرات أوقفت الإدارة هذا الامتياز، فقد اكتشفوا أنَّ الأفيون والمورفين كانا يهرَّبان إلى داخل السِّجن بهذه الطَّريقة. في إحدى المرَّات دخل نصف باوندٍ من الأفيون في طبق ديكٍ روميٍّ. واستُخدمت الحلويات بالطَّريقة نفسها. حتى المناشف كانت تُنقع بمحلول الأفيون، وعند استلامها من قبل السَّجين كان يقوم بنقعها مرَّةً أخرى والسَّائل النَّاتج يُعبَّأ ويُشرب بدرجات. بعض الحيل التي تُستخدم لإدخال الأشياء كانت ذكيَّةً جدًّا. لذلك سُنَّ قانونٌ يمنع الهدايا في العيد. كان هذا قبل سنواتٍ مضت؛ ولكنَّ القانون ما يزال قائمًا.

في السَّنة الأولى من إدارة الآمر هويلي كان يريد السَّماح للسُّجناء بالحصول على الهدايا التي تصل إليهم في العيد؛ ولكنَّ ملازم الفناء منعه من ذلك. مُنعت المخدِّرات منعًا تامًّا، وعدا عن بعض المحاولات لإدخاله، معظم السُّجناء نسوا أمره.

وقف الآمر ضدَّ منع جميع السُّجناء من الحصول على هداياهم في العيد

فقط لأنَّ قلَّةً منهم كانت تستغلُّ ذلك لإدخال المخدِّرات. ولكن بقي الملازم مصرًّا على رأيه. قال إنَّ السِّجن سيصبح مليئًا بالمخدِّرات في غضون شهرٍ واحدٍ إن حدث أبسط تساهلٍ في القوانين. لذلك قرَّر الآمر ألَّا يكون هناك هدايا في العيد.

لا أعرف مَن مِنَ الرَّجلين كان رأيه سديدًا. أعرف أنَّ الوضع كان سيِّئًا عندما كانت المخدِّرات تدخل السِّجن، وأعرف أنَّ بعض الرِّجال كانوا مستعدِّين للقيام بأيِّ شيءٍ للحصول عليه. حتى الرَّسائل أحيانًا كانت تُنقَع بمياه الأفيون، فكان حامل المفتاح يقوم بتذوُّق الورق بشكلٍ متكرِّر. إن وجد طعمها مرًّا أرسلها إلى الكيميائيِّ للتَّحقُّق منها، وفي كثيرٍ من الأحيان كان يتَّضح أنَّ الرَّسائل تحتوي على مخدِّرٍ نُقع فيه الورق الذي كُتبت عليه. ولكن من النَّادر حدوث هذا الآن.

لا تحول القوانين دون إصرار الكثير من الأصدقاء على إرسال تذكاراتٍ إلى السُّجناء في العيد. الرِّجال الذين تُرسَل إليهم تلك التِّذكارات يتوجَّهون إلى المكتب ويُسمح لهم بالنَّظر إليها لتُردَّ من ثَمَّ إلى مرسلها أو ليُحتفَظ بها إلى أن ينهي السَّجين محكوميَّته. في يوم خروجه يحصل السَّجين على هداياه أحيانًا بعد أن يكون قد مرَّ عليها بضع سنواتٍ منذ وصولها.

عندما تصل الصُّور إلى البريد فإنَّها لا تُستلَم إلَّا عندما يأذن الرَّجل الذي سيتلقَّاها بفصلها عن لوحتها الكرتونيَّة. إن وافق تُرسَل الصُّور إلى المصوِّر الذي يقوم بنقعها. لا يُسمح بالحصول على الكتب والمجلَّات إلَّا مباشرةً من النَّاشر. أيُّ كتابٍ أو مجلَّةٍ يصلان وعليهما طابعٌ يُصادَران مباشرةً. حتى الاشتراك بمجلَّةٍ غير مرخَّصةٍ يعرِّض السَّجين للمساءلة.

تنصُّ القاعدة على أنَّ أيَّ شخصٍ يرغب في الاشتراك في المجلَّات عليه أن يرسل المال إلى مكتب السِّجن ليُصار إلى تقديم طلب الاشتراك عن طريقه. والقاعدة نفسها تنطبق على الكتب. أعرف الكثير من السُّجناء الذين

يمتلكون كتبًا قيِّمةً في منازلهم أو لدى أصدقائهم؛ ولكن لا يمكنهم الحصول عليها في السِّجن.

تحت إدارة الآمر هويلي يصدر عفوٌ يوم العيد كلَّ سنة. في هذا اليوم كلُّ الامتيازات التي سُحبت تُعاد، ويُرفَع أيُّ عقاب. هذا يساعد كلَّ سجينٍ على بدء السَّنة بشكلٍ جديد. إنَّه يُشعرنا بروح العيد. طبعًا أذكر العديد من اللَّحظات التي شعرنا فيها بروح العيد على نحوٍ جميل. ولكن قلَّما يدخل الدِّين جدران السِّجن، وإن كان يأتي أحيانًا من تحت الأرض.

في كانون الثَّاني 1908، ضُبط سجينٌ يدعى آر وهو يصنع زينةً من الصَّدف. اتَّهمه حارس الفناء بأنَّه يصنع الزِّينة للإتجار بها مع الحرَّاس وزُجَّ به في الزِّنزانة السُّفليَّة ووُضع في السُّترة لإجباره على الاعتراف بأسماء الحرَّاس الذين كان متعاقدًا معهم. أبقوه عدَّة أيَّامٍ في السُّترة. ستَّ ساعاتٍ فيها وستَّ ساعاتٍ خارجها. وفي مساء العشرين من كانون الثَّاني 1908، دخل إيد موريل، وكانت مهمَّته مرافقة ضابط الزِّنزانة السُّفليَّة عند نزوله إليها، إلى المكتب ودعاني إلى غرفة غسيل الصُّحون، وقال غاضبًا: «إنَّ قضيَّة آر هذه زادت عن حدِّها. لا أستطيع رؤية المزيد من هذه الأمور. أشعر أنَّني سألقي بكلِّ شيءٍ خلف ظهري وأقتل هؤلاء المعذِّبين. آر لا يستطيع تحمُّل المزيد، ومع ذلك جعلوه يعاني إلى أقصى الحدود. قبل قليلٍ طلب الضَّابط من موراي أن يضيِّق السُّترة على جسده. قال له إنَّه قد هزل كثيرًا منذ دخوله السِّجن أوَّل مرَّةٍ، لدرجة أنَّ معطفه أصبح فضفاضًا عليه، والسُّترة ستساعد على تضييق معطفه وتجعله أكثر دفئًا».

في ذلك المساء سارع حارس الزِّنزانة إلى المكتب وأخبر الضَّابط بأنَّه يعتقد أنَّ آر سيفارق الحياة. دخل الضَّابط مكتب حامل المفتاح من أجل المفاتيح ونزل إلى الزِّنزانة السُّفليَّة ليتحرَّى الأمر. وعاد بعد بضع دقائق وعلى وجهه نظرة رضًا شديدة الوحشيَّة.

«هل اعترف؟»، سأل موراي، ملازم الفناء.

«كلَّا»، كانت إجابته، «ولكنَّه سيفعل قبل أن أنتهي منه».

كان حارس الزِّنزانة السُّفليَّة في ذلك الوقت مكسيكيًّا محكومًا بأربعين سنة. لم يكن رجلًا سيِّئًا. كان ينام في كوخٍ صغيرٍ عند باب الزِّنزانة، وكان عليه أن يمنع أيَّ أحدٍ من الاقتراب من المكان. وقد حاول أيضًا إحضار الخبز والماء للضَّحيَّة في الدَّاخل.

يوضع الرِّجال الذين يعاقَبون بالسُّترة في داخلها من السَّاعة السَّابعة صباحًا وحتى الواحدة ظهرًا، وعندما يُعادون إليها مرَّةً أخرى يظلُّون فيها حتى الواحدة صباحًا. في ساعةٍ ما، يقوم الضُّبَّاط بتبديل المناوبة، وتُنزع السُّترة حتى الصَّباح. يمدُّونهم ببضع أونصاتٍ من الخبز والماء كلَّ أربعٍ وعشرين ساعة. يستمرُّ العقاب بقدر ما يشاء حارس الفناء.

خلَّفت قضيَّة آر أثرًا عميقًا في نفسي، وحاولت جاهدًا إبعاد موريل عن اقتراف أمرٍ متهوِّر. في تلك اللَّيلة بقي يجوب المكتب وكاد يبكي وهو يقول: «هل علينا أن نضحِّي ثانيةً بحياةٍ أخرى حتى يتوقَّف هذا الإرهاب؟ لا تنشر الصُّحف حديثًا لسجينٍ خرج من السِّجن. صحفٌ كثيرةٌ حاولت إيصال ما يحدث، ولكن بلا فائدة. لذلك على أحدهم أن يموت. ولكن حتى لو حدث ذلك فإنَّهم سيتكتَّمون على الأمر بشكلٍ تامٍّ».

في صباح اليوم التَّالي وُضع آر في سترةٍ إضافيَّةٍ وشُدَّت السُّترة السَّابقة عليها، وفي غضون دقائق خرقت صرخات عذابه أدمغتنا. ما أزال أسمعها حتى الآن. وسأظلُّ أسمعها. كلُّ مَن سمعها بقي صامتًا على قدر استطاعته من غير أن يُظهر أيَّ شعور. كنَّا نتحرَّك بهدوء. ومن غير أن نفهم لماذا، أردنا لتلك الصَّرخات أن ترتفع حتى تصل إلى كلِّ مكان، إلى كلِّ زاويةٍ من زوايا السِّجن، وأن تخترق الجدران خارجةً إلى العالم، إلى بيوت الرِّجال

والنِّساء، إلى المدارس، إلى الكنائس. لم يكن آر، المدان رقم 20581، هو الذي يصرخ؛ لم تكن روح إنسانٍ واحدةٌ ما كان يُخنَق، بل أرواح كلِّ المساجين مجتمعةً في جسد رجلٍ واحد. الأمَّة المسيحيَّة كلُّها كانت تشارك في قتل روح هذا المدان لأنَّه كان يمارس هوايته بصنع أشياء جميلةٍ ورقيقة. لقد صُلب الفنُّ من قِبَل نظام سجنٍ في القرن العشرين. ولكنَّ الصَّرخات لم تحرِّك ساكنًا في قلوب أولئك الذين يملكون القوَّة لوقف معاناة الضَّحيَّة. وحدهم زملاؤه المدانون مَن عانى معه، وكلُّ مَن عانى ألمًا مشابهًا لألمه شعر بالرُّعب وهو يتسلَّل إلى قلبه.

كان على الصَّرخات أن تخترق الأبواب الحديديَّة وتعصف على طول الممرِّ الذي يشبه القبو وصولًا إلى الطَّبقة الخارجيَّة. خفوتها بحدِّ ذاته جعلها أفظع. بدا الصَّوت وكأنَّ الرَّجل كان يعذَّب في غياهب الأرض. حين جاء حارس الزِّنزانة إلى المكتب للمرَّة الثَّانية كان خائفًا جدًّا، ولكنَّه عاد أدراجه بعد أن تلقَّى توبيخًا من حارس الفناء. وبعد مضيِّ بعض الوقت أصبحت الصَّرخات أضعف فأضعف. وأخيرًا توقَّفت.

عندما ذهب الملازم برفقة موريل إلى الزِّنزانة في الوقت المعتاد عند إتمام ستِّ ساعات، وهو ما يتوافق مع قانون مجلس مدراء سجن الولاية، وجدا آر فاقدًا للوعي.

عاد موريل وكانت شفته السُّفليَّة تنزف. ضرب بالمفاتيح على الطَّاولة، ونظر إلى الحارس نظراتٍ قاتلة، وأسرع عبر الفناء إلى زنزانته. لو فتح فمه بكلمةٍ لا أعلم ما الذي كان سيحدث.

حُمل آر إلى العنبر ذلك المساء. وما حدث له هناك سيسرده بنفسه إن خرج من سان كوينتن حيًّا ذات يوم.

جميع السُّجناء كانوا يغلون من الغضب. وانتقلت الهمسات من رجلٍ

إلى آخر. قرَّروا أنَّ العرض الذي أوقفوه في مساء السَّنة الجديدة يجب أن يحدث هذه اللَّيلة. كان الرِّجال مصرِّين على أن يتفاهموا معه وأن يطيعوه ولكنَّهم لن يقفوا صامتين أمام هذا النَّوع من البربريَّة. بعد الإغلاق المسائيِّ بدأ العرض. تضمَّن الطَّرق على جدران السِّجن، وصراخًا شبيهًا بصراخ الضَّحيَّة، والصِّياح بشتائم لاذعةٍ موجَّهةٍ إلى حارس الفناء. لم يستمرَّ الأمر طويلًا، ولكنَّه كان عاصفًا في أثناء حدوثه. نزل الآمر من مقرِّه ليعرف سبب ما يجري. سأل موريل عمَّا تسبَّب في ذلك.

«حسنًا، إنَّ الرِّجال حانقون لما حدث لآر. كانوا يظنُّون أنَّ مثل هذه الأمور قد توقَّفت، وأنَّك لن تسمح بالتَّعذيب».

بدأ الآمر بالكلام، ثمَّ صمت. ثمَّ بدأ بطرح الأسئلة. كلُّ تلك الأسئلة اتَّضح منها أنَّه لم يكن يدرك درجة العذاب التي طالت السَّجين. بقي قرابة ساعةٍ ثمَّ خرج مطأطأ الرَّأس ويداه خلف ظهره يجرُّ أذيال الخيبة ويمشي ببطء.

لم أستطع إلَّا أن أشعر بالحزن عليه. أعرف أنَّ هذا الرَّجل يملك قلبًا كبيرًا، رقيقًا وصادقًا، وأنَّه كان يريد أن يكون عادلًا ومنصفًا. عندما تعرَّض السَّجينان اللَّذان هربا في الأسبوع الأوَّل من إدارته للتَّقييد بالسُّترة ظننَّا جميعًا أنَّ ذلك لأنَّ الآمر ما يزال جديدًا ولا يملك الخبرة ولا يعلم تمامًا ما الذي يجب فعله. ولكن ها هو التَّعذيب نفسه يعود مجدَّدًا، ولشيءٍ أقلَّ جدِّيَّةً بكثير. بدا الوضع سيِّئًا.

تناقشت وموريل في هذه المسألة مطوَّلًا. كان يشعر بالحنق والغضب. ولكن بطريقةٍ ما، وحتى مع استمرار رنين صرخات آر في أذنيَّ، شعرت مع إحساسٍ عميقٍ في داخلي أنَّ الآمر كان طيِّبًا وإنسانيًّا ولن يتغاضى عن بربريَّةٍ أخرى كهذه. بدا غريبًا أن أشعر بهذا الشُّعور؛ ولكنَّني لم أستطع إلَّا أن أشعر كذلك. «ربَّما ما يزال الشَّخص نفسه»، ناقشت موريل، «ربَّما يريد أن يختبر

النِّظام القديم. ربَّما يريد أن يرى إلى أين سيصل رودولف، لكي يضع له حدًّا، ويعرف شخصيَّته». شخر موريل وركل علبة الفحم، وعندما توقَّفت عن التَّدحرج ركلها مرَّةً أخرى. «أنت تتعبني، حقًّا تتعبني»، قال بغضب، «هذا هو بالتَّحديد، هذا هو بالتَّحديد نمطُ التَّفكير الذي يبقي الأشياء على ما هي عليه ويغذِّيها أيضًا. ما رأيك في أن تُخنق إلى ما قبل الموت بقليلٍ لكي يتعلَّم الآمر وظيفته ويكتشف أنَّك إنسان؟ ظننتك مختلفًا، ظننت أنَّك تشعر بحدَّة السِّكِّين في صدرك عندما تراها تدخل في صدر رجلٍ آخر. ولكنَّها القصَّة المعتادة نفسها. على السِّكِّين أن تطعنك لكي تعرف ماذا تعني السِّكِّين».

«لا تكن متأكِّدًا من هذا كثيرًا»، أجبته بغضب. «أنا لا أحاول تبرير التَّعذيب أو أيِّ شيءٍ من هذا القبيل، ولكنَّني أعرف أنَّ هذا الرَّجل سيكون رجلًا طيِّبًا مع السُّجناء. لقد اقترف خطأً، خطأً فادحًا؛ ولكن ألم يقم ممثِّل السُّلطة التَّشريعيَّة بالتَّحقيق في استخدام السُّترة؟ ألم يضعوا قوانين تحدُّ من استخدامها؟ الآمر يكيِّف نفسه مع الأوضاع على قدر استطاعته، ولكن خذها منِّي، سيغيِّرها. لو أنَّه دخل كثورٍ إلى محلٍّ صينيٍّ وحطَّم جميع الأشياء هناك لما آمنت به أبدًا، فهذا السُّلوك يدلُّ على التَّهوُّر. عليك الإقرار بأنَّ الأوضاع أفضل ممَّا كانت عليه في السَّابق. لقد قلَّت العقوبات، وهذا الآمر يقوم بأشياء كثيرةٍ طيِّبة، وقد ساعد الكثير من الرِّجال على بدء حياةٍ جيِّدةٍ منذ لحظة خروجهم. انتظر وسترى».

الفصل التَّاسع والعشرون

قبل فترةٍ قريبةٍ قضيت الأمسية في في إحدى كنائس سان فرانسيسكو الشَّهيرة. كان هناك ستَّة رجالٍ حاضرين ـ كاهنان وطالب جامعةٍ وجنديٌّ وسجينان سابقان. قُدِّم العشاء على ضوء أربع شموع. ستبقى دومًا ذكرى مميَّزةً وجميلةً بالنِّسبة إليَّ.

عند دخول القسِّ مع صديقي طالب الجامعة قدَّمني للسَّجينين السَّابقين وتصافحنا. أحدهما أعرفه ويعرفني، ولكنَّني لم أكن أعلم إن كان وضعه معروفًا لبقيَّة الحضور أم لا، ولذلك لم أقل أمامهم شيئًا يدلُّ على أنَّني كنت أعرفه. عندما دعاني القسُّ للمجيء على العشاء وقضاء الأمسية قال لي إنَّ سجينًا سابقًا سيكون موجودًا؛ ولكن لم يكن لديَّ أيُّ طريقةٍ لمعرفة ما إذا كان الضُّيوف الآخرون يعرفون بأمره أم لا، خاصَّةً وأنَّ السَّجين، عندما قُدِّمت له، أظهر أمام الحضور أنَّنا كنَّا غريبين.

بعد أن جلسنا للعشاء انتقل الحديث ليناقش أوضاع السِّجن. كنت أتكلَّم عن جانبٍ معيَّنٍ من الموضوع عندما قاطعني السَّجين السَّابق. كنت أتكلَّم عن الطَّعام الذي كان يقدَّم في سان كوينتن وقد استخدمت كلمة (متكامل) كوصف. سأل القسُّ عن الطَّعام وأجبت: «بالطَّبع لم يكن شيئًا يتمنَّى الشَّخص العاديُّ تناوله، ولكنَّه متكاملٌ وتوجد كمِّيَّةٌ وافرةٌ منه».

«متكامل! متكامل!»، انفجر السَّجين السَّابق. «متكامل! يا رجل! كيف تستطيع الجلوس هنا وقول هذا؟ إنَّه عفنٌ، عفنٌ تمامًا، وتعرف هذا جيِّدًا. كانوا يقدِّمونه لنا وكأنَّنا كلاب».

بحماسه هذا نسي أنَّ بعض الأشخاص على الطَّاولة لم يكونوا يعلمون أنَّه كان سجينًا، وكان غضبه واضحًا ممَّا قلته.

«قد تسمِّي هذا الطَّعام متكاملًا»، تابع، «ولكنَّني سأشعر أنَّني عديم الرَّحمة إن أطعمته للكلاب. في العديد من المرَّات كنت أدخل صالة الطَّعام بعد قضاء يومٍ متعبٍ في المطحنة، جائعًا بما فيه الكفاية لآكل أيَّ شيءٍ تقريبًا، وكنت أجلس هناك وأبتلع الطَّعام ابتلاعًا فحسب. كنت أشعر بأنَّني كلبٌ متشرِّد، وذلك لأنَّ الطَّعام كان يُرمى إلينا بالطَّريقة التي يُرمى بها الطَّعام للحيوانات، ولكن لم يكن هذا كلُّ ما في الأمر. ألم يكونوا ينقعون الفاصولياء في مياه الصُّودا ليجعلوها ليِّنة؟ ألم يكونوا يقشطون الدُّود والأوساخ عن التُّفَّاح المجفَّف بعد أن يغلوه؟ ألم يكونوا يلقون الخضروات في المرق المغطَّى بالأوساخ مثلما تلقى النُّفايات في علبة القمامة؟ طعامٌ متكامل! سأقول لك ما سبب برودك هذا. لقد بدأت تعتاد الحياة الرَّغيدة لدرجة أنَّها أنستك ما حصل، ولأنَّك لم تقض وقتًا طويلًا في المطحنة تأكل التُّربة لتحصل على الطَّعام. يبدو أنَّك نسيت أنَّك تتكلَّم بلسان 1900 سجينٍ من الذين لا يمكنهم التَّعبير عن أنفسهم. لقد قرأت كلَّ شيءٍ كتبته، وبعضه جيِّدٌ جدًّا؛ ولكن قل القصص كما هي ولا تجمِّلها: هناك المئات ممَّن هم مستعدُّون لدعمك».

توقَّفت عن الأكل وأجَلتُ النَّظر حول الطَّاولة. كلُّ العيون كانت تنظر إلى الرَّجل الذي كان يتكلَّم، وجميعهم بدوا مقتنعين بصدقه.

سألته محاولًا تمضية الوقت والدِّفاع عن موقفي: «ألا يحصلون على خبزٍ كافٍ كلَّ يوم؟ ألا يأكل كلُّ سجينٍ بوفرةٍ حين يدخل السِّجن؟ ألا يصبح الكثير منهم بدناء؟».

أجابني: «أوه، نعم، يوجد ما يكفي من الخبز، وكنَّا نأكل عظام الأسماك الطَّازجة بعد أن نجوع في سجن الولاية، وفعلًا يصبح السُّجناء بدناء، ولكنَّها بدانةٌ من طعامٍ مكرَّر. تأكل الطَّعام الرَّديء نفسه يومًا بعد يوم، شهرًا بعد شهر،

سنةً بعد سنة، أليس كذلك؟ لقد مررت بذلك، وأعرف أنّني أصبحت لا أستطيع أكل أيِّ شيء. معدتي كانت تهدّدني في كلِّ مرّةٍ حاولت فيها أن آكل الفاصولياء. لماذا؟ لأنَّ معدتي كانت تعلم أنَّ أكل الصُّودا يومًا بعد يوم، شهرًا بعد شهر، سيضعني في موقفٍ محرج. ولم أكن الوحيد. أعرف المئات من الرِّجال الذين حدث معهم ما حدث معي. هل بقيت شهيَّتك للطَّعام مفتوحةً بعد أن أكملت سنةً كاملةً في تناول الطَّعام ذاته؟».

التفت إليَّ منتظرًا إجابتي. أردت أن أكذب لأنّني كنت جاهزًا بردِّي الذي كان على طرف لساني، ولكنَّه نظر إليَّ بتمعُّنٍ لدرجة أنّني أُرغمت على قول الحقيقة.

«كلّا، لا يمكنني القول إنَّها بقيت كذلك. لقد أكلت ما يكفيني لأبقى حيًّا، ولكنَّ الكثيرين يعلمون أنّني كنت على وشك الموت بسبب نحافتي. كلُّ هذا لأنّني مللت تكرار الشَّيء نفسه، الطَّعم نفسه، الرَّائحة العفنة الحامضة نفسها، الطَّعام نفسه، ولكن يبدو أنّك نسيت شيئًا»، أضفتُ، «الكثير من الأشخاص في العالم يعتقدون أنَّ هذا ما يجب إطعامه للسُّجناء. فلنفترض أنّني خصَّصت وقتًا طويلًا لكتابة الشَّكاوى التي تتعلَّق بجودة الطَّعام، وأنّني تكلَّمت وأبحرت في التَّفاصيل لأري النَّاس أنَّ إطعام الكائنات البشريَّة بهذا الشَّكل الذي يدمِّر صحَّتهم سيحوِّل مجتمع السُّجناء إلى رجالٍ ضعافٍ، وسيسلبهم قدرتهم على مقاومة مصاعب الحياة بعد إطلاق سراحهم، ولنفترض أنّني حاولت ربط هذا بالانتهاكات المتكرِّرة، ماذا ستكون النَّتيجة؟ سيُذاع عنّي أنّني عاطفيٌّ، وأنّني رجلٌ يريد تحويل السُّجون إلى منتجعاتٍ ترفيهيَّةٍ، بوجبات 5 نجوم. حتى لو ذكرت الحقيقة كما هي، بغية إظهار ضعف ورداءة نظام السِّجن، وبغية قول الأمور بصراحةٍ، فسيظلُّ هناك الكثير ممَّن سيتمسَّكون برأيهم وسيحاربونني. فلنفترض أنّني رأيت الموضوع من وجهة نظرك أنت وحدك، ونسيت كلَّ المظالم الأخرى، ما نتيجة ذلك؟».

«لا أعلم»، أجاب، «ولكنَّني أعرف أنَّني صرت كومةً من الدَّمار بسبب ذلك الطَّعام أو بسبب محاولتي أكله. وأعرف أن ذلك الطَّعام دمَّر صحَّة كثيرين من الرِّجال غيري.

«وهناك شيءٌ آخر. ماذا عمَّا يتلقَّاه السَّجين من الطَّبيب عندما يمرض؟ طبعًا عملت أنت في المكتب، وأعرف أنَّ الطَّبيب كان دائمًا مستعدًّا للعمل. ولكن ماذا عمَّن يدخل المستشفى في الصَّباح، راجيًا الحصول على بعض الرَّاحة، فيُطرَد؟ دعني أقول لك ما حصل معي. كان لديَّ سنٌّ ملتهبةٌ، وذهبت إلى الطَّبيب في السَّاعة التَّاسعة. «ما الخطب؟»، صاح عليَّ، وكأنَّني اقترفت ذنبًا عظيمًا.

«كان خدِّي متورِّمًا، وكنت خائر القوى، ولكنَّني تماسكت. «لديَّ سنٌّ متورِّمةٌ، أيُّها الطَّبيب»، قلت، «وأريد معالجتها». «افتح فمك»، أمرني ماسكًا ذقني بيدٍ ورأسي باليد الأخرى. نظر إلى سنِّي ثمَّ استدار باتِّجاه أحد مساعديه من المدانين. «فلتقلع هذه السِّنَّ»، أمر دافعًا إيَّاي نحو كرسيِّ العمليَّة. «أوه، لا، لا تقم بذلك» عارضت. «لا أريد قلعها. إنَّها سنٌّ جيِّدةٌ ولم يتبقَّ لديَّ الكثير من الأسنان. كلُّ ما أريده هو معالجتها». «أوه، تريد معالجتها، حقًّا؟ قال بتعجرف. «أين تظنُّ نفسك على أيَّة حال؟ لديك حقًّا ما يكفي من الجرأة لتأتي إلى هنا وتعلِّمني ماذا عليَّ أن أفعل. هيَّا اخرج، اخرج فورًا. عندما تصبح جاهزًا لقلع هذه السِّنِّ ستجدنا هنا نقوم بعملنا على الطَّاولة القديمة التي تعهدها. هيَّا اخرج».

«عندما خرجت توجَّهت إلى المكتب. لم يكن الآمر موجودًا وكان أمين المفتاح يعمل في مكانه. شرحت القضيَّة له. كان لطيفًا للغاية، كما كان دائمًا، ولكنَّه قال إنَّه لا يمكنه التَّدخُّل في عمل الطَّبيب. «هو يدير المستشفى، كما تعلم، وهذا عمله. ولكن ليس عليك الذَّهاب للعمل. اذهب إلى زنزانتك واستلقِ». سبعة عشر يومًا استلقيت في تلك الزِّنزانة أكابد عذاب الجحيم.

اثنان أو ثلاثة من الحرَّاس حاولوا مساعدتي، ولكن لم يُجدِ ذلك نفعًا. لو كان لديَّ المال في المكتب لذهبت ورأيت طبيب أسنانٍ يوم الأحد.

«تذكُر، كان يأتي كلَّ أحدٍ ولكنَّني كنت مفلسًا. في النِّهاية جاء رجلٌ لديه بعض الإلمام بالأسنان. أظنُّه كان طبيب أسنانٍ في السَّابق، وتسلَّل الى زنزانتي وعالجني بسكِّينٍ صغيرةٍ كان يحملها في رباط رأسه. لن أنسى ذلك العذاب ما حييت. إنَّني لأعجب أنَّني في حالةٍ جيِّدةٍ الآن. في ذلك الوقت كنت مستعدًّا لارتكاب أيِّ جريمة. ولكنَّ أبانا الذي نحن ضيوفه اليوم صديقٌ لي، وقد أعطاني عملًا، وعاملني بطيبةٍ، وعلى أيَّة حالٍ، أفضِّل أن أعمل بجدٍّ على أن أجدع أنفي نكايةً بوجهي».

في الوقت الحاليِّ يوجد 1900 سجينٍ في سان كوينتن، مع 120 موظَّفًا لحراستهم، بنسبة 16 إلى 1. بالطَّبع، إنْ تضافر أولئك السُّجناء على تولِّي زمام الأمور بأنفسهم لن يكون بوسع أحدٍ فعل شيءٍ شريطة أن يختاروا القادة المناسبين. ولكن لا يوجد أيُّ خطرٍ لحراكٍ كهذا. هناك دائمًا عدَّة مئاتٍ من الرِّجال الذين تكون مدَّة محكوميَّتهم قصيرةً أو الذين قضوا جزءًا كبيرًا من محكوميَّاتهم فيمنعهم ذلك من المجازفة بخسارة أرصدتهم. وهناك أيضًا عددٌ كبيرٌ ممَّن يعتقدون أنَّهم يسدِّدون دينًا للمجتمع متجاهلين، في أثناء ذلك، أنَّ المجتمع مدينٌ لهم. هؤلاء لا يتركون السِّجن حتى لو تحطَّمت جدرانه وسلاسله وأقفاله وقضبانه وأُلقيَت مفاتيحه.

وأيضًا، لا ننسى أولئك الذين يتحيَّنون دائمًا الفرصة لانتهازها ويساعدون أنفسهم عن طريق تزويد الضُّبَّاط بالمعلومات عن المكائد وخطط الهرب. وعمليًّا، عند أخذ كلِّ شيءٍ في الحسبان نجد أنَّ السُّجناء هم سجَّانو أنفسهم. انتفاضةٌ عامَّةٌ أمرٌ يبدو شبه مستحيل. لم يُخطَّط لأيِّ مؤامرة هروبٍ في سان كوينتن منذ عقود، ولكنَّ خطَّةً من هذا النَّوع وقعت أحداثها في فولسوم في عام 1903، عندما قام ثلاثة عشر سجينًا باحتجاز الآمر وبعض ضبَّاطه

واستخدموهم كدروعٍ بشريّةٍ ومشوا خارجين من دون أن يتعرَّضوا لإطلاق نار.

في الصَّباح الذي حدثت فيه عمليَّة الهرب في فولسوم وصلت الأخبار إلى سان كوينتن في تمام السَّاعة التَّاسعة. الرَّجل الذي كان أمين المفتاح آنذاك دخل مسرعًا من الخارج بالأخبار. «سجن فولسوم خرج عن السَّيطرة وجميع المدانين هربوا!»، صاح وهو يلتقط أنفاسه. «ستَّة حرَّاسٍ قُتلوا وما يقارب الثَّلاثين جُرحوا!». كان شيئًا لم يفعله السُّجناء منذ عدَّة سنوات، وكان الخبر مفاجئًا لدرجة أنَّنا رفضنا تصديقه في البداية. ولكن مع مرور ساعات النَّهار تأكَّد الخبر، ولكن بصورةٍ أكثر دقَّة، وكلُّ السُّجناء في سان كوينتن ساروا شامخين دون أن يشعروا، ربَّما لمعرفتهم أنَّهم يستطيعون، إن أرادوا، القيام بالشَّيء نفسه. السَّجين يتعرَّض للاضطهاد طوال الوقت لدرجة أنَّه لا يستطيع إلَّا أن يشعر بالانتصار لأيِّ مبادرةٍ يقوم بها سجينٌ آخر، فهذا يخلِّصه من بعض الغضب.

ومع أنَّ سجناء سان كوينتن لم يُقدِموا على أيِّ عمليَّة هرب، إلَّا أنَّهم فرضوا أنفسهم بطريقةٍ أخرى، وتقريبًا بشكلٍ مباغت. لقد أضربوا عن العمل، أغلقوا المطحنة وزعزعوا روتين السِّجن بشكلٍ عامٍّ. أوَّل تلك المشاجرات حدثت في أواخر التِّسعينات، واستمرَّت ثلاثة أيَّام. في هذا الإضراب، ارتكب السُّجناء خطأً عندما دخلوا زنزاناتهم في اللَّيل قبل أن يحصلوا على طلباتهم. حُبسوا مباشرةً، وقبل لحظة الإغلاق أصبحوا بلا حيلة. مُرِّر خرطوم إطفاءٍ من زنزانةٍ إلى أخرى، وكان كلُّ رجلٍ يعترض يُرَشُّ لتبريده. ومُنع الطَّعام عنهم، وبالتَّدريج، استسلموا واحدًا تلو الآخر، ووافقوا على العودة إلى العمل. كان سبب هذا الإضراب قلَّة الطَّعام المقدَّم لهم دون أن يُطهى بشكلٍ كامل. تكلَّم السُّجناء في البداية محتجِّين. ثمَّ اشتكى بعض الأفراد ممَّن كانوا أشجع من الآخرين واعترضوا بشكلٍ واضحٍ وصريح، فعوقبوا، وهذا أدَّى إلى تصعيد المشكلة.

بعد أن انتهى كلُّ شيءٍ لوحظ تحسُّنٌ كبيرٌ في نوعيَّة الطَّعام وفي طريقة تحضيره. أمَّا الإضراب الذي وقع في عام 1907، فكان في فترة إمارة إدغار الذي لم يكن بضخامة سابقه، وإن كان جدِّيًا، والنَّتائج التي تبعته كانت مجزيةً بالقدر نفسه إن لم نقل أكثر. لشهورٍ ومرارًا وتكرارًا كان الطَّعام المعتاد، المكوَّن من الفاصولياء والدَّقيق والفواكه المجفَّفة والخضروات، فاسدًا وعفنًا. الباعة الذين كانوا يزوِّدون السِّجن بتلك الأشياء الكريهة اجتمعوا مع لامبالاة المشتري حتى شعروا أنَّهم يستطيعون فعل ما يريدون بالسُّجناء، وكانوا يزيدون كمِّيَّة الطَّعام الذي كان لا يصلح إلَّا للرَّمي. كان الدَّقيق متكتِّلًا، والبطاطا سوداء ولزجة، والتُّفَّاح المجفَّف مليئًا بالدُّود. وكان على السُّجناء أن يرضوا بتلك الأشياء أو أن يموتوا جوعًا.

لعدَّة شهورٍ قبل حدوث الإضراب كان هناك تذمُّرٌ مستمرٌّ على الطَّاولة، والكثير من الشَّكاوى اللَّفظيَّة والخطِّيَّة رُفعت إلى الآمر، ولكن بلا أيِّ نتيجة. ذات يوم، عندما عاد السُّجناء إلى مطحنة الجوت بعد وجبةٍ مروِّعةٍ بشكلٍ استثنائيٍّ، تحوَّلت الخطَّة عند الظُّهر إلى أن يُضرب الجميع عن العمل ويتجمَّعوا في فناء المطحنة. قلَّةٌ من الرِّجال رفضوا الاستماع وظلُّوا يقومون بعملهم. ولكن عندما جاء القادة هدَّدوهم بالعقاب فخافوا وانضمُّوا إلى الحراك. كان قائد الحراك منبوذًا من العالم الخارجيِّ، ولكنَّه كان محبوبًا بين رجال السِّجن. دون علمٍ منهم، كان السُّجناء يمثِّلون الحقَّ الأبديَّ في الاتِّحاد.

في البداية حاول الحرَّاس منع السُّجناء من الإضراب؛ ولكنَّهم أوقفوا محاولاتهم بعد أن تأكَّدوا من ضعفهم أمام قوَّة الاتِّحاد. بعد اجتماع الجميع في الفناء تمَّ الإجماع على مطالب موحَّدةٍ وقرَّر القائد أن يرسلها إلى آمر السِّجن. باختصارٍ، كانت المطالب تنصُّ على أن ينزل الآمر إلى فناء المطحنة شخصيًّا ويعدهم بطعامٍ أفضل ابتداءً من عشاء اللَّيلة. وإن لم يحضر في

غضون ساعة، أو إذا عومل أيُّ واحدٍ من الرِّجال السِّتَّة المختارين لتوصيل الرِّسالة بشكلٍ سيِّئٍ بأيِّ شكلٍ من الأشكال، فإنَّهم سيحطِّمون الآلات في المطحنة. وإن لم يُجدِ ذلك نفعًا فإنَّهم سيحرقون المطحنة.

طبعًا وصل خبر الإضراب إلى المكتب قبل أن يصل المبعوثون السِّتَّة الذين أرسلهم القائد من فناء المطحنة عبر البوَّابات المزدوجة، ولكنَّ المطالب لم تؤخذ على محمل الجد. بعد أن أعلنت المجموعة المكوَّنة من الأشخاص السِّتَّة عن الأمر، اتَّضحت جدِّيَّة المشكلة وقرَّر الآمر النُّزول إلى الفناء كما أمر قائد الاتِّحاد.

رأيت الآمر إدغار والضَّابط رودولف في طريقهما إلى المطحنة. كان وجه الآمر يعتريه الذُّهول. طوال سنوات خدمته كمسؤول سجنٍ مأمورٍ، عندما كان حارس فناء، كان يكره المدانين، ولم يعترف ولو للحظةٍ في حياته بأنَّ للسُّجناء حقوقًا يجب احترامها.

انتظره الزَّمنُ بفارغ الصَّبر حتى يصبح الآمر ليشوي روحه بالحقيقة المذلَّة. أنا متأكِّدٌ من أنَّ احتضار جون إدغار بدأ في تلك اللَّحظة. لو كان الأمر بيده لأرسل مجموعةً من الحرَّاس الإضافيِّين إلى أسوار فناء المطحنة وأمرهم بإطلاق النَّار بشكلٍ همجيٍّ على الحشد.

ولكنَّ تصرُّفًا كهذا لن يعني دمار المطحنة مع أجزاءٍ أخرى من السِّجن فحسب، بل أيضًا الفضيحة، فضيحة عجزه. بعد عمرٍ من الفخر لا يمكنه أن يتخيَّل نهايةً كهذه. أن يبتلع القليل من المرارة بصمتٍ كان أفضل له، أفضل بكثيرٍ، من أن يجازف بفضيحةٍ تنكِّل بكفاءته.

وفوق ذلك كلِّه، على الحراك أن يبقى بعيدًا عن الصُّحف، مثلما بقي الكثير من قضايا السِّجن بعيدًا عنها في الماضي، ومثلما سيبقى دائمًا بعيدًا عنها في المستقبل.

لذا ذهب مع رودولف إلى المطحنة. كان القيام بذلك أمرًا مثيرًا للأعصاب بالنِّسبة إليه، ولكن لم يكن ثمَّة بديل. ممثِّل المضربين أوضح كلَّ الشُّروط، وخضع الآمر لها من دون مقاومة. وقد وثق السُّجناء بكلمته رغم تطرُّفه المعهود وعادوا للعمل.

وفي ذلك المساء حصل تغييرٌ في وجبة الطَّعام، وفي تلك اللَّيلة قُدِّم عشاءٌ متكامل. الكثير من الطَّعام الذي كان موجودًا تمَّ إتلافه وتدميره، وأخبرت إدارة السِّجن الباعةَ بأنَّه ستتمُّ محاسبتهم في المستقبل. وأعطى الآمر وعدًا بألَّا يتعرَّض أيُّ رجلٍ من قادة الإضراب لأيِّ اضطهاد. وهذا فعلًا ما حدث.

ولكن خلال السَّنوات التي تبعت تلك الحادثة، وبعد وقتٍ طويلٍ من نسيان الإضراب، أُرسل بعض هؤلاء الرِّجال إلى المكتب بسبب إخلالهم بالقوانين، وهناك حصلوا على «نصيبهم». الخطأ الذي اقترفه الذين أضربوا هو أنَّهم لم يطالبوا بملازم فناء أكثر إنسانيَّةً مع مطالبتهم بالطَّعام الجيِّد. لو فعلوا ذلك، لو فكَّروا بأكثر من معدتهم، لكان سجن سان كوينتن في طريق التَّقدُّم نحو تحقيق الهدف الذي لأجله يجب الإبقاء على السُّجون ـ ألا وهو حماية المجتمع من خلال إعادة تأهيل مَن يُخطئ من أفراده.

ولكنَّ أحدهم علَّق بذكاءٍ قائلًا إنَّ هناك تسع وجباتٍ فقط تفصل ما بين البشريَّة والفوضويَّة.

لعدَّة سنواتٍ كان متوسِّط عدد السُّجناء الذين يدخلون سجن سان كوينتين أقلَّ من اثنين في اليوم، ولكن خلال السَّنتين الماضيتين ارتفع هذا المتوسِّط إلى نحو ثلاثةٍ في اليوم. طبعًا هناك دائمًا درجةٌ معيَّنةٌ من الفضول تتولَّد تجاه الوافدين الجدد. عندما يخطو سجينٌ جديدٌ إلى داخل جدران السِّجن ويسير عبْرَ الحديقة إلى المكتب، لا يملك السُّجناء الذين يعملون هناك إلَّا أن يُدلوا بتخميناتهم حول مدَّة حكمه وطبيعة جرمه.

كقاعدةٍ عامَّةٍ، تُعرَف الولاية التي أُدين فيها حالما يخطو إلى داخل السِّجن، لأنَّ الضُّبَّاط من الولايات المختلفة شخصيَّاتٌ معروفة.

ولكنَّ هذا الفضول ليس تجاه السَّجين نفسه بل تجاه ملابسات ظروفه وقضيَّته، أمَّا السُّجناء الجُدُد أنفسهم فلا يُقابَلون بأيَّة مشاعر. هذا طبعًا بسبب اعتيادهم الأمر، وليس بسبب قسوتهم.

يتمتَّع السَّيِّد سوليفان، أمين المفتاح الحاليُّ، والذي مهمَّته استلام السُّجناء الجُدَد ودمجهم بمجتمع السِّجن، بلطفٍ كبيرٍ ونباهةٍ مبهرة. وقد عمل كضابطٍ في سان كوينتن لعدَّة سنوات، ومع أنَّ طبيعته هادئةٌ ومسالمةٌ، إلَّا أنَّ لديه نظرةً تسبر أغوار الشَّخصيَّة الحقيقيَّة لمن يقف أمامه من السُّجناء وهو يعرف نقاط قوَّتهم ونقاط ضعفهم أكثر من أيِّ رجلٍ آخر في السِّجن. نادرًا ما يخطئ في تقديراته لشخصيَّات الرِّجال، ومع هذا فهو دائمًا ما يتردَّد قبل أن يقول أيَّ شيءٍ سيِّئٍ لأيِّ سجين.

من الغرائب المعروفة عنه أنَّه قلَّما يُظهر أيَّ اهتمامٍ تجاه الوافدين الجُدُد ولا يكلِّمهم أبدًا. ومع هذا، دائمًا ما كان الرِّجال يشعرون أنَّه رجلٌ طيِّبٌ ويفهمهم. في كلِّ سنواتي التي قضيتها في سان كوينتن لم أسمع أبدًا أيَّ سجينٍ يقول أيَّ شيءٍ سلبيٍّ عن السَّيِّد سوليفان. هذه صفةٌ استثنائيَّةٌ ومميَّزةٌ جدًّا، مميَّزةٌ أكثر مما يتَّضح في الواقع. فمهما يكن الحارس عادلًا أو متعاطفًا، هناك دائمًا شخصٌ ما مستعدٌّ للإيقاع به؛ ليس لشخصه، ولكن ربَّما لأنَّه يمثِّل القانون.

بعض السُّجناء يكرهون القانون، ويشمل هذا الكره أيَّ شيءٍ أو شخصٍ يشترك في تطبيقه. ومع ذلك، فإنَّ طبيعته اللَّطيفة، وعدالته المطلقة، وقدرته على التَّقويم من دون أن يغضب أو ينفعل، وتعاطفه مع من يستحقُّون شفقته ممَّن يُساقون إليه للعقاب عندما يكون هو المسؤول عن السِّجن الدَّاخليِّ، جعله محبوبًا عند كلِّ السُّجناء.

لسنواتٍ قبل أن يصبح أمين المفتاح كان مسؤولًا عن صالة الطَّعام خلال ساعات الطَّعام. عندما كان الرِّجال يملؤون الممرَّ ويرون السَّيِّد سوليفان، كانوا ينادونه بدان الكبير ولطالما كانت نظرتهم تجاهه مليئةً بالاحترام. لم تكن هناك أيَّة حوادث شغبٍ في تلك الفترة. وعندما كان يغيب عن العمل كان سلوك السُّجناء يتغيَّر وتظهر المشاكل.

وعندما استلم وظيفة أمين المفتاح وأصبح هناك رجلٌ آخر مسؤولٌ عن صالة الطَّعام صارت المشاجرات وأعمال الشَّغب تحدث دائمًا. هذا حدث بعد أن أصبح جون إدغار آمرًا في السِّجن. أصبح الوضع سيِّئًا جدًّا لدرجة أنَّ الآمر ذهب بنفسه إلى السَّيِّد سوليفان وطلب منه متابعة أعماله في صالة الطَّعام في أثناء الوجبات، إضافةً إلى وظيفته كأمين المفتاح. وحصل ذلك فعلًا، وتحسَّن انضباط السُّجناء مباشرةً. لم أعرف شخصًا حقَّق نجاحًا في السِّجن كالذي حقَّقه هو.

مسؤوليَّات أمين المفتاح متعبةٌ ودقيقةٌ، ولطالما كان مشغولًا للغاية مع أنَّ أجره كان أقلَّ بكثيرٍ من أجور الكثير من الضُّبَّاط الآخرين ممَّن لم يكن لديهم الكثير ليقدِّموه. كان أحيانًا يفتح ويقرأ كلَّ الرَّسائل التي كانت تصل إلى البريد وكانت ما بين ثلاثمائة وأربعمائة رسالةٍ يوميًّا، وكان يستقبل جميع السُّجناء الجُدُد الواصلين ويأخذ قياسهم وفقًا لنظام بيرتيلُّون، ويأخذ بصمات أصابعهم. كما كان يستلم الأمانات والمال المرسَل إلى السُّجناء أو الذي يحتفظ به السُّجناء في أرصدتهم، ويسلِّمه للآمر كلَّ يوم. وفوق ذلك كان مسؤولًا عن السِّجلَّات التَّاريخيَّة والفرديَّة ومدخلات وصور جميع السُّجناء الواصلين إلى سان كوينتن. وهو الضَّابط المساعد في قسم النِّساء. وفي غياب حارس الفناء كان يتولَّى إدارة السِّجن بنفسه كضابطٍ بديل. ومع ذلك لم أره قطُّ يفقد صبره، ولم أسمعه في يومٍ من الأيَّام يسيء لأيِّ سجينٍ ولم يتصرَّف بأيِّ تهوُّرٍ أو تسرُّعٍ ولو مرَّةً في حياته. أضف إلى ذلك كلِّه حسَّه الفكاهيَّ

الرَّائع، وروحه المرحة، وأخيرًا، وأهمُّ من هذا وذاك، أنَّه نادرًا ما كان يودِّع سجينًا خارجًا دون أن يحمِّله بكلمات التَّشجيع ويحدِّثه عن روح الإرادة والخير ويتمنَّى له التَّوفيق.

الفصل الثَّلاثون

وأنا أكتب عن الرَّجل الذي عانى آلام السِّنِّ الملتهبة تذكَّرت قصَّة سجينٍ آخر رأيته قبل بضعة أيَّام فورَ خروجه من سان كوينتن الذي قضى فيه سنتين. ومع أنَّ وجهه لم يكن مألوفًا لي، إلَّا أنَّني عرفت أنَّه كان سجينًا من أوَّل لحظةٍ رأيته فيها. القبَّعة السَّوداء الرخيصة، والملابس الرَّثَّة، والحذاء البالي، كلُّها علاماتٌ واضحة.

ولكن إضافةً إلى تلك الملاحظات الماديَّة كانت تعابيره غاضبةً وحذرةً وهذا ما يُلاحَظ عادةً على أولئك الذين خرجوا للتَّوِّ من السِّجن. تبيَّن أنَّه كان مفلسًا ولم يستطع الحصول على عمل. كانت هناك ثلاث أو أربع كراسٍ شاغرةٍ في المكتب، ومع ذلك لم يجلس على أيٍّ منها بل بقي واقفًا يمرِّر أصابعه على قبَّعته بقلق. لم يدخل إلى الغرفة بل بقي واقفًا أمام الباب وكأنَّه أراد أن يضمن الهروب في حال أراد أحدهم ضربه. «لقد خرجت قبل ثلاثة أيَّام»، قال مجيبًا على سؤالي، «وكنت بلا حظٍّ، ولكن إن استطعت الحصول على عملٍ أستطيع القيام به، فسأفعل كلَّ ما بوسعي لإتقانه».

«ما عملك؟ ألديك صنعةٌ؟»، سألته.

«لا، ليس لديَّ أيَّة صنعة. كنت ملاكمًا قبل أن أبدأ بالشُّرب وأقع في المشاكل. انظر، ها هي صورتي»، أخرجَ من جيب سترته صورةً لشابٍّ بسروالٍ قصيرٍ يحمل درعًا أمريكيًّا حول وسطه. «كنت ملاكمًا بحقٍّ في تلك الأيَّام»، قال بفخر. «كنت ألاكم وأفوز بين أصحاب الوزن الخفيف. كان هذا

كلُّه قبل أن يلمس الشَّراب فمي. ولكن لا أظنُّ أنَّني سأعود إلى مجدي السَّابق مرَّةً أخرى. لديَّ التهابٌ بالمفاصل ولا أستطيع المشي بسهولة. زجُّوا بي في الزِّنزانة حتى اليوم الذي خرجت فيه. كما ترى، لا أستطيع التَّحرُّك بسرعةٍ مع التهاب مفاصلي، ولذا ذهبت إلى المسؤول في المطحنة وطلبت منه إعطائي مهمَّةً تناسبني. قال لي إنَّني يجب أن أحصل على إذن الطَّبيب. ذهبت إلى الطَّبيب وقلت له إنَّني مريض. رجوته كثيرًا ولكن بلا جدوى. أهانني وكذَّبني، فقلت له: «حسنًا، سأذهب إلى الآمر». أمسكني من رقبتي، وقبل أن أفهم أيَّ شيءٍ أمسك بي ستَّة عاملين في المشفى وقيَّدوني وضربوني ورموني خارجًا. ذهبت إلى الآمر، ووضعني في السِّجن الانفراديِّ سبعة عشر يومًا لتهجُّمي على الطَّبيب. وهذه هي التُّهمة التي واجهوني بها. رفضت التُّهمة ورفضت العقاب، ولكن لم يكن هناك مهربٌ من بطشهم. في آخر بضعة أسابيع مرضت في معدتي. ذهبت إلى الآمر ورجوته أن يعفيني من العمل حتى أستعيد عافيتي وأستجمع قواي لكي أتمكَّن من العمل بالجدِّ المطلوب. كدت أقع على الأرض فإذا به يدفعني إلى العمل، وقال: «إن اقتربت منِّي مرَّةً أخرى فسأزجُّ بك في الحفرة لبقيَّة محكوميَّتك». كنت أتألَّم من ظلمهم ومن مرضي فلم أستطع الاستمرار في العمل، فزجُّوا بي في السِّجن الانفراديِّ حتى انتهت محكوميَّتي. طلبت أن أرى طبيبًا بعدما رُميت هناك فأجاب الآمر: «كلَّا، أنا الطَّبيب». فبقيت بلا علاجٍ حتى السَّاعة التَّاسعة من اليوم الذي خرجت فيه من السِّجن. حصلت على بعض المال وذهبت لرؤية طبيبٍ متخصِّص. تقرير الطَّبيب موجودٌ في الملفِّ الذي في حوزتي. مفاده أنَّني مصابٌ بالتهابٍ في المفاصل وأعاني مشكلةً في القلب تبيِّن حدوث تسمُّمٍ سابقٍ في الدَّم».

لم يُرِد النِّظام المخاطرة بوصول أيٍّ من هذه الوقائع إلى الصِّحافة. هناك الكثير من التَّفاصيل لم أكتبها، والكثير ممَّا كتبته خفَّفت من حدَّته توخِّيًا للعدل، أو لكيلا أعرِّض القرَّاء لمشاعر سلبيَّةٍ قويَّة. وفي كلِّ مرَّةٍ انتقدت

فيها أشخاصًا وأفرادًا معيَّنين لم أكن مدفوعًا إلى ذلك برغبةٍ شخصيَّةٍ، ولم أكن أنوي إيذاء أحدٍ أو الانتقام من أحد. حان الوقت لتتوقَّف هذه المغالاة في التَّعدِّي على السُّجناء بسبب عدم النَّظر إليهم كبشر، وبسبب النَّظر إلى السُّجون على أنَّها مكانٌ للعقاب والإهانة بلا حدود.

في كلِّ أنحاء الولايات المتَّحدة نجد أنَّ النَّاس والرَّأي العامَّ باتوا مهتمِّين بالسُّجناء، وصاروا يطالبون بطرقٍ إنسانيَّةٍ ومنطقيَّةٍ أكثر. وقد شوهدت بعض النَّتائج فعلًا. سجون ولاية كاليفورنيا تُدار اليوم بشكلٍ أفضل بكثيرٍ ممَّا كانت عليه قبل أربع سنوات، وقد تحسَّن الحال الآن وأصبح أفضل بكثيرٍ ممَّا كان عليه قبل سنوات. مُنع عقاب السُّترة في سان كوينتن، وفي اجتماعٍ قريبٍ لمجلس مدراء السُّجون، تمَّ إلغاء القانون الذي يحتِّم على السَّجين الحصول على 25 دولارًا قبل خروجه من السِّجن. أصبح للسَّجين الفقير المنبوذ اليوم فرصةٌ في إنقاذ نفسه كما الآخرين. في الجلسة الثَّانية للسُّلطة التَّشريعيَّة مُنعت كلُّ أشكال التَّعذيب والقتل في السُّجون.

وكما أوضحت في هذا الكتاب، كان الآمر هويلي في سان كوينتن الأكثر كفاءةً من بين كلِّ الذين استلموا المكتب هناك. لقد حارب باستمرارٍ ليحسِّن من أوضاع السِّجن وقد نجح بالتَّدريج في التَّقليل من كلِّ أشكال التَّعذيب والإساءة. أعطه عشر سنواتٍ إضافيَّةٍ، مع مجالٍ لتطبيق التَّحسينات، وسيكون أفضل آمرٍ في أمريكا بأكملها. ولكن حتى يصيب هذا الشَّرف والتَّميُّز الذي يصبُّ الفخر في صدر أيِّ رجل، عليه أن يكون إيجابيًّا. وحتى يستطيع الوصول إلى أفضل النَّتائج، على القوانين أن تتغيَّر وعلى النِّظام الحاليِّ أن ينتهي، وأيضًا على كلِّ الضُّبَّاط والحرَّاس الذين يعملون حاليًّا في السِّجن أن يستحقُّوا منصبهم وأن يتلقَّوا الأجر على هذا الأساس. بالتَّحدُّث مع مسؤولٍ في سانتا كروز قبل فترةٍ قريبةٍ، علمت أنَّ أعضاء السُّلطة التَّشريعيَّة يعملون على استخدام تأثيرهم في منح الوظائف للسُّجناء العاطلين عن العمل.

منصبٌ كهذا يجب أن يذهب لأشخاصٍ لديهم التَّأثير والقدرة على صنع التَّغيير.

تحت هذا النِّظام تولَّى عددٌ كبيرٌ من الرِّجال السَّيِّئين مناصب كبيرةً، ووقعت بين أيديهم مصائر الكثير من البشر. هذا ليس عدلًا، لا للسُّجناء، ولا لدافعي الضَّرائب. يومًا ما سيوقن النَّاس أنَّ الرَّجل الذي يستلم رئاسة السِّجن عليه أن يكون بكفاءة الرَّجل الذي يستلم رئاسة الجامعة لأنَّ كلَّ جانبٍ من حياة الإنسان ينحصر بين أربعة جدرانٍ في أيِّ مؤسَّسةٍ كانت. ويومًا ما لن يلزم وجود جدرانٍ من الطُّوب وأسوارٍ على الإطلاق. لا يوجد جدرانٌ حول السُّجناء المعفوِّ عنهم، ومع هذا فإنَّ 85 بالمائة منهم صالحون وتحيط بهم جدران الخُلق والإحسان.

ينبغي لمؤسَّسات الولاية، خاصَّةً سجون الولاية، أن تكون مصدر دخلٍ وليس مصدر خسائر. يمكن تحقيق ذلك بوضع منهجٍ علاجيٍّ للسُّجناء كأفراد. ثبت أنَّ من السَّهل انتقاد الأوضاع الحاليَّة ولكن كيف لنا أن نطمح إلى نظامٍ أفضل إذا لم ننشر المشاكل والقصص المؤلمة؟

إنَّ هدف هذا الكتاب ليس وصف العلاج، بل تِبيان ضرورته. لم يُكتب بأسلوبٍ هجوميٍّ، ولكن ببساطةٍ على دافعي الضَّرائب وذوي الضَّمير في المجتمع معرفة المسؤوليَّة الملقاة على عاتقهم. إن كانوا راضين عن الصُّورة السَّيِّئة كما هي، فإذن لن يُصاب أحدٌ منهم بأدنى ضرر. أمَّا إذا اتَّضح أنَّ هذه الأوضاع لا ترضيهم، فسيكون لهم الحقُّ في تغييرها وسيقع على عاتقهم هُم هذا التَّغيير.

هناك عددٌ من السُّبل يمكن من خلالها صنع التَّغيير، وعددٌ من الأنظمة التي يمكن للسُّجناء أن يستفيدوا منها ويحوِّلوا بها أنفسهم إلى مواطنين مفيدين في أثناء دفعهم غرامة جريمتهم. نظام نيوزيلندا على الأغلب هو الأفضل، ولكن

بسبب جهلي بتفاصيله لا أستطيع شرحه بدقَّة. إلى جانب هذا النِّظام، يجب ألَّا تحدَّد المحكوميَّة بسنواتٍ ثابتةٍ، مع استمرار العمل بقانون العفو، قانون عفو يُنظَر من خلاله إلى السَّجين استنادًا إلى محاسنه، ويجب أن تكون هناك خطَّةٌ صناعيَّةٌ يستطيع من خلالها السَّجين أن يدعم عائلته وهو في السِّجن.

في مباني السِّجن الحاليَّة المصمَّمة لاستيعاب 1600 سجينٍ، إضافةً إلى المباني الجديدة، سيكون بمقدور سجن سان كوينتين استقبال 3500 سجينٍ، وزد ألفًا لسجن فولسوم، فيصبح لدينا 4500 مدان. طبعًا هذا لا يحلُّ المشكلة! هناك قرابة 3000 مدانٍ في كاليفورنيا الآن. هل سيكون من الضَّروريِّ أن نزيد 1500 عليهم؟ ليست الزِّنزانات الجديدة ما نحن في حاجةٍ إليه، بل نظامًا جديدًا بلا زنزانات. لم يستفد كائنٌ بشريٌّ قطُّ من الحبس. خلق اللّٰه البشر للهواء الطَّلق، لضياء الشَّمس والعمل.

مختتمًا هذا الكتاب أريد أن أتوجَّه ببضع كلماتٍ إلى الضَّابط رودولف والآخرين ممَّن انتقدتهم ليس بشكلٍ شخصيٍّ ولكن بشكلٍ مهنيٍّ كممثِّلين لهذا النِّظام. هناك سجينٌ أُطلق سراحه حديثًا من سان كوينتن يقول إنَّ الضَّابط رودولف أصبح يعامل السُّجناء الآن بتقدير، وإنَّه لم يعد يرسلهم إلى السِّجن الانفراديِّ أو يسلبهم امتيازاتهم لأسبابٍ تافهة، خاصَّةً عند ارتكابهم لأوَّل خطأ. بدلًا من ذلك بات يعطيهم فرصةً ليقوِّموا أنفسهم. هذه هي التَّجربة التي تطبَّق في السِّجن ويسري أثرها في مجتمع السِّجن بصورةٍ عامَّة. وقد تمَّ فعلًا تحقيق الانضباط.

قبل بضعة أسابيع وصلتني رسالةٌ مفادها أنَّ رجلًا مثلي متَّهمًا بجريمتين لديه جرأةٌ كبيرةٌ ليظنَّ أنَّه يستطيع محادثة أشخاصٍ لم يخرقوا القانون من قبل ويخبرهم كيف يجب عليهم أن يقوموا بعملهم. من وجهة نظرٍ تنطلق من المدرسة القديمة، هذا صحيح، أنا جريءٌ فعلًا، ولكن من وجهة نظر المدرسة الجديدة، بأمَّهاتها ونسائها اللَّواتي يجب أن يكون لديهم صوتٌ في

تقرير الأمور، ومع استيقاظ جوهر المسيحيَّة الصَّادق في قلوب الرِّجال، فإنَّ هذه الجرأة تصبح صفةً مطلوبة، وأنا سعيدٌ بامتلاكها. وأتمنَّى أن تبقى معي ما حييت، كما أتمنَّى لهذا الكتاب، بشهاداته الصَّادقة على واحدةٍ من أتعس مراحل الإنسان، أن يوقظ في الكثير من الرِّجال والنِّساء حسَّ التَّفهُّم والرَّغبة القويَّة في تقديم المساعدة.

النِّهاية



أحدثَ هذا الكتاب الذي صدر لأوّل مرّةٍ عام ١٩١٢م ثورةً كبيرةً في المجتمع الأمريكيّ آنذاك، قالباً موازين القوانين المطبّقة في السّجون الحكوميَّة، ومُشعِلاً أوَّل فتيلٍ نحو المطالبة بإلغاء عقوبة الإعدام ومنع استخدام وسائل التَّعذيب في السُّجون، ففيه تحدَّث الصَّحفيُّ والسَّجين السَّابق (دونالد لاوري) لأوَّل مرَّةٍ بصوت جميع السُّجناء الذين عانوا الظُّلم والاضطهاد طوال فترة سجنهم، وأورد في هذا الكتاب العديد من القصص والوقائع التي حدثت بالفعل وكان شاهداً عليها أو حاضراً خلال حدوثها في سجن سان كوينتن في ولاية كاليفورنيا. ومع أنَّ الكتاب يصنَّف في باب السِّيرة الذَّاتيَّة وأدب السُّجون، إلَّا أنَّه مكتوبٌ بأسلوبٍ قصصيّ مليءٍ بالحوار والتَّفاعل المباشر مع القارئ. ينطلق المؤلف من مبادئ إنسانيَّةٍ وتقدُّميَّة، رافضاً مبدأ العقاب لأجل العقاب، انطلاقاً من نظرته إلى السِّجن كمؤسَّسةٍ إصلاحيَّةٍ من الدَّرجة الأولى تهدف إلى صناعة رجالٍ صالحين ومفيدين للمجتمع.



ISBN 978-9-9226438-5-4
9 789922 643854
daralrafidain
dar.alrafidain
daralrafidain دار الرافدين
www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
Dar ALRafidain دار الرافدين